

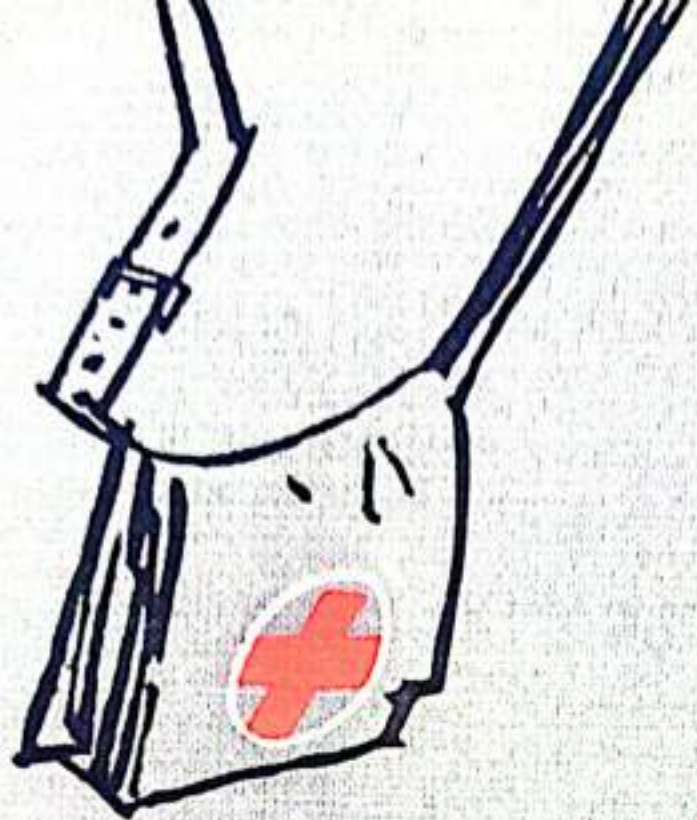
7P/383-

6.3



بيوري غارم

القضية
التي
تجند بها



بیوری غریت

القضیہ
القوی
تجددیت



يورى غرمن (ولد عام
١٩١٠)، كاتب ومؤلف مسرحى
وسينمائى سوفىيى معروف.
ترجمت كتبه الى كثرة من اللغات
الاجنبية، والافلام المقتبسة من
مؤلفاته تعرض على كثرة من
شاشات العالم.

ومن احب مواضيع يورى
غرمن، عمل الاطباء النبيل. فى
سنوات العقد الرابع، نال جائزة
عن «الدكتور كالوجنى» وهو
سيناريو سينمائى كتبه عن طبيب
قروى اعاد البصر الى بنية عمياء،
كما نال جائزة عن فلم عن الجراح
الروسى البارز الكسندر بيروغوف.

To sarah.

لأنني لا أنسى فرحتك يوم أهديتك هذا الكتاب.

دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية
موسكو

ЮРИЙ ГЕРМАН

ДЕЛО,
КОТОРОМУ
ТЫ СЛУЖИШЬ





بيوري غرمت

القضية
التي
تجند معها

ترجمة: غالب طعمة فرمان

Ю. ГЕРМАН

ДЕЛО, КОТОРОМУ ТЫ СЛУЖИШЬ

На арабском языке

محتويات

الفصل الاول

٩	علوم طبيعية
٢٠	الاب يعود
٢٥	لا هياكل للبيع
٣٥	في وسع الانسان ان يفعل كل شيء

الفصل الثاني

٥٠	حمى التيفوس
٦١	الزوجان
٧٣	الابنة

الفصل الثالث

٨١	فطر
٨٧	« الاباء والبنون »
٩٩	الطالب

الفصل الرابع

١٠٨	• • • • •	هدايا
١١٨	• • • • •	الجد
١٢٣	• • • • •	بعد المسرح

الفصل الخامس

١٣٢	• • • • •	قصص بولونين
١٥٠	• • • • •	مناقشات وخلافات
١٥٨	• • • • •	«الزمن يمضي مطلق السراح...»

الفصل السادس

١٧٣	• • • • •	طلاق
١٨١	• • • • •	نحن، الجنود الحمر
١٨٦	• • • • •	بيتش العجوز

الفصل السابع

٢٠١	• • • • •	الاسعاف العاجل
٢١٠	• • • • •	البروفيسور جوفتياك نفسه
٢١٨	• • • • •	بوستنيكوف
٢٢٧	• • • • •	لنا طريقان مختلفان
٢٣٩	• • • • •	انا اشرب!

الفصل الثامن

٢٥٤	• • • • •	حديث ليلي
٢٧٧	• • • • •	اذهب الى «طائرة» جورني يارا!
٢٩٤	• • • • •	عبارات حادة
٣٠٥	• • • • •	القرحة السيبيرية

الفصل التاسع

٣٢٢	• • • • •	« زميل »
٣٣٣	• • • • •	ايتها الحياة الحلوة، مرحبا بك !
٣٤١	• • • • •	فيم السعادة ؟

الفصل العاشر

٣٦٤	• • • • •	دوديك وزوجته
٣٨٤	• • • • •	استشهد الاب
٣٩٢	• • • • •	متزمت ومعدب
٤٠١	• • • • •	انا تعبنة منك

الفصل الحادى عشر

٤٠٨	• • • • •	صوت النفير
٤٢٧	• • • • •	بعض التغيرات
٤٤٦	• • • • •	انتم ناس عجيبون !

الفصل الثانى عشر

٤٥٧	• • • • •	اليمين
٤٦٧	• • • • •	العمل الاول !
٤٧٥	• • • • •	وداعا، يا فاريا !
٤٨٥	• • • • •	فولوديا فى الخارج !

الفصل الثالث عشر

٤٩١	• • • • •	الطريق الى كخارا
٤٩٨	• • • • •	الطبيب العظيم
٥١٢	• • • • •	الامور تسو عند الطبيب العظيم

الفصل الرابع عشر

- كيف حال قطعانك ٥٦١
هذه طريقة العمل اذن! ٥٦٨
وحده مرة اخرى ٥٥٥

الفصل الخامس عشر

- الساحر ٥٦٩
فيما اذن فحوى الحياة! ٥٨٤
الموت الاسود ٥٩٧
القضية التي تخدمها ٦١١



الفصل الاول

علوم طبيعية

حدث ذلك عندما كان في الصف التاسع. اذ فجأة فقد فولوديا الاهتمام بكل شيء، حتى بحلقة الشطرنج فقد انفرط عقدها بدونه على الفور ما ان تخلى عنها، وحتى بمدرس صفه سمورودين الذي كان على الدوام يعتبر فولوديا اوستيمنكو احسن تلامذته، وحتى بفاريا ستيبانوفا التي تجول معها، قبل زمن وجيز، خلال عيد تشرين الثاني، على الضفة المنحدرة لنهر «اونجا» الهادى، البطيء. الحياة، المرححة والممتعة المندفعة الصاخبة، الفاتنة في كل شيء صغير او كبير، وكان قد

توقفت فجأة وسكن كل شيء حول فولوديا مصغيا
بتوجس ويقظة، وكانما يقول: «لنر ماذا سيحدث لك
بعد هذا يا ولدا!».

ومع ذلك، لم يحدث شيء في الواقع على ما يبدو.
وبكل بساطة، ذهب هو وفاريا الى السينما. وتساقط
في تلك الليلة رذاذ الخريف المألوف. وتحدثت فاريا
بهراءها المعهود عن «فن المسرح» (هى نجمة مسرحية
في حلقة التمثيل للهواة بمدرستها). وتجولت على
الشاشة دجاجات انيقات المظهر من نسل خاص. ثم ركز
فولوديا كل انتباهه، حتى حبس انفاسه وقال لفاريا:
- اسكتي!

فسالت هذه في دهشة:

- ماذا دهاك؟

فهمس:

- ألا تسكتين؟

لقد ظهر عالم على الشاشة، وكان يملأ حقنة بسائل
معين. وكان لهذا الرجل جبهة بارزة، وشفتان دقيقتان
ووجه هزيل. ولم يكن في منظر هذا العالم الكبير شيء جذاب
او «فاتن» كما تحب والدة فاريا ان تقول. بل حتى لم
يكن يقوم بعمله بشكل ماهر جدا. ولعله كان متضايقا
لأنهم يلتقطون صورته للسينما. فأناس من هذا الصنف
يكرهون أن تلتقط لهم الصور. والآن احاط به
المصورون!

وكانت فاريا كلها تعاطف مع الارنب الرومى الذى
كان تحت التجربة:

- يا عزيزى الصغير المسكين! - قالت هذا الوقت
على فولوديا نظرة حذرة.

ولكنه لم ينتبه. بدا وكأنه يستضاء من داخله،
وهو ينصت الى الرجل ذى الطاقة والرداء البيضاوين
يقص على المستمعين بهيئة رزينة قصة اليسكولابيروس
العجوز الحكيم وابنته باناسيا.

وشكت فاريا فى همس:

- انا لا افهم شيئا... اى شىء، فهل أنت فاهم يا

فولوديا؟

وهز رأسه. وبعد ذلك، حين بدأ الفلم الرئيسى،
جلس عابسا يقضم اظافره مفكرا. ولم يبتسم مرة بالرغم
من ان الفلم كان فكاهيا. وكانت له قدرة على أن يعزل
نفسه عن الناس فجأة، وأن يترك عالم القيل والقال الى
آخر للتأمل، وكأنه اختفى بجحر خاص به. وفى تلك
الليلة ايضا، حين اوصل فاريا الى البيت بعد العرض، لم
يكن معها، بل كان مع نفسه، وعلى انفراد بها.

- عم تفكر؟ - سألته فاريا.

- عن لا شىء، - تتمم فولوديا وهو غارق فى افكاره

كلها.

قالت فاريا:

- يا للمرح ان اكون معك! يا للطرفة الهائلة!

أخشى ان تنشق خاصرتى من الضحك!

- ماذا؟ - سألها فولوديا.

وهكذا انفصلا زهاء ثلاثة اشهر. وكانت فاريا
سريعة التأثر وسهلة التأذى. وكان هو قد دخل فجأة فى

دنيا مجهولة من البحث المتحير الذهني واكتشافات الحقائق المكتشفة منذ امد طويل، دنيا الليالي الساهرة، دنيا المعارف اللامتناهية التي كان فيها لا شيء، كان قشة، كان ذرة من تراب جرفتها عاصفة. وكان يتراخى ويدور وسط كلمات كان عليه ان يستفسر عن معانيها في الموسوعة دون انقطاع. وكان يشق طريقه بين الكتب التي لا يكاد يفقه منها شيئا؛ كانت ثمة ساعات يكاد يبكي فيها شعورا منه بعجزه، وكانت ثمة لحظات يخيل اليه فيها انه فهم، وانه الهم بالشيء، وانه توصل الى فحواء، لو أن هذا الفصل المعين، او هذه الصفحة بالذات، وكل ما ينبغيه الآن هو ان ينفذ أعمق، ويصبح كل شيء رائعا. غير أنه كان ينغمر في الكتابة ثائية، فهو ما يزال، قبل كل شيء، صبيا، «سخيفا»، كما تعودت عمته اغلايا ان تسميه.

— ما هذا؟ — سألته ذات مرة في ليلة شديدة البرد وقد دخلت «مغارة» فولوديا، وهو الاسم الذي أطلق على غرفة فولوديا الضيقة منذ امد بعيد.

— اين؟ — سأل فولوديا وهو يتنزع نفسه من كتابه بجهد.

— ها هي ذى! هل ولعت بشراء اللوحات؟

— هذه ليست لوحات، هذه نسخة من لوحة الرسام رمبراندت «درس في علم التشريح للدكتور تولبيوس».

قالت اغلايا وهي تهز رأسها:

— اوده، هكذا. ولكن لم هذا «الدرس في علم التشريح» يا سخيفى؟

— السبب في رغبتى في هذا «الدرس في علم التشريح»
ايتها العزيزة اغلايا بتروفنا، هو اننى ساكون طبيبا! —
اعلن فولوديا وهو يتمطى بقوة، ويتشاءب بلذة، — هذا ما
قررتة!

قالت اغلايا مقترحة:

— اصف الى قولك «في الوقت الحاضر». لان
القرارات في سنك كثيرا ما تتغير. اذكر جيدا انك كنت
تريد ان تكون طيارا اولاً، ثم مخبرا سرىا.
ولم يقل فولوديا شيئا، وابتسم. نعم. انه ذكر شيئا
من هذا القبيل.

سألت اغلايا:

— هل كان تولبيوس هذا طبيبا ماهرا؟
قال فولوديا وهو يرمق النسخة التى تحلت الوانها
بفعل الزمان:

— كان هولنديا. فان تولب. كان طبيبا للفقراء،
واستاذ علم التشريح في امستردام. وغالبا ما يصور وهو
يحمل شمعة وشعار الاطباء: «احرق نفسى وأضىء
للآخرين». وهذا الشعار اصبح الآن مثلاً.

قالت اغلايا:

— شىء جميل! كم من الاشياء تعلمتها! ومغارتك
مليئة بالكتب...

وفتحت اطلسا تشريحيا كان قد استعاره فولوديا
من المكتبة وارتعدت:

— اوه! اية فظاعة! لنذهب ونتناول الشاى،
فالوقت متأخر، تعال يا تولبيوس المستقبل...

وعندما كانت العطلة الشتوية على الابواب كانت في
تقرير فولوديا علامات كثيرة واطئة حتى لتعجب هو
نفسه. وكان عليه ان يتحدث الى شخص. فسار في شارع
البروليتارى ليرى فاريا، وهو يطاء الثلج الهش بغضب،
ويفكر في ارتباك: «احرق نفسى وأضىء للآخرين...»
بليد هذا اذ تشبثت هذه الجملة بذهنه هكذا...

- اوه، انها ذهبت الى مسرح الهواة للتمرين، -
قال يفغينى، اخو فاريا لأمها، وهو فتى مدور الوجه ذو
نمط فاتر. وكانت على رأسه شبكة شعر. (كان يفغينى
يتألق كثيرا بمظهره، ويحب الشعر الناعم ويصنع اشياء
معقدة للاحتفاظ به على هذا النحو). وكان مستلقيا على
ظهره على الارىكة يقرأ درسه. وكان فى الشقة رائحة غثة
بسكوييت الفانيلا؛ وكانت إلمدام ليس، هى صديقة ام
يفغينى، تعزف على البيانو فى الحجرة المجاورة. وكان
يتبعث من هناك صوتان: واحد، وهو التعب، لأم يفغينى
فالتينا أندريفنا، والثانى صوت «دوديك»، الجهير
المقعقع، وهو رياضى مشهور، سائق دراجات بخارية
وسيارات ولاعب تنس، والحكم الرياضى الرئيسى فى
مباريات المدينة والمقاطعة.

سال يفغينى:

- هل تريد ان تشتري سيارة؟ ان دوديك يبيع
واحدة، ماركة «هسبانو سويزا» طراز ١٩١٤. فى
حالة تشغيل. وقد باع اثنتين حتى الآن، واشترى لنفسه
واحدة جديدة. انه شغيل نشيط، فتى حاذق حقا. انا
اغبطه.

ولم يقل فولوديا شيئا.
ومضى يفغيني يقول بصوت مضجر:
- هذه حياة شاقة أحش ذهنك واحش. ولكن ما
الفائدة؟ على أية حال ينبغي ان ندرس، - قالها فجأة
بلهجة اخرى جدية، - وهذا ما افعله. اما انت، فيقولون
انك لا تجتهد اطلاقا لرفع مستواك!
فاعترف فولوديا بعدم اكتراث:
- نعم، لا اجتهد!
- كيف يمكن ذلك؟ هذا سيء! اما انا فاستوعب
بعض المواد بفضل جهد كبير، مضمّن. وفضلا عن ذلك، لا
تنس انني مرضت في الماضي بالسل!
- يالك من مسلول! - قال فولوديا ببسمة متكلفة
وهو ينظر الى وجه يفغيني المعافى.
اجاب يفغيني في زعل:
- المظاهر خداعة في مثل هذه الحالات. بصورة
عامة، لا يجوز اعتبار السل...
وكانت « بصورة عامة » عبارته المفضلة. ولقد
اطلقوا عليه اسم « بصورة عامة ». وقد استطرد الى
موضوع السل، وكيف انه انقذ من مخالف هذا الداء
المريع حين كان ينشب فيه اظفاره. نعم انقذ بالمعنى
الحرفي للكلمة. فقد جربوا كل شيء بما في ذلك الصبر
المطبوخ بالعسل وسلا الدهن.
- يستطيع حب الام ان يحرك جبالا! - هتف
يفغيني بتأثير. وكان يهوى احيانا استخدام الكلمات
الرنانة. ومع ذلك فان تشاؤب فولوديا الطويل حمله

على ان يقطع حكايته عن السل، وهو الآن ينتقل الى انتقار فولوديا:

- وقد انقطعت انت عن الجماعة، - وكانت لهجة يفغيني سليمة النية، - وبصورة عامة، توجد فيك روح الانعزالية. هذا شيء رديء! خليك بك ان تظهر حماسا اكثر، وهمة، ومرحا بروح كومسومولي حقيقى! لا تنس اننا، انت وانا، ندرس في مدرسة سوفيتية جيدة، لا في كلية برجوازية.

سال فولوديا:

- كيف تعرف ان مدرستى جيدة؟
- بصورة عامة، كل مدارسنا احسن من الكليات البرجوازية! - فغمز يفغيني فجأة وقال:
- بم تعارض؟

ولم يجد فولوديا شيئا يقوله بسرعة فتابع يفغيني كلامه قائلا:

- اذا كانت تعترضك مصاعب فان جماعة الطلاب والمعلمين ستساعدك. أليست عندكم جماعة متراصة؟ مرصوفة بالطبع، عندكم. وهكذا ستساعدك. ثم عندك فوفكا سوخارفتش في فصلك. هو حمار بالطبع، ولكنه حمار مملوء بالدوافع النبيلة. وقد سمعت انه يساعد المتخلفين دائما. اطلب منه، وسيخف لنجدتك.

وفي الغرفة المجاورة ضحك دوديك ضحكة عالية. فنهض يفغيني، ومشى متثاقلا الى الباب بخفه البيتي، واغلقه باحكام.

وقال وهو يبدو قلقا:

- انا في الحق لا اعرف ماذا افعل. هو في الواقع يزورنا ليلا نهارا، هذا الرفيق المتاجر بالسيارات والدراجات البخارية. وماذا ترى فيه امى العزيزة على اية حال؟ انه يكون لهوا للجميع حين ياتى «رعب البحار» الى هنا.

وجلس فولوديا ينظر في فراغ. وحزر ان «رعب البحار» هو الاسم الذى اطلقه يفغينى على زوج امه. واحس فولوديا بان عينيه كأنهما مملؤتان رملا، وأن قفاه يؤلمه من جراء الليالى التى قضاها ساهرا، وهو منكب على كتب لا علاقة لها بموضوعاته المدرسية. سأل:

- ولكن لماذا يكون لهوا للجميع؟

- الا تستطيع ان تخمن؟

- لا!

- الازواج، على ما اتصور، يعترضون على اوضاع من هذا القبيل.

واشار يفغينى رأسه نحو الباب. والآن أخذت المدام ليس تضحك. وما زال فولوديا لا يفهم شيئا. قال:

- حسنا. ولكن ماذا انا فاعل على اية حال؟

قال يفغينى:

- بصورة عامة، دبر أمرك. وبصراحة تامة، كرجل

لرجل، انت اذكى منى بكثير. ولكنك لا تثبت على شيء في كل مرة. صحيح ان الدراسة امر مضجر ملعون، ولكن علينا ان ننهى المدرسة. ونحن لنا الآن اباؤنا

ولكننا في غد نواجه مستقبلنا وحيدين. وعلى كل حال،
لا اريد ان اكون حمالا...

... والقى يفغيني كتاب درسه، وطفق يعطى فولوديا
بعض النصائح. وكان سليم الطوية أبدا، غير ان مواعظه
جعلت فولوديا يحس وكأنه أكل كثيرا جدا من الحلوى.
وكان يفغيني على صواب بالطبع. ولكن ليس تماما
على نحو ما. فان في صوابه شيئا ملتويا وبلا استحياء.
وتحدث يفغيني ببطء مؤثر وهو يحدق امامه بعينيه
الشفافتين:

- خذ، مثلا، مسرح الهواة في المدرسة. فهو من
شؤونك الخاصة. ولكن من الجميل ان تكون للمدرسة
جماعتها للتمثيل، القادرة على تقديم حفلات مسرحية.
انها نقطة في صالحك في اجتماعات المعلمين. او خذ
جريدة الحائط. انا، مثلا، المحرر فيها منذ سنتين. انا
شخصيا احتاج الى ذلك حاجة الكلب الى المظلة، ولكنهم
بحاجة اليها. وانك قد تظن انها تأخذ وقتا كبيرا بيد
اننى اخذت بعين الاعتبار ان جميع المعلمين يعرفون
اننى المحرر، وانهم لا يستطيعون الا ان يحسبوا حسابا
لنشاطى الاجتماعى. ثم ان المعلمين اناس عاديون ايضا.
وهم يلتذون بقراءة شيء عنهم فى الجريدة سواء أكان
شكرا او تمنيات طيبة. والآن انت مولع بالعلوم
الطبيعية. رائع. ان المدرسة تحب هذه الاشياء، ولكن
ضمن اطار المدرسة، يا صديقى العزيز، ضمن اطار
المدرسة! تذكر ذلك. ما يجدر بك ان تفعله هو ان
تجمع جماعة، وتذهبوا لمقابلة المعلم: يا عزيزى العفريت

ايفانوفش، او مهما يكن اسمه: نحن التلامذة قد جنناك
نلتبس منك جديا ان تشرف على قيادة حلقتنا للعلوم
الطبيعية. فانت، وانت وحدك... وهلمجرا... هل
فهمت؟

وتناول يفغيني سيكارة من صندوق الطاولة الموضوعة
الى جانب سريره، واشعلها، وتمطى:
- أهذا واضح بما فيه الكفاية؟
أجاب فولوديا:
- انت لست بليدا!
قال يفغيني بتواضع:
- هذا هو موقفى. هل أنت مززع على انتظار
فاريا؟

وقفل فولوديا عائدا الى البيت وهو عابس. ولازمته
رائحة بسكويت الفانيلا وصدى صوت يفغيني المضجر
مسافة طويلة. وحين انعطف فى المنعطف الذى يقف فيه
نصب راديشيف رأى فاريا. وكانت تسير فى جمع من
الاولاد. ولوحت له. وحمل الهواء الثلجى الهش بوضوح
صوت سيفكا شايرو، مخرجهم الرئيسى:
- انا اؤيد مبادئ الميكانيك البيولوجى، واعارض
تماما مذهب ستانيسلافسكى! مع كل احترامى...
«انتم ايها الحمقى الصغار»، - فكر فولوديا بلطف
هرم. وافزعه التفكير لأن ذلك كله كان هو نفسه مولعا
به منذ أمد غير بعيد.

الاب يعود

في اللحظة التي دخل فيها فولوديا البيت، وقبل ان يفتح نور الدهليز، علم من رائحة التبغ البالغة والجلد ان ابيه قد عاد. فاندفع وهو ما زال في معطفه الى غرفة ابيه صائحا. كان افاناسى بتروفتش جالسا الى الطاولة باستقامة شديدة، كشأنه دائما، يقرأ صحيفة. وكان يرتدى قميصا محكم التفصيل مكويا بصورة جيدة. في ياقته شارة الطيار، وعلى كفه اشرطة ذهبية. وكان حزامه معلقا في ظهر المقعد، وذلك يعنى انه سيبيت الليلة هنا، وانه غير مغادر في الحال. وتبادلا التحية مع مصافحتهما المعتادة. وقلص الاب عينيه قليلا، وجذب ابنه اليه. غير انهما لم يتبادلا القبلات؛ فلم يألوا هذه العادة. وبدلا من ذلك عصر افاناسى بتروفتش منكبى الصبى مرة او مرتين، وطلب منه أن يخلع معطفه ويجلس ليأكل. وظهرت العمة اغلايا من المطبخ تحمل طبقا كبيرا من فطائر السمك السيبيرية. وكان وجهها لامعا، وعيناها تتألقان في فرح وسعادة. وكانت تهيم باخيها حبا، وتفخر به وتجعل دائما ايام عودته الى البيت اعيادا عظيمة. - قص على ماذا عندك، - قال بعد أن شرب قدحا من الفودكا المبردة.

وأخبره فولوديا بكل شيء دون ان يخفى شيئا. وامسك افاناسى بتروفيتش فطيرة بيديه الكبيرتين، ونظر بامعان الى ابنه.
صاحت اغلايا:

- انه يلفقها كلها. ولا يمكن أن تكون حقا. لقد
كان دائما مجتهدا جدا، وكان من احسن تلامذة المدرسة!
- والاسباب؟ - سال افاناسى بتروفتش دون أن
يلتفت الى مقاطعة اخته.

قال فولوديا:

- ساتوصل الى ذلك فيما بعد. ولكن صفوة القول
أننى قررت ان اصبح عالما.
ولم يسمح أبوه لنفسه ولو بأقل ابتسامة.
وقاطعت العمة اغليا ثانية:

- هو يدرس الليل كله. وعدد الكتب التى جاء
بها الى البيت منزلة حقا. والآن هذه المفاجأة. هراء
كله! هراء!

وفيما بعد، حين غرقت العمة اغليا فى النوم وقد
أنهكها حسن ضيافتها، جلس اوستمكو الاب واوستمكو
الابن جنبا الى جنب، واصغى فولوديا الى حديث ابيه.
قال افاناسى بتروفتش وهو يدخن سيكارتة:

- من الصعب على ان احكم. فأنا لست قريبا
من العلم. اننى طيار عسكرى. ولكننى اعتقد أن كل علم
لا بد ان يكون له أساس. خذ عملى، مثلا، الجو. انه
يبدو بسيطا للغاية: ادفع المقود الى الامام او الى الخلف،
ومع ذلك...

وكانا جالسين جنبا الى جنب، ولم يكن فى وسع
فولوديا أن يتابع اتجاه عيني ابيه، ولكن كان فى وسعه
أن يشعر بتحديقه الهادى الجدوى الصارم مثلما كان
يحس بغضلات ابيه القوية بجانب كتفه الصبوى النحيل.

وسادت فؤاده سعادة كاملة وهادئة. ان هذا الرجل بمنظره الجانبى القوى ووجهه المجعد الذى لوجه الجوى، ان هذا الطيار الباسل كان أباه، والمقدرة على التحدث معه حديث الند للند والتفكير بالكلمات التى يصح ان تقال، وقولها كان تحريكا تاما للمشاعر لا يقارن بشيء فى هذا العالم.

ومضى افاناسى بتروفتش يقول بتفكير:

- ومع ذلك يا ولدى، فان هذه البساطة فى الواقع ليست بسيطة جدا. ان الامر لا يقتضىك الشئ الكثير بالطبع اذا كان كل ما تبتغيته هو أن تفعل الشئ بشكل لا يقل عما يفعله شخص آخر، غير أنك بحاجة الى أساس متين اذا كنت تريد أن تدفع الطيران الى الامام خطوة ام ربما خطوتين. انك لن تتوصل الى شئ اذا خبطت خبط عشواء. ارجو ان تصدقنى فى ذلك: لقد عشت زمنا طويلا أما أنت فما زلت فى بداية رحلتك عبر الحياة. وبعد ذلك ذهبا الى مغارة فولوديا. وهناك، وسط الكتب المبعثرة، والمجلات، والقصاصات، وتحت صورة «الدرس فى علم التشريح» لرمبراندت المسمرة بجدار بدأ الابن يحدث أباه عن العلوم الطبيعية. وجلس افاناسى بتروفتش على سرير فولوديا ينظر بامعان واستقصاء الى وجه ابنه المتورد المفتون، ويصفى الى حديثه المتوهج عن الخطوات التى يخطو بها الطب، وعن آرائه فى صفة المجدد الحقيقى، وعن الطرق التى يسلكها العلماء فى بحوثهم عن صنع المواد الزلائية الاصطناعية، وعن طريقة لاجراء عمليات جراحية على القلب الانسانى.

قال افاناسى بتروفتش:

- والآن قد اشتط بك المدى قليلا يا ولدى: ان اجراء عمليات جراحية على القلب الانسانى انما هى مبالغة.
- مبالغة! - صاح فولوديا، - مبالغة! انا آسف يا ابنى، غير ان كلماتك تجعلنى اتذكر الناس الذين ضحكوا من فيليبوف، الجراح الروسى الذى درز قلوب الحيوانات فى العقد التاسع من القرن الماضى! ولودفيغ رهن، الطبيب الالماني، درز جرحا على قلب انسان فى عام ١٨٩٦، وبقي المريض على قيد الحياة. المحافظون فى العلم...

وتمتم أبوه بمسالمة:

- حسنا، أيها المجدد. قل لنا شيئا آخر. وهل انت ستخطط رؤوس الناس على رقابهم ثانية؟
قال فولوديا فى تبرم:
- ليس هذا مضحكا! من المصادفة أنك طيار، وأحلام عن رجل طيار...

قاطعته افاناسى بتروفتش:

- حسنا، حسنا. انا فاهم. ولكن هناك أشياء كالحروب...

سأل فولوديا ولم يفهم العلاقة:

- ماذا عن الحروب؟

- أنت تقرأ الصحف على ما اظن؟

- نعم، ولكن ليس بانتظام كثير...

- أقرأها بانتظام. وستدرك أى شيء هو هتلر وغوبلز، همملر وذلك الخنزير غورينغ أيضا الذى يسمى

نفسه طيارا. وكذلك كروب فون بوهلن. قبل حين زار
فرقتنا احد المؤولين الحزبيين. رجل ذكى جدا. وقد قدم
لنا تحليلا عميقا - واني آمل انك خصيصا لم تثرثر - لنا،
نحن العسكريين. فانظر يا ولدى. لا بد من ان يتوتر
الوضع، فأخشى ان ذلك سيؤجل صنع هذه المواد
الزلالية الاصطناعية!

سأل فولوديا بكآبة:

- سيؤجل؟

- بالتأكيد. لو لا وجود الاستعماريين في مختلف
البلدان لقفز العلم الى الامام قفزة كبيرة.

وفك ياقة قميصه، وغرق في التفكير لحظة، ثم
قال بابتسامة كانت في الحال حزينة ومرتبكة قليلا:

- ان سلالتنا في صعود. كان جدك سائق عربة
نقل في خاركوف، وانا الآن طيار، آمر الفوج، أما ابني
فسيصنع المواد الزلالية الاصطناعية، ويصبح عالما.
ومن المؤسف جدا ان امك ليست على قيد الحياة، فان
ذلك سيجعلها سعيدة. حسنا. هيا، قل لي اكثر.

وبعد منتصف الليل بات فولوديا مغاليا حقا في
بياناته المفرطة. فان الاحلام الخصبة مررها كأعمال
علمية جارية، والمستقبل البعيد، البعيد جدا، لاح له
حقيقة. وتنهد ابوه وزفر، غير ان عينيه كانتا فرحتين.
وقاطعه بغطة:

- عندنا شاب من هذا الطراز، وهو مهندس،
اسمه برونين. فتي طيب يعرف عمله. ولكن الاصغاء
اليه طويلا شيء خطر.

سال فولوديا:

- لماذا؟

- لماذا؟ لأن بصره لا يبدو على الارض، بل فوق.
ولكن قد يكون في الطريق وحل وشيء آخر أيضا...
ان حذاءك سيحتاج الى مسح اذا دست عليه. لقد حان
وقت نومك يا بنى.

ورأى نظرة فولوديا المكتئبة فأضاف:

- ومع ذلك فان تتطلع بعيدا الى امام خير من
أن يظل بصرك موجهها الى الارض على الدوام. ولكن
يجب النظر الى الارض أيضا.

وفي الصباح رأى فولوديا مذكرة صغيرة من أبيه
وبعض النقود. وقد أخبرته المذكرة بان يشتري جميع
الكتب والاشياء الاخرى التى يحتجها «للاسرار فى انتاج
المواد الزلائية الاصطناعية». وكانت موقعة بشكل رسمى
«أ. اوستمنكو». وهناك ملحوظة تقول: «على كل
حال، يجب قبل كل شيء ان تتعلم كما يليق بالمواطن
الطيب. وانا واثق بك عن اخلاص».

لا هياكل للبيع

كان مقدارا كبيرا من النقود - حزمة من فئات
الثلاثين روبلا، وحزمتين من فئات اقل قدرا: لقطة كبيرة
حقا. وعزم فولوديا على أن يخرج فى الحال ويشتري
الشيء الذى حلم به طويلا...
وكان قد فتح مخزن اللوازم المدرسية مؤخرا قرب

سوق البلدة، ليس بعيدا عن حلقة الترحلق. وهناك رأى فولوديا فاريا واقفة الى جانب بائعة فطائر حارة. وكانت تأكل اثنتين دفعة واحدة، فطيرة لحم وفطيرة كرنب، وقد وضعتهما واحدة فوق اخرى. وكان حذاؤها للترحلق معلقا على ذراعها من ربطته. وكان جوق نحاسي يعزف خلف السياج العالى الذى يحيط بحلقة الترحلق. - هل تريد فطيرة؟ - سألت فاريا عرضا وكانما لم ير أحدهما الآخر الا يوم امس، - انها جيدة! أنا أحب المقل من هنا خير من المشوى خصوصا اذا أكلت اثنتين مرة واحدة.

وكانت ندف الثلج الكبيرة الكثيفة تتساقط على قبة فاريا، وعلى فطيرتها، وعلى كمي معطفها. وحملت به:

- سوف يذوب الجليد فى حلقة الترحلق ثانية. أليس كذلك يا فولوديا؟ أى شتاء غريب هذا! ثم استغربت:

- انت متخوف جدا!

«تومب - تومب - تومب»، كانت الطبلات تدق خلف السياج، - «تومب - تومب - تومب». سأل فولوديا:

- هل انت قد ترحلقت؟

- نعم! - قالت فاريا كاذبة، على سبيل الاحتياط وفكرت بقلب خافق: «آه أنا اهيى به حبا! حتى ان ذلك غير جميل!»

قال فولوديا:

- لنذهب ونشتر هيكلًا.
- ماذا؟
- هيكلًا بشريًا. في مخزن اللوازم المدرسية. لقد وضعوه في واجهة العرض. أنا رأيته.
- للمدرسة؟
- قال فولوديا في زعل:
- لماذا للمدرسة؟ لى شخصيًا!
- اشارت فاريا باصبعها اليه:
- لك شخصيًا؟
- وانطلقا. وحين وصلا الى المخزن وجداه يختلف جدا عما توقع فولوديا ان يرى. واخبره رجل أصلع ملء فمه اسنان ذهبية أن الهياكل، الانسانية والحيوانية لا تباع الا للمؤسسات التعليمية وبطلب مكتوب لا بنقود. ولا يباع اى هيكل لشخص مفرد مهما كان.
- وماذا لو كان عالما؟ - قالت فاريا وهى تشير برأسها الى فولوديا. وكانت دائما سريعة البديهة.
- العلماء يحصلون على الهياكل عن طريق معاهدهم العلمية.
- ولكن ماذا اذا لم يكن منضما الى اى معهد علمي؟
- فى هذه الحال يعتبر شخصا مفردا، - قال البائع وقد لمعت اسنانه الذهبية.
- قالت فاريا فى غضب:
- هل تظن اننا سنكسب الفلوس من هذا الهيكل العتيق، ام اى شىء؟ ماذا لو احتاج شخص اليه، ماذا لو كرس شخص نفسه للعلم...؟

وغادر فولوديا المخزن، اذ انه شعر بالخجل.
اوه. لماذا هي دائما تثير الشجارا لقد انتظر، وانتظر.
ولكنها لم تتبعه حين خرج. وبعد زهاء عشرين دقيقة
عاد فولوديا الى المخزن. وكانت فاريا تكتب شيئا في
«سجل الشكاوى» بخط يدها الكبير، الذى لا يزال
طفوليا. ونظر فولوديا من فوق كتفها وقرا: «ان رفض
بيع هيكل بالنقد قد يسمى تفريطا بليدا في العمل...»
همس:

- فاريا! كفى عن ذلك!

فهزئت به:

- لا تكن خوارا!

- ولكن هذا مضحك!

«... تفريطا بليدا في العمل أو شيئا اسوى من

ذلك»، - كتبت فاريا.

همس فولوديا مصححا: - «أسوأ».

فاجابته:

- سيحزرون على أية حال. وابتعد اخيرا،

يا فولوديا. دعنى أنهض بهذا العمل الى نهايته المنطقية.

وكان خداها متلهبين، وثمة خصلة صغيرة حلوة

مسترخية فوق أذنها التى كانت تحمل فى شحمتها فصا أزرق.

وهكذا فشلت محاولة شراء هيكل. وبدلا من ذلك

اشترى فولوديا أطلسا تشريحي طبعة سنة ١٩٠٠،

نظيفا جدا، ورخيصا بعض الشيء، من مخزن لبيع الكتب

المستعملة، فى ساحة «عاشر أكتوبر» بالقرب من

الكاتدرائية. ومشى فاريا بجانبه وحذاؤها للتزحلق

يطقطع، وقبعتها سرحت الى الخلف، ووجهها محمر
وتكلمت عن الروتين الذى ما زال موجودا، والكفاح
الذى لا هوادة فيه الذى كان ينبغى أن يشن ضد بقايا
الماضى هؤلاء.

سال فولوديا:

— وابوك، هل يرسل الرسائل؟

— كانت هناك رسالة يوم الاحد الماضى، — اجابت
فاريا، وقد طرحت جانبا مسألة الروتين، وأخبرت فولوديا
بأنها قد تحصل على تذكرتين لتمثيلية «العم فانيا»
التي يقدمها مسرح موسكو للفن الذى ينزل ضيفا على
المدينة.

قالت فاريا:

— لقد وصلوا بالفعل. وقد أنزلوهم جميعا فى
فندق «موسكوفسكايا». وقد رأت زينا كروكوف اثنين
منهم، وهى لا تستطيع أن تخبر بالتاكيد من هما. ولكن
لعلهما الرفيق كاجالوف، والرفيق ليفانوف. وكان كلاهما
يرتدى معطفا مخططا بالفراء. هل ضمرت شيئا فى عقلك
ثانية؟

قال:

— هناك شيء من المرض النفسى فى جنونك
بالمسرح. بجديا فاريا، ما الفائدة من الفن؟ انه حماقة،
مضيعة للوقت تماما، اتلاف لا معنى له للخلايا العصبية،
غباوة صرفة لا غير.

وقد تخاصما من جديد، ولكنه لم يكن ذلك خصاما
نهائيا. وفى يوم الاحد ذاك لاحظت فاريا شيئا فى فولوديا،

قد عز حتى الآن على فهم الناس الكبار الاذكياء المتعلمين
فقد ادركت انه موهوب، غير عادى. وبهزة العجب دخلت
«مغارة» فولوديا التي لم تدخل اليها منذ زمن طويل،
وجلست على الكرسي الاعرج، واصغت فاغرة الفم الى
افكاره عن باستور وكوخ، عن بافلوف وميتشنيكوف،
عن بيروغوف وزاخارين، وعن امكانيات مكافحة الاورام
الخبیثة، وبالطبع، عن صنع المواد الزلاية الاصطناعية.
وبقيت لتتناول العشاء مع فولوديا.

قالت وهى تتناول الحساء:

— هل تعرف يا فولوديا، أن رأسى يدور تماما.

— لماذا؟

— لقد تحدثت ثلاثة ساعات كاملات دون توقف.

وهتفت العمة أغليا ولم يكن هاتفها خاليا من الخبث:

— اوه، أنت على ما يرام. ولكن ماذا عنى؟ أنا

أعود من الشغل خائرة القوى، مضناة، ورأسى ينفطر،

فينطلق هو فى الحديث عن جرائمه!

ومع ذلك فقد ذهب فولوديا مع فاريا لمشاهدة

مسرحية «العم فانيا». وقد أثارت هذه الحفلة التى أقامها

مسرح موسكو للفن الذى ينزل ضيفا على المدينة حماسة

كبيرة بين الناس حتى كان عليهما أن يشقا طريقهما بجهد

خلال الزحام امام الدار الجديدة للثقافة. وحتى حين كانا على

مسافة كبيرة من الدار كان الناس يدنون منهما ووجوههم

يلوح عليها القلق، واصواتهم مبحوحة من كثر ما سالوا:

«هل من تذكرة زائدة؟» وشعر الاثنان على وجه

الخصوص بأسف على ضابط متقدم فى السن قال لهما
فى قنوط حقيقى أنه «يشحد» التذكرة لا لنفسه بل
لابنته.

قال فولوديا:

— هذا مرض فى نفسى عام. وقد كتب كريبيلىن
المشهور شيئا بهذا الخصوص.

وفكرت فاريا لنفسها بحسرة عذاب طويلة: «لا
بأس، فليكن كريبيلىن هذه المرة!»

وكان لهما مقعدان جيدان فى الصف الامامى فى
الشرفة. واشترى فولوديا ورقة برنامج، واعطاها لفاريا
دون أن ينظر فيها، والقى نظرة متعالية على مقاعد
الصالة الامامية والمقصورات المكتظة.

وأخيرا انفرج الستار بصوت خفيف وبدأت
المعجزة. واحتكما بظاهر الاشياء فاية علاقة له، وهو
ابن طيار، بكل ما حدث لسونيا، والعم فانيا، والدكتور
استروف، وجميع أولئك الآخرين الذين هم من القرن الماضى،
ومن المجتمع الذى لم يعرفه فولوديا، ولا فاريا، وحتى
ابواهما، واجدادهما؟ وحاول فولوديا بجهد جهيد أن
لا يضيع وجهه فى نظر فاريا. وعد الى العشرة صاكا
أسنانه حتى آلمته. وفكر بأشياء أخرى غير أن دموعه
الملعونة الحمقاء العديمة الشعور ظلت تتساقط منسابة
تحت أنفه. وفى الواقع سقطت دمعة على يد فاريا حين
مدتها لتأخذ ورقة البرنامج. وحرق الفصل الأخير ثقل
فولوديا كليا. فكف عن العد الى العشرة، وعن صك
أسنانه. ومال بجسمه الى الامام، وراقب العذاب الانسانى

بغضب، مقسما بان يفعل شيئا، شادا على يديه العرقتين،
ماسحا الدموع التي طفقت تنهمر من عينيه...

وكاد الفصل الاخير ان ينتهى حين ارسلت العجوز
المرتدية ثوبا حريريا مهفهفا، تلك المرأة الجالسة الى
جانب فولوديا، ارسلت صرخة صغيرة فجأة، وطفقت
تتمتم بصوت خائر. وهمس لها فولوديا بان تهدأ.
ولكنها لم تكف عن التمتمة واخذت ترفع قامتها. وهسها
الاخرون. وصرخت. ومن حسن الحظ كانت المسرحية
قد انتهت. ومن خلال الدمع رأى فولوديا وجه المرأة
الرمادى، وفمها الملتوى يوشك ان يرسل صرخة.

— فئران! فئران! فئران! — فحّت امرأة اخرى
ترتدى ثوبا اخضر.

— اى شىء مثير جدا فى ذلك؟ — قال فولوديا وهو
يرفع من حجر جارتة فاره الابيض الاليف — اى شىء
مخيف جدا. لا خطر فى شىء كهذا قط. لقد اطعمته اليوم
منذ برهة من الزمن. وانه استوحش قليلا، فخرج.
ولكنهم على أية حال اخذوه الى الميلشيا. والفن لم
يرقق قلوب الناس الذى كانوا جالسين الى جانب فولوديا
فى الصف الامامى للشرفة فى دار الثقافة. وبعد ان ابكاهم
«العم فانيا» شرعوا الآن باصوات فولاذية يدخلون فى
ذهن رجل ميلشيا عجوز ان هذا الفتى الموحى اليه قد
اقترب عملا من اعمال العربدة بقصد شريز. وسجل رجل
الميلشيا افاداتهم، وجلست فاريا فى ركن، واخذت تغمز
لفولوديا من هناك. وكان يخامرها شعور بانها مذنبه
بشىء ما.

وحيث سجل الناس شكواهم وذهبوا، طلب الضابط
من فولوديا أن يريه الفار.

— ها هو ذا!

— ها ها! فأر ابيض! — قال الرجل معجبا.

فقال له فولوديا:

— عندي الكثير لتجاربي. ولكنني اشفق عليها.

انها ذكية. وهذا الفار اليف. هاك. خذ بيدك!

ووضع الضابط الفار على كفه المحمرة لحظة، وسأل

فولوديا بم يطعم هذه الفئران. ثم جعله يمضى بسلام.

قالت فاريا:

— شكرا لك ايها الرفيق الضابط. انهم كادوا

يفسدون مزاجنا: لقد كانت المسرحية مؤثرة جدا، وفجأة

ياخذونك الى الميلشيا.

وكان الضابط يتفحص وجه فاريا بنظرة قاسية

باردة، وحيث كفت عن الكلام سألها:

— والآن لماذا يبدو وجهك مألوا الى. هل في

وسعك أن تخبريني؟

— آه، العراق، أتذكره؟

أجاب:

— لا يمكنني أن أتذكر كل الشجارات في دائرة

كدائرتي...

— ها، كان هناك عراق في حلقة التزحلق يوم امس.

بالتأكيد، لا يمكن ان تنسى عراق الامس.

وفي شيء من التورد حكى له قصة العراق بين بعض

الاولاد الصغار في حلقة التزحلق يوم امس. وحيث لم

يحاول احدا ان يحاجزهم تدخلت هي وتلقت بضغ
ضربات ايضا. ثم حاولت ذلك ببالة ثانية، وارسلت
صراخا وسرعان ما اتى النفع.

قال الضابط بجفاء:

- اجل... ان اسمك ستيبانونفا. حسنا. ستيبانونفا

فاريا. في وسعك ان تذهبي.

وفي طريقهما الى البيت فتحت فاريا الحديث في
موضوعها المفضل، المسرح. وفي رأيها ان غروب مسرح
موسكو للفن كان قريبا جدا، بيد أن فسفولود مايرهولد
قد تخلى ايضا عن بعض مواقعه. فمثلا ان مسرحية
«غادة الكاميليا» لا تشبه قط مسرحية «الصراع
الخير».

قال فولوديا:

- وهل شهدت هاتين المسرحيتين ايضا؟

قالت فاريا بحماس:

- لم ارهما، بل قرأت عنهما! أنا اتابع المجلات كما
تعلم، وأنا أقرأ جميع المراجعات عن المسرحيات. وفضلا
عن ذلك نحن نناقش كثيرا من الاشياء في فرقنا للتمثيل.
وكانت ليلة غريبة جدا. انها لم يتفقا على شيء، ومع
ذلك لم يستطيعا أن يفترقا. لقد مشيا، وجلسا على مسطبة
يتحدثان مرتجفين من البرد. وكل الوقت كانا يشعران
بان احدهما لا يستطيع ان يفعل شيئا بدون الآخر.
لماذا؟ لقد كانا لا يعرفان ذلك...

فى وسع الانسان ان يفعل كل شىء

ورغم كل شىء ارتقى فولوديا استيمنكو الى الصف العاشر. وقد قيل عنه الشىء الكثير فى مجلس المعلمين. وكان سمورودين ممتعضا بنوع خاص: لقد شعر الرجل العجوز بانه قد غدر به. صاح:

- تصوروا! ما عليكم الا ان تتصوروا السؤال الذى سألنى اياه ذلك الفتى الاحمق: ما فائدة الادب لاي انسان؟ انه يفسد جميع التلامذة! تفضل! ثم سرد على نظرية بكاملها عن مسرحية «العم فانيا»، التى تنازل فذهب لمشاهدتها!

وتحدث المعلمون الآخرون عن فولوديا بلهجات محتدة أيضا. كان فى وسعه ان يكون فخر المدرسة، غير انه تتدهور بدلا من ذلك. ولكن الشىء الأسوأ هو موقفه، عدم اكترائه، لماذا؟ ما سبب ذلك؟

وعارضت أنا فيليبوفنا العجوز: ان فولوديا اوستيمنكو ليس سيئا على هذا النحو. فعنده كثير من الدرجات الطيبة؛ وليس من الصواب نكران جميع حسنات الصبى. ولكن اوستيمنكو بوجه عام (ونظرت أنا فيليبوفنا بتوجس الى تاتيانا يفيموفنا، مديرة قسم المناهج الدراسية التى أظهرت لها انزعاجها) قد خرج من اليد حقا. وأصبح أبعد ما يكون عن الضبط. ودعت الى اجراءات مستعجلة.

قال استاذ الفيزياء يغور اداموفيتش الذى كان تلامذته يسمونه فى العادة «آدم»:

- يقولون انه منهمك في العلوم الطبيعية. ولكن ذلك، برأى، لغو. ان الولد المولع حقا بالعلم لا يخرج من نوافذ الصف قافزا وهو، بالاضافة الى ذلك، لا يحرض اصدقاءه على أعمال شقاوة كهذه. فما عليكم الا ان تفكروا بذلك: بصيحة «رجال جاباياف! ورائى!» يقفز الابله الراشد في سنه من طوار النافذة و...

ودقت تاتيانا يفيموفنا المنضدة بقلمها. وكانت لا تريد أن ينصب اهتمام الاجتماع الى حكاية القفز من النافذة لأن ابنها قد قفز هو الآخر، واذ تذكرت ان آدم قليل الحصافة دائما قررت ان تقول شيئا للدفاع عن فولوديا.

قالت:

- ليس للولد أم، ولا أب اذا اردتم الحقيقة. وعمته تشغل منصبا ذا مسؤولية، ولا تستطيع ان تكرر كثيرا من وقتها لتنشئته. فطبيعى ليس فى وسعى كمعلمة للرياضيات أن اقول اننى راضية عنه ولكن...

وتكلم صوت عزة النفس الجريحة فى كل واحد منهم. ولم يكف أى واحد منهم عن أن يفكر، وذلك غالبا ما ينساه المعلمون، أن الولد على حافة شىء ما، وانه فى ارتباك، ليس كارتباك المتبطلين القليلى النباهة، بل الارتباك الذى يعترض الموهوبين فى بعض الاحيان.

وقرر الاجتماع ارسال مذكرة الى والد أوستيمنكو يطلب منه الحضور، والتحدث فى الموضوع. ولما كان غائبا حول الطلب الى عمه فولوديا، اغلايا بتروفنا. وحضرت اغلايا بتروفنا فى صباح اليوم التالى مباشرة،

واستقبلتها تاتيانا يفيموفنا الصارمة استقبالا باردا. وكان المطر يضرب نافذة المكتب، ومن الخارج كان يأتى صوت القرقة الرتيبة للعجلات على حجر الشارع. وتكلمت تاتيانا يفيموفنا بخنة، وظلت تتمخط. وكا قد مسها برد، كانت تفضل أن تسميه «انفلونزا».

قالت:

— انا لا أنكر ان لابن أخيك قسطا معينا من الموهبة. وهذا وبال عليه. فلنفرض أنه منهمك فى العلوم الطبيعية. حسنا جدا. ولكن ليس هو الوحيد فى ذلك. فالىوم هناك الوف والوف من الشبان الذين يعيشون فى بلادنا الشاسعة منهمكون جدا فى جمع أجهزة راديواتهم او فى صنع نماذج للطائرات. ومع ذلك فهم يبذلون كل ما فى وسعهم لتطوير عقولهم.

وتشاءبت العمة اغلايا فجأة. وزأت تاتيانا يفيموفنا ذلك فاستاءت:

— بالطبع انك تشتغلين فى منظومة التعليم العام بنفسك، ولكنك جديدة العهد فى ذلك، جديدة جدا. ومفتشية العمال والفلاحين التى كنت تشتغلين فيها سابقا لها خصائصها الخاصة ومن المصادفة أن تكون على غرار مدارس الفلاحين الشبان التى تحت عهدتك الآن...

قالت اغلايا بتروفنا فى غير اكتراث:

— أنا متفقة تماما. ولكن مدارس الفلاحين الشبان هى مدارس سوفيتية على حد سواء...

— لا ومدرستنا ليست بمدرسة قيصرية ايضا، ولا سيمناريا كهنوتيا! هذه مدرسة سوفيتية ايضا...

— أوه. أنا أعرف كل ذلك، — هتفت العمة اغلايا، —
دعينا لا نضيع الوقت بالعموميات. لقد استدعيتني لأمر
ملح. أنا افهم...

قالت تاتيانا يفيموفنا في حدة تامة هذه المرة:
— أنا دعوتك لاخبرك بشيء غير مسر للغاية.
إذا لم يتعهد ابن أخيك، أو بالاحرى تتعهدين انت
إذا لم يشرع اوستيمنكو في ابداء اهتمام أصيل بشرف
مدرسته، إذا لم يدرك اننا لا ننشئ عباقرة انفراديين
بل...

فقاطعتها العمة اغلايا:

— تاتيانا يفيموفنا، ليس هذا ما دعوتني من
أجله. كما تعلمين، فقد أخبرني فولوديا نفسه، بأنه
بخصوص شيء آخر. انه إذا لم أكن مخطئة، بخصوص
قفز الاولاد من النافذة بعد درس الفيزياء...
ونكست تاتيانا يفيموفنا عينيها. فلم تفكر قط
بأن اوستيمنكو سيقص القصة كلها على عمته. ثم ان
ابنها ايضا داخل في هذه القضية.

قالت وهى تحاول أن تحافظ على هدوئها:

— القفز من النافذة لا شيء غير شيطنة. وقد يكون
فظيعا. ولكنه شيطنة ليس غير. ومع ذلك حين سألته
عن الشخص المسؤول عن هذه الشيطنة بالدرجة الأولى،
رفض ابن أخيك، يا اغلايا بتروفنا، رفضا قاطعا، بل
خشنا أن يسمى المحرض على ذلك!

قالت اغلايا بتروفنا، وهى تحقق باستقامة في عيني
المعلمة:

- أنا آسف على أنه خشن. ولكنه شيء طيب أنه غير نمام. وأنا اعتقد أن شخصا نماما في مدرسته لا يمكن أن يركن اليه في معركة.
- آوه، تعتقدين!

- نعم، أعتقد، - قالت العمدة اغلايا بجفاء، - وعلى أية حال ان الآراء تختلف في هذا مجال. مع الأسف. ونهضت، امرأة مكتنزة، ماردة الخدين في عينيها السوداوين الضيقتين بريق ساخر.

- هل تعنين أن الصراحة مع معلمه... - شرعت تاتيانا يفيموفنا في الكلام غير أن العمدة اغلايا قاطعتها قائلة:

- الصراحة شيء، والنميمة شيء آخر. التبليغ، الوشاية، ونقل الحكايات عادات مقيمة دائما. وما ينبغي ان تسعى له هو أن تجعلى طلابك يتكلمون الحقيقة دون خوف ووجهها لوجه مع الآخرين بدلا من أن يخبروك بأشياء سرا هنا في مكتبك، ويأتوك بحشالة الاخبار لتسمعها اذناك فقط. مع السلامة!

ولم تجب تاتيانا يفيموفنا بشيء. وفكرت العمدة اغلايا: «آه، أنا جيدة في خلق الاعداء لنفسى!»

وفي الخارج تمتمت بغیظ: «يا لها من مسؤولية عن قسم المناهج أيضا! هذه الفأرة!»

وكان فولوديا في البيت. كان يشرب الحليب ويقرأ عن الغدة الدرقية. وقد نسي تماما أن عمته قد استدعيت للمدرسة. وكان في عينيها بريق البهجة.
قال:

- تعرفين يا عمة اغلايا أن الغدة الدرقية شيء
مدهش حقا. فأصغ الى ذلك! آه. انها مذهلة...
وكانت شفتاه الورديتان محاطتين باطار من
الحليب، وفي عينيه نور سعيد رقيق، وكان في مجمل
هيئته ما زال متهدل الاذنين، بادی الغفلة، غريرا.
واقتربت اغلايا، ودفعت رأسه الى الاسفل، وقبلت قفاه.
وكانت ترسل نفسها على سجيتها مرة او مرتين في العام
لا اكثر.

قالت بأشد ما تتكلفه من العبوس:
- انظرا! لا شيء من ذلك في العام المقبل. أسمعني
يا فولوديا؟

سأل فولوديا بشرود:

- ما ذلك؟

- أقصد تلك القفزات من نوافذ الصفوف، والدرجات
الرديئة. أتعدين؟

- أعدك،- أجاب فولوديا وهو ما زال سابجا
في الغيوم،- ولكن انت لا تصفين الى الحديث عن الغدة.
- أنا مصغية. ولكن ليس كما يجب. فعلى أن
اذهب للعمل. فهناك اناس في انتظارى، كما تعلم.
- حسنا، اذهبى.

قالت العمة اغلايا بابتسامة حزينة:

- شكرا على الاذن ولكنه لم يخطر ببالك ان
سألتنى: من الناس الذين ينتظرونك، وما جَدَ عندك
يا عمة اغلايا، فلماذا أنت مثقلة بالهموم اليوم، وكنت
بلاهم يوم أمس؟ أوه. هذا أكثر مما ينتظر منك. ولا

يخطر ببالك ان من الجائز ان أقع في الحب وانا في سنى
المتقدمة، فاذهب واتزوج رجلا، واتركك وحدك.

«ما الذى جرى لها على كل حال؟» - تعجب
فولوديا للحظة. ولكنه عاد في الحال الى كتبه وتأملاته
عما قرأ منذ لحظة، ضالا عن العالم.

كان الصيف على وشك ان يبدأ. وكانت الريح تشتت
الغيوم. وكانت القبرات وراء النافذة المفتوحة تتهامس
باسرارها المشيرة. وانقضت الساعات ثانية دون أن
يفطن اليها. ولم يكن فولوديا يرغب في تدفئة عشاءه،
فأكل شيئا من الخبز، وشرب قليلا من حليب قد حمض
بعض الشيء. ودهش اذ رأى الظلام موشكا على الهبوط،
وأن النور ينبغى أن يضاء. وبعد قليل جاء يفغينى
ستيبانوف وهو يبدو مهموما. ولعب قليلا مع الفئران
البيض، وتأرجح قليلا في الكرسي الهزاز التالف، ثم قال
في شكوى:

- أنا فى السليقة ايها الشيخ.

- باى معنى؟

- ان الاب كرمنى برسالة. ونصيحته ان ادخل
المدرسة البحرية.

- تعنى روديون ميفوديفتش؟

- لا آخر غيره.

- حسنا، فامض قدما اذن.

- ولكنها صعبة، ألا ترى؟

فهز فولوديا كتفيه.

قال يفغينى وهو يسحب من جيبه مغلفا مطويا:

- بل في الرسالة شيء من الشعر ايضا. حين
يتحمس «رعب البحار» فهو خطر.
وبسط يفغيني الصفحات بخرخشة وقرأ:

اعداؤكم لا تغفروا لهم الدم ولا الضيم
واحملوا راية المعركة دهرا طويلا
ومياه بحر البلطيق، وشواطئ توريدا
ستترك لاحفادكم نشيدا جميلا.

سال فولوديا:

- اجل؟

اجاب يفغيني بابتسامة مشرقة جدا:

- لا اريد ان ارث اى نشيد جميل. هل فهمت؟
ووضع الرسالة في الغلاف بعناية وزفر واطاف
يقول:

- ما هي راية المعركة؟ ان الثورة قد تمت والحمد
لله، اليس كذلك؟ فماذا يريد أكثر من ذلك؟
كم تمنى فولوديا أن يذهب يفغيني! لماذا يهبط
على الناس؟ هل هو مضجر حين ينفرد بنفسه؟ وعلى
اية حال لم يظهر اية نية للخروج. بل جلس هناك يؤرجح
نفسه ويشتكى:

- ليس عندي اية رغبة، أترى؟ اننى لم اجد نفسى
حتى الآن.

- ستجد.

- ماذا ساجد...

- ما لم تجده، أنا أقول بصورة عامة: ستجد.
وزعل يفغيني من ذلك، ولكن ليس لامت طويل. قال:
- لقد جئت اليك كصديق. وأنت لا تصفى الى
مجرد اصفاء. ان نفسى هى التى لم تجد.
- آوه، هكذا، - قال فولوديا بغموض، وكاد يصل
لنفسه:

«آوه، اذهب يا يفغيني، اذهب انت فتى طيب».
غير ان يفغيني لم يذهب. وفى واقع الامر لم يبق لديه
مكان يذهب اليه. فقد جرب فى ذلك اليوم جميع الطرق
التى استطاع ان يفكر بها للتسرية عن نفسه. فشاهد
فلمين. وذهب الى حديقة الحيوانات ليلقى نظرة على
الزرافة الجديدة، وأكل عدة قطع من الدوندرمة، ورمى
عدة رميات فى ساحة الرماية.

- قالت لى فاريا انك عزمت على ان تصبح رجلا
عظيما. أهذا حق؟

- ماذا تعنى؟

- تبذل جهدك لكى تتسلل الى عالم العلماء؟

- لا بد انك مجنون. ماذا تعنى بـ «تتسلل»؟ لقد
وجدته ممتعا. هذا كل ما فى الامر.

فثغا يفغيني:

- ممتع، ياويل! اى متعة فيه؟ سيعلمونك كل
ذلك فيما بعد، فى المعهد الطبى. يتعلمون ويستوعبون...
وفجأة لاح بريق فى عينيه فقال:

- انظر، لماذا لا أجرب دخول المعهد الطبى
ايضا؟ ماذا تقول؟ عليك أن تتخصص فى شىء هناك

كالجراحة، والعلاج، وطب الاطفال، وما الى ذلك. ولكن
هناك اطباء لتنظيم الادارة. اليس كذلك؟

قال فولوديا:

- لا أفهمك.

- آه، ليس من الضروري أن تفعل كل شيء
بنفسك: تقطيع اوصال الجثث، والتلوث باحشائها،
ومعالجة المرضى، والنظر من خلال المجهر. ولكن بصورة
عامة يجب ان يكون هناك من يوجهه...

قال فولوديا:

- أظن ذلك، الاطباء المجربون والاساتذة. فمن
يقوم بالتوجيه غير الناس الذين يعرفون اكثر؟
- هل تظن ذلك؟ - سأل يفغيني في ريبة. وحك
خلف اذنه، وفكر لحظة، وقال:

- لعلك على حق. لقد قطع زائدة أمي الدودية
البروفيسور جوفتيك، اشهر جراح هنا. وهو ما يزال
يزورنا في بعض الاحيان. وهو يقول ان كون الانسان
طبيبا لا يعنى شيئا كثيرا. والشئ الرئيسى يأتى فيما
بعد: الحصول على لقب علمى، أو درجة، لا أعرف بالضبط
أيها. ولامر يتلخص في هذه النقطة: اذا دافعت عن
اطروحة المرشح في العلوم، فتصبح شخصية مرموقة،
واذا كنت حاصلا على درجة الدكتور في العلوم، فهذا
ابرز بكثير. شئ صعب للغاية في الواقع. ولكن لماذا لا
احاول ان أحصل على الدرجة العلمية؟ ان الرفيق جوفتيك
ليس دماغا عظيما. ومع ذلك فقد اقتحم بيئة الرجال
الكبار. وهو في القيادة ايضا. أو بروفيسور جيد؟

ونفض يفعينى، قام على ساقيه القصيرتين، ورتب
سترته التى صنعها خياط دوديك بتوصية خاصة، واتخذ
هيئة عابسة. وأعلن بصوت عال:

— الدكتور يفعينى ستيبانوف.

وبعد صمت قال:

— ربما، بروفيسور ستيبانوف. لانك لو كنت
طبيباً، ينبغى ان تكون من طراز عظيم. بروفيسور. لا
اقل. ماذا تقول؟

وشعت عينا يفعينى الشفافتان بالسخرية. وشعر
فولوديا بأنه أحمق، مثلما يشعر غالباً وهو فى صحبة
يفعينى. ليس بالمعنى الدقيق للكلمة، بل بنوع من
البلاهة.

وعادت العمة اغلايا من العمل. وغضبت فى الحال:
— يا للشيطان حقاً! هو لا يستطيع ان يسخن
عشاءه. ولماذا تبقى فى البيت طوال الوقت يا شقائى؟
وابتسم فولوديا بذنب. وهى تحب ابتسامته هذه،
مثلما أحبته منذ اليوم الذى كان فيه رضيعاً فى شهره
الثالث وقد ترك تحت رعايتها. وها هو الآن رجل
بالفعل.

قالت:

— أنت أيها الزرافة. ذلك أنت. طويلة الرقبة.
وبقى يفعينى للعشاء، ومضى فى شكاواه وهو ياكل.
— البيت يشبه الكابوس. ودوديك يفعل ما يشتهى
دائماً. وفاريا تريد أن تترك البيت وكل شىء... وشجار
يعقبه شجار.

قالت العمدة اغلايا:

- أرجو ألا تنم!

قال يفغيني بزفرة:

- أنا اشاطركم متاعبي كاصدقاء. ذلك ليس سهلا على ايضا، كما تعرفين يا اغلايا بتروفنا. أنا في هذا مفترق الطرق. ورسائل أبى العابسة مليئة بالحكم التعليمية. وفاريا مشغولة بالغناء عن «البطاطة» مع فتيان الكومسومول، والآن ستذهب طوال الصيف الى مخيم الطلائع الاحداث كقائدة جماعة. وأنا هنا اكسر رأسي...

واقترحت العمدة اغلايا في ابتسامة صغيرة:

- اذهب الى مخيم الطلائع الاحداث ايضا.

- من - أنا؟

- نعم، انت!

- لا، وشكرا. ليست عندي صحة فاريا. أنا

مصنوع من مادة اخرى...

قالت العمدة اغلايا وهي تغادر المائدة:

- اجل، نعرف ذلك، أنت ذو الدم الازرق بالطبع.

ولم يفضب يفغيني، فقد كانت له موهبة ليدع

الملاحظات غير المسرة تمضي غير مسموعة. وفضلا عن

ذلك كان لا يحمل اقوال اغلايا بتروفنا، ولا اقوال زوج

امه محمل الجد تماما، وكانما هو اكبرهما سنا.

قال:

- بالمصادفة، ونحن في موضوع الدم. لقد تناقشنا،

فولوديا وأنا، قليلا، وأنا، كما يلوح لي، قد صممت على

تكريس حياتي للطب ايضا.

قالت العمة اغلايا ساخرة:

- اى حظ كبير للطب اذن!

- لم لا؟ ان البروفيسور جوفتياك صديق أمى، وانا

اعرفه ايضا. ان له وزن. وسيساعدنى عند الضرورة...

قالت اغلايا فجأة وقد غلى غضبها:

- اسمع، يا يفغينى! ان كل ذلك كريبه جدا!

او لا تفهم هذا بنفسك؟

- يا للرب! غير ان الحياة هى الحياة، قبل كل

شئ، - قال يفغينى بصراحة تامة، - ان الامر مختلف

بالنسبة لفولوديا لأنه موهوب بشكل مخيف. ولكن

ماذا عني؟ الاستقامة وحدها لا تجدى كثيرا. كل واحد

يعرف ذلك.

ومضى يفسر لماذا لا يستطيع ان يدخل البحرية.

- انا متيقن من اننى مصاب بدوار البحر، بل انا

لا استطيع ان اتحمل حتى حين اركب باخرة النهر. وعلى

كل حال ليس البحر أبدا مضمارى انا. العواصف،

والزوابع، واشياء اخرى... ان الوالد فى هذه الاشياء

نموذجى. والآن، انظرى...

وغادر يفغينى اخيرا وذهبت العمة اغلايا لتنام. وترك

فولوديا فى سلام. وفى منتصف الليل بدت بصلة المصباح

فى غرفته تهس، وخشى فولوديا ان ينطفئ الضوء قبل

ان ينتهى من الفصل. واستمر الهسيس، غير ان البصلة

لم تتلف، ومضى فولوديا فى قراءته ويداه متشابكتان

بقوة، وهو بين الحين والآخر ينهض قافزا، يذرع الغرفة

هامسا طروباً:

- ليس هذا رائعا، باهرا، جميلا. ان العقل
يستطيع ان يفعل كل شيء!

ومضى فولوديا يقرأ: «ثم ان هذا الرجل، ان هذا
الباحث المنفرد، الذى اثار الكره فى بعض الرجال، والفرح
والاعجاب فى البعض الآخر، قد حرر الطب فى آخر الأمر
من اغلال التقاليد، الطب الذى كان ذات وقت مجد العلم،
فاصبح بمرور السنين عاره».

وتوهج وجه فولوديا، وسرت رجفة فى ظهره. وهو
يفهم الآن كثيرا مما يقرأ، ذلك الفتى اوستيمنكو الذى
طرح على النقاش فى اجتماع المعلمين بمثل ذلك النفور.
انه يفهم اكثر، ولكنه ما زال بعيدا عن كل شيء...
وكانت الساعة تشير الى الرابعة صباحا حين سمع
الباب يفتح بصرير ورأى العمة اغلايا وقد بدا عليها
النوم، وشعرها قد تدلى على ظهرها فى ضفيرتين.
قالت:

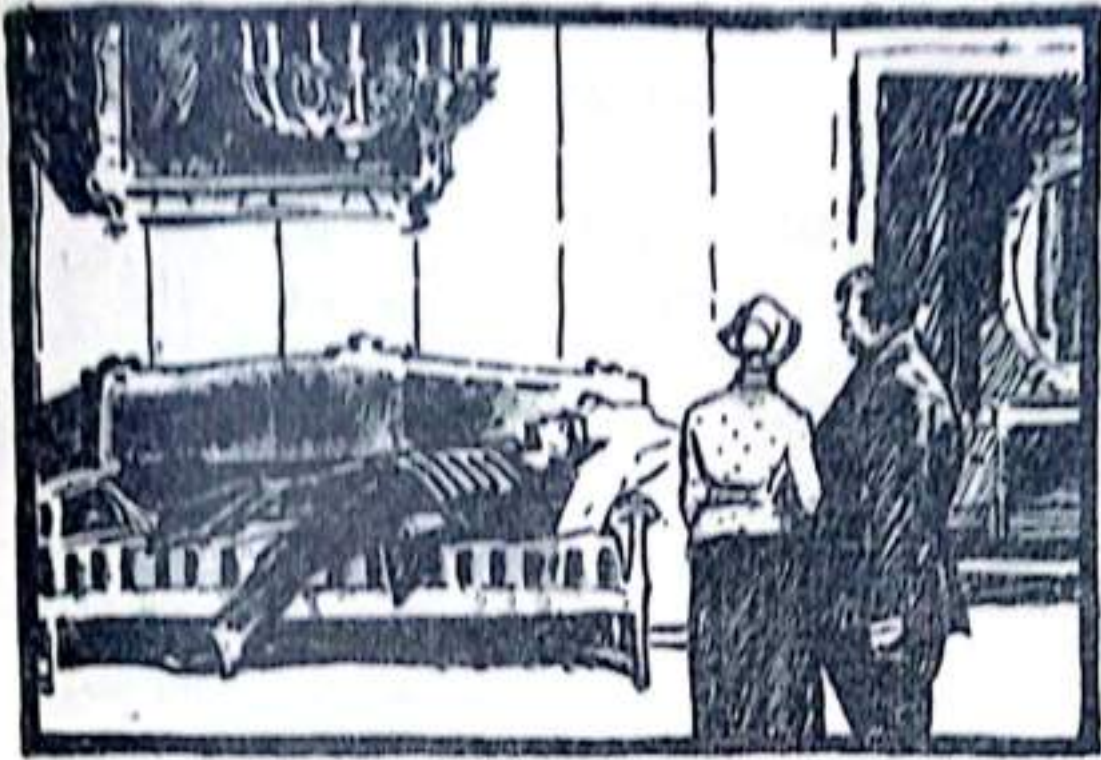
- ساخرجك من البيت! لشد ما انت جرىء على
ان تحطم صحتك! انظر باى منظر انت! ومتى ستنتهى
من ذلك السلوك؟

- ابدأ، - اجاب فولوديا دون ان يبتسم، - ابدأ،
وأرجوك يا عمة اغلايا لا تفضبى. لأذهب واتناول شيئا
من الطعام، فانا جائع جدا حتى لأشعر بالسقم.
وأكل فى صمت ست بيضات مقليات، وكمية كبيرة
من قطع الخبز، وزبدة، وكأسا من اللبن الرائب، ثم تلفت
يبحث عن مزيد.

- كفى، ستنفجرا
- الانسان يستطيع ان يفعل كل شىء، - قال
ذلك، واستمر فى افكاره.
- فى الأكل تقصد، - سالت العمة اغلايا بابتسامة.
والقى عليها فولوديا نظرة مفزعة.



@BLOG_BIB



الفصل الثاني

حمى التيفوس

في شباط ١٩١٩ عين روديون ستيبانوف وهو بحار سابق من الدرجة الثانية في المدرعة « بتروبافلوفسك »، عين مساعد رئيس عقدة خطوط سكة حديد بتروغراد، وكان هذا التعيين مباغتة له. ثم عين بعد ايام قليلة رئيسا. وحتى مارس كان يتحمل النوم على طاولة في مكتبه، ولكنه فجأة شعر بالالهاك، وطلب بان يزود « بارجوحة نوم » يستطيع فيها ان يحظى بقسط من

النوم المحتشم. وفي اللحظة التي تلقى فيها رخصة لغرفة كتبت على قطعة ورق رمادية، ذيلها بامضاء غير مقروء، وختمها بختم مطاطى معمى، انطلق الى العنوان فى شارع فورشتادتسكيا. وضرب بشدة على الباب المصنوع من خشب البلوط بقبضته الثقيلة الموشومة بوشم بحار. ودون ان يرمق المراة التي فتحت له الباب، اتجه الى غرفة كبيرة، على نوافذها الفينيسية ستائر جوخ، وفيها اريكة كبيرة غطاؤها من الجلد الاحمر. والمتاع الذى جاء به يتألف من زوج من الثياب الداخلية الجيدة، المصنوعة من احسن القماش الهولندى، وقد وزع بطلب على موظفى السكك الحديدية، وجراية من الخبز المبتل، وستة سيكارات من تبغ هافانا، والمسدس، ونصف الرطل من السكر الاصفر غير المنقى، وجراب عسكرى قديم.

وما ان دخل روديون الى الغرفة التي بدت على رغم برودتها فى اناقة غير مالوفة بعد تلك السنين الاخيرة التي نام خلالها كيفما اتفق، حتى القى نفسه على الاريكة، وتاوه بصوت خفيض، واستسلم اعياء. ان هذه الحالة التي حسبها انها كانت فى الواقع بداية حمى التيفوس. والفتينا، خادمة عائلة غوغوليف، الفتينا، او أليا كما تعود غوغوليف المحامى أن يسميها، تلك الخادمة التي بقيت فى البيت مع طفلها فى الشهر الخامس بعد أن هربا سيدها وسيدتها من البلاد، كانت تصفى الى «ذلك القوميسار الملعون» يشن زمنا طويلا دون أن تفعل شيئا، حتى حملتها فكرة تحمل المسؤولية اذا

حصل له شيء، الى ان تدخل غرفته بوجل.
ثم البحار قائلاً:

— ماء!

والظاهر انه لم يكن ينن طوال ذلك الوقت، بل كان يطلب الماء. وجلبت الفتينا شينا من الماء، وبقرف جعلت البحار يشرب من القدح الخزفي الانيق الذي يعود الى طقم شاى صينى. ثم هرعت ويفغيني بين ذراعيها الى الطابق الاعلى لتدعو الدكتور فون بابيه، وهو طبيب لامراض النساء من بطرسبورج نموذجى جدا يعيش هنا. وكان الفون بابيه يتمتع بقدح من القهوة الحقيقية وفي بادى الامر رفض رفضا باتا ان يعالج القوميسار. ولكنه بعد ان فكر ثانية وافق على ان ينزل الى شقة غوغوليف لأن تلك الكلبة الفتينا قد تشى به اذا لم يذهب.

— هذه حمى التيفوس! — قال بصوته النسوى المخيف. — احذرى ان يعدى المكان بالقمل يا الفتينا، والا فسيهلك طفلك يفغيني وانت ايضا.
ونظرت خادمة السيدة سابقا الى الدكتور باسى. ولكى يكون فون بابيه فى الجانب المامون، وليلطف من خشونة حكمه، داعب الطفل بان دغدغ صدره باصبعه وقال:

— اية اشياء رهيبة يضطر شعبنا المسكين الى ان يتحملها!

وفى تلك اللحظة وقع نظر الدكتور على السيكرات.
فقال فى عجالة:

— ساخذ ذلك، اذ ان القوميساريين لا يحتاجون الى تلك الاشياء اطلاقا!

— انهم يحتاجون اليها، — قال ستيبانوف بصوت واهن، ولكنه صلب، — ولكنني لست اطلاقا بحاجة اليك. انت برجوازي ملعون!

وتحول القوميسار الى الفتينا وأمر باقتضاب:

— ايتها السيدة، أرميه الى الخارج!

وربما لانه لم يفكر بوضوح كثير اضاف بعض الكلمات اللاذعة. قفز فون بابه لدى سماعها بارتباك. وطلب ستيبانوف من الفتينا أن تذهب الى مكتب السكك الحديدية لتجمع جراية الطعام المستحقة له، وأن تخبرهم بأن يرسلوا «طبيبا لائقا» وأية مساعدة يقدرّون عليها «فلماذا أموت، على أية حال، لغير سبب معقول؟».

وقال القوميسار بصوت خفيض ولكنه حازم:

— ان ذلك غير مناسب من وجهة نظر الثورة العالمية. قولي ذلك لهم ايتها السيدة، لا غير، قولي انه غير مناسب. هل فهمتني؟

ومع ذلك فقد ظلت الفتينا دون حراك.

وطلب ستيبانوف قائلا:

— هل هذا تخريب؟ ضعى ذلك فى رأسك: اذا مت، فالمسؤولية عليك.

ردت الفتينا:

— انا ذاهبة. ولكن هل ستكون فى خير وأنت

وحدك؟

قال القوميسار بابتسامة:
- أصفى الى هذا الشعر عن عصبتنا.
جلست الفتينا على حافة كرسي وهى خائفة، وقد
اخضعتها شخصية الرجل، والتفت اليه وهو ينشد:
أيها الابطال، رجال البحر، القواديس
النازلون ضيوفا على العواصف
أيها البحارة، انكم من جيل النسر
ستشع اغنيتى لكم مثل الياقوت الاحمر.
وسأل:

- هل فهمت بوضوح الآن أيتها السيدة؟
وكانت فى عينيه ضحكة.
وشرعت الفتينا تمشى فى الطريق الطويلة الى مكتب
السكك الحديدية، وهى تحمل طفلها بين ذراعيها. وبعد
ساعتين وصل لرؤية القوميسار وفد نظامى من أناس
وسخين متعبين، ولكنهم مرحون بشكل غريب. ورغم
انهم كانوا جميعا يستعملون تعابير لم تألف الفتينا
سماعها وهى فى خدمة غوغوليف، الا انها كانت تشعر
بأنها تنتمى اليهم، وفكرت بانهم جميعا طيبون، لا سيما
المرأة العجوز ذات الوجه المتغضن، واليدين المعقدتين،
يدى امرأة عاملة. وكانت تشد منديل ممرضة أبيض
على رأسها.

سألتها المرأة:

- هل أنت أرملة؟

ونكست الفتينا عينيها.

قالت العجوز:

— الحال أصعب عليك اذن. ولكن لا تبكى ايتها
الرفيقة. ان تلك الايام قد ولت. وسيكون لك سند
شعبى الآن.

وكان كل شيء غير مألوف، وشديد الغرابة وغير
منتظر. والوعد بتأييد شعبى لشيء ما كان يبدو من
قبل مخجلا ومهينا، والمرأة العجوز تدعوها «رفيقة»،
والناس الذين كان الفتينا تحسبهم «غلاظا» ويسميهم
غوغوليف «غوغاء» يعاملونها بأدب جم، ويدعونها
تشاركهم طعامهم، شوربة من لحم حصان ودخنا. كل
ذلك قد وضع الحياة في منطلق مختلف جدا بالنسبة
لألفتينا. وأصبحت خطواتها أرسخ، ولم تعد تنكس
عينيها، أو تشعر بالخجل من أنها لا تملك زوجا، ولم
يكن لها من قبل أبدا.

وكان القوميسار يتمائل الى الشفاء سريعا.
وفتحت الفتينا مخزنا سريا، وأخرجت بعض لوازم
الاسرة؛ كما باعت أيضا الثريا الخزفية القديمة واشترت
بشمها مؤونة من بينها قرص من شحم الخنزير
أيضا. وحين أخذت لحية ستيبانوف تفيض على وجهه
فتحت الفتينا، بعد لحظة من التردد، المحفظة الجلدية
الانكليزية لادوات الزينة التي كانت ملكا لسيدھا الهارب،
وأخرجت سبع شفرات بديعات كتب على كل واحدة
منها يوم من ايام الاسبوع: الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء،
الى آخره.

سأل ستيبانوف باستغراب:

— لم كان النغل راغبا في سبع شفرات؟

رددت الفتينا كلمات السيد غوغوليف باتقان:
«المعدن ينبغي أن يتمتع براحة». ذلك هو سبب في
أن لكل يوم من ايام الاسبوع شفرة.
- اولاد زنى ماكرون، ايه! - شتم القوميسار
بلطف.

واحتفظ بالشفرة التي تحمل اسم يوم الأحد،
وأعطى الست الباقيات الى رفقائه.
وجلجلت الفتينا قائلة:

- ينبغي أن لا تفعل ذلك! هي ليست ملكا لك
لتعطيها. وسيريك السيد غوغوليف حين يعود!
سأل ستيبانوف غير متكرر:

- ولماذا يعود؟

- هي شفراته!

- حسنا. كان في وسعنا أن نترك له واحدة، ولكن
سبع شفرات، كثيرة جدا، - قال ستيبانوف مصوبا، -
ايتها السيدة، كل ذلك عائد لشعب الآن. لهذا فلا فائدة
لاثارة الشجار.

- سيريك السيد غوغوليف على اية حال!

- ربما أنا سأريه؟

ومرة أخرى ظهرت ضحكة في عينيه.

وكانت هناك أغنية غالبا ما كان يغنيها بينما هو
مشغول بأفكاره:

في الدرب يخفق واهنا
ضوء قنديل في فانوس

والحارس الضجر من العيش
يطق بمهمازيه وهو يمر...

سأله الفتينا ذات يوم:
- اذن فانت قد مكثت في السجن طويلا ايضا؟
- لم أمكث في السجن قط الا اذا كنت تعنين سجن
الشعوب المسمى بالامبراطورية الروسية.

ولم تفهم الفتينا، ولكنها ارسلت زفرة عطف لتكون
في الجانب المأمون. وكان بعض السادة ذوى اللحي
الشعشاء الثرثارين قد تعودوا على أن يأتوا لزيارة سيدها
ذات وقت، وكانت سيدتها تتحدث عنهم «كشهداء
الشعب». وفيما بعد ارتدوا جميعا ستره الخدمة
والطماق، وبدأوا يركبون السيارات، وفي آخر الامر
اختفوا مع السيد غوغوليف. وكل شيء كان محيرا كهذا.
والفت الفتينا نفسها تدرس القوميسار بنظرات أحد
واطول، وتتحدث اليه مرات أكثر، وتنصت الى قصصه
المقتضبة باهتمام متزايد. ولاحظت في بعض الاحيان
أنه هو الآخر ينظر اليها بتحديق.

وما ان نهض على قدميه حتى أمر الفتينا بان تفتح
جميع مخازن غوغوليف السرية. وانفجرت الفتينا باكية
وشاركها ابنها في نحيبها.

قال ستيبانوف باكتئاب:

- أنا لا أريدها. ولكن أحاول أن أصونها من نفسي،
ومنك. فالاجدر أن تصادر الاشياء لا أن تباع شيئا
فشيئا.

وانتحبت الفتينا بصوت أعلى. وقد تعلمت فن
النحيب على هذا الشكل من سيدتها. وظاهر يففينى أمه
بكل قوته الطفولية، وارسل بعض الاصوات الجارحة
حقا. وقام ستيبانوف بمصادرة الاشياء وفق الاصول غير
هياب. وسجل قائمة « بالفائض البرجوازي المصادر من
المواطن السابق غوغوليف » مستخدما في الكتابة قلما
لا يكتب جيدا فكان يبلى بلسانه، وبعد ذلك استخدم
شمع واختام غوغوليف نفسه لختم جميع صناديق السيد
وحقائبه، ودواليبه، وأصونته، ومخازنه السرية.

- أنت مجنون، ذلك أنت، - تمتت الفتينا بين
شهقاتها - هي لنا لنستعملها ونستعملها!

قال روديون ستيبانوف بلهجة مهذبة:

- أنا لست مجنونا، بل أنا بحار ثورى. ونحن
لم نطوح بقيصر كم لنستحوذ على الاشياء بانفسنا سرا.
بل طوحنا به لخير الشعب كله...، والشئ بالشئ يذكر:
اننى كتبت أن تلك الثريا بيعت لتعين على شفائى من حمى
التيفوس.

وأنهكت المصادرة وعويل الفتينا ستيبانوف فاستلقى.
وفى ذلك المساء، لسبب من الاسباب، شاءت أن تقص
عليه قصة حياتها. وأنصت فى صمت وهو مستلق على
الأريكة، وذراعا القويتان مطويتان تحت رأسه. وعيناه
نصف مقفلتين.

وسال روديون بغتة:

- جاءت لغير سبب وصفعتك على وجهك؟

- نعم، - قالت الفتينا وهى تقضم شفيتها.

- ولكن كم كان عمرك انذاك؟
- لم ابلغ الستة عشر تماما.
- قال:
- الكلاب، الديدان لياخذ الشيطان ارواحهم!
- لماذا تشتم؟
- أنا متأسف لك. هذا هو السبب.
- وسال بعد برهة:
- من والد هذا الطفل؟
- فتى كان يتردد الى هنا، ضابط صف، كان حلوا جدا... وطفقت الفتينا تنشج ثانية.
- لا تبكى. ماذا حدث له؟
- كيف أعرف؟
- كفى عن البكاء. الحياة مختلفة الآن. يجدر بك أن تدرسى، وفي وسعك أن ترقى الى أى مركز بنفسك.
- ولكننى اكاد اكون أمية.
- وماذا تحسبىنى أنا؟
- وستظل على الدوام بحارا بسيطا، كما انت عليه
- الآن!

ولم تجرح مشاعر روديون، بل قال وهو يبتسم في
 الفسق الذى أخذ يعسكر:

- ذلك ما تخطئين فيه يا اليا. الثورة البروليتارية
 لا تفيد من البحارة الجهلاء. سأبدأ في تشقيف نفسى ما
 ان نبيد الافاعى السامة.

واختلست الفتينا نظرة الى ستيبانوف، وأعجبت
 بالثقة الطاغية التى لا تقهر المنبعثة من الرجل. ومضى

يتكلم مفكرا، وعيناه مثبتتان في السقف المسبوك، سقف
مكتب غوغوليف:

- نعم، لقد كنت غرا جاهلا عندما انضمت الى
الاسطول لأول مرة. وقطعت كل الطريق من غابات
فوزنيسينسك. ألم تسمعى بها قط؟ وكان ابى لا يعرف
أن يقرأ أو يكتب كلمة. واستطعت أن ارتفع الى العريف
المدرّب في اطلاق الالغام، ثم خفضوا رتبتي توبيخا على شيء
فصرت من الدرجة الثانية على الباخرة «بتروبافلوفسك».
وعرفت جلى الأمر. وكنت على «اورورا» حين اطلقت
النار على قصر الشتاء.

وقالت الفتينا مرتعبة:

- اطلقت النار على قصر الشتاء؟

- فعل آخرون من المدفعية. وقد اطلقنا مرة.
ولكن في الحقيقة بخرطوشة دون قبلة. لم استحق
ذلك الشرف العظيم، - قال ذلك في ابتسام، - ومع ذلك
فقد خدمت على «اورورا».

وتناول يد الفتينا في يده.

ومالت نحوه مطيعة ووديدة، وأدار مبتعدا عنها

وقال:

- ابتعدى يا الفتينا، ليس الامر مزاحا اذا اصابتك

عدوى التيفوس.

غير أن الفتينا كانت تبسم برقة. والآن ستكون
زوجة القوميسار! فليس من الصعب ربط فلو صغير
مثله في الحبل. وكان من ذوى القلوب الرقيقة. وقد جفل
في الواقع حين اخبرته عن ضربها. والحقيقة ليس في الامر

شيء من الصحة. فقد كسرت زجاجة عطر، ونالت جزاء عملها.

قالت:

- علمني الأغنية التي تغنيها دائما.
- أية أغنية؟
- عن الضوء الضئيل، والحارس الذي اضجره العيش.
- حسنا! - قال ستيبانوف وغنى بصوت رقيق:

الليل حالك، فلا تضع وقتا
بيد أن اسوار السجن متينة
وابوابها مقفلة بقفلين حديدين...

الزوجان

وبعد شهر اخذا يعيشان كزوج وزوجة. واصبح
يفغيني الآن يحمل اسم عائلة ستيبانوف، واصبحت الفتينا
زوجة قوميسار، لا وصيفة السيد غوغوليف وسيدة
غوغوليف، بل أصبحت سيدة نفسها، امرأة تستوجب
الاحترام. ورغبة منها في محو ماضيها المقيت كليا توصلت
الى روديون أن ينتقل الى جزء آخر من البلدة، الى جزيرة
فاسيلفسكى، بل حتى الى حى فيبورغسكى.
- ولماذا «حتى» - سأل روديون في تقطيب، أية
فكرة حمقاء هذه؟

قالت الفتينا شارحة:

- لا أحد يعيش في حى فيبورغسكى غير العمال.
- وهم خشنو الطباع كثيرا.

قال ستيبانونف مقاطعا:

- حمقاء! ومن أى عائلة نبيلة انحدرت أنت؟

- لم انحدر من عائلة نبيلة، غير أننى زوجة رجل

بارز، - تمتمت منكسة العينين.

انتقلا الى جزيرة فاسيليفسكى. وحل ربيع مجاعى.

وكان ستيبانونف فى الواقع يعيش فى مركز السكك

الحديدية، يعمل ليل نهار، ولا يبات فى بيته، وحين يدبر

امره ليذهب الى البيت يسقط فى الفراش الى جانب الفتينا،

وفى نومه كان يصك أسنانه ويصرح بكلمات مرعبة:

- مخربون! سارميكم، ايتها الاقراش القذرة!

سارميكم بالنار واذا ذاك سيكون الأوان قد فات!

ووراء النوافذ العارية من الستائر كانت الليالى

البيضاء تجرى خطيرة غير هادئة. وكانت الفتينا تنظر

فى وجه زوجها الفتى المنهوك تماما، فى عينيه المثقلتين،

وشفتيه الجافتين، وتنسج احلامها المتوقدة متمنية بغصة

والم فى القلب أن تتحقق هذه الاحلام، وأن يتسلق السلم

الى القمة، وأن يقف وحده فوق الآخرين، وأن يخشاه كل

الناس، واذا ذاك تطوف هى، الفتينا، بالبلدة فى سيارة

حمراء قوية لها مصباحان كبيران، من ذلك النوع الذى

جىء بها الى الباب لتقلها السيدة غوغوليف زوجة

المحامى. وكان الطموح يرضيها، يعذبها. وما عليها الا

ان تعيش حتى تأتى سفينتها، واذا ذاك تريهم، وتجعلهم

يرون جميعا! أما الآن فهى ترحب بزوجها عند مبيته

فى البيت، وتقرأ قدر ما تحب من الكتب عن حياة الامراء،

والبارونات، والماركيزات، وتلبس طفلها ما يلبس السيد

المحترم، بالطريقة التي كان الزوجان غوغوليف يلبسان
ابنهما: ثيابا مخملية ذات شرائط، وقبعات وطاقيات
غريبة، وصبت الشاي المصنوع من الجزر في اقداح خزفية
رقيقة سكسونية.

وفي الخريف الحق ستيبانوف في المجلس العسكرى
الثورى لاسطول استراخان. وزار بعض رفقاءه الفتينا،
وقدموا لها جراياتها ونصحوها بأن تخرج للعمل. وكانت
تستقبلهم استقبالا جافا مطبقة الشفتين، ولم تتحدث معهم
طويلا، واخذت ما يستحقه زوجها وما لا يستحقه
اطلاقا، في مخازن بتروغراد الفارغة. وكانت سريعة
ايضا في تعلم طريقة الحديث التي رأت من الضرورى
التكلم بها.

فقالت وهى ممسكة بطفلها الممتلىء الوجه الذى كان
يرتدى ملابس هزيلة لهذه الغاية:

— اذن ايها الاقراش المتوارية! انا زوجة
القوميسار تتضور جوعا. ها؟ لا باس. سأذهب الى
«الجيك» وكل واحد سىرى الحديد حارة وسيهزونكم
هزا، ايها الاوغاد البرجوازيون. سيضعون على الجدار
اثنين منكم وبعد ذلك ستجدون المربى سريعا!

وكانت تحصل على المربى، ولكن لا تزال قاسية،
وظلت السيارة ذات المصباحين الكبيرين محض حلم، ولم
يفكر احد قط بالحرائر، ولا بقبعات القش السوداء.
ولكن الفتينا ظلت تنتظر، تنتظر بعناد، بصبر مرير، وحتى
جنونى. وجعلت «رجلها» يفعل كل شىء. أجل، لن تمزح
في ذلك. فليست هى من ذلك الصنف. وسيظهر لها في

غرفتها الفارغة عالم جميل للأشياء - الشمينة، الرائعة،
المختلفة - اصونة ملابس محفورة مزينة بالنحاس
الاصفر، ومملوءة بالجلابيب المعطرة الفاتنة، والكراسي
«الشيبندال» - لقد تذكرت هذا الاسم - وزجاجات
العطور، والستر الفرائية، وغطاءات فرو السمور،
والقفازات، ومقاعد الحب، والبنورات، والطنافس، وغرفة
حمام كل ما فيها ازرق، مثل غرفة البارون روزناو في
شارع فورشتادسكايا، وخمارات الانف، وعلب المساحيق،
وتقديم الشاي والطعام، وعربات الشاي الصغيرة... كل هذه
الأشياء رأتها من قبل، والآن تريدها نفسها. كانت تريد
ان تسير، ان تفتح باب غرفة على أخرى، وأن تكون
السيدة، والمالكة والربة.

« طقم من الغرف » - همست بشفتين يابستين
بالكلمات التي تبدو جميلة عندها - « اكسبرس الشمال »
أو « جولي، ضعى الحاجز امام النار ! »
أو الشوكولاته في علب كبيرة...
لا بأس. ستنظر!

ستنتظر طويلا. ولكن سيحل يومها الموعود.
وخلال ذلك الوقت كان روديون ستيبانوف يجوب
اوكرانيا وراء نيستور ماخنو، قائد عصابات الفوضويين
وكانت عصابات ماخنو تنسحب امام فرقة ستيبانوف
ثلاثة الاف فرسخ دون أن تشتبك معها في نزال حتى
أضنت مطارديها. وهناك في مكان ما غير بعيد كانت العربات
حاملة الرشاشات تندفع في طرق الريف عبر السباسب.
وترك رجال ماخنو رسائل هزء خلفهم في المزارع الغنية،

ولم يقدم المزارعون العابسون ذوو الرؤوس التي الم الشيب
بشعرها غير شربة من ماء البئر لرجال ستيبانوف. وفي
ليالى ذلك الصيف القائط كان الرعد يقرقع مسالما، وكان
المطر الدافئ الغزير يهطل.

وأرسل ستيبانوف مع ممثل عن المجلس العسكرى
الثورى واربعة من رجاله الآخرين الى ماخنو لعقد هدنة،
والقيام بأعمال الدعاية بين فصائل ماخنو. ولم يكن لواحد
من هؤلاء الشيوعيين الستة الذين اختارهم فرونزه قائد
الجنبة الجنوبية لاداء هذه المهمة، أى أمل فى العودة احياء
حين غادروا عربة القائد بعد أن تلقوا توجيهاته المتعلقة
بعملهم.

وفى ستاروبلسك، فى بيت واطى السقف غارق فى
العطر كان نيستور ماخنو ممددا فى بهاء على فراش من
الريش عرقا مجدر البشرة ذا عينين صفراوين. وكان
يجلس او يقف حوله رجال حاشيته وقبعاتهم
الاستراخانية على اقفية رؤوسهم.

سأل ماخنو والقى شعره الطويل:

ربما سنتحدث دون سلاح؟

انا لا احب السلاح. انا رجل مسالم، شفيق.

— اجل، انك شفيق، — قال ستيبانوف ولكنه أبقى

معه مسدسه.

فى الاشهر الثلاثة المتوالية لم يذق النوم الا غرارا،
فقد يقضى ماخنو على الرجال الستة فى أية لحظة،
وبالاضافة الى ذلك كانوا ينضمون الى وحدات مختلفة
من جيشه. غير أن عملهم المتند الدقيق أثمر بالتدريج.

واكثر فاكثرا، اخذ ولاء رجال ماخنو لسيدهم يتزعزع،
واخذوا يتكلمون بتصميم متعاضم عن عقد الصلح مع
البلاشفة. وبعد ان اصدرت الحكومة السوفيتية الامر
بتخصيص الارض للفلاحين لمدة تسع سنوات، لم يعد
روديون ستيبانوف يجد سببا للتفكير بان رجال ماخنو
يدبحونه.

غير انه، لآخر حياته، بقيت له تذكارات معينة من
ذلك العهد: ندبة بيضاء فوق الرسغ حيث وقعت رصاصة
المسدس، وشظية قنبلة استقرت في دفة كتفه، وجرح
في اسفل القصبة ظل يؤلمه لما ممضا زمنا طويلا.
... ذات ليلة ناعمة ساكنة وصلت الفرقة التي كان
ستيبانوف، البحار من اسطول البلطيق، قائدا حزينا لها،
الى شواطئ بحر آزوف. وألقى الجنود انفسهم في الماء
ليغتسلوا، وشعر ستيبانوف فجأة بحنين وفهم ان عليه
ان يخدم في البحرية حتما، وأنه بدون البحر كالميت،
وأن الوقت قد حان للعودة الى عمله الحقيقي.

ومن ذلك الحين أصبحت حياته صعبة جدا حتى بدت
سنوات الحرب الاهلية بالقياس اليها لعب اطفال: لقد
دخل المدرسة، وكان عليه ان يتقن الجبر، والهندسة،
والمثلثات، ويصنع الرسوم، ويتعلم القراءة والكتابة في
اللغة الانكليزية والالمانية، ويستغرق في التاريخ.
وكان يجب عليه ان يستعد لأن لا يقف فيما بعد
على جسر السفينة الى جانب الضابط البحري الاخصائي
بل ان يقود الطراصة المدرعة بنفسه او حتى احدى
قطعات البحرية.

ثم أن المعلمين المتأنقين المهندمين الهازئين في
سحناتهم الباردة طرحوا في الامتحانات على البحارة
المقبلين بصراحة اسئلة اعقد بكثير من التي طرحوها قبل
الثورة على اولاد النبلاء. وكان اولئك العمال الشبان،
والبحارة والجنود السابقون الذين اجتازوا جهنم الحرب
الاهلية كلها، واقفين امام معلميههم، مستمعين الى تقييدات
هؤلاء المعلمين الذين لم يتفضل بعضهم بالاعتراف بالسلطة
السوفييتية الا منذ زمن غير بعيد. وكم كان على ستيبانوف
ان يسمع كلمات باردة مثل هذه:

— لماذا لا تفهمون؟ ذلك لأنكم يا رجالى الطيبين
تفتقرون الى الثقافة العامة. وذلك لا يأتى فى الحال.
والمرء يمتصه مع حليب أمه. والثقافة التى هى ضرورية
جدا لقائد بحرى لا يمكن ان تحصل بضم الدروس أيضا،
واعذرونى — أنا لست ماركسيا — ولكنها حق مكتسب
بالولادة...

وامتقع الطالب روديون ستيبانوف من الغيظ ولكنه
لزم الصمت. وفكر: «انت تكذب أيتها البقية العدائية،
انك سترى بعد عشر سنوات أو عشرين ماذا نصبح.
سترى وستدهش، ولكن بعد فوات الاوان؛ سنخلق مثقفين
احذق منك ومن كل سلالتك المترنحة! ».

وكان ينام اربع ساعات فى اليوم، لا اكثر. ولكنه
كان يحلق وجهه يوميا، مستعملا الشفرة التى كتب عليها
كلمة «الاحد». واصبح يقرأ باللغة الانكليزية، بمساعدة
القاموس، لا الاصطلاحات والتعابير البحرية الخاصة فقط،
بل كان فى وسعه ايضا أن يقرأ المقالات التى تصف بعض

الحوادث من الخدمة البحرية والتي ظن أنها قد تفيده.
كما حاول ان يتكلم اكبر وقت ممكن مع زملائه - بحارة
اساطيل البلطيق، والبحر الاسود، وبحر آزوف - باللغة
الانكليزية بالطريقة التي اعتقدوا أنها طريقة امراء البحر
الانكليز التي يتحدثون بها في ادميراليتهم: مدخنين، متانين.
وفي تلك الفترة ايضا، كان الرياضيات العالية ألق جديد
خاص في عيني ستيبانوف، فأصبحت مصدر متعة وليست
مصدر رعب محض.

ونفس المعلم المهندم المتأنق، ذلك الذي كان منذ
وقت قريب يفسر لستيبانوف ان الثقافة تتوارث جيلا
بعد جيل، قال ذات مرة:

- انه موهوب هذا الملعون ستيبانوف!

وكان ستيبانوف يسمع الكلمات عرضا، ولعلها كانت
اعظم اطراء يمكن ان يتمناه في تلك السنوات: لقد اعترف
العدو بأنه هو، ستيبانوف، قد تغلب عليه، وذلك امر ذو
قيمة.

كانت الفتينا تتشكى دائما من أنها تعبلة وضجرة.
وكانت تعيش حياة كسل تامة، وكانت في الغالب لا تعمل
شيئا وتذهب لزيارة «السيدات» الاخريات او تستضيفهن
بنفسها. وكن يشربن الشاي بأكواب شفافة مداعبات
يفغيني الصغير، متحدثات بطريقة متوانية وسنى. وكانت
احاديثهن غريبة، والكلمات غير مألوفة لدى ستيبانوف.
فكن يسمين تسريحات شعرهن بـ «العقصات». ويقلن
ان يفغيني الصغير يشبه «وليا في المنفى» وبعض الكراسى
«عصرية» وبعضها «روكوكو». وكن يتحدثن عن نادى

« فلاديميرسكى » حيث « ينشأ الناس ثرواتهم من العملات الثابتة ». وكن يشتري عطور « شانيل » الباريسية - زجاجة واحدة لهن جميعهن.

ونادرا ما كن يتحدثن الى ستيبانوف، وحين يتحدثن معه يتحدثن بلهجة احترام هازل. وكن يسمينه « نلسوننا المقبل » او مارات او « الذى كان لا شىء، وسيصبح كل شىء ». وحين يخاطب بذلك يشعر بان له رغبة فى ان يشتم على طريقته القديمة لما قبل الثورة، او يرفع فنجانا من تلك الفناجين التى تسميها الفتينا بـ « الخزفيات الساكسونية القديمة » ويحطمها على الارض. وبالطبع، لم يكن يفعل شيئا فى هذا القبيل، بل كان يقطب، وينسحب الى مكتبه الكسيح، واجدا الغوث فى كتبه ومذكراته ورسومه.

وكانت فاريا ما تزال رضيعة، وكانت الفتينا تحبها أقل بكثير مما تحب يفغينى. وكان الطفل دائما يشر وتر الشفقة فى قلبها. وغالبا ما يتأذى روديون حين يسمعها تهمس فوق الطفل النائم:

- أنت ايها اليتيم الصغير المسكين، أنت يا من لك أب غير والدك، يا حلمتى العزيزة الحمقاء. ستحميك أمك، ولا تدع أحدا يعربد عليك، فلا تخف يا طفلى الميتم...

وذات ليلة قال روديون فى غيظ:

- من الذى يعربد عليه على اية حال؟ لماذا تتحدثين هراء كهذا؟ انه بالذات قادر على ان يعربد على من يريد، لا هدوء فى البيت بسبب تصرفاته، لقد

اسقط على الارض زجاجة من الحبر الهندي بعد ظهر
اليوم، وحين هددته بان تقرر اذنيه...
قالت الفتينا:

- اجل، اجل! لو كان طفلك لما هددته. انت لم
تضع أصبعاً على فاريا. أنا متأكدة.

قال روديون مشدوها:

- ولكنني لم أمسسه قط!

وتجاهلت الفتينا جوابه ومضت تهمس فوق
ابنها النائم، وهز روديون كتفيه، وعاد الى رسومه.
كانت الساعة تتكتك مسالمة على الحائط، وفاريا
تتنفس في سريرها، وحفيف الاوراق حين تقلب الفتينا
صفحات روايتها. انها عائلة، على ما يبدو... ولكن اية
عائلة؟

ولم يكن لدى روديون متسعاً من الوقت لكي
يسترسل في التفكير، فقد كان يستعجل دائماً. الزمن
مستعجل، والبلاد مستعجلة، ولم يكن في وسعه ان يتخلف.
وكان ولوعاً بكل شيء: بالصحف، بالكتب، والمؤتمرات،
والاجتماعات، والمحادثات، والمحاضرات. وكان لا يريد
ان يفوته شيء من هذا كله. وحين كان يسمع الفتينا
تتشكى بكلمات مخدمتها السابقة، فتقول ان «الكأبة
تضنيها»، ينزعج ولكنه يلوذ بالصمت. وذات يوم قال
روديون منزعجاً:

- الفتينا، لست انا سيركا لك. لقد قلت لك مائة
مرة، اشغلي نفسك في العمل. وليس من باب مغلق

امامك اليوم. اذهبي وادرسى. وحتى في وسعك ان تصبحى
مفوضة الشعب، اذا رغبت في ذلك.

صاحت الفتينا في غيظ:

- لقد اديت نصيبى من العمل. فقد كدحت منذ
ان كنت فى السادسة عشرة، لا حتى وانا فى الخامسة
عشرة! ولى تمام الحق فى ان استريح الآن، واعيـش
كانسان. اوه، ولكن لا امل فى ذلك معك، ما دمت لا
تستطيع استئجار خادمة لى.

واندهش روديون:

- خادمة؟ لك؟ ومن اين جئت بهذه الكلمة العتيقة؟
نحن نقول اليوم: «عاملة فى البيت»، وليس «خادمة».
قالت الفتينا فى بسمة متكلفة:

- حسنا. استأجر عاملة فى البيت اذن. انا لا اهتم
باى اسم تطلقه عليهن ولكننى غير مضطرة، بعد الثورة
الى ان...

- انت مجنونة، - شتم بضجر.

فردت عليه قائلة:

- انت المجنون لا انا. بحار ثورى! ما الذى
حصلت عليه لقاء جروحك؟ مركز فى المجتمع؟ هل حصلت
حتى على شقة متواضعة من خمس غرف؟ لا. وانت تشيب
ولكنك ما تزال تذاكر مثل تلميذ المدرسة. ونحن لا
نكاد ندير امرنا باجرة يوم الى يوم لولا صفقاتى...
وسال وقد امتقع لونه:

- اية صفقات؟ اية صفقات تقومين بها؟

وخافت ولم تجب.

وبعد هذا بزمان قصير وجدوا عند يفغيني مرض السل. واوصاه الاطباء بان لا يظل في بتروغراد. وخافت الفتينا، وتذكرت غابات فوزنسensk التي كان زوجها يحدثها عنها، واخذت تستفسر منه عن نوعية البلدة التي ولد فيها. ووافق الاطباء بالاجماع الغابات، والطقس، ونهر انجا. وفي ايار ١٩٢٣ اخذ روديون ستيبانوف عائلته الى البلدة التي جند فيها ذات مرة لخدمة قيصره وبلاده.

وكان له فيها صديق قديم هو افاناسي اوستيمنكو من رجال السلاح الجوي. وقد وجدت اغلايا اخت افاناسي شقة لعائلة ستيبانوف في شارع بروليتارسكايا. وما ان استقرت العائلة حتى عاد الصديقان افاناسي الارمل، وروديون المتغيب عن زوجته - الى بتروغراد ليواصلوا دراستيهما. وفي القطار البطيء شربا شيئا من الفودكا، واكلا قليلا من لحم الدجاج البارد، وعادا متلهفين الى ذكريات الحرب الاهلية، وكيف طار افاناسي على «سوبفتش» ملقيا على الجيش الابيض الاعلام الصغيرة التي كتبت عليها البيانات، وكيف اسقط في عام ١٩٢٠. سأل روديون:

- هل تفكر في ان تتزوج من جديد؟
- بصراحة لا. نظرت الى فالينتيناك وقررت ان لا افعل ذلك!
- اية فالينتيناك تقصد الفتينا.
- لقد قالت لي ان ادعوها «فالينتيناك»، - قال ذلك

وتشاءب، - وقالت لى ان انسى اسم الفتينا. هل نشرب
كاسا اخرى؟
وشرب كل واحد منهما كاسا، واكلا بعض التفاح
المخلل.

قال روديون:

- ان ابنك طيب جدا. لقد اعجبت به.
- فولوديا؟ هو حسن. ولكنه متعفرت بعض
الشيء.

الابنة

... رفضت الفتينا السابقة، والمعروفة الآن بفالينتين،
العودة الى لينينغراد، ولكن روديون لم يصر انذاك. لأنه
فى معظم الوقت كان يعيش على باخرته او فى كرونشتاد
حيث استاجر غرفة من ارملة رئيس النوتية عجوز. وكان
يقضى اوقات فراغه القليلة فى القراءة وكان فى نحو الثلاثين
عندما قرأ لأول مرة «الحرب والسلام» و «الماضى
والافكار» و «القوزاق» و «الغرفة رقم ٦» و «بطل من
هذا الزمان». ولم يكن يحب زوجته. وكان ذلك واضحا له
وضوح عدم محبتها له. ولكنه كان يريد ان يحب، كان
يريد ان يقرأ بصوت عال على امرأة، وليس على
ميخاليوك الضابط الاقدم، يقرأ عن ناتاشا روستوفا وهى
تغنى فى بيت عمها، كان يريد ان يتجول فى ليلة بيضاء
الى نصب بطرس الكبير مع امرأة يهواها، وليس مع

ميخاليوك ثانية. كان يريد ان يترقب الرسائل، ويكتب
الرسائل بنفسه.

وفجأة، وبصورة غريبة تغيرت حياته الى الاحسن.
لقد كتبت له فالينتيننا تقول انها لا تستطيع ان
تسوس فاريا. فان الطفلة خشنة الطباع، ووقحة، وغير
مطبعة، وينبغى ان توضع في اليد. وانها لفكرة صائبة
لو ياتى ابوها، ويفعل شيئا بشأنها.
وبعد تفكير كتب يخبر فالينتيننا بان ترسل الطفلة
الى كرونشتاد.

والتقى بقطار فاريا في لينينغراد.
ودون ان يفهم تماما ما حدث له حملها في ذراعيه
وقبل جبينها ذا النمش، وضفيريها الصغيرتين المشدودتين،
وعنقها، وكتفيها النحيلين. وامسكت فاريا بقميص ابيها
القطنى الابيض الصلب وهى تصرخ صرخات صغيرة خافتة.
واكتشف سعادة كونه ابا.

وفكر فى تلك الايام: «ان المرء لا يمكن ان يعيش
بدون حب. لا يمكن، ولا يجوز له. اوه. حسنا. لم يكن لى
حظ فى الزواج، ولكننى محظوظ بابنتى. فهى صبية
محبوبة. ويمكننى ان اسعد بحبها».

وشدت ارملة رئيس النووية ضفيري فاريا بشرائط
زرقاء جميلة، ووضع روديون قدميها الصغيرتين بزواج
من الاحذية الجديدة الجلدية اللامعة، واخذها من يدها
وقادها الى باخرته. وكان اليوم شديد الريح مغبرا
حارا، وكانت تهب من جانب البحر رائحة مالحة. لقد كان
يقود فاريا الى بيته الحقيقى، الى اناس يمكن ان يسميهم

عن حق اهله. وحنكه الذى حلقه فى الصباح لم يكن ساكنا تماما كالعادة. كان الاب والابنة يتحدثان طوال الطريق الى هنا حديث شخصين راشدين. وكانت فاريا وهى تقزل قليلا كالحمامة تعجب بطيور البحر، و«المياه الكثيرة» والسماء «الزرقاء جدا». واراد هو ان يعرف لماذا لم تكن تصفى الى امها، ولماذا هى شكسة ووقحة.

قالت فاريا:

— اوه، يا بابا. ما هذا منك؟ كل شىء جميل حولنا. ولكنك تشبه ماما.

ولم يكن فاريا شكسة الطباع، ولا وقحة. كانت مستقلة، متحررة فى روحها، ولها طبيعة شهمة جدا. واسطورة كونها وقحة قد ولدت فى اول يوم ذهبت فيه فاريا الى المدرسة. فى منتصف الدرس الثانى حزمت ابنة ستيبانوف الصغيرة كتبها باتقان، واتجهت نحو الباب. وناداه المعلم فى استياء لتعود، واجابت فاريا، حين كانت فى الجانب الآخر فى الباب:

— انا جائعة.

لقد تركت الفتاة الصغيرة المقطبة المتينة البنيان ذات الضفيرة القصيرة، المدرسة عائدة الى البيت. وصاحت الام: «ان يفغينى لن يفعل ذلك قط!» ووافق يفغينى على ان القصة مفزعة بحذافيرها.

وبعد ذلك اعطت فاريا مؤزرها المدرسى الجديد الى الفتاة جارتها لأنها، كما قالت، تملك مؤزرين، ولا تملك هذه الفتاة واحدا. واهدت حزام يفغينى الى ساشا مبيض

الحيطان، لأن ليففيني عدة احزمة جلدية، وساشا هذا كان يشد بنطلونه بحبل. وضربت فالينتيننا فاريا. ولم تبك الطفلة، ولكنها لم تحاضن امها بعد ذلك.

كان النوتية يسمون فاريا «متسلقة ساحرة»، واخذ كل واحد يحبها. كانوا يعبثون في غرفة الضباط، وفي اعلى مقدمة السفينة، وفي مؤخرة السفينة، كلما كانت تظهر بتنورتها الحمراء المبلكتة. ولم تبك قط، ولم تتجهم او تعول. كانت دائما تصدع للامر برشاقة، وكانت النظرة في عينيها الواسعتين نظرة دهشة سعيدة دائما.

وفي ذلك الشتاء دومت فاريا في مدرسة كرونشتاد وكان ذلك زمنا سعيدا بالنسبة لابيها. وكانا يقضيان امسياتهما في السينما، او يذهبان الى لينينغراد ليشاهدا مسرحية، او كان يساعد زميلات فاريا بكسورهن العشرية، وسوية معهن يحل المعضلات حول الاحواض والقطارات. وبعد ذلك تتصدر فاريا السماور وتصب الشاي بينما يفكر ابوها باعتزاز: «اية ابنة هذه! اية فتاة! فاريا ستيبانوف ابنتي! ابحثوا عن اخرى مثلها في العالم!»

وفي اوائل الربيع ماتت ارملة رئيس النوتية، وتلقى ستيبانوف امراً بالابحار. وجاء النوتية جميعا ليودعوا فاريا. وكانت الدموع قد جعلت وجهها منتفخا وكانت ساقاها تهتزان من التعاسة، والقت ذراعيها الصغيرتين حول اعناق الجميع، البحارة والضباط بالتناوب ماسة خدودهم الخشنة الفتية بشفتيها الرقيقتين. وقالت:

- تعال وانزل عندنا يا عم ميشا. فعندنا نهر جميل ايضا!

- تعال، وانزل عندنا يا عم بتيا. اعنى على شرفي!
- في اللحظة التي تسرح فيها تعال وانزل في بلدتنا للدوام ايها العم كوستيا!

وفي الشتاء ذهب ستيبانوف لرؤية عائلته. ودخل البيت مثل غريب. كان يفغيني، وقد شد رأسه في شبكة شعر مستلقيا على الارىكة يقرأ في كتاب مصور سميك. وكانت الغرفة التالية مفعمة بالعطور مثلما كان ذلك في كوخ نستور ماخنو. وكانت فالينتينا في المسرح. وكانت فاريا عند صديقتها. ومدد يفغيني نفسه وقال:
- حسنا، ما الاخبار يا بابا؟

اجاب ستيبانوف:

- لا شيء على وجه الخصوص. ما هذا الكتاب الذي تقرأه؟

قال يفغيني:

- «النيفا» عام ١٨٩٤. كتاب ممل بشكل مخيف.

- لماذا تقرأه اذا كان مملا بشكل مخيف؟

- ولكن هل من شيء آخر افعله؟

وبعد قليل عادت فالينتينا. تبدو اكثر تورا وجمالا من قبل وهى فى معطفها الفرائى.
وقالت بسخرية:

- اوه. لقد شرفنا البحار العظيم! يا للفرح!
الآن تعلمت استعمال السخرية.

وقدمت الشاي بابر يق شاي من نوع خاص،
وشرحت الجبن شرائح رقيقة جدا، وكان السجق شفافا
تقريبا، ولم يسأل احدهم روديون ايفضل ان ياكل وجبة
اعتيادية او كاسا من الفودكا بعد رحلة طويلة باردة،
ام لونا آخر من الطعام.

وقالت زوجته:

- وبالمناسبة، انا لم اكتب لك عن ذلك، لانك
تطلع فاريا على جميع رسائل، ولكنها اصبحت مستحيلة
تماما. هي تقضى كل ايامها مع روادها الصغار وتغنى
الاجاني الخشنة، ولا تجيب لى ان... انتقاد...

- تعنين انتقاد؟

قالت فالينتيننا محتدة:

- بالضبط، وبصورة عامة، هي جدا جدا
سوفييتية.

وتجههم روديون، وعلا الدم عظمى وجنتيه:

- ماذا تعنين بذلك؟

- اعنى ما قلته.

- كوني اكثر وضوحا، اذن.

- انها حمقاء حمق العصا، - قال ذلك يفغيني وهو

يتأرجح بكرسيه.

وبدلا من ان يمكث روديون اسبوعين كما قد
عزم من قبل، لم يبق في هذا البيت غير ثلاثة ايام قضاها
مع فاريا ذاهبا معها الى حلقة التزحلق، والى عائلة
اوستيمنكو - اغلايا بتروفنا، وفولوديا - والى المسرح.
بل حتى انه ذهب الى اجتماع للرواد الصغار، والقى فيه

حديثا عن البحرية السوفيتية. ولم تعجب فاريا كثيرا
بالحديث.

قالت:

— لقد القيته دارجا جدا يا ابي. وفتياننا وفتياتنا
مدركون جدا. ولا يريدون ان يقدم لهم كل شيء
في صحن.

وتورد وجه ستيبانوف.

وقالت فاريا في زفرة:

— ان الفتاة تعيش سنين وسنين ولكنهم يظلون
يعاملونها كطفلة.

ثم قالت مقترحة:

— اتعرف ماذا؟ دعنا لا نذهب لنتناول الطعام
في البيت. هناك مطعم صغير قريب، وسلطته رائعة
جدا، وفي بعض الاحيان يقدمون «هامبرغر»...
ونظفت فاريا خوان المائدة المشمع من فتات
الخبز، وقالت دون ان تنظر الى ابيها:

— حدثني يا ابي، متى وقعت في الحب لأول مرة؟
لقد كنت كبيرا بعض الشيء. اليس كذلك؟
فقال في ارتباك:

— لا ليس تماما.

— ولكنني اعرف ان بعض الناس يقعون في الحب
وهم صغار جدا وفي بعض الاحيان في حب شديد ايضا.
قالت فاريا وتحولت عنه:

— نعم، نعم، في حب شديد، شديد للغاية.
وابتسم روديون ميفوديفتش ابتسامة مرتبكة.

اذن فسيحرم من آخر مسرة له، كل ما تبقى له.
لا. لا. انها ما زالت جد صغيرة!

قال متوسلا برقعة:

- لا تتعجلى في الوقوع في الحب. لديك متسع
من الوقت.

غير ان فاريا لم تسمعه. ولعلها لم تكن مصفية اليه.
وفي تلك الليلة سافر.



الفصل الثالث

فطر

في يوم الاحد من ايام آب خرجت فاريا وفولوديا، وبوريس غوبين، صديق فولوديا، يفتشون عن الفطر في ضواحي محطة سكة حديد غوريليشي. وفي بادي الأمر التقطوا الفطر بانواعه، وبعد ذلك اقتصروا على احسنه. كان النهار رماديا، ودافئا، وكان ثمة مطر خفيف. واصابهم البلل، او بالأخرى اصابتهم رطوبة شديدة وليس بللا حقيقا. واوقدوا نارا، وجلسوا حولها يشوون البطاطس، بينما كان فولوديا يتحدث.

- ينبغى على المرء ان لا يخلط، ولا يلفق، بل يتقصى ما تفعله الطبيعة وتحمل معها. ذلك ما قاله بيكون. بل هناك اصطلاح اقصر: ينتصر على الطبيعة من طبيعتها. ولكن يجب القول ان بهذا النوع من التفكير لا يذهب المرء بعيدا. فقد صيغ بحداقة ولكنه فى نفس الوقت مسالم جدا. ومن جهة اخرى...

وادارت فاريا رأسها بأدب، وسقطت فى اغفاءة. وفجأة ارسل بوريس غوبين، وهو شخص لبق، تشاؤبا زاعفا جلب الدموع لعينييه اللطيفتين. وقد اغضب ذلك فولوديا، وانقض على بوريس، وتطايرت الاوراق واشواك الصنوبر وخبط بوريس قدمه فى النار الكامدة، وصرخ. واستيقظت فاريا فزعة. وتصارع الولدان رافسين تراب الغابة، صارخين لمرح الحياة ولانهما قويان، فتیان، معافیان.

صاحت فاريا:

- أنا ايضا، أنا ايضا، لنضع تراكما!
والقت نفسها على الولدين، وفجأة احس الثلاثة بالخجل. وبرزت فى عيني فاريا نظرة ارتباك.
- يا للحمقى الاغبياء! - قالت فاريا وهى تكاد تجهش ورتبت ثوبها، وصفت ساقىها. وتحاشى فولوديا وبوريس النظر الى بعض.

وقال فولوديا بعد قليل:

- فى المرة الثانية لا تتدخل! اثنان يمكن ان يتصارعا، وعلى الثالث ان لا يتدخل. اين سكينى يا بوريس؟

وتظاهر الاثنان انهما يبحثان عن السكين.
وكان امرا محيرا جدا حتى ان بوريس اخذ يغنى،
ولكنه تحير وطفق ينشد شعره:

جاءت امطار الخريف،
والكولخوزيون لا يقضون اوقاتا في حقولهم.
وفي الشارع ترن اغنية
ودخلنا عمارة جميلة جديدة...

توسل فولوديا اليه:

— اوه بوريس، لماذا انت هكذا!

ثم مشوا عائدين الى المحطة. وكانت السماء ما
تزال ترسل رذاذا، وكانت سلالهم تصر مثقلة بالفطر.
وكان المساء قد هبط حين وصل الصبيان الثلاث الزعالى
التعبون الى خط السكة الحديدية، وراوا حشدا من الناس.
كان هناك صبي راع في نحو الرابعة عشرة من العمر
ملقى الى جانب الخط يتشنج وينخر نحيرا مرعبا.
وكان الدم في كل مكان، على القضبان الحديدية، وعلى
الخشب، وعلى حصى السكة الحديدية. وكانت على مسافة
قريبة من الصبي ساق في نعل قماشى وحذاء مطاطى
قديم، وكانت امرأة عجوز تنتحب، والفلاحون واقفين
يرين عليهم صمت موحش لا يعرفون ماذا يفعلون. وعلى
كثب منهم شاة مدهوسة ايضا تنازع نزاع الموت.
واندفع فولوديا شاقا طريقه خلال الجمع وقطع
قميصه، واخذ، ووجهه رمادى من الرعب، يشد على
البتر مشدا لوقف نرف الدم بيدين عجلتين غير مجربتين.

وساعده احدهم، ولم يعرف الا فيما بعد انها كانت فاريا. وقدم فلاح يرتدى قبعة قش بالية الساق المقصوفة الى فولوديا. فلعله فولوديا بقوة، وعدا بوريس الى المحطة، وبعد حوالى عشرين دقيقة جاءت عربة ترولى فيها طبيب ونقالة.

- من الذى فعل هذا المشد؟ - اراد طبيب السكك الحديدية العجوز ان يعرف.

واشار الفلاح ذو قبعة القش الى فولوديا.

- هل انت طالب؟

ولم يجب فولوديا.

وقال الطبيب فى حلق:

- كلهم سكارى. الشياطين، واليوم يوم الذهاب

الى الكنيسة. عم تعولين على اية حال؟ على الشاة؟ - صاح الطبيب فى المرأة العجوز ذات الوجه الداكن.

وأشار الى عربة الترولى بهزة من رأسه وقال

لفولوديا بأن يأتى معه.

وفى غرفة الاسعاف الأولى الصغيرة فى المحطة، طلب

الطبيب روبا ابيض لفولوديا واخذ يحضر ليحقن الراعى

حقنة انتيتيتانيك. وللحظة شعر فولوديا بغيوبة،

وسمع صوت الطبيب الصلب وكأنه فى حلم.

- نعم ما فعلت. ينبغى ان اقول: ليس سيئا

ان يصدر من طالب فى الصف الاول. ان لك عقلا

حصيفا. ذلك هو الشئ الرئيسى. لماذا انت صاحب

جدا؟ يا ممرضة، أعطيه نشقة نشادر... وليذهب

ليستنشق الهواء.

وكانت فاريا وبوريس جالسين على مسطبة في الخارج.

سأل بوريس:

— اين سلتك؟

وهز فولوديا كتفيه، وشعر بامتعاض. « لن اكون طبيبا، لن اكون، لن اكون ». وكان يفكر ذلك بحزن. وفقدان السلة شيء مؤسف ايضا. ولم يكن يأسف لفقدان الفطر، فليذهب الفطر الى الجحيم على اية حال. بيد أنه شعر بشيء من الخجل لا غير.

وبعد يومين رأى فولوديا مقالا في الصحيفة المحلية عن الطالب السوفييتي المتواضع الذى أظهر شجاعة فائقة فضلا عن مقدار ما يملك من المعرفة السليمة، وقد اختفى دون أن يذكر اسمه. وفي الختام استخلص استنتاج تهذيبي فحواه ان مثل هؤلاء الابطال المجهولين لا يمكن أن يوجدوا الا في بلادنا. وقص بوريس غوبين القصة لكل تلامذة الصف وحين جاء فولوديا الى المدرسة في اليوم الاول من الفصل الخريفى استقبلوه بتصفيق حاد.

وفي ذلك المساء قالت العمة اغلايا:

— حسنا، ايها البطل المجهول. قص على الحكاية كلها. أنا متلهفة.

— هل هذرت فاريا؟

— ربما.

— هل تعرفين؟ لقد اشتريت سلسلة محاضرات

في الجراحة الحربية.

- أجل؟

- أخذت ذلك عن الكتاب. ولكنني لن أكون طبيبا.
أنا خجلان لا قرارى بذلك. ولكن كل شيء كان يدور
حول...

- هذا يحدث مع كل انسان في بادى الامر، - قالت
العمة اغلايا وهي تنظر الى ابن أخيها بعينين براقيتين، -
ولو كنت تعرف ماذا احسست، وأنا غسالة، حين
دخلت المدرسة لأول مرة!

وبعد هذه الحادثة في المحطة اصبحت فاريا وديعة
للغاية ولم تغضب فولوديا في شيء. وكان يفغيني الشخص
الوحيد الذى يتحدث عن القضية بسخرية.
سأل بصوت كريه عن قصد:

- لقد نتشوا فطرك. هكذا يحدث حين تبذر بذور
الكرم والرحمة والحكمة...
سأل فولوديا:

- ربما تريد أن تنال صفقة؟

قال يفغيني في جهامة:

- هذه صبيانية، لا تريد الا الملاكمة!

أجاب فولوديا:

- هناك حالات يكون الجدل فيها لا معنى له.

لكمة معتبرة - وكل شيء يسوى.

- وماذا عن القانون؟ أتحسب اننى لا أرفع ضدك

قضية عن الاساءة؟ ثم تنزل في معتقل للعمل الاصلاحى
يا فتاى الطيب. لقد تحققت من ذلك، - قال يفغيني
برود.

ونظر فولوديا اليه، وقد أدهشه ان يرى يفغينى غير مازح. كان يبدو هادئا ورابط الجاش، نموذجا من امتشاق القد بقميصه المفصل تفصيلا انيقا، نوعا من الفتيان الذين يراهم الانسان فى الملتصقات. وفكر فولوديا: «ربما ينبغى ان اصفعه؟» ولكنه شعر بالضيق فجأة، وانصرف.

«الاباء والبنون»

أخذ فولوديا، وهو ما يزال فى المدرسة، يعيش حياة معهد سيجنوف الطبى. فقد عرف من بوريس غوبين انه يوجد فى بعض الكراسى حلقات الطلاب العلمية التى يمكن ان يحضر جلساتها من يريد. ومنذ ذلك الحين أخذ فولوديا يحضر محاضرات علم التشريح التى القاها البروفيسور غانيجيف. هذا البروفيسور، القصير السمين الاصلع تماما، لاحظ فورا هذا المبتدىء ذا الرقبة الطويلة ورغم أنه لم يطلب منه أن يجيب عن أى سؤال، فغالبا ما كان يخيل اليه أنه يلقي محاضراته على فولوديا وحده. وفى المدرسة، كانت امور فولوديا تسير بصورة طيبة، غير ان المعلمين كانوا على يقظة منه، وبعضهم كان عدائيا. وفى اجتماعات المعلمين كانوا يسمونه «بالطفل الأعجوبة». وقد صرحت تاتيانا يفيموفنا بصراحة تامة فى مناسبات عديدة ان اوستيمنكو فردى، وعقليته غير واضحة، وأنها لا تتوقع أى خير من هذا الفتى العاتى. ولم يكن جميع المعلمين يشاركونها

الراى، ولكن الجدل معها يعنى الخصام، ولا أحد يحب الخصام. وكان استياء المعلمين من فولوديا يزداد على مرور الأيام. وكانوا يتضايقون من سرحانه الصامت الذى يتخلله انطلاق طفولى معربد، ومن استعلائه البارد، ومن تعلقه بعالم داخلى يعيش فيه مستقلا عن البرامج المدرسية، وكان يغيضهم منه أنه يعيش «على انفراد» وأنه يبحث عن شىء دائما بدلا من استخدام الحقائق الراسخة التى تحتوى عليها الكتب المدرسية.

«لو استطيع ان ادخل فى الطب بسرعة! فهناك أحصل على دقة حقيقية وصفاء، ذلك هو الشىء الحقيقى الوحيد»، - هكذا كانت تجرى افكار فولوديا الفائرة فى الليل.

ومع ذلك فقد قال غانيجيف لطلابه بابتسامة قاسية:

- فكروا مائة مرة قبل ان تأتوا الينا. ان هيبوقراط كان يوصى الاطباء بالحاح بأن يكونوا دائما مقبولين فى مظهرهم فى اعين مرضاهم. وهذا اذا فكرتم فيه ليس سهلا كما يبدو لأول وهلة. وفى بعض الاحيان يجد الطبيب جرحا لكبريائه أن يتبع نصيحة هيبوقراط الاخرى القائلة بان الطبيب حين يقع فى ارتباك ينبغى عليه ان يستدعى طبيبا آخر دون خوف ليشرح له حالة المريض، ويعين له العلاج الضرورى...

كما قال غانيجيف:

- اقرأوا غوته ايها الاصدقاء الاعزاء. فقد فاه ميفستوفيلس ببعض الحقائق المرة جدا، حقائق

لم تفقد معانيها حتى اليوم. ولا تتصوروا ان بعضكم
اذا شاهد أوبرا غونو فهذا يكفي، انتم مخطئون: اقرأوا
وفكروا، وتأملوا وابحثوا، وليسأل كل واحد منكم
نفسه هل عندى القوة الكافية فى الواقع على أن لا اخضع
لأقوى اغواء يقود الى اداء طائش لواجباتكم كاطباء...
وانشد باللغة الالمانية، وهو يضرب الأرض
بحذائه الصقيل ذى الرباط المتدلى، مترجما بنفسه ما
ينشده:

روح الطب لا يعسر فهمها.
أدرسوا بعناية، العالم الكبير والصغير
لكى تتركوا، فى آخر الامر،
كل شىء لارادة الله.

وحدثهم، بخشونة وغضب، عن الروتين فى تاريخ
الطب، عن الرجال القدامى التياهين البلداء الذين خنقوا
فكر الشبان الموهوبين لا لشىء الا لأن افكارهم كانت
مثيرة، وقرأ لهم عن ظهر قلب القسم الذى اقسمه الذين
تخرجوا فى زمن بعيد من جامعة بولونا الشهيرة.
وانشد غانيجيف بهيبة وحتى بغطرسة وبريق
الغضب يشع من عينيه:

— «ينبغى ان تقسم بانك ستلتزم بالمذهب الذى
ينشر علانيا فى جامعة بولونا والمدارس الشهيرة الاخرى
حسب ما جاء به مؤلفون حازوا على الاستحسان عبر
كثير من القرون، ومؤلفاتهم يفسرها ويعرضها دكاترة
الجامعة، واساتذتها بانفسهم. ولا تسمحوا لأحد فى

حضرتكم بأن ينقض افكار استنتاجات ارسطوطاليس،
وغالين، وهيبوقراط، والآخرين أو يقلل من شأنهم...»
- ذلك، اذا شئتم، هو ما اخترع ووضع ذات مرة
كقسم وعهد: انشودة في عنق العلم. انشودة! لان كل
شيء أصيل أو جديد لا بد من ان يسبب مراجعة شيء
مستقر من قبل، ومراجعة استنتاجات ارسطوطاليس
وغالين، وهيبوقراط العظام، فضلا عن الآخرين -
والشيطان يعرف من هم هؤلاء الآخرون - كان يؤدي
الى قداسة قاضى ديوان التفتيش العظيم، ومن هناك الى
المحرقة. وطبيعى جدا ان كثيرا من الموهوبين فى تلك
الايام، بدلا من ان ينزلوا للعمل استغلوا، بقدر ما
يستطيعون، كل كلمة قالها ابونا هيبوقراط: «ان
الحياة قصيرة، والفن طويل العمر؛ والتجربة محفوفة
بالخطر، والتبصر ليس أمينا». ويختار جوردانو برونو
طريقا آخر مختلفا تماما عن الدروب المطروقة التى
اتخذها حمقى زمانه ذوو الدبلومات. «انا اكادىمى
فى اكادىمية لا وجود لها، - هذا ما قاله برونو العظيم
عن نفسه، - وليس لى زملاء بين اباء الجهالة المقدسة».
وكما تعلمون كانت النهاية مفاجئة...

ان ذلك الاستاذ القصير الممتلىء يدرس الشكوك.
كان يريد ان يخلص المعهد مقدما من الذين يحشون
ادمغتهم بالدروس دون فهم، والذين يعتبرون الدرجة
العالية هدفا بذاته، ومن «بنات امهاتهن»، ومن الشبان
المضجرين الذين لم يقرروا بعد اين يضعون مواهبهم.
كان يلقنهم البحث الدائم، مبلغا اياهم بان ما من

موسوعات او كتب مدرسية او محاضرات مكتوبة
بضمير قادرة على مساعدة «اطفال ايسكولابيوس»
المقبلين كما يحب ان يسميهم، اذا هم انفسهم لا
يبحثون دائما.

— والكتب المدرسية ما زالت غير ملغاه. أليس
كذلك؟ — سأل ميشا شرفود غانيجيف ذات مرة، وميشا
فتى اشقر مورد الوجنتين، كبير العينين يجلس بجوار
فولوديا.

اجاب غانيجيف مفكرا:

— الكتب المدرسية تختلف. ففي زمانى، مثلا،
اوصينا بان نعطى ما يسمى بالادوية «المحايدة»، ادوية
نبريد خاطر، لمداواة الشاكى، وعائلته ايضا، وللمحافظة
على شرف الطب. وفي زمانى كانت الصيدلة تقدم لنا
انواعا واسعة من الادوية التى كانت معروفة بانها لا
تساعد المريض فى شىء. وقد علمت الكتب المدرسية
ايضا اجيالا من الاطباء التشخيص على اساس النفع
الذى يحمله هذا الدواء او ذاك. هل فهمت؟ «اكس
جوفانتيبوس».

قال شرفود:

— غريب!

ومضى غانيجيف يقول:

— فى العصور الغابرة كان الناس يعالجون بكل
شىء موجود تحت الشمس، بما فى ذلك التعويد،
والتنجيم. وكان كبد الضفادع يعتبر مفيدا لداء المفاصل،
والروماتيزم؛ وصورة اسد على ارضية ذهبية تشفى

امراض الكلى، وكان اليرقان يعالج بتنقيع العرق الاصفر
لا لشيء الا لانه اصفر اللون. كما كان يعتقد بان
الدماغ الانساني يتغير في حجمه حسب حالات القمر،
وان حركة الدم تتأثر بالمد والجزر في البحر. وكان
مولير على حق تماما حين جعل بيرالد يقول ان عظمة
فن التطبيب هذا تكمن في وقاره الهرائى، واللغو العلماني
الذي يستعويض عن الفكر بالكلمات، وعن النتائج -
بالوعود.

قال الفتى ذو العينين الكبيرتين باصرار:
- هل تحدث اشياء مثل هذه في ايامنا ايضا؟
- الكتب المدرسية يكتبها بشر، والناس الذين
يدرسون العلوم الطبية بشر ايضا، - قال غانيجيف
مستمرا في حديثه وكأنه لم يسمع سؤال الفتى، - حتى
الاطباء العظام كانوا بشرا. وهناك ميل خطير، وحتى
اجرؤ على ان أقول، ضار ومتعفن الى المناداة بان
اطباء الماضى العظام خارج نطاق الحكم الانساني، الى
تخفيض الاخطاء التي ارتكبتها اقطاب الماضى والهراء
الذي كتبوه. ان العلماء المعاصرين البارزين يخطئون
بالطبع ايضا، ويتكلمون اللغو كثيرا. وهذه الاخطاء
تحشى في عقول الناس لان الذين يرتكبونها مقدرون
تقديرها عاليا جدا، بل حتى ان بعضهم قد كرموا بان
جعلوا اكاديميين. ولكن ينبغي لكم ان تستعملوا عقولكم،
والا فلن تكونوا اطباء حقيقيين بل على غرار الذين
كتب عنهم مولير: «يقولون لك باللاتيني ان ابنتك
مريضة».

وهمس ميثا شرفود ذو العينين الكبيرتين فولوديا:
- كلب عجوز.

وهمس فولوديا رادا:

- وانت فتى احمق!

- اصغ! - صاح شرفود.

وسأل غانيجيف:

- هل تريد ان تسأل عن شيء؟

ولم يقل فولوديا شيئا.

اذ في نهاية الفصل الخريفى مر زمن طرح فولوديا فيه على المعلمين اسئلة لا يستطيع كلهم الاجابة عنها. أما بالنسبة لجوابه عن اسئلتهم فلم يكن فى ميسوره ان يجيب بالشكل الذى يريدونه بسبب نزاهته الجافة الفطرية. لهذا فكلما دعى اوستيمنكو الى اللوحة رأى الفصل فرحة. وطبيعى انه كان يعرف أقل مما يعرفه المعلمون، ومعرفته بالتاكيد كانت اكثر سطحية، ولكنه كان يظهر على الدوام ان مدى افقه اوسع، وغالبا ما يقول اشياء لم تكن موجودة لا فى الكتب المدرسية فحسب، بل كان المعلم لا يعرفها. وغالبا ما تجعل اجوبة فولوديا الفصل كله يفرق فى تفكير عميق، ثم يصغى كل واحد مسرورا الى المبارزة الكلامية بينه وبين المعلم.

وصاح آدم، معلم العلوم الطبيعية ذات مرة:

- هذه مثالية محضة، هذه باطنية، هذه بابوية!

فقال فولوديا بهدوء وحزم:

- المفروض ان يدرس المركسى كل حقيقة تظهر

من المرحلة التجريبية، لا ان يشجب الحقيقة ذاتها.
وانا اعطيك حقيقة، وانت تبدأ بالصياح!

وعاد الى مقعده بهدوء بينما وضع آدم في بادي'
الامر علامة «٢» امام اسم اوستيمنكو بيد مرتجفة،
ثم غيرها الى «٥». فقد كان ايفور آدموفيتش رغم
كل تقييداته انسانا نزيها. ورفع اصدقاء فولوديا
ابهاماتهم، مظهرين اعجابهم، وتبادلوا الاوراق المكتوب
عليها مثل: «لقد فرّجه» او «فخرنا ومجدنا» او
«تري ماذا سيصبح في النهاية؟» ولكن فولوديا لم
يلاحظ شيئا من هذا، ولم ير او يسمع شيئا. وقد جلس
على مقعده منكبا على كتاب جديد عن الدورة الدموية
سيكون معه حتى الليلة القادمة حيث تجتمع حلقة
الطب في المعهد. في القرن السادس عشر حل الاسباني
ميغيل سيرفت، في الاكثر، لغز الدورة الدموية. ولكن
حياته انتهت على المحرقة. اوه، يا للشياطين!

وسال الفتى الجالس الى جانب فولوديا، ريجيكوف:

— بماذا انت تتمتم؟

— ها؟ — قال فولوديا في دهشة.

ومع ذلك فلم يدخل فولوديا الى معهد الطب الا
بشق النفس. واختار «الاباء والبنون» لتورغينف
كتابا لاختباره وانصرف الى وصف بازاروف فقط،
مسميا اياه، على طريقته الانفعالية وحتى التعصبية
بـ «ممهّد الطرق الجديدة غير المطروقة بعد في العلم
الروسي» ومسميا تورغينف المسكين بـ «نبيل متبطل
كتب لهدف واحد هو دعم الفن للفن، او باحتمال اكثر،

لتزجية الوقت الفارغ حين لا يكون مستمعا الى صوت المغنية بولين فياردو». واحب فولوديا هذه الجملة المحكمة حتى خط تحتها خطا متموجا دون ان يفكر في ان هذه الجملة بالذات ستجعل الممتحنة تبتلع جرعة من دواء القلب. وقرئت مقتطفات من تأليف فولوديا في اجتماع لجنة القبول ولا حاجة الى القول انها اثارت ضحكا عاما وتعليقات استخفاف. وكان غانيجيف الشخص الوحيد الذى لم يضحك. ولما كان يتمتع باحترام الجميع في المعهد، احتراماً مشوباً بالخوف، لاحظ الحاضرون بعناية كيف انه لم يضحك.

وقال غانيجيف بتفكير وأسف:

- اعترف بان الفتى قد اخطأ خطأ كبيرا، وبالأحرى فظا. ولكنه يفكر على هذا المنوال! والمسألة، يا زملائي الاعزاء، هي انه لم يكن يحاول اجتياز الامتحان، او يكسب ودنا؛ هو لم يحاول ان يظهر نفسه لنا باكثر الانوار مجلبة للمنفعة. بل كان ببساطة يدافع عن بازاروف. ان اوستيمنكو الفتى هذا لم يعرف او لم يستطع ان يعرف بسبب شبابه، انه ليس بالشخص الوحيد في روسيا الذى يقف موقف الدفاع عن بازاروف وقد القى دفاعه بحماس مفرط. ولكن، يا زملائي الاعزاء فكروا في هذه الشفاعة الحارة نفسها. ان فتى، صبيا في الحقيقة، شمر للدفاع على العلم الروسى. وفي التأليف الم حقيقى، وقد رأى الفتى في بازاروف صفات سيجنوف وميجنكوف، ويبروغوف. واسمحوا لى ان

امسح عن فكرة تجديفية نوعا ما؛ لو كان تورغينف حيا اليوم، وقرأ تلك المقالة فلن يستاء منها. بل سيضحك قليلا، ولكن بالتأكيد لن يستاء منها، بل ربما يتأثر بها ايضا. لانكم، اذا غربلتم كل الاخطاء الناجمة عن اندفاع هنا فستجدون فيضا من شعور المواطن. أليس كذلك؟ وبقدر ما يخص الامر معهدنا، فعلى ان اقول ان الاسلوب الذى اختاره صاحبنا يكشف لى عن طابعه بوصفه طبيبا نشيطا فى المستقبل، مقاتلا، محاربا، وارجو ان تعذرونى عن هذه الخطبة الطنانة، ويظهر شخصية غير متساهلة بالطبع، ولكنها اصيلة، وعنيدة، ودائبة وذات رفعة. وحاجتنا الى اناس مثل هؤلاء حاجة ملحة، خصوصا اذا اخذنا بعين الاعتبار الحالة الفاجعة للامور الناجمة عن رغبة شبان من نوع معين فى التسجيل بمعهد، اى معهد ما داموا مسجلين كطلاب. ولا ينكر اننا فى بعض الاحيان نخرج بعض «السيدات» الشابات ذوات تعليم عال، ولكنهن لسن طبيبات فى المعنى الحقيقى للكلمة، وفى بعض الاحيان نخرج اطباء جذايين ايضا، ولكن...

وابتسم غانيجيف ابتسامة معوجة، ولوح بيده.
- اما اوستيمنكو فانا اعرفه من حلقتنا الدراسية.
وانا اتحمل كامل المسؤولية عما اقوله: انا شخصا اود كثيرا ان يكون لى لا تلميذا فقط، بل خليفة. وبالطبع على شرط ان يكرس هذا الغرس الفتى الملعون نفسه لعلم التشريح. والمرء فى بعض الاحيان يود، كما تعلمون، لو يكون قادرا على ان يعطى كرسيه لا

لغريب، بل، ... وعلى اية حال اذا كان الرفاق في شك من قبول اوستيمنتكو ففي امكاننا ان نجرى مقابلة له.

وكان الرفاق في شك وحددت للمقابلة الساعة الثانية بعد الظهر. وقد جاء فولوديا قبل الموعد بساعتين، وأخذ يقطع الرواق الطويل المغمش. وما كاد يدور حتى رأى يفغيني. وكان مظهره متصنعا كعادته، الا انه كان يبدو متيقظا ومسرورا.

وسأل فولوديا بدهشة:

— ماذا تفعل هنا؟

— اقدم امتحاني! وهل هناك شيء آخر؟ — قال يفغيني وهو يبدو مندهشا من سؤال فولوديا، — لقد سألتك النصيحة في ذلك، انت تعرف. وبهذه المناسبة ان الوالد قد سر. وهو يحسن الظن بك كثيرا لسبب مجهول، ولهذا فهو مسرور لأن ندرس سووية. وقد عقدت صداقة مع طلاب السنة الثالثة بالفعل، وسمعت اغنيتهم الحاذقة بالفعل.

— اية اغنية؟ — قال فولوديا مندهشا.

— سأغنيها لك. انها تسمى «الى صديقي المشرح». وجلس يفغيني على طوار النافذة، وفتح فمه الوردى، وغنى بصوته المرح. وكان غالبا ما يغنى في البيت وفي حفلات المدرسة، وحتى في حفلات هواة الفن:

حين قطعت كل الروابط الارضية
واضطجعت على المشرحة،

اشفقوا على قلبى ولا تسقطوه
على الارضية الحجرية الصلبة!

وجذب غناؤه جمهورا صغيرا، واخذ يفغيني يشرح
لزملاء المستقبل:
- والاغرب ما فيها ان الكلمات قد كتبها الكاتب
المشهور غارشين الذى كان اخصائيا فى التشريح! انها
حاذقة. ألا تظنون ذلك؟ هل تريدون أن اغنى لكم اغنية
اخرى، اغنية طبية قديمة؟ هى عن غرفة التشريح التى
كتب علينا ان نقضى جانبا كبيرا من وقتنا الدراسى فيها؟
وكان يسير فى الرواق اثنان من الممتحنين راقبهما
يفغيني حتى غابا عن النظر، ثم غنى بصوت كالهمس:

اننى لأعجب لذلك الفتى
لماذا يلتذ بزيارة المشرحة، بيت النتانة
ذلك لانه يريد، بالطبع، ان يعرف اكثر
وليخطا أكثر فاكثر...

رائع! ان الاغنيتين اللتين غناها يفغيني جلبتا له
اصدقاء بالفعل. والآن هو يسير معهم جيئة وذهابا.
ضاحكا، ضاربا على الاكتاف، مناديا اياهم باسمائهم.
- اى، انت يا بيروغوف - سكيليفوسوفسكى
- بوردنكو المستقبل، كلهم مجتمعين فى واحد! تعال،
انضم الى جماعتنا، - نادى يفغيني فولوديا، - تعرف:
نيوسيا يلکينا، سفتلانا، وهذا اغورتسوف...
وحين اجريت المقابلة مع لجنة القبول نظر

فولوديا - ذلك الفتى المقطب الوجه، الطويل النحيل،
الطويل الزراعين ذو الوجنتين البارزتين، والحاجبين
الكثيفين - فى عينى كل من يسأله سؤالا، ويجيب
بحصافة وإيجاز، وحتى بتقتير، ولكنه موقفه الشخصى
أزاء الموضوع الذى اختاره فى حياته كان قويا جدا
حتى كان جميع المحكمين تقريبا انفسهم يتبادلون
النظرات الفرحة، وفى بعض الاحيان، الغمزات ذات
الدلالة. وهناك شخص واحد فقط نظر الى فولوديا
بموجدة. ذلك هو غينادى تاراسوفتش جوفتياك، نموذج
للاستاذية فى المظهر: اصلع، ذو لحية قد رتبت باتقان،
وخواتم فى الاصابع. وكان ثمة شىء فى فولوديا قد
اغاضه؛ وقد يكون ذلك لعدم احترامه. ومع ذلك فقد
انتهى كل شىء على ما يرام. وسحب جوفتياك ساعته
ذات السلسلة المزخرفة المتدللة بفتنة، ونظر فيها،
وانصرف ليحضر مشاورة. وصرف فولوديا بلطف.

الطالب

- نعم، يسرنى ذلك، - قال عميد الكلية، - من
دواعى السرور الالتقاء بفتى من هذا النوع. لقد كنت
جالسا افكر بانه لم يكن لنا قط طالب كاوستيمنكو
فى جامعة نوفوروسيسك، وفى صفى على اية حال.
وبالمصادفة اقول ان هناك فتى آخر اعجبنى، وهو فتى
يافع جدا، صبى خداه كالتفاح. انه ليس عبقرى بالطبع
ولكنه شاب مسر للغاية، يترك انطبعا طيبا... اسمه...

وتظاهر ان اسم يفغيني ستيبانوف قد غاب عن ذاكرته، ولكن لما كان بعض الاساتذة يعرفون ان يفغيني هو صديق عائلة العميد، والاكثر من ذلك انه غالبا ما يغنى اغانيه في غرفة الاستقبال في بيت العميد، وانه اكثر بالاحرى من مجرد كون ايريدا ابنة العميد، توده، فقد ذكروا الاسم مرغمين.

— نعم، نعم، اعتقد ان اسمه ستيبانوف، — هز العميد رأسه.

— فتى بديع جدا، ورفيق القلب، لا شك في ذلك. كان امثاله يسمون في زمانى « بالشبان البهوجين ». شىء روسى اصيل فيه، شىء من السباسب، جواد، ومنافع.

واذ احس العميد انه قد اندفع قليلا عاد الى موضوع اوستيمنكو وسماه « نموذجا للطبيب السوفيتى فى المستقبل ».

قال غانيجيف باستحسان منذر بالنحس:

— هو ذاك! انه ليس واحدا من هؤلاء التلامذة « الجيدين » ذوى الخدود الوردية. انه يعرف ما يريد. ان التعبير ليس على الطراز الحديث، ولكنه ملائم للحالة الحاضرة: انه شاب ذو مبادئ. ولا حاجة للقول انه سيثير متاعب، ولكنه يستحق الاعتبار؛ فقط انه شيطان، كثير الشيطنة...

ولم يكن واضحا من طريقة كلامه هل هو يستحسن شيطنة فولوديا ام لا. بل يبدو بالاحرى انه يستحسنها. واضاف غانيجيف يقول:

- وهو لن يكون جوفتياك آخر. ولا اكفل ذلك مهما تكن الظروف. أنا وآثق بذلك، وان كنت لا انكر وجود بعض اللذة في البروفيسور جوفتياك. مثلما قيل عن غوغول، هل تذكرون: «السيدة لذيدة من جميع الوجوه»، او شخصيته شبونكا، وهو السيد اللذيد ايضا على ما اعتقد...

وفي اليوم الذى اصبح فيه فولوديا طالبا، وصل أبوه بطائرة صغيرة خضراء مضحكة. وكان المطار على شاطئ نهر أونجا، ونزل افاناسى بتروفتش من مقعد الطيار، وبدأ يمدد ساقيه وكأنه كان جالسا مدة طويلة في عربة يجرها حصان. وكان لا يرتدى خوذة، ولم يكن فى منظره شىء من الفخر على الاطلاق. والطيaron الذين كانوا جالسين على العشب قاموا باحترام وادوا سلاما عسكريا له ومن وجوههم يبدو واضحا أنهم يعرفون ابا فولوديا ويقدرونه. وتورد وجه فولوديا فجأة لدى احساسه بالفخر بابيه، وبساطته وبالغضون الضاحكة حول عينيه، بقوته الكبيرة التى كانت تبدو مخبأة، وبسعة روحه.

- ألم يصل روديون بعد؟

- لا، لم يصل، - اجاب فولوديا بابتسامة.

وكان أبوه، التزاما بالتقليد العسكرى لا يقول «جاء» بل يقول دائما «وصل». وكان لا يقول «انا آكل» بل «انا اتناول الطعام» ولا يقول «ذاهب لأنام» بل «ذاهب لاستريح».

قال افاناسى بتروفتش:

- أيها المحتال، انت تضحك على رجل مسن -
ودفع فولوديا دفعة قوية، ولكنها مازحة.
وتعرجع فولوديا، ولكنه لم يسقط. وكان رجال
الطيران يتحدثون عن شيء ما. ففكر فولوديا: «لعه
الحديث عن أبي».

وكانت العمة أغلايا في الاجتماع فلم ترجع الى البيت
حتى وقت العشاء الاحتفالي، الذي قضت في اعداده مساء
البارحة، والساعات الأولى من نهار اليوم. وجاء يفغيني
للعشاء ايضا، او بالاحرى «ليذوق الطعم».

وقد قبل بمعهد سيجنوف الطبى، ولم يكن قبوله
في الحقيقة دون ضغط من قبل ايريادا على امها التي
استخدمت، كذلك، تأثيرها على زوجها العميد. ومع ذلك
فان تسلل يفغيني الى المعهد لم يجر بيسر، فان اسمه لم
يكن في بادى الامر في القائمة. ولم «يضيف» اليها الا
بعد المفاوضات الطويلة. واذ ذاك شعر يفغيني انه مثل
رجل قفز بامان الى ترام متحرك بعد ملاحقة شاقة، وانه
لم يسترد انفاسه بعد. ومع ذلك فقد كان مزاجه ممتازا
وحتى منتصرا. وفي حقيقة الامر لم يعرف احدا، ما عدا
عميد الكلية، كيف «دبر» الامر كله. وما فائدته من ان
يظهر يفغيني تقديره وامتنانه وما الى ذلك...

وفرح زوج ام يفغيني كثيرا. فبالتأكيد ان ذلك
يدل على ان الفتى بعض الخير اذا كان بالرغم من تدليل
امه، ومن خلوه من اية موهبة بارزة قد افلح في
الامتحان ودخل المعهد. ولا بد من ان القضية نظيفة،

لأن المرء عليه ان يمر بامتحانات المنافسة، ولا يمكن
ان يكون في الامر مقلبا.
وقال ليفغيني:

— اذا بلغ بى الكبر عتيا فاسعفى...
وجاء روديون الى بيت اوستيمنكو بالثياب المدنية
لا ينم عن كونه بحارا الا تلويح بشرته العميق،
ومشيته المتدحرجة. ولم يترك فاريا ولا فولوديا يغادران
مكانهما الى جانبه لحظة واحدة. وبعد ان شرب كأسا من
الفودكا رفع عقيرته بتلذذ ينشد كلمات اغنية خمر قديمة:
— لنشرب، ايها الاخوان. ما دمنا هنا فليس في
العالم الاخر شراب. واذا كان ثمة من خمر هناك فلنشرب
هنا وسنشرب هناك.

وجاء والد روديون، ميفودى ستيبانوف بعد وقت.
وكان في الحمام الذى قد انعشه، وكان يرتدى صدرية على
قميصه الحريري الطويل. وكان عليه مظهر الرضى الكثير.
وقال روديون لابييه:

— اجلس، يا جذر عائلتنا كلها! وتمتع: انك
قد عشت لترى حفيدك طالب طب، وفولوديا كذلك.
وذلك يدعو الى شرب كأس كبيرة!

فاعلن العجوز قائلا:

— لو كان مساحا، لكان احسن.
وكان له عن كل شيء رأى خاص به.
وسأل ابنه:

— لماذا انت بغير بذلتك العسكرية؟ انت ضابط.
ذو رتبة عالية، فالبسها ليراها الناس. وحين عدت

من الحرب اليابانية ابقيت على شرائط الكتف مدة
طويلة، فهي تعطيك اعتبارا بالفعل. وحين خلعتها عدت
فلاحا غرا ثانية.

ثم تحول الى اغلايا:

- ماذا دفعت عن الرنجة؟

اجابت اغلايا:

- فلوس!

- ولحم الضأن؟

- اوه، كف عن ذلك، يا ابي، ما الذى يعنيك

من ذلك؟ - قال روديون.

فاجاب العجوز:

- للحديث فقط.

- والتصقت فاريا بابيها، وتوسلت اليه هامسة:

- ابق معنا قليلا يا ابي، ارجوك ان تبقى. خذ

اجازة طويلة، ودع مراكبك جانبا...

فصحح ابوها خطأها:

- السفن الحربية وليس مراكب. انتم الثلاثة

وحدكم تريدوننى ان ابقى هنا. ولكن الجماعة كلها

هناك. فكرى بما تقولين يا ابنتى.

قالت فاريا:

- يفغينى ما زال على عادته، انا لا استطيع ان

افهمه.

- سننظر فى ذلك!

وجاء افاناسى اوستيمنكو بقيشار مزين بعقدة

كبيرة، واخذ يضرب على الاوتار بلطف وطفق يغنى:

آه، ايها الليل! ايها الليل المظلم
يا ليل، يا مظلم، يا ليل الخريف!
لِمَ، يا ليل، كل هذا البؤس
وما من نجمة فيك تطل.

وردت اغلايا بصوتها القوي البيت الاخير:
وما من نجمة فيك تطل...

وشعر كل واحد بكآبة غريبة. وحاول ميفودي
العجوز وحده ان يمزح ويتسلى مدة اطول، ولكنه هو
ايضا سكن في آخر الامر.

قالت اغلايا:

- ماذا حدث؟ لماذا وقفتم في منتصف الطريق؟
وكان روديون يبدو عبوسا؛ ووضع افاناسي القيثارة
على الاركة وراح يتأمل ابنه. وكان يفغيني يهمس
لفولوديا بان عليه ان «يهاجر» في الحال؛ فالجماعة
عندهم شواء على ضفة النهر، وستكون ايريادا وميشا
شرفود هناك. وربما سيشرفهم العميد بنفسه. مفهوم؟
اجاب فولوديا في تكره:

- افهمك!

ونوقش مستقبل فاريا في المساء. واقترح فولوديا
ان تدخل معهد الطب، وفضل افاناسي بتروفيتش
التكنيك، بينما ابتسمت العمة اغلايا، ولم تقترح شيئا.
وقالت فاريا بصوت معدني رنان، وبين حاجبيها
خط العناد:

- ساعمل في الفن!

- كيف ذلك؟ - قال ميفودى العجوز مندهشا،
وقد سكر قليلا.

- فى المسرح مثلا، - قالت فاريا بصوت اعلی
وغير مقبول بعض الشئ.

- يا له من عمل، - قال العجوز وهو يتشاءب.
وسألها ابوها بلطف:

- ولكن هل لك موهبة فى ذلك، انظرى، يا فاريا،
انا لا اقول ذلك لاجرحك. ولكن ليست لك حاسة سماع
كافية جدا، مثلا. ثم انك... انت ايضا مثل ثمرة لفت
صغيرة... صغيرة، ومتينة البنيان. ولكن لا اذكر اننى
رأيت ممثلة على هذا النحو.

قالت فاريا عابسة تقطع عهدا:

- ساطول. وعلى ان اقلل من اكل النشويات.
اما عن صوتى، فانا غير ذاهبة للاوبرا، هذا من جهة،
ومن جهة اخرى يمكن للاصوات ان تتطور.
ونظر فولوديا اليها راثيا لحالها. فاخرجت فاريا
له لسانها، وتحولت عنه.

وفى تلك الليلة، فيما بعد، استراح افاناسى
بتروفيتش على الارىكة ليقرأ مجلدا صغيرا له غلاف براق.
ونفخ دخان سيكارته بكسل، وعبر عن دهشته بصوت عال:
- اسمعوا لهذا: ان النسر هو الطائر الوحيد فى
العالم الذى يستطيع ان ينظر الى الشمس عينا لعين.
كيف؟ ومن هنا جاء تعبير: «عينى النسر». هل عرفت
ذلك يا فولوديا؟

- لا، لم اكن اعرف.

فمضى والده يقول:

- هي جميلة جدا! وكنت اعجب بها حين كنت
اطير في «سوفيج». فكانت تقبل نحوك قدما، وتجعلك
تزيغ عنها... طيور باسلة!

وكانت اغلايا تنصت لاختها بابتسامة حالمة وفي
عينيهما الداكنتين نور رقيق. وهس السماور لنفسه
بهدوء، ولاح الامر وكأنهم كانوا دائما هكذا، ثلاثتهم
سوية، وانهم سيكون دائما سوية، دائما...
ولكن عند الفجر غادر والد فولوديا، ومنعهما من
ان يرافقا لتوديعه.

وقال منشرحا:

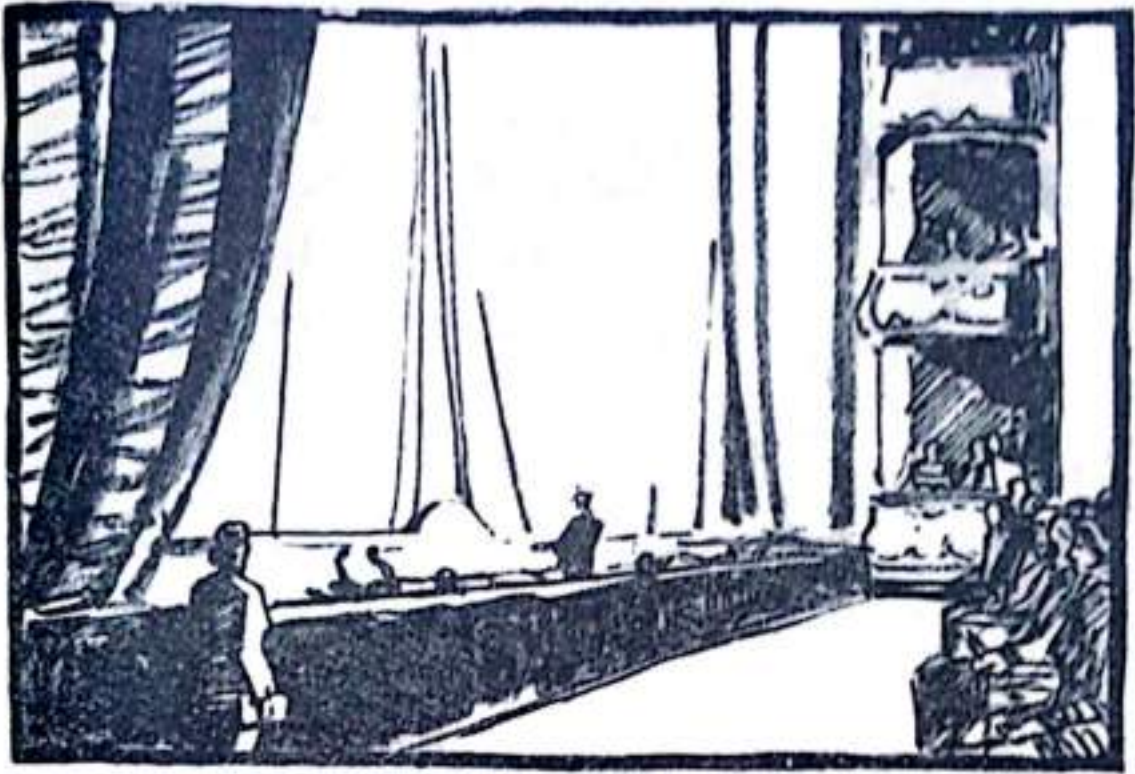
- الوداع الطويل يعني دموعا زائدة.

وفرغ من تناول الشاي، وضرب ابنه ضربة على
كتفه، فهي الطريقة التي استعملها دائما في التحية،
وعانق اخته، وخرج.

ومد فولوديا جسمه خارج النافذة يراقب اباه
وهو ذاهب.

كان واقفا عند عتبة الباب يتطلع الى السماء
الرمادية.

وخطرت ببال فولوديا عبارة: «عيني النسر». كان
ابوه يمسك بقبضته في يده، وضوء فانوس البيت يضيء
رأسه المكشوف. وهكذا كان فولوديا اوستيمنكو يرى اباه
للمرة الاخيرة، وعلى هذه الشاكلة احتفظ به في ذاكرته
الى الابد: الرجل واقف على عتبة البيت يتأمل السماء،
اذ ان هناك، في السماء، تقع طريقه، طريق الطيار.



الفصل الرابع

هدايا

حين وصل افاناسى اوستيمنكو الى المطار كان
النهار قد طلع. وكان روديون ستيبانوف هناك فى قميصه
العسكرى الابيض يتجول على شاطئ نهر اونجا.

قال افاناسى فى عبوس:

— قلت لك لا حاجة الى ذلك. لماذا قطعت نومك؟

اجاب روديون:

— لم استطع ان انام. وأنا لا امانعك، اليس كذلك؟

طر بطايرتك، فلن امسك بذيلها.

وجاء مناوب المطار، وتحدث حديثا قصيرا مع
اوستيمنكو واقترب منه رجلان آخران. واصفى
اوستيمنكو الى صوت المحرك، ثم دخن مع روديون.
وسأل روديون:

— متى سنلتقى ثانية؟

— ليس عن قريب، على ما اظن.

— واين ستقضى اجازتك؟

اجاب اوستيمنكو:

— اريد ان آخذ علاج طبينى. هناك جرح قديم،

ولكنه يضايقنى. لماذا تنظر نظرة حزينة، أيها الرجل
البحار؟

— لا، بخير —، قال روديون والزفرة تكذب كلماته.

وهدر المحرك، وخفت، ثم هدر ثانية اذ كان

الميكانيكيون يفحصون شيئا فيه، هز افاناسى يد روديون

بيده القوية الصلبة. ولبس قفازه، وبرشاقة صبي

تسلق الى مقعده، وتزحزح قبل ان يستقر تماما، ثم

صاح باوامره كطيار، وبدأت الطائرة تسرع وتنط على

المدرج وفي دقائق معدودات، أختفت النقطة السوداء

فى السماء.

وفكر روديون: «وكيف على ان أعيش الآن على

اية حال؟ هل يمكن ان تستمر الحياة كما كانت؟ أم

غير ممكن؟ ربما هناك بعض الناس يعيشون على هذا

النحو ايضا. ولكنهم ببساطة لا يفكرون بذلك، ولا

يعذبون انفسهم؟»

ومهما يكن من شىء فالوقت غير ملائم للتفكير

وهو في حالة من الانزعاج غير المريح، وهو الآن منزعج بالتأكيد. وليس من السهل ان يحتفظ برباطة جأشه حين يكون الامر متعلقا بيغفيني، كما أنه لم يتحدث الى الفتينا وهو هادئ تماما. فلم يكن في ميسوره قط أن يكون هادئا، أو عادلا معهما، كما كان يعتقد، لأنه هو الذي يحكم على نفسه بأشد الصرامة. ومرة أخرى، المرة الألف، تصور لنفسه وجهها وتصفيفة الشعر، والنظرة التي نظرت اليه بها عند وصوله يوم امس: نظرة كره مكبوت.

لقد قالت له في اللحظة التي وصل فيها الى البيت:
- انا ذاهبة الى الريف. فالمرء لا يستطيع ان يعيش في هذا الغبار والحر طوال الصيف. وأنا منهوكة تماما بهذه الامتحانات!

- باية امتحانات؟

- بامتحانات يفغيني.

ولم يتمالك روديون من القول:

- لعلك تساعدينه في الاستعداد لها؟

قالت:

- كنت ارتب له ظروفًا ملائمة! وانت ما تزال لا تستطيع ان تهمل عائلتك جيدا، حتى انني لا أستطيع ان آتي بخادمة...

فسأل روديون وقد أمتقع غيظا:

- مرة ثانية؟ أو ربما يسرك أن تسمى الاشياء بالاسماء التي كانت تسمى بها في الايام الغابرة حين كنت...

صرخت:

- اصمت!

ولم يكن هناك شيء تكرهه أكثر من كراهيتها لأن يعرف احد ماضيها؛ وكأنما كانت لصة، أو قاتلة! وعلى هذا النحو كان الاجتماع بين الزوجين. وكانت تريد ان يذهب، وكذلك كان يريد يفغيني؛ ولكنه قرر ان يبقى. فقد كانت هناك فاريا، وفضلا عن ذلك، لم يكن لديه مكان آخر يذهب اليه الآن وباخرته قد وضعت في الحوض. ولم يحجز مكانا له في دار للاستجمام، وقد جعلوه يذهب الى الاجازة ضد ارادته. فلتذهب الفتينا الى الريف ولتبق هناك مع صديقتها؛ وسيبقى هنا. هذا مكان مريح، وكان هناك، خارج نافذته، بعض اشجار الحور والتامول، وفي وسعه أن يغتسل في دش، ويستلقى ومعه كتاب، أو يذهب الى المنتزه ليستمع الى الفرقة الموسيقية بعد الظهر. وحين تفرغ فاريا من مدرستها يستطيعان أن يتنزها على ظهر مركب، أو يفكرا في شيء آخر ممتع! اما الآن، فليفعل الكل ما يشتهي.

ثم، رغم كل هذا، ان يفغيني اصبح طالبا. ولربما كان متجنيا على الفتى، لربما كان كل ذلك لا شيء الا لكونه ابن زوجته. فينبغي ان يغير الامر برمته. ينبغى ان يجعل هذا اليوم يوما سعيدا للجميع! لفولوديا واغلايا وللجد ميفودي وليفغيني وفاريا. لقد كان متجنيا على يفغيني، هو يعرف ذلك، فقد كان يستدعى فاريا وحدها اليه في كرونشتادت. بينما ظل يفغيني مع الفتينا.

ثم هل أجرى حديثا حقيقيا مع ابن زوجته؟ لا. فعليه ان يضع الامور في نصابها، عليه أن يجد الآن مفتاحا لقلب يفغيني، هذا الطبيب المقبل!

وحلق وصب على جسمه دشا وهو غارق في هذه الافكار بينما العائلة ما زالت نائمة، ووضع في جيبه نقودا كثيرة، وذهب يتسوق. واشترى من مخزن للعمولة آلة تصوير، وترك مخزن «الماكولات» وهو محمل بالمعجنات والكعك، والسردين، والفواكه، وزجاجات النبيذ، وغير ذلك من الاشياء اللذيذة والشمينة. وروديون ستيبانوف لم يمكن مبذرا في يوم من الايام، وقد علمته طفولته النصف جائعة العسيرة قيمة الفلوس وهو في سن مبكرة؛ ولكنه في ذلك اليوم المشهود بعثر نقوده بفرح بيد مسرفة، وكان في الواقع فرحا بذلك. اشترى لفاريا كنزة صوفية ولايبه زوجا من الاحذية، ولفولوديا مجموعة رائعة مجلدة لهرزن. واشترى لهم جميعا تذاكر ليستمعوا الى اوبرا «فاوست» في دار الاوبرا في تلك الليلة. وكان عرضا تقوم به فرقة زائرة للاوبرا جاءت من موسكو. وقد تفدت التذاكر كلها. فدخل ليقابل مدير المسرح البدين المهيب، واخبره بكثير من الهمهمة والهمة المرتبكة انه ضابط بحري في اجازة، وقائد باخرة، يريد أن...

فأجاب الرجل بعجرفة:

— ذلك ما يريده جميع الناس. ودارنا للثقافة

لم تصنع من المطاط، مع الاسف...

ومع ذلك فقد استطاع روديون ان يشتري ستة مقاعد في الصف الثامن عشر، وبعد ذلك دخل في سيارة تكسى، بعد ان مسح عرقه، ومعه كومة عالية من الحزم. وحين وصل كانت فاريا قد تركت البيت، وكان يفغيني يتحدث في التلفون في فتور.

— وان كان ذلك مملا، ولكن ينبغى. فهو قبل كل شيء عميد، وانت لا تعرف قط كيف ستصير حياتك. لا تبصق في البئر يا صغيرى، فقد تشرب منها يوما ما.

فقال روديون بصوت أجش وهو يخطو الى الغرفة: — لقد سمعت المثل، موضوعا بشكل مختلف: «لا تشرب من البئر التى قد تبصق فيها». ووضع يفغيني راحته على السماعه، وخزر زوج أمه. وقال:

— حاذقة، ولكن ليست عملية. ان الحياة يا أبى العزيز ليست بسيطة على هذا النحو. وتناول مقعدا ذا مساند، وجلس ليجاذب أحد اصدقائه حديثا طويلا غشا. وكان يضع على رأسه شبكته المخزية؛ ويتشاءب ويتمطى طوال الوقت الذى قضاه فى الحديث. وأتملت الموجدة فى نفس روديون غير انه كبتها. وقال لنفسه مرة اخرى ان الاطفال لا يلامون، بل اللوم يقع على آبائهم عن كل شيء. وروديون كان احد اولئك الذين يلومون انفسهم بشدة، حتى حين يعرفون أنهم ابرياء كليا، بل يلومون انفسهم، اكثر من ذلك، بالطبع، اذا كان الخطا هو خطاهم غير

المباشر. ومرة أخرى أتخذ السمة التي عرفها في الصباح الباكر، رغم أنها كانت مصطنعة الآن. وبينما كان يفغيني يتحدث في التلفون، رتب الهدايا على المائدة في غرفة الطعام، واضعا تذاكر المسرح في الأعلى. ووضع يفغيني السماعة، وتمطى مرة أخرى، واقترب من المائدة، بكسل.

قال روديون:

- انها آلة تصوير جيدة. شيء يستحق الاقتناء. وعدساتها من الدرجة الاولى، وجميل ان تكون قادرا على التقاط صورة بنفسك. وكان النطق بالكلمات جهدا جهيدا، وكانت الجملة خرقاء، وممطوطة، وكان في نغمة صوته شيء يشبه المواهنة.

وأجاب يفغيني في تأمل:

- آلات التصوير العاكسة الجديدة اكثر يسرا في الاستعمال على ما اظن. ولايريادا، ابنة عميدنا، آلة تصوير من طراز «زايس»، عمل بديع، ومنظرها أنيق. وهذا الشيء الشيطاني يحتاج الى قاعدة.

- لقد اشتريت السيبة، - قال روديون وكأنه يعتذر، - وبدون السيبة، انت على حق تماما، من المستحيل ان تصور كثيرا. ولكن ان تبدأ بآلة تصوير كهذه شيء جيد، يا يفغيني. كان عندنا شاب في المدرسة وكان اسمه يفغيني ايضا. وكان فنانا تماما: وقد التقط صورة نحلة ذات مرة، نحلة على زهرة حنطة سوداء. وكانت تبدو طبيعية جدا بكل زغبتها الظاهر. وقد أعيد

طبع تصويره فى الصحيفه فى الواقع، وفاز فى مباراه
بين المصورين الفوتوغرافيين. ولم تكن آلة تصويره
جيده قدر نصف جوده آلتك...

— ولكننى لم أقل أنها غير جيدة. انها آلة لا بأس
بها. ولكنها مربكة فى الاستعمال لا غير، وما من أحد
من فتياننا يستعمل مثل هذه الكاميرا الآن.
— من هؤلاء — فتياننا؟

— حسنا، أنت تعرف مثلما اعرف أنا. هناك
كيريلوف وبوريس، وسيميائين، فغالبا ما نجتمع سوية،
ونقضى الوقت...

فسأل روديون وهو يمد حنكه الى الامام:
— ولماذا لا تذكر فولوديا؟ أين راح فولوديا؟
فهل هو لا يليق بكم؟
وأصفر وجه يفغينى قليلا، وظهر فى عينيه تعبير
عن حقد مكبوت:

— أنت تعرف يا أبى، — قال يفغينى، وهو يقف
على مسافة بعيدة من روديون، — أنت تعرف اننى لا
أستطيع ان أفهم قط ماذا تريد منى، لا أستطيع
بصدق. ان فولوديا الغالى متعصب، مهوس. ونحن
شبان بسطاء. أنا غير متأكد فقد يتحول الى رجل
عظيم حقا. أنا لا أقول أنه لن يكون. ولكن اذا تريد
ان تعرف، نحن شبان، ونريد ان نأخذ بكل الاشياء
المرحة التى تقدمها لنا الحياة...
فهز روديون رأسه قائلا:
— حسنا، مفهوم!

فاستمر يفغيني قائلا، وقد قويت معنويته بعض الشيء، ورق مزاجه أكثر، بل أصبح أكثر ثقة:

- قبل كل شيء ان السلطة السوفييتية هي السلطة السوفييتية. وبالتأكيد أنك لا تريد أن يضيع أطفالك كل أشياء الحياة الممتعة، والسعادة بصورة عامة بعد الكفاح التي خضتموه جميعا، وكل المشاق التي ذقتها انت وأمي سنين.

- مفهوم! - قاطعه ستيبانوف. وشعر روديون بانزعاج كبير، ففتح النافذة على وسعها، وشرب شيئا من الماء الداي من الابريق الموضوع على المائدة. وقال لنفسه: «ينبغي ان لا أتشاجر، ينبغي ان لا أتشاجر. ينبغي ان أتمعن في الامر. ان الفتينا هي التي زرعت كل هذه البذور في رأس يفغيني. ان ذلك كله من عمل يدها. فهي التي تفسد الفتى». ولتنقل الحديث الى مجرى آخر، سأل يفغيني كيف حال أمه في الريف. اجاب يفغيني وهو يضع قدمه على كرسي، ويشد رباط حذائه:

- ضجر قاتل هناك. ان خياطتها لوسي تعيش في البيت المجاور...

- فرنسية ام ماذا؟

- لماذا فرنسية؟ روسية. وهي رفيقة أُمي، ولكنهما تتخاصمان رغم ذلك ايضا. وقبل أيام أفسدت «اورغاندى» أُمي...

- ماذا افسدت؟

- اورغاندى أمى - وهو قماش متعدد الالوان،

صلب.

- لقد فهمت، - قال روديون دون ان يفهم شيئا، -

قضية اخرى، ما هذه الصورة الجديدة التى علقتها على الحائط؟

وكان ينظر الى الصورة التى برقت اشعة على زجاجتها. وهى تصور حقلا هزيلا محمرا تتبعثر عليه نباتات تبدو أنها مغطاة بالتؤلؤل الشوكى. فاجاب يفغينى بالمبالاة:

- اوه، الصبير. آخر هواية لأمى. فهى ولوسى

تزرعانه.

- صبير؟

- ايوى!

- هل تصنعان منه مربى، أم ماذا؟

- لا مربى، ولا شىء آخر، - اجاب يفغينى بابتسامة، - انه جميل ألا ترى؟ هو للزينة لا غير.

- وما الذى حدث لحوض السمك الصغير؟...

اننى لا اراه.

- اخرج حوض السمك من البيت. وقد مرضت

الاسماك وفطست كلها. لاحظ ذلك. فطست كلها. وامى

تزعل لو قلت غير ذلك.

فقال روديون مكررا:

- لقد فطست. حسنا. مفهوم. والآن الصبير. ما

ازال لا افهم. هل يتفتح بجمال، أو له رائحة بديعة؟

- ولا ذاك. هو أخضر وشوكى لا غير. هذا من

قبيل الموضة. هل تفهم؟ جميل ان تنادى: «يا للسماء،
ما اجمله!» هذا كل ما فى الامر.

— حسنا، لا فائدة من التحدث عنها. هل تعرف
ماذا نعمل؟ ننتظر فاريا قليلا، ثم نتغدى غداء خفيفا
مع اغلايا وفولوديا، ثم نمضى الى المسرح. ماذا تقول؟
ولم يقل يفغينى شيئا. فاضاف روديون بعد قليل:
— انها اوبرا «فاوست» لغونو كيف ترى.
ويفغنى سفرليخين دور ميفستوفيليس، وصوته أصيل،
رائع!

قال يفغينى بالتفكير:

— ان سفرليخين ممثل بارز، ولكننى أخشى اننى
لا استطيع، يا ابنى. عندى دعوة لهذه الليلة، وليس
من اللائق رفضها. وبعد ظهر اليوم سنذهب جميعا
لنشاهد مباراة لكرة القدم. لفريق «انجا» يلعب مع
«توربيدو». ليس هذا مزاحا. لهذا فعليكم أن تدبر
الامر بدونى...

— مفهوم! — قال روديون من جديد، — لقد فهمتك!
وخرج من الغرفة مطرق الرأس.

الجد

كانت فاريا ما تزال فى الخارج. واليوم الخائق
المجذب يمضى بتشاقل وبلادة.
وفى آخر الامر جاء ميفودى العجوز. وهو يحمل
حزمة من البصل الاخضر، وبعض الفجل ملفوفا بصحيفة،

وقدحا من شراب الكفاس. وكان العجوز لا ينزل عند ابنه الا اذا كانت الفتينا بعيدة عن الدار، فلم يكن يجرؤ على البقاء معها طويلا في البيت. فقد كان يدخل الجنون في رأسها أن تراه يسير حافي القدمين يرتدى قميصا طويلا دون حزام، وبعد أن يشرب كأسا من الفودكا يغنى دائما بصوت مزمارى عاطفى: «آه أيتها الخياطة الفقيرة الفقيرة، إذ ذاك كنت فى السادسة عشر من عمرى». أو فجأة يتلاطف مع ضيوفها: «تفضلوا وكلوا، ما يزال عندنا الكثير». وبعد أن يمكث معهما قليلا يصبح مزاج العجوز متهيجا خائفا، ويبدأ يطرف بعينيه بسرعة، وينحنى أكثر من اللازم، ويتحدث اقل فأقل، وفى آخر الامر يبدأ بالعودة الى قريته، عائدا الى كوخه الصغير برائحة الريش والرماد.

ولما كانت الفتينا، وهى الآن فالنتينا اندرييفنا، غائبة عن الدار، فقد سار على أرض اثبت، مدخنا غليونيه فى المطبخ، والممشى، قاصا على فاريا ذكرياته بصوت عال. ولكن حين يزور البيت أصدقاء يفغيني يصمت العجوز، ويتحاشاهم، قائلا بابتسامة مكرة صغيرة: «انه بخير حيث هو وليمتع السادة الشبان انفسهم». وقد سمع روديون ذات مرة أحد اصدقاء يفغيني يقول للعجوز بأن يخرج ويشترى لهم سكاثر. وولدت به وخزا فى معدته رؤية أبيه الوديع يزداد وداعة. غير أن الفتينا توردت فى ارتباك حين ظهر الجد أمام ضيوفها حتى أن روديون، لم يكن يعرف من يستحق الرثاء أكثر - أبوه ام زوجته - وودع العجوز

في المحطة بمزيج من الشعور بالمرارة والغوث، ووضع
الفلوس الزائدة في جيبه « في حالة الطوارئ ».

وهكذا، بعد ان انتظرا فاريا دون طائل، تناولا
الفداء وحدهما. وكان الرجل المعجوز ذو اللحية يرتدى
سترة طويلة عليه جدا، وكانت عيناه الصغيرتان
الفاثحتان الشبيهتان بلون عيني ابنه ترسلان الى روديون
نظرة احترام غير بسام. والطريقة التي كان يقول فيها
« روديون » اعطت هذا الشكل من المخاطبة وكأنه يلفظ
اسم روديون بكامله. ورفض ان يتناول المعجنات
والسردين تادبا لا غير وبدلا من ذلك ملأ فمه بالبصل
الأخضر قائلا بان البصل لا بد من أنه كان وافرا في
ذلك العام لأن ثمنه كان رخيصا. وبهذه الطريقة الملتوية
جعل الاب ابنه يفهم انه لم يكن الرجل الذي يبعثر
فلوسه وأنه يحرس مصالح روديون بشدة.

وغسلا الاواني سوية وقال روديون:

— انظر يا ابي، ما رأيك في أن نذهب نحن
جميعا الى المسرح هذه الليلة. هل تحب ذلك؟ لا احسب
انك ذهبت الى مكان آخر غير السرك.

قال الجد وهو يخلل أسنانه بعود ثقاب:

— لنذهب الى المسرح اذن! لا امانع في ذلك. في
وسعى ان اذهب ما دام الآخرون يذهبون. لم لا؟
ومع ذلك فقد كان في عينيه قلق، وكان يطرف
بسرعة خاطفة، وكان شيئا قد اخافه.

وبعد وقت طويل جاء فاريا وفولوديا. وكان
ابوها ينتظرها اليوم بكامله، فاين كانت هي؟ عند

الخياط مع فولوديا لتراه يقيس بدلته «الحقيقية»
الاولى، بنطلونا طلابيا وسترّة.

وسأل روديون بشكاسة:

– بنطلون طلابي؟ ما هو؟

اجاب فولوديا:

– أه، انها تتكلم كلاما فارغا. انهم يغيرون بدلة

أبى لى. لا بد لفاريا من ان تتكلم شيئا.

وجلس على الارىكة، وتناول كتابا، وفي الحال

غاب عن العالم، وأستطارت فاريا فرحا، وأطبقت فطيرة

اللحم مع الكعك الحلو، وأكلتهما سووية، وغمست البصل

بالكفاسى ثم وضعت اصبعها على الملح، ولعقته، وقالت:

– رائع!

وما ان انتهى الشاى حتى أخذ ميفودى العجوز

يستعد للمسرح، فنظف حذاءه الطويل فى المطبخ وأخذ

يطوف دون غاية من غرفة الى أخرى بملابسه الداخلية.

ورمش باضطراب، وهو يلبس بنطلونه وفى الاول

حشره فى حذائه الطويل، ثم تركه ينزل فوق الحذاء.

وجلس روديون يدخن ويفكر انه فى كل هذه السنين لم

يكن له الوقت ليشتري لابيّه بدلة لائقة. «ارغاندى،

حوض سمك، صبير»، – أعاد هذه الكلمات المزعجة فى

ذهنه. قال:

– هاك، البس بدلتى المدنية. فأنت غير طويل.

ستناسبك فى المقياس. اريدك ان تظهر باحسن مظهر،

لا تفضحنى!

وحملت جملة «لا تفضحنى» الرجل العجوز على

أن يكسو نفسه ببذلة ابنه السرج الزرقاء، وقميصه
الأبيض ثم وقف امام المرأة، وعبس وجهه وقال:
- اوه، يالى، يالى يا للداهية.

ومروا على اغلايا فى طريقهم. وكانت تنتظرهم على
عتبة دارها، مرتدية ثوبا أبيض، وعيناها الداكنتان
تشعان، وخداها متوردان.

وخلال العرض كان الشيخ لا ينى يشير باصبعه
الى المسرح ويسال أسئلة مهملا كليا هس الناس له.
- من هذا؟ ما الذى دهاه؟ من هى زوجته؟

أو يقول ثانية بنخرة غضب:

- انه ابله! ها، ابله ثم ابله ثانية! ذلك هو
يبيع روحه! تصوروا ذلك، ياه!

وضحك الناس الذين حوله بفتور. وابتسم روديون
وتبادل النظرات مع اغلايا. ما اروع صحبة هذه المرأة
فى صمتها وابتسامتها.

وفى الفترة اخذ الجد يتمشى ساعيا لأن يمر عجب
بالمرأة كلما وجد الى ذلك سبيلا، جاعلا سحنه غضبى
نافرة، متمتما فى سره:

- ياه، يا للداهية!

وأحب العجوز ميفستوفيليس أكثر من أى شخصية
أخرى.

قال:

- هذا رجل ذو مكر. ابليس حقيقى. يحصل على
ما يسعى اليه. ومن الأفضل عدم الاختلاط به اذا
تقدر على ذلك، هل أنا على حق يا فاريا؟

بعد المسرح

وتناولوا العشاء في البيت. وكان يفغيني لم يات بعد. وكان فاريا وفولوديا يتهامسان بشيء ما، وبدأ لروديون أنها تنتحل موقفا. ونزع الجد بدلة السرج الزرقاء وهو آسف وشرب قدحا من الفودكا، وذهب لينام. وجلست اغلايا وروديون الى جانب الشباك واخبرته، دون أن تغتم لذلك، كيف ان عملها متعب. واشق ما فيه هو الطرق الرثة، والحاجة الى التنقل في جميع انحاء المنطقة؛ وكذلك الموقف الابله المتمسك بالشكليات لبعض موظفى التعليم.

وقالت:

— لقد ذهب شبابنا. وقوانا ليست مثلما كانت. وأنا اعرف أننى اليوم الناس عبثا في بعض الاحيان، واجرحهم بذلك...

وضمت يديها الصغيرتين الملوحتين في ركبتيها، وجلست تنظر الى اسفل، ثم حدقت في عيني روديون تماما، وقالت:

— أنت لك متاعبك ايضا يا روديون؟ أرى ذلك ان صدغيك يشيبان،— وأبتسم روديون وصب لنفسه شيئا من النبيذ.

— ليست لى شكوى من البحرية يا عزيزتى اغلايا. ولكن هنا... الامر لا يروح ولا يجىء... ها هو يفغيني...
— ماذا عن يفغيني؟

قال روديون في حزن:

— لا أستطيع ان افهمه. انه لا يؤخذ بالعين.
— ولكن فولوديا يفهمه جيدا، وكلها بالاحرى.
فولوديا! قل لروديون ميفوديفتش ماذا قلنا عن
يفغيني في هذا الصباح.

وهز فولوديا رأسه في غير رغبة.
قال روديون:

— اخبرني... كل شيء معروف.
قال فولوديا وهو ينهض من الأريكة:
— في وسعى أن اقول بغیظ. فلا اعرف كيف
اتأنق في الكلام.

قال روديون في محاولة لان يبتسم:
— أنا لم اطلب منك أن تتأنق في الكلام.
قال فولوديا:

— أنا لا اعرف من المعلوم في ذلك. ولا اجازف
في الحكم. ولكن ابنك يفغيني دائما يعيش حياة جانبية،
اذا تعرف ما اعنى. وقد قلت ذلك له في حديث خاص
قبل أيام. لهذا فأنا حر في اعادته لك.
وهز فولوديا رأسه، وفكر لحظة، وبدأ يتكلم،
وكان صوته أجش، وثابتا:

— قلت له ما اعتقده، ومن اجل ذلك سماني
واعظا، وغلاما نموذجيا وغير ذلك من الاسماء اللطيفة،
بل سماني وصوليا. ولكنني لم اهتم. فذلك ما اعتقده،
ولا اعتقد خلافه. وكل فرد في بلادنا يجب ان يعيش
من ثمار عمله، عمله هو وحده، لا عمل ابيه أو جده.
هل أنا على حق يا روديون ميفوديفتش؟

- نعم! استمر، - قال في خشونة لسبب مجهول.
- حسنا. قبل ايام كنت اتكلم انا وفاريا عن
المطرقة والمنجل، فلا يمكن ان يخترع شعار افضل من
المطرقة والمنجل، فانهما يرمزان الى نظامنا الاجتماعى.
ثم وفي هذا الرمز معنى اوسع من مجرد عمال وفلاحين.
فان القانون الذى يحكم حياتنا متجسد فى هذا الرمز،
القانون الرئيسى، هل انا على حق يا روديون
ميفوديفتش؟

- ومع ذلك فليس كل فرد يرى بهذه الطريقة،
وانا آسف لاقول ذلك، - اجاب روديون بحزن فى
هذه المرة، ليس فى الغضب، - وهناك فاريا مثلا. لا
تعرف الى تسعى، الى الجيولوجيا ام المسرح. اما
فائدة المجتمع...

قالت فاريا عابسة:

- والآن تحولت على. الا يمكن للشخص ان
يهتم قليلا باختيار مستقبله؟
فقاطع فولوديا بصرامة:

- ولِمَ؟ لقد اوغلت كثيرا فى الاهتمام به. ولكننا لا
نتحدث عنك. يا روديون ميفوديفتش، اكره ان اقول
ذلك، ان يفغينى يعيش حياة «منفصلة»، انه لا يعيش
على حسابه هو، بل بمساعدتك انت، ولكنه يجعل
حياته منفصلة كليا عن الرمز الذى تحدثت عنه. وليس
ذلك لانه يستخدم اسمك كعتلة رفع. لا. فهو لا يفعل
شيئا من هذا القبيل، ولكنه ينظر اليك كاحتياط - عند
الضرورة. ونظريته ليست صحيحة: فهو يعتقد بانه

لما كنت انت وفالنتينا اندرييفنا قد مررتما بمصاعب
ومشاق في حياتكما الخاصة فعليكما ان ترتبا له
ولفاريا حياة جميلة ويسيرة. وهو واصدقاؤه-وانا اعرف
بعضهم - يؤمنون بان الثورة قد قامت من اجلهم شخصيا،
لكي يكون في وسعهم ان يستمتعوا بحياة يسر واكتفاء.
وذلك خطأ بالغ، كما أنك مخطئ ايضا في سياستك
القائلة بان الكل للاطفال. ولكنني لا اقول اكثر، لأنك
ستغضب...

قال روديون:

- كنت اتوقع شيئا من هذا القبيل. نعم. شيء
كهذا. ولكن هل بوسع المرء ان يتفهمكم، انتم الشبان؟
وراح يتخطى ارض غرفة الطعام بخطوات ثابتة
ويداه خلف ظهره. وبدا مرتبكا، وكان في وجهه بؤس.
وقال فولوديا بهدوء، ولكن بحزم ايضا:
- ان يفغيني متكيف. انه شاب، ولكن بشكله
الصافي. وقد نضج كليا.

وهز روديون رأسه وسأل:

- هل انت متأكد تماما؟

وهز فولوديا كتفيه ولم يقل شيئا.

قالت اغلايا:

- نحن في بعض الاحيان عرضة للافراط في تعقيد
الامور. والحياة شيء معقد. ولكن لناخذ هذا الامر
مثلا. اليس بصحيح ان الصبي الذي يشي في المدرسة،
يتشكل على ذلك طابعه وشخصيته؟ اقول لك هذا يا
روديون بصراحة وغلظة: لم اطق قط ان اتحمل يفغيني،

واحسب أن عليك لا مجرد أن تحاول وتصلحه، بل
ويجب أن تحاربه في الواقع مهما كانت النتيجة.

فسأل روديون بابتسامة مريرة:

— ما يعنى ذلك بالضبط؟ ألا تدركين أن حقوقى
على يفتغينى ليست محدودة فقط، بل ومعدومة ايضاً؟
ان لى واجباتى وليس لى حقوقى. ولكن ما الفائدة من
الكلام...

ودخل الجد وهو فى ملابس الداخلية، وفوقها
معطف البحرية الاسود. وسأل:

— هل عندكم شىء من الكفاس؟ لقد شربت ثلاث
مغارف من الماء، ولكننى لم ارتو، رغم اننى لم أكل شيئاً
مملحاً...

ونظر اليهم جميعاً بالتوالى، وتحير فجأة اذ انه
لاحظ عدم الترتيب فى ملابسهم فتراجع فى ارتباك ليفتشر
عن الكفاس فى محل آخر.

وقال روديون:

— هكذا اذن!.. أمسية مريحة جميلة. حسناً، آمل

أنكم ستعذرونى...

وحين ذهب الضيوف قبل فاريما، واذا رأى الاشفاق
فى عينيها قال انه سيذهب رأساً الى الفراش. فكان ثمة
شىء واحد لا يطيقه هو الاشفاق. وسمع فاريما ترش
الماء فى الحمام زمناً طويلاً، ثم استقرت هى الأخرى
لتنام. وهذا كل شىء وعاد ثانية الى غرفة الطعام،
وصب لنفسه قدحاً من الشاي البارد وطفق يذرع الغرفة
من زاوية الى أخرى.

وعاد يفغيني الى البيت متاخرا. فتح الباب الامامى
بمفتاحه، ودخل الى غرفة الطعام وراى روديون يدرع
الغرفة والسيكارة بين اصابعه.

قال يفغيني:

— مساء الخير!

— مساء الخير، — اجاب روديون واضاف الى ذلك
أن يفغيني يجب ان يرجع مبكرا الى البيت. ومع ذلك
فقد قالها دون غضب. وشعر أن غريبا قد دخل غرفته
دون دعوة.

وجلس ذلك الغريب على المائدة، وطفق ياكل.
وتكلم بعجالة واصفا لعب الجناح الايمن وكيف أنهم،
بعد اللعب، ذهبوا جميعا الى فيلا شيلين، حيث شربوا
ليمونادة مثلجة، وسبحوا، ومتعوا أنفسهم بصورة
عامة. وانصت روديون بصمت. فلعله اذا ظل ينصت،
ولا يقول شيئا أن ينجح فى ايجاد طريقة موفقة
لمعاملة يفغيني. فقد مر حين من الدهر كان روديون
يحمل يفغيني، وهو الطفل الصغير المريض، بين ذراعيه
ويهدده كما كان يحصل على السكر له فى بتروغراد
التي يعربد فيها الجوع مقابل الاهانات. كما مر زمن
علم فيه يفغيني الالفباء. ماذا حدث له؟ المتكيف؟
اى انه شخص غريب؟ شخص لا يعيش الا لنفسه؟
ومرة اخرى، سأل روديون نفسه السؤال بعينه:

متى وكيف ولماذا حدث ذلك؟

وفجأة، فهم لماذا: السبب لان حياة الفتينا كلها
كانت مركزة فى يفغيني ابداء. كان كل شيء بالنسبة لها.

وكل شيء له وحده. وكل شيء كان مسموحا له. وحين كان روديون يعود الى البيت في المساء، منهوك القوى بشكل مميت. فهل كان في وسعه ان يرسل الصبي الى المخزن في زاوية البيت ليشتري له سكاكر مثلاً؟ لا، لم يكن الصبي يعرف شيئاً غير المرح. واذا لم يكن هناك مرح فدراسة. والطفولة - في رأى الفتينا - أسعد الاوقات. واذا اخذ روديون يجادلها تقول:

- انت تقول هذا لأنه ليس من لحمك ودمك. انه يتيم، طبيعى جدا... ولكن تذكر هذا: انا لا ادع احدا يبغى عليه.. ما عليك الا تتذكر ذلك!

وذاث يوم عند الغداء قبل خمس سنوات، أساء يبغينى الادب مع زوج امه بشكل فظ. وكان روديون، مثل كل الرجال ذوى القلوب الطيبة، مرهق الاعصاب. وقد احتدم غضبا، وتناول صفا من الصحون، والقاء ارضا، وهو على وشك الاغماء من الاستياء. وصرخت الفتينا، وتعلقت فاريا الصغيرة بذراعه، وقال يبغينى بهدوء وشفته شاحبتان:

- مجنون شرس!

وترك روديون غرفة الطعام. ومن الغرفة التالية سمع الفتينا تقول شيئاً بعصبية وتدليل ليفغينى الذى كان يقول بين حين وآخر:

- ليذهب الى الشيطان، هذا الابله العجوز!

وبعد ذلك سمع يبغينى يغنى. كان يروح ويغىء في الدهليز يضرب بقدميه عن عمد، ويغنى. كان يغنى في احساسه بقوته، وبسلطاته، يغنى لانه أدرك كم

كان زوج امه معدوم القوة في هذه الحال. ولكن لماذا ليفغيني الا يغني؟ انه طفل شديد التأثير بينما زوج امه رجل فظ، من الفلاحين الغلاظ، الدهماء. وهذه الكلمة الأخيرة الماخوذة من قاموس مدام غوغوليف قد ترسخت جذورها في نفس الفتينا.

وهكذا ترعرع يفغيني واصبح غريبا. وها هو الآن جالس ياكل الفطائر، والسردين والفواكه ويشرب الشاي. ويا للغرابة: كان في عينيه دفء ونعومة. وكانت نظراته مختلفة ابدا عن النوع الذي تعود أن يرسله الى زوج امه. اوه، انه يعرف هذه النظرة جيدا! انها نظرة الفتينا حين تريد أن يعود الوثام الى البيت بعد أن تكون قد انهكت صبر زوجها بمشاكستها الدائمة. ويفغيني ايضا يريد الوثام في البيت، يريد أن يكون على علاقة طيبة مع زوج امه، وأن يلائم نفسه معه. كان يريد هذا، ولا شيء اكثر من هذا - ادرك روديون.

ونظر الى الفتى الغريب بفضول عابس. لا شيء مستهجن فيه: كان وجهه ملوح البشرة، نقي الصفحة، والعينان صافيتان، والشعر ناعم، والاسنان بيض. وكانت النظرة مفتوحة، ومستقيمة. وكان لروديون عين ثابتة على الناس. لقد عرف الاف الناس، وفي وسعه ان يميز في الحال، وبنظرة واحدة، الخسة والوضاعة من الشيء الحقيقي. ونادرا ما يخطأ او لا يخطأ تقريبا. وقال يفغيني:

- اوه، وشيء آخر يا ابي. لي رجاء اليك. ان

عميدنا رجل لطيف متزمت عجوز، ليس لامعا جدا،
ولكنه جيد معى شخصيا. وابنته صديقة لى. وغدا عيد
ميلادها. وقد دعيت انا وانت.

- ولكن لماذا انا؟

- حسنا، ستقص لهم شيئا عن تجاربك. فانت
بماضيك المجيد بالتاكيد تستطيع أن تجد شيئا تتحدث
به. حسنا. تحدث عن نيستور ماخنو، أو ربما عن عملك
فى هيئات الامن الداخلى. فقد تكون لك بعض القصص
الممتعة لتقصها، أليس كذلك؟ انهم الحوا فى الدعوة.
فتعال، أرجوك!

- سافكر فى ذلك،- قال روديون وقد اخرج
الكلمات بجهد.

وفتش فى كل جيوبه عن السكائر، التى كانت امامه
على الطاولة.



الفصل الخامس

قصص بولونين

كانت الدراسة لفولوديا عملية مضيئة.
في سنته الاولى قرأ كتاب بيروغوف الشهير
«تواريخ العيادة الجراحية» وفي هذه الكتاب أرتاب
المؤلف في عدد من الحقائق التي لم يكن عليها نزاع في
عصره. وكذلك اخذت تتولد في نفس فولوديا شكوك
في بعض الامور. والثقة بالنفس عند بعض الاساتذة
جعلت فولوديا يتنبه، بينما كانت نظرتة المرتابة أبدا
تضايق الاساتذة. وكان معهد سيجنوف الطبى مصدرا

دائما لاستنزاف قوته. ولم يكن يستطيع ان يفهم كيف يمكن للمرء ان يسجل محاضرة بكليتها ولكيما يحفظها عن ظهر قلب فيما بعد، كما يفعل يفغيني، ذلك النموذج للكفاءة واحترام الاساتذة، وذلك «الفتى الطيب». كما لم يكن في وسع فولوديا ان يحشو دماغه بالدروس لامتحاناته حشوا. كان يصغى الى المحاضرات بانتباه، ويحتفظ بذاكرته كل ما هو مهم، وضروري، ومفيد، وكل شيء يلوح له من العموميات التقليدية يحفظه في نفسه ليجد في اوقات فراغه الاعتراض على تلك الحقائق العامة غير القابلة للانتهاك وليبرهن على انها غير صحيحة. ومع ذلك كان يعرف دائما ما يتطلب منه ان يعرفه بل في الحقيقة كان يعرف أكثر، ولكن بطريقته الخاصة. وكان غانيجيف الذى يحبه فولوديا يقول له غالبا:

— ان احد المختصين الفرنسيين في علم التشريح كان يحتقر الدرجات العلمية غير انه كان يقول انه من الانسب ان تحتقرها وأنت في قمة ذلك السلم الملعون لا واقفا في دركته السفلى تتطلع الى فوق. تذكر ذلك يا اوستيمنكو، ان الرجل الذى يقف عند دركة السلم السفلى قد يرتاب الناس بانه كامد الفكر والجسد.

وفي السنة الثالثة أحب فولوديا البروفيسور بولونين حبا شديدا، وبولونين صديق حميم لغانيجيف، عملاق في الجسم، يلهث في تنفسه دائما. وكان للبروفيسور بولونين خدان بلون الجزر، ورقبة سميقة، وشعر اجعد كثاني. وكان يتكلم بصوت عميق مخيف

يجيز عدم الاحترام لما يذكره غيره من اعضاء هيئة التدريس باعجاب شديد في اصواتهم. وبين حين وآخر يقص على الفصل قصصا غريبة تبدو غير ملائمة كليا. وذات مرة قال لهم:

- هذا فيودور ايفانوفتش اينوزيمتسيف. انه شخصية لامعة جدا في تاريخ طبنا، رجل موهوب له عقل قوى، بل اقول عقل ثاقب في كثير من الوجود. وطبيعى انه كان مشخص امراض ممتازا، مشخص امراض خارقا على حد التعبير السائد اليوم. كما انه كان طبيبا ممارسا شائعا في ايامه. وآمل في انكم تعرفون ما هي الممارسة الخاصة؟

- معروف، - هدر الصف كله وكانت معرفته بالممارسة الخاصة مستقاة من قصة «ايونيتش» لتشيخوف.

وتابع بولونين يقول:

- لقد احبته هذه الممارسة الخاصة، وهو بدوره لم يكن يشمئز منها. وكان يحب أن يصون راحة فكره بحساب كبير في البنك. ولما كان لا يستطيع ان يرعى مرضاه الكثار وحده اضطر الى أن يستخدم جملة من المساعدين النظاميين المعروفين شعبيا بـ «الاولاد من شارع نيكييتسكايا» على شرف المنزل الذى يملكه اينوزيمتسيف في شارع نيكييتسكايا في موسكو. وفي عهد بروزه «المراسى» هذا كان ولوعا جدا بالامونيا كدواء لعدد من الأمراض ولحالة الزكام بصورة عامة. والآن، يا اصدقائى، ليست نظريته عن الامونيا باسوأ من

النظريات الاخرى الممحول بها في عهد اينوزيمتسيف.
والشيء الطريف، على اية حال، أنه بينما ابتلع النسيان
النظريات الوهمية الملفقة الاخرى في الحال، أصاب الفلاح
نظرية الامونيا. أتعرفون لماذا؟

وأجال بولونين عينا ثاقبة في المستمعين اليه متوقعا
ان يسمع جوابا. ولكن لم يتقدم أحد. وبزفرة جزع
تابع حكايته:

- لأن «الاولاد من نيكييتسكيا» كانوا جميعا
ماكرين، ذوى خبرة يهتمون عن ذكاء بمنفعتهم الخاصة،
وسواء أكانوا شبانا أو كهولا أو شيوخا كانوا لا ينفكون
يقدمون لرئيسهم معلومات عن حالات كانت فيها هذا
الامونيا الملعون علاجا معجزا. وانهم، اذ كانوا يقدمون
لاينوزيمتسيف معطيات كان يرغب فيها، كانوا يسيئون
بذلك الى سمعة هذا الطبيب الرائع حقا في عيون
تلامذته الذين كانوا بالفعل يسخرون من علاج الامونيا.
ولكن اينوزيمتسيف لم يكن ضنينا ازاء هؤلاء «الاولاد
من شارع نيكييتسكيا»، وهم، ردا لجميل رئيسهم
وخوفا من ان يزعلوهم، كانوا يخدعونه بلا خجل. وحسب
ما قاله بيروغوف، أنهم «اكلوا عن سمن، وناموا على
ريش، وتسلوا خلال فواجع الوطن». أما بالنسبة
لاينوزيمتسيف فطبيعى أنه لم يخسر شيئا من الشرف
المستحق له جزاء لخدماته الجليلة في العلم، ولكنه
هزا نفسه أمام معاصريه، ولما كان هناك، لا محالة،
مؤرخون من بين المعاصرين، فلا شيء يبقى سرا الى
الابد. وأنا لا اقص عليكم هذه القصة للانقاص من شأن

اينوزيمتسييف، فذلك بعيد عن فكرى. بل سردت هذا
المثل الواضح لأحذركم قائلا: يا اصدقائى، يا ابناء
ايسكولابىوس، لا تتركوا اكتشافاتكم يجربها اولئك
الذين يعتمدون عليكم فى خبزهم اليومى، الناس التابعون
لكم، والمرتبطون معكم فى سلم المرتبات. ان السخر شىء
رهيب. انه يلتصق بتشبث بانبع الناس زلت به القدم.
فصنوا انفسكم وزملاء كم من ذلك الخطر بحذر شديد،
وأخبروهم من اجل خاطرهم، وباسم الصداقة، وشرف
شغيلة الطب بالحقيقة، والحقيقة وحدها، والحقيقة
على الدوام...

وأخذ بولونين يميز فولوديا عن البقية بوضوح
أكثر فأكثر بمرور الزمن، وفى بعض الاحيان يتمتع
كلاهما بمحادثات طويلة فى حديقة المعهد الهادئة.
وكان بولونين يستريح فيها بعد عمله فى العيادة
العلاجية، فكان يجلس مدخنا سكاثره الغليظة التى يلفها
بنفسه، ويرمق السماء ويتحدث، وكأنما يتابع نقاشا
قد انقطع:

— لو يستطيع المرء ان يكتب كتابا عن اخطاء
الدكاترة العظام! لقد اقترحت ذلك على شخص منذ
ايام: ولا يمكنك ان تتصور مقدار غضبه، وأية كلمات
كبيرة فاه بها: ان ذلك سيكون مشينا ومشبطا للعزائم،
انه سيقوض المذاهب العلمية — لقد اشتد الغضب بذلك
الشخص على نحو عجيب. آه، ما زال جونا مثقلا
بالتعصب للعشيرة الواحدة حتى ليصعب التنفس. انهم
جميعا وقورون جدا، وذوو مقام رفيع، وكلهم ياملون

في ان يدخلوا في عداد العظام بالفظاظة، أو بالحيلة. ولكن ذلك ليس بالامر السهل. لهذا فهم يدفعون عن انفسهم مقدما حتى يمر بهم قدح الانتقاد: فسيمر! انها اخطاء العظام انما هي الطريفة، لا اخطاءكم، ولكن لا، حتى لا يصغون. وقد كان بيروغوف من العظمة بحيث لم يخف ان يكتب بنفسه عن اخطائه ذاتها. وقد دلت على انها مثقفة جدا للاجيال التي تلت. ولكن لا! انهم يقولون ان هذا ليس الشيء ذاته. وطبيعى انه ليس الشيء ذاته! ومع ذلك فان المواد التي جمعتها ممتازة. وقد نظر شخصي «الذكي» ذلك الى بعضها، وذكرني كيف استقبلت عشرتنا كتاب فيريسايف «مذكرات طبيب». وقال انها زهيرات لا غير، ونحن نود أن نريك الثمرة وكيف تنمو...

وذات يوم صادف فولوديا في الطريق وأطلعته بولونين على الكتاب الذي كان يحمله: مجلد أنيق ذو كعب جلد، مذهب الحاشية والعنوان، وقال في حنق: — ما أرذله! ان عنوان هذا المجلد، اذا سمحت، «الطاعون في اوديسا» بحث ملحق بصور وخطط، ومسودات ورسوم. وفي المكان الأول، وفي المقدمة نرى صورة الدوق دي ريشيليو، ثم بعده فورونتسوف باوسمته كلها، منتفخا بالشعور بسموه على بسطاء الناس، ثم يأتي بعد ذلك البارون مييندورف وغيره من قاهري وباء اوديسا. ولكن، والتمس منك ان تلاحظ، ليس هناك صورة لطبيب واحد. هناك صورة لفار، ثم صورة طحال الفار الاسود المصاب بالطاعون قد

وجدت لها مكانا في هذا المجلد مع خراج الفار الاسود.
ولكن لا مكان للاطباء. فهم لا يستحقون شرف ذلك.
فاى تواضع ذليل! لقد اشتريته من مخزن الكتب
العتيقة وتصفحته، وزعلت. لماذا يجمع هنا كل أولئك
الدوقات والكونتات والبارونات بأبهتهم وفخفختهم،
وزيناتهم، وينكر شرف ذلك على طبيبنا غاماليا، ذلك
الطبيب الرائع الجسور النقى القلب؟ على كل حال الى
اللقاء!

وفي مرة اخرى كان جالسا على مقعد حديقة المعهد
المفضلة مع فولوديا فقال له:

— نحن نعرف جميعا ان بوتكين سيرغى بيتروفتش
العظيم بذل جهدا عظيما للنضال ضد السيطرة الاجنبية
في الطب الروسى، وكفاحه مستوٍ تاريخيا لأن المفتش
الطبى العام فى ظل الامبراطورة ماريا، رول، وهو طبيب
القصر، لم يكن يقول فحسب، بل وحتى يكتب ما يلى:
«حينما اكون المفتش الطبى العام فى مؤسسات
الامبراطورة ماريا، ففى هذه المؤسسات لن يكون هناك
روسى واحد فى منصب رئيس الاطباء، بله فى منصب
رئيس القسم، او طبيب». وقد كتب هذا، لاحظ، فى
روسيا وصادقت عليه العائلة الحاكمة التى لم تكن تعرف
بالمصادفة اللغة الروسية. فان استياء بوتكين مفهوم
للاغاية بالطبع، ولكن لماذا حتى هو، وهو بالذات، قد
تصرف ذلك التصرف؟ بدلا من أن يرتفع على رول نزل
الى مستوى رول. وقد أستطار قلب بوتكين غيظا وحنقا
وارتكب عدة أعمال حمقاء كانت اساءة لسمعته

ولسمعة بلاده، وقد بالغ في سخرياته حتى اذاع قصصا غير محتشمة، ذلك لأن كل من الشوفينية والتعصب القومى منفردان في كل اشكالهما. واذا كان رول رذلا ومتدلا، فلماذا نستخدم اساليبه؟ ومع ذلك فهذا ما فعله عظيمنا بوتكين، وقد أوغل في الامور بعيدا حتى أنه حين كان عليه أن يختار اطباء مقيمين من بين المرشحين الموجودين لم ينظر الا في اولئك الذين كانت تنتهى اسماءهم الروسية بـ «اوف» و «اين». واقول لك مثالا آخر محزنا أكثر منه مسليا في هذا الموضوع. ان بوتكين رفض انبغ شاب اسمه دولفيخ. وكان صاحبنا بوتكين مشغولا جدا بالمشاورات وساعات الاستقبال والزيارات بحيث حسب هذا الشاب السيبرى المانيا امثال الذين يحملون اسماء المانية: ميونيخ وليبيخ وريتيخ وغيرها من الـ «يخ» التي يكرها. ولن اتمعن في قضية اختيار الاطباء المقيمين حسب مبدأ بوتكين هذا، ولكن اسمح لى بان اقول لك بان الشرفاء من الناس كان عليهم، في هذه القضية ايضا، أن يشنوا حربا ضد حماقات بوتكين. غير أنهم آثروا ان يتجنبوا وان يصرفوا انظارهم عن هذا، وبذلك وضعوا اسم وعظمة بوتكين تحت النار في حياته وبعد ذلك. هل كان هذا ضروريا؟

وفي مجرى احدى المحاضرات قال ذات مرة:
— ما الذى فعلوه في العلم الروسى، ما الذى فعلوه!
ان سيرغى بتروفيتش بوتكين اعظم معلم لجيل بكامله من الاطباء الروس قد عين طبيبا ملكيا للعجوز السيئة

الخلق الامبراطورة ماريا وبسبب ذلك ارغم على ترك
الاكاديمية لمدة طويلة من الزمن. وكانت الاكاديمية
حياته الحقيقية لأن الحياة ليست الا خلقا. ان عبقرية
بوتكين كانت في أوجها، وبدلا من ان يعمل كان عليه
ان يتجول في ليفاديا أو كان، أو سان ريمو أو منتونو
ويسأل: «هل نتمم كثيرا يا صاحبة الجلالة؟»
فطيع!

ومشى بولونين امام الصف جيئة وذهابا وعيناه
قد قلصتهما ابتسامة رقيقة، وحدثهم عن اطباء الماضي
العباقرة الذين يعرف عنهم كثيرا، وبتفاصيل دقيقة،
كأنه كان يعرفهم عن قرب. وقد لاحظ فولوديا أنه
بالرغم من ميل فكر بولونين الى النقد فانه يلتذ
بالتحدث عن الناس بالخير، مندهشا من لمعان افكارهم
وعمقها وقوتها، ومن قدرتهم على العمل، ومن «انصرافهم
الى اعمالهم انصرافا كليا» - على حد تعبير بولونين.
وقال:

- ان تاريخ الطب يجعل قصص حياتهم تبدو
مضجرة جدا. فكل اطبائنا الاعزاء يأكلون طيب
الطعام وناعمه، والهالات حول رؤوسهم جميعا، وهم
لم يأكلوا قط أكلة مرضية، وحتى انهم لم ينزعجوا قط
غير أنهم كانوا بشرا مثل بوشكين أو أى عبقرى آخر.
وشئ آخر اريدكم ان تلاحظوه هو أننا شحيحون
جدا حين نضع رجل طب في موضعه الحقيقي، أى فيما
يتعلق بتقدير حق ذكائه والطاقة التى عمل بها. فان
كتاب الطب عندنا أشحاء في هذا المجال، وهم يخافون

من الافراط في الثناء على المرحوم. والظاهر ان احد اسباب ذلك هو ان كل واحد من هؤلاء المرحومين قد فعل، لا محالة، بعض الاخطاء في صياغة نظرياته، وعليه فينبغى للكاتب ان يكون على حذر. وأعرف ابله كتب مقالة ينتقد زاخارين الذى هو من ادهش العباقرة، لانه لا يعرف علم الجراثيم. وما أود ان اعرف ما الذى يفعله هذا الابله اللطيف لو كان في عهد زاخارين، وكيف كان يلم شخصا بذلك العهد الصاخب لتطور علم الجراثيم؟ ستيبانونف! لماذا تنظر الى هذه النظرة التهكمية، هل قلت قولا لا يقبله العقل؟ اننى اقول كل ذلك كتدبير وقائى، لأنبهكم، يا تلاميذى، الى كل حديث عهد بالنعمة قد يكون له قول في العلم.

وأنصت الحضور مبهورين، وكان يفغينى يسجل بارتياح كل شىء بما فى ذلك «حديث عهد بالنعمة». وكان يخاف بولونين ويكرهه شاعرا بأن بولونين، بدوره، يزدريه.

وجلس فولوديا يضع ذقنه على راحة يده المعكوفة فكان يعرف بالتأكيد أن شيئا طريفا سيحدث. وتابع بولونين حديثه:

— لنتحدث عن بوتكين، فذلك نافع لنا وبالمناسبة اقول، انه كان يلقى محاضراته فى اكاديمية الطب الجراحى، فى نفس الزمن الذى كان يلقى فيه المحاضرات ايضا البروفيسور فى علم النبات ميركلين، وهو بستانى سابق فى حديقة قصر الاميرة يلينا بافلوفنا. وكان هذا العالم الرفيع المقام يقرأ محاضراته من ورقة، وهذا ما

قراه حرفيا: «ان النبات متكونة من خلاياوات مثلما الجدار متكونة من حجاراوات». ولكنه قبل كل شيء كان بستانيا في خدمة الاميرة بالذات، فلماذا لا يقفز الى الاستاذية؟ وكان بوغدانوفسكى، وهو رجل موهوب صلب في معتقداته ومعارض قوى لنظرية ليستر، يلقى محاضراته ايضا في الاكاديمية في ذلك الوقت. وكان يقوم بعملياته بشيابه الاعتيادية وكان يرتدى منزرا من المشمع الاسود فوق بدلته، وقاية له من التلوث. وكانت الخيوط التي تخاط بها الجروح معلقة على سقطة النافذة، فكان مساعده، كلما دعت الحاجة، يبللها في فمه ليجعلها اقوى، ويقول باحترام وهو يناولها الى الجراح: «هذا الخيط موثوق به يا صاحب السيادة». ولم تكن تستعمل بالطبع اية نقطة من الكاربوليك، أو سليمانى أو اى شيء آخر قط. بينما كان البروفيسور بيليخين الذى كان معجبا متحمسا لليستر ومندفعاً في التزام الصحة بحيث لا يكتفى بحلق شاربه ولحيته، بل وحاجبيه أيضا.

وضحك الحضور وقال بولونين بشكاسة:

- ليس فى الامر ما يضحك، ايها الرفاق، يا اطباء المستقبل. ان طريق العلم فاجع. لقد كان بيليخين يعتقد - أفى وسعكم ان تفهموا ذلك؟ - كان يعتقد ويعذب نفسه والآخرين باعتقاده أنه بهذه الطريقة بالضبط سينقذ حياة الناس. وانا ادرك، يا رفيق ستيبانوف، أن بيليخين يبدو لك مضحكا ولكن أنا، وأنا لست خجلان من الاعتراف بذلك، بكيت حين سمعت

قصة حلق عزيزنا بيليخين حاجبيه فكيف كان يقابل بهذا المنظر لا عائلته فقط، بل والاكاديمية ايضا.
وبحث في محفظته، واخرج منها ورقة ولوح بها وهو يقول:

- اسمعوا! هذا ما قاله البروفيسور سنيغريف في خطابه عند افتتاح المؤتمر الاول المولدين والمختصين بامراض النساء في روسيا. وقد انعقد المؤتمر في عام ١٩٠٤ ليس في زمن بعيد جدا، على اى حال، في بداية عصرنا. وقرأ:

- «انه ليرعبني ان اتذكر ان تجويف البطن بقى مفتوحا خلال ساعة وساعتين وثلاث، وقد ظلت المريضة والجراح ومساعديه تحت رشاش (والرشاش هنا انما هو رشاش الرطوبة، هل فهمتم؟) لا ينقطع عن محلول حامض الكربوليك. وكل من كان حاضرا هناك أحس بطعم حلو في فمه من حامض الكربوليك، وبجفاف في الغشاء المحاطى بينما ظهرت في بول الاطباء والمريضة كمية كبيرة من حامض الكربوليك. لقد كنا نسمم انفسنا، ونسمم مرضانا لأننا كنا نعتقد (بل ونؤمن!) بأننا كنا نسمم العدوى في جسم المريض، وفي الهواء المحيط. فليغفر لنا جنوننا هذا! وقد اصبحت الامور اكثر رعبا حين حل السليمانى محل حامض الكربوليك. فقد غسلنا ايدينا واسفنجات بالمحلول، وفقدنا اسناننا، وفقد المرضى حياتهم».

وتغضن وجه بولونين الكبير وقال وهو يحشر الورقة ثانية في المحفظة:

- وعلى هذه الصورة طبق، في البدء، المذهب العظيم
 لليستر. مضحك؟ لا. لقد مات ترويانوف وهو جراح
 روسي رائع بالتهاب الكلى المتسبب من التسمم بحامض
 الكربوليك. وليس هذا مضحكا ايضا. ولنعد ثانية الى
 بوتكين. ان بوتكين، وهو زهرة مدهشة في علم الطب،
 قد تفتح في وقت عسير جدا على العلم. ومع ذلك فقد خلق
 مدرسته الخاصة وبدأ حركة قوية في الطب، ورغم أنه
 لم تكن لديه موهبة الخطابة، الا انه كان يجذب الى
 محاضراته دائما اربعمائة مستمع على الاقل، وفي بعض
 الاحيان خمسمائة مستمع. وكان يقف في تشخيص
 الامراض في المقدمة عاليا فوق جميع معاصريه. وكان
 يعرف كيف يفحص بالسماعة، ويفكر ويقدر المرض
 والمريض بامعان ويحل المشكلة استراتيجيا. ان طاقاته
 كمشخص للامراض تثبتتها حقائق عديدة تحدثنا عنها
 فيما سبق. ولكنني أود ان اشير الى حقيقة اخرى. ذات
 يوم جىء الى العيادة بامرأة نصف. ولم يات تقصى
 تاريخ المرض بمعلومات مفيدة، غير ان المريضة نفسها
 قالت للاطباء انها قد أكلت حساء السمك منذ ثمانية
 ايام او نحوها وشعرت بتوعك، وفقدت شهيتها،
 وأخذت الى فراشها. وكانت الاعراض كالآتي: سعالا،
 ازرقاقا في الوجه، واطرافا باردة، ونفورا من الطعام،
 ونعاسا. وقد شخصه الاطباء ذو الخبرة بانه ذات
 الرئتين. ثم جاء بوتكين، وبعد أن فحص المريضة
 بالسماعة وفكر، أعلن بلهجته الخاصة، الموسكوفية:

- خلال تشريح الجثة في غد ابحثوا عن خراج
في الحجاب الخلفى بالقرب من المرى.
تصوروا وجوه جميع أولئك الاطباء الرفيعة المقام،
العلماء الجادين، بالطبع، ولكن غير اللامعين. وهنا كان
عبرى!

حسنا. واجرى التشريح، وكانت النتيجة التهابا
تقيحيا في جدار المرى واختراقه مع تكون الخراج، في
الحجاب الخلفى وتسمم تعفنى في الدم.
واصبح الامر كله واضحا. ان عظمة سمكة قد
التصقت في المرى، وسببت التهابا تقيحيا في الحجاب
الخلفى بكل العواقب الناجمة عنه.

يا ايها الرفاق الطلاب، أنا لا استعمل كلمة عبرى
جزافا. لقد كان بوتكين عبقرى، ولهذا كان في وسعه ان
يرى ويسمع ما لا يراه ولا يسمعه الآخرون، وكان
يعرف كيف يركز الفحص الكلينى في سبب الألم
والعمليات الأكثر عمقا، والأكثر أهمية - انه كان يعرف
كيف يحل «عقدة» المرض ولكن كثيرا مما احس به
نفسه وادركه لم يكن قادرا على تفسيره. وما من احد
غيره يستطيع ان يكتشف التغير في نبضات القلب، ولكنه
كان يصر على انه يسمع «خفيفا» وبعد فترة من الزمن
يسمع «ضجيجا خفيفا». وحين يكون المرض يقترب من
مصيره الفاجع، اذ ذاك فقط يبدأ الاساتذة الآخرون
بسماع ما اكده بوتكين لهم منذ البداية. «انا ارى
احمرار الغشاء وارمداده»، - كان يقول ذلك وهو يمسك
بنظارة أنف امام نظارته. وكان نظره ضعيفا جدا،

ومع ذلك فقد رأى، فعلا، أشياء عجز الآخرون عن رؤيتها. « اننى اتمس وربما طفيفا هنا » - كان يقول ذلك قبل ان يستطيع اى شخص آخر اكتشافه. ولذلك كانت صلاحية بوتكين دائما مسلما بها ابدا. وتوقف بولونين لينظر الى وجوه طلابه المتوترة. وقد عرفوا جميعا انهم على وشك ان يسمعوا اهم الاشياء، الشيء الذى من أجله تردد اسم بوتكين كثيرا فى المقدمة.

- ومع ذلك فان التسليمية هذه يكمن فيها عنصر الفاجعة الخاص. وليس غرضى من سرد هذه الحكاية القصيرة عليكم هو ان الوث ذكرى هذا الطبيب العظيم، ولكن لا مكانكم، يا اطباء المستقبل، من تستخلصوا الاستنتاج الضرورى منها. كان بوتكين، فى ذلك الوقت، يهتم اهتماما خاصا بحالات التيفوئيد. ولقد حدث ان تلميذ الصيدلى كان آنذاك موضوع الدراسة والفحص الكلينى الذى يقوم بهما بوتكين لفائدة طلابه. وقد شفى المريض من المرض، غير انه مضى يشكو من الصداع. ولما كان الصداع لا ينسجم التشخيص الذى وضعه بوتكين فقد اعتبر بوتكين تلميذ الصيدلى هذا رسميا، لاحظوا ذلك - متمارضا رفض ان يخضع لقرار الطبيب فى العيادة وهو: «الصلاح للعمل». وان اطباء العيادة الذين كانوا على رأى يختلف عن رأى بوتكين، قد لاذوا بالصمت! اما ذلك الفتى الذى كان فى السادسة عشرة من العمر فقد مات. نعم، راح ومات. وقد قال

البروفيسور رودنوف للطلاب قبل بدء التشريح؛
- لندرس - على هذه الجثة - ما هو هذا المرض
المسمى « بالتمارض » والذي يسبب الموت الفجائي.

لقد مات المريض بنتيجة قيح في الدماغ.
وفي هذه الحالة فان التسليم بصلاحيه طبيب لامع
حقا جلبت كارثة. ان القرار الجماعي، يا اطباء المستقبل،
شيء ضرورى لحل المشاكل الصعبة، حتى ولو كان هناك
بروفيسور مثل بوتكين. واذا ترون عالما بارزا يخطا
فانتم ملزمون شرفا بأن تدرأوا هذا الخطأ.

وبقى بولونين غارقا في افكاره دقيقة او دقيقتين
ثم سال فجأة:

- وماذا تعرفون عن معاصرنا، البروفيسور
كلودنيتسكى، وعن مساعديه ومريديه؟
وظل الصف صامتا.

- ولكنكم هل تعرفون أن البروفيسور كلودنيتسكى
هو أشهر عالم بارز في الامراض الوبائية؟
قال ميشا شيرفود:

- ومؤلف عدة كتب معروفة.
فقال بولونين بنفوره:

- اذا كان الانسان عالما بارزا، فهناك كل
الاحتمال بأن يكون مؤلفا لعدة كتب. أنت على حق
كالعادة يا شيرفود!

ولم يستأنف كلامه على الفور:
- باقتران غريب في الذهن تذكرت شيئا عن الموت
والتشريح. أحب أن أخبركم به. اذا كنت متذكرا

بالضبط، في ٢ تشرين الاول ١٩١٢، كان ديمينسكى،
وهو طبيب روسى، صديق للبروفيسور كلودنيتسكى
ومساعدته، اول من فرز عصيات الطاعون من احد
الحيوانات البرية المصابة به. وقد حدث ذلك في محافظة
استراخان حيث سجل عدد من الاصابات بالطاعون.
ثم ان ديمينسكى اصيب نفسه بطاعون رئوى، وقد
قام بنفسه بتحليل بلغمه، وارسل برقية الى كلودنيتسكى
في جانيبك. واقتراح عليكم، يا اطباء المستقبل، ان تسجلوا
كلمات تلك البرقية كيما تتذكروها دائما.

وراح يتمشى جيئة وذهابا بخطى موزونة واملئ
البرقية بصوت حازم وهادى في ظاهره:

«أصابتني عدوى الطاعون الرئوى من الحيوانات
البرية المصابة به. تعال وخذ كلما حصلت عليه. وكل
سجلاتى منظمة. والبقية ستعرفها من المختبر. شرح
جثتى وأدرسها باعتبارها حالة تجريبية لالتقاط رجل
عدوى المرض من الحيوانات البرية. وداعا. ديمينسكى».

هل سجلتموها؟

اجاب بيتش:

— سجلنا!

وكرر اوغورتسوف كالصدى:

— سجلنا!

واستمر بولونين قائلا:

— وجاء كلودنيتسكى بالطبع. جاء ونفذ آخر

ارادة للميت، مشرعا جثته في المقبرة والريح تهب

عليه، معرضا نفسه لخطر العدوى. هؤلاء هم الناس الذين انصحكم بالتعلم منهم.
وكان الهدوء مخيما في قاعة المحاضرات، هدوء وتوتر.

ومرة أخرى تحدث بولونين عن بوتكين، ولكنه في هذه المرة بمناسبة الطاعون.

- ان الطبيب، ايها الرفاق الشبان، يجب أن لا يتشكك في افتراضاته بالذات. لانه اذا حدث ذلك فقد يؤول به الامر الى جميع ضروب الحيرة. في اواخر العقد التاسع كان بوتكين، طبيبنا الممتاز، ذو الذكاء والمواهب العجيبة، يتوقع عن جد انتشار الطاعون في بطرسبرغ، وكان ينتظر مجيئه من مناطق فولغا. وفي تاريخ الطب يطلق على وباء الطاعون هذا اسم «فيتلينسكيا». حسنا. وفي توقع هذا الطاعون راقب بوتكين انتفاخ الغدد اللمفاوية في المرضى، وركبه وهم بان التطور الكمي لمثل هذه الانتفاخات يشكل اساسا مرضيا لامكانية انتشار الطاعون في بطرسبورغ. ثم ان احد الكناسين، واسمه ناوم بروقوفيف، وكانت حالته تطابق ذلك النموذج المهيأ من قبل جيدا، قد أنتفخت غدده في جميع انحاء جسمه، فعزل، ووضع تحت رقابة شديدة، بينما شخص المرض بصورة حازمة بحضور طلاب الطب بأنه: الطاعون! ان بوتكين نفسه قال: انه طاعون! بوتكين العظيم نفسه قال! واذ ذاك لم يجروء واحد من الشاكين في الموضوع (وكان هناك نفر منهم) على الاعتراض في هذه القضية بالذات ايضا، واصبحت

كارثة. لقد فر موظفو بطرسبورغ، وخرجت العربات
مسرعة من المدينة الملكية، وقععت القطارات المكتظة
بالناس. وولى الادبار جميع مستشارى الملك والدولة،
والجنرالات ورجال الاعمال، وضباط الاركان العامة،
اخذهم الرعب جميعا، فارين الى اقطاعياتهم الريفية
ليبتعدوا عن الطاعون اقصى ما يستطيعون. وهكذا كان،
يا رفيق ستيبانوف!

مناقشات وخلافات

لم يستطع يفغينى ان يتحمل غانيجيف ولا بولونين.
ولم يكن فى مستطاعه ان يفهم ماذا يتحدثان. وخلال
المحاضرات كان وجهه ينم عن ارتباك. وفى الواقع انه
طرح القضية امام اجتماع الكومسومول متشكيا من أنه
قد شبع من المحاضرات السلبية، وما يريده هو المعرفة
الايجابية، وليس السخرية المتشككة بالمكاسب العظيمة
للعلم. وكان بيتش، اكبر تلميذ بينهم سنا، ظهر عليه
الشيب، والصلع فى رأسه، وهو من النوع القليل الكلام،
المشغول دائما، الا انه تنزى غيظا وهوى على يفغينى
مثل حمم من الحجارة. وبعد بيتش وقف جميع
الحاضرين من أعضاء الحزب والكومسومول صفا متراسا
ضد يفغينى. وطلب يفغينى الكلام مرة أخرى لشرح ما
قصده غير أن طلبه قد رفض. وطلب ان يسمحوا له

بالاعتراف بخطئه، الا ان ذلك قد رفض ايضا. وقد وقف بيتش للكلام مرة أخرى.

قال بصوته الأجلش الفروسي:

— ايها الرفاق! ان البروفيسور غانيجيف والبروفيسور بولونين يعلماننا أن نفكر، وان نفكر بعمق. نعم، من الصعب علينا أن نخضع جميع حقائق الكتب المدرسية البسيطة الى الشك. ولكن سيأتي الزمن الذي سيجد فيه كل واحد منا نفسه وحيدا مع مريضه دون مساعدة استاذ، ودون عيادة — طبيب ومريض وحدهما في كوخ قصي. فهل في مقدرتنا الانسانية ان نحفظ في ذاكرتنا كل ما قد نحتاجه في ذلك اليوم؟ ولكن ما نستطيع ان نتعلمه، هو أن نفكر كرجال الطب، كدكاترة. هل أفصحت عن نفسي؟

وتكلم بيتش زمنا طويلا، وانصتوا اليه جميعا بتقبل وسرور. ومن الجميل ان يعرف الانسان ان بيتش، «الرجل العجوز» الذي احبه كل انسان، والذي يبذل جهدا كبيرا في دراساته، قد فهم غانيجيف وبولونين. وما دام أى سر في العالم لن يبقى سرا الى الابد، فيمكن التخمين بان غانيجيف وبولونين كليهما قد عرفا بالاجتماع وبالحماس الذي تحدث فيه طلابهما عنهما... وكان بولونين من ابرز اطباء المقاطعة وكان يحاضر في معهد الطب، ويدير عيادة علاجية، ويستقبل المرضى في المستوصف التابع لهذه العيادة. ان ذلك الرجل العملاق في بنيانه والذي يبدو قوى الصحة وهو في مريوله الابيض المنشأ، رجل فظ وساخر مع طلابه،

كان رقيقا بصورة مدهشة، ووديعا مع المريض المبتلى بمرض خطير، وكان يلوح خجلا من صوته الجهر، ولون بشرته المعافى، وصحته، وقوته غير المتهدمة. وكان في فحوصه لمرضاه يتجنب بلباقة استثنائية المشاكل الدقيقة، ولم يسبب خجلا للمرضى، ولم يجلب جماعات من الطلاب الثرثارين، ولم يزعج هؤلاء الناس المؤلمين باظهار امراضهم، وكان يقول للطلاب كل ما يحتاجون اليه بلغة كان يستخدمها في العيادة خصيصا، وكانوا يفهمونه تماما.

وشيئا فشيئا اخذ فولوديا يدرك أن العيادة هي الشيء الرئيسى في حياة بولونين. ففي العيادة لم يكن بولونين يبخل بوقته لتقصي حالة المريض، محاولا الشرح للطلاب بأكثر ما في وسعه من الوضوح والدقة، كل انحرافات العضوية عن الحد الطبيعى، ثم يجمع هذه الانحرافات وفي النهاية يشخص المرض. وفي بادى الامر يلون صوته الاجش تردد وحذر، ثم يصبح صوته ثابتا، واذ ذاك يختفى السؤال «أهكذا؟» ويحل محله منطق الاثباتات الحديدى. ومرة بعد اخرى تظهر فجأة الحقائق العرضية والزهيدة والملاحظات مقوضة رأيه، ويعالجها في انزعاج، وكأنه يكنسها بكفه العريضة، ثم يباشر، وهو يبني بيديه الكبيرتين هرما يتوجه تشخيص المرض.

- ها؟ - كان يسأل فجأة بهمس مظفر، بينما يحملق الطلاب فيه في فرح، وكأنما هو ساحر، - ينبغى على الانسان ان يفكر، يا رفاقى الشبان، ان يفكر ويحل

المشكلة استراتيجية. وفي هذه اللحظة استطلعنا مواقع جيش العدو، وقوته واحتياطياته. والآن ماذا تحت ايدينا؟

وكان قلب فولوديا ينبض بقوة. ان الشيء الذي بدا قبل ساعة فقط غير واضح وغامضا، يعميه حشد من الاعراض والاشارات والمتشابهات قد اتخذ شكلا، شكلا واضحا ومحددا تماما، وسمى المرض. ولم يكن المرض نادرا جدا، بل كان مرضا اعتياديا جدا، وهم، بوصفهم أطباء المستقبل سيشهدونه حتما في عملهم المقبل كثيرا. وكان بولونين لا ينفمس في عادة ما زالت، من سوء الحظ، شائعة بين بعض اساتذة الطب: فكان لا يظهر للطلاب اندر الامراض واعقد اشكالها الخاصة لانه لم يكن يعتبر هذه الاشكال «الطريفة» ضرورية جدا للأطباء الشبان.

— اذا ما استوضحتم عن الحالة المعنية، يا اصدقائي الشبان، ففى وسعكم دائما ان تستدعوا طائرة اسعاف. فانتم لا تعيشون في عصر القياصرة. هذه دولة سوفييتية. ان كليتكم الاختصاصية يجب ان تعلمكم ان تقدموا المساعدة الطبية الواسعة، وان تكونوا اطباء ذوى كفاءة وآفاق واسعة، لا اخصائيين في فرع ضيق من الطب.

وما امتع ان يتابع الانسان سير تفكير بولونين، وهو ينتقل من قضية الى اخرى ببطء وحذر مثل اعمى يضرب بعصاه امامه، وهو يتلمس طحال المريض وكبد، ويدرس صور الاشعة، ونتائج الفحوص

المختبرية، ويرجع الى جعبة علم الامراض وعلم التشريح وعلم الفرائز، ويلتقى وجهها لوجه مع الابهام والتناقضات ويقارن الظواهر ويحول فجأة الفوضى، والهراء واللفو والاعراض المتعارضة الى كل منسق ناجز، الى قمة هرمه - الى تشخيص المرض.

وبالرجفة التي كانت مشبوهة بالخوف المقدس، دخل فولوديا مع الطلاب الآخرين البناية الرمادية التي يقع فيها قسم التشريح والتي حفرت فوق مدخلها هذه العبارة باللغة اللاتينية: «هنا يساعد الموت الاحياء». وكان المريض الذي اعلن بولونين قبل شهر عن اليأس من حالته، قد مات. وما سبب وفاته؟ ذلك ما سيعرفونه الآن من غانيجيف، القاضي الاعلى النزيه والاخير...

وجلس بولونين على مقعد قرب طاولة التشريح: وبدأ المعاون، العم ساشا، كما يسميه الطلاب، بالتشريح. وعلى وتيرة واحدة تحدث غانيجيف الذي لم يمزح قط في قاعة التشريح ولم يكن يسمح للآخرين بان يمزحوا، وشرح للطلاب ما لم يكونوا يفهمونه. وكان رهيبا وغريبا، ومفرحا، رغم انه فظيع، ان يسمع الانسان ان بولونين كان على صواب تماما قبل شهر، اذ رأت عيناه غير المنظور، عينا الانسان المسلح بصور الاشعة وفحوص المختبر، عينا الاستراتيجى. لقد مات المريض. والعلم لم يستطع بعد ان يتغلب على ذلك المرض، في مرحلته هذه. غير ان العلم قد تغلغل الى المناطق التي كانت حصينة منذ وقت قصير لا غير. وكان في وسع العلم ان ينقذ الرجل لو لجأ اليه في وقت ابكر، ابكر بقليل.

وانتهى التشريح، وخرج بولونين وغانيجيف والطلاب الى الحديقة، وجلسوا على مقاعد. وكانت شمس الخريف الباردة تشع متألقة، وكانت اوراق شجر الاسفندان والتامول تتساقط على الارض. واشعل غانيجيف سيكارة، وقطب بولونين راسه وجلس مكتئب النفس عبوسا. وفجأة، قال بغضب شديد:

— لو كنا نقدر ان نتعلم العلاج كما يجب!
ودلل غانيجيف على كتفه برقة. ونهض بولونين وذهب.

وسأل فولوديا غانيجيف:

— هل حدث شيء؟

— لا شيء، — قال غانيجيف وهو يرسل آهة قصيرة، — ولكن هل تعلم ان الاطباء الذين يفكرون، يحدث لهم مثل هذا، انهم يقعون فيما شهدتموه بانفسكم.

وزفر زفرة اخرى وازاف يقول:

— ان بيلروت الذى كان، بالمناسبة، طبيبا لا بأس به، كتب يقول: «ان نجاحاتنا تمر عبر جبال من الجثث». وهناك ما يسمون بالاطباء الذين يسلمون بذلك دون عناء، وحين يبلغون الثلاثين من عمرهم تقريبا، يصبحون غير متأثرين ويكتبون «قرار الوفاة» بدون اى قلق. ولكن هناك اناس آخرون، مثل بولونين يلومون انفسهم على كل وفاة. وتجدر الاشارة الى ان الناس من طراز بولونين هم، بصورة رئيسية، الذين يدفعون بالطلب الى الامام. هل فهمتم؟

قالت نيوسيا يلکينا وهى فتاة ماردة الوجه مرفوعة
الانف:

- بالطبع نفهم. ولكن يجب ان توافق، ايها
الرفيق البروفيسور، على ان الانسان لا يستطيع ان يتاثر
بكل شىء طول حياته، والا فلن يبقى شىء من اعصابه.
فالطبيب انما هو انسان ايضا...

- هذا صحيح تماما، - قال غانيجيف بعجلة وبلين
غير مالوف منه وذهب الى غرفة التشريح...
ولكنه عاد فى الحال، ولم يجلس، ووقف مستندا
على عصاه الغليظة من خشب البلوط، وقال:

- بتنكوفر وأميرىخ شربا محلول جراثيم الكوليرا
الصافى. وفى بادى' الامر ابطلا مفعول حامض
الهيدروكلوريك فى معدتيهما بالسوديوم. وفعل مواطننا
ميشنيكوف، والدكتور هاستيرليك والدكتور لاتابى نفس
الشىء. ومنذ ستين عاما تقريبا اقنع ثلاثة من
الايطاليين - هم بورجيونى وروزى وباسيلي - البروفيسور
بيليزارى وهو استاذ الامراض الزهرية، ان يلحقهم -
وهم شبان ثلاثة معافون - بمرض التشويش. ورفض
بيليزارى رفضا باتا فى الاول، غير ان الاطباء الثلاثة
الشبان قد ألحوا فى طلبهم. ويجب ان تعرفى ايتها
الرفيقة الطالبة يلکينا، أن التشويش فى تلك الايام كان
يعالج على غير اسلوبنا الحالى، بل بالزئبق! لقح الدكتور
ليندمان نفسه بالتشويش مرة كل خمسة أيام ولمدة
شهرين. وقد قدمت لجنة عينتها اكاديمية باريس لعلم
الطب تقريراً عن حالته. وانا اذكر استخلاصها جيداً:

« كان كلا ذراعيه من الكتف حتى المكف مغطى بالقروح، والكثير منها قد اندمج سوية واحيط بدائرة من الدمامل الحادة المؤلمة... وكل ذلك يصاحبه بالطبع، ولا حاجة للقول، بشور كثيرة أنبثت في جسمه كله. ولكن حتى والحالة هذه، اراد الدكتور ليندمان أن يستمر، ولم يرد أن يعالج. هذا ما اردت ان ا قوله بشأن الهدوء الذى بدأت ان تحميه، وانت لا تزالين في المعهد! واندفع الدم في وجه عانيجيف الممتلى، رصاح: - ومع ذلك فالوان لم يفت! اذهبي الى فصل الخياطة والاختزال، الى ماماك وباباك وزوجك... الى الشيطان!

وتشكت نيوسيا فيما بعد قائلة: - هو لا يدعك تفوه بكلمة! وعلى أية حال لماذا حشر فصل الخياطة والاختزال؟ ان كل المهن محترمة في بلادنا! فلماذا يكون الاختزال احط من علم التشريح! وبللت الدموع خدى نيوسيا الموردين، ولمعت عيناها بغضب.

وقال فولوديا فجأة، وعلى غير الانتظار حتى بالنسبة له:

- في الحقيقة من الافضل لك ان تنصرفي الى الاختزال، ما دمت لم تفهمي شيئا من هذا الحديث. فاذهي، فستجدين الحياة هناك أجمل، وأقل هما! قال يفغيني:

- ولكن من جهة أخرى، لا يمكن ان تطلب من كل

دكتور ان يلحق نفسه بالتشويش! ان هذا شيء مضحك
على اقل تقدير...
صاح فولوديا، وقد فقد اعصابه:
- أوه، ما من احد يطلب ذلك! ليس هذا هو
الموضوع مطلقا.

«الزمن يمضى مطلق السراح...»

فاريا وحدها فهمت كل شيء رغم أنها لم تمارس
الطب. وكانت لها طريقة مدهشة في الاصفاء واستيعاب
كل ما هو حيوى لفولوديا، ما يملأ حياته كلها، حارماً
إياه من النوم، مفرحه أو مشجيه. ولم تكن تعرف
غانيجيف ولا بولونين، ولكنها فكرت بأنهما رجلان
عظيمان. وبعد الذى أخبرها فولوديا به أخذت تسلم
على نيوسيا يلкина ببرود. وكانت دائماً تشرك اصدقاءها
في مدرستها الثانوية الفنية في معلوماتها عن التقدم في
الطب، ولاسيما الجراحة. وكانت لا تردد أفكار فولوديا
لا غير. لا. بل كانت تلك أفكارها هي، أفكارها التي تخطى
عليها وهي تصفى الى كلامه الملهم، الوحشى بعض الشيء،
المثير فرحاً.

وهذا ما حدث. في يوم أحد ذهبوا الى سوق الأشياء
المستعملة ليريا أى كتب يمكن ان يكتشفها هناك. ففى
بعض الاحيان توجد كتب جيدة هناك. وبينما كان
فولوديا منشغلاً في التوغل بين الاكداس، ابتعدت

فأرياً عنه جانباً، وفجأة توقفت تلهث فرحاً. كانت هناك سيدة جالسة على كرسي نقال في الشمس الحارة، وإلى جانبها سجادة قديمة. «لا بد من أنها كانت كونتيسة سابقة أو شيئاً»، - فكرت فأرياً. وكانت السيدة تدخن سيكارة موضوعة في مقبص سكاثر طويل رقيق، وكانت تبيع أشياء رائعة: فكان هناك مشد خصر، وبعض ريش النعام، وشيء غريب الشكل قالت السيدة أنه «بواء» وطاحونتان للقهوة، وقلادة من اللؤلؤ الكاذب، وبعض زجاجات العطور، ومجموعة شطرنج و- هذا أروع شيء - جمجمة، جمجمة إنسان حقيقية، جمجمة صفراء نظيفة.

وسألت فأرياً:

- بكم هذه؟

فقالت «الكونتيسة» مستفسرة:

- هل الآنسة مولعة بالجمجمة؟ - وربتت على مؤخرة الجمجمة بأصابع يدها الموضوعة بقفاز غير مصبّع.

قالت فأرياً:

- الواقع أنا راغبة في هيكل عظمي كامل. ألا تملكينه من باب الصدفة؟

هتفت «الكونتيسة» قائلة:

- من تحسبني الآنسة؟ هيكل عظمي كامل. حقاً! أين يمكن أن تحصل على شيء؟ أحب أن أعرف! - في بعض الأحيان توجد هياكل في مخزن اللوازم المدرسية، ولكنها لا تباع إلا بطلب مكتوب، وللمعاهد

فقط، - قالت فاريا المرححة الروح مفسرة، - وانا لست
معهداً. أنا شخص فرد!

- آه، نعم. الزمن عصيب على الافراد، - وافقت
«الكونتيسة» على ذلك.

وأشترت فاريا الجمجمة. وكانت لها في القاعدة
صفحة معدنية كتب عليها أنها هدية كيت و كيت إلى
زيت وزيت.

وسالت «الكونتيسة» قائلة:

- لعل الأنسة ولوعة بريش النعام ايضاً؟

- الأنسة غير ولوعة بريش النعام، ولا بحلقات
الانف، ولا بفراء الرأس، - قال فولوديا بخشونة وهو
يظهر فجأة من بين الجمع، - الأنسة ليست شظية مما
كُسِر، بل عضو في الكومسومول. هيا يا فاريا!

ولفت فاريا الجمجمة في صحيفة، ولم تلمح لفولوديا
بما خبأت له من مفاجأة حتى وصلا الى البيت. وكان قد
اشترى كتباً وكراسات قد حشرها في جيوبه كلها. وكان
يحمل في يده كراساً صغيراً جداً ظل يقلب اوراقه طوال
الطريق الى البيت. وكانا متعبين وقد ازعجتهم الضوضاء
والتدافع في السوق المزدحمة، والغبار وعويل الغرامفون
الذى كان بائع الاسطوانات المتجول قد أرسله الى آخر
درجة للصوت فيه. وشربا شيئاً من ماء الحنفية، وهيئاً
مكاناً للجمجمة فوق رف الكتب، وجلسا يقرآن اعترافات
كارل ماركس المازحة.

وقالت فاريا:

- انتظر دقيقة. سامسح وجهك لك. إنه رطب للغاية.

وكانت تحب العناية بفولوديا. كانت تفرح حين ترى زراً مفقوداً في ملابسه، أو منديلاً بحاجة الى غسل. وكانت تقول:

- أوه، انتم ايها الرجال، ميئوس منكم! ليس في وسعكم ان تفعلوا شيئاً لانفسكم. ولكنها كانت تضيف دائماً:

- ما عدا أبى. ليس هناك شيء لا يستطيع فعله. البحارة على هذا النحو، كما تعلم. قالت:

- إن ياقة قميصك وسخة جداً.

فاجاب فولوديا بجفاء:

- إتركنى وشأني،- ونظر الى الصفحة أمامه، وسألها:

- ما هو مثلك في السعادة ايتها الرفيقة ستيبانوفا؟

قالت فاريا بصوت عال وبشبات ولكنها قد احمرت:

- حب قوى خالد متبادل!

- اجلسى. هذا لا يليق!

وحاولت ان ترى الكتاب، ولكنه دفعها جانبا.

قال فولوديا:

- الا تعرفين، اننى لا أرى في هذه الاعترافات أى

شيء مازح. غير ان المنافقين، على كل بساطة، لا تذوق

لهم ولهذا سموها مازحة. اصغى الى هذا وفكرى، اذا كانت كفاءاتك العقلية قادرة عليه.

وقرا فولوديا، واصغت فاريا وفمها مفتوح قليلا - فتاة غريرة موردة الخدين، ساذجة، فى قمة رأسها طوق واسع - فتاة أكبر بقليل من طفلة.

- ما هى الصفة التى تقدرها تقديرا اكثرا من غيرها عند الناس بصورة عامة؟ البساطة! وعند الرجل؟ القوة. وعند المرأة؟ الضعف!

قالت فاريا:

- انا لست ضعيفة. أقصد لست ضعيفة جدا.

قال فولوديا:

- من؟ أنت؟ هذا مضحك! انت التى تصرخ من رؤية ضفدع عادى غير مؤذ؟

- ليس عليه علامة على انه غير مؤذ. انه ذو عيني جاحظة على حد سواء.

- اذن فانت تحسبين نفسك قوية! انظروا اليها، المرأة القوية! ان سماعى لكلامك يزعجنى!

وهتف فولوديا فجأة:

- اصغى لذلك، وفكرى! السؤال: ما هى صفتك المميزة؟ الجواب: وحدة الهدف.

قالت فاريا:

- رائع!

- انه عظيم وليس رائعا! ثانيا: فكرتك عن السعادة؟ الجواب: النضال! النضال، هل تفهمين ذلك

يا فاريبا؟ ان السعادة انما هي في النضال! ثالثا: فكرتك عن الشقاء؟ الخضوع...

قالت فاريبا:

- انظر. لقد خضعت اليك في كثير من الاشياء. ولم ار في ذلك شقاء كبيرا.

اجاب فولوديا بعبوس:

- هذا خضوع آخر. انت تخضعين الى فكريا. هل تفهمين؟

- ابله!

- لا تكوني فظة تفاهة...

وصاحت العمدة اغلايا من الغرفة المجاورة:

- كفى، يا فولوديا! ستجعلها تبكي ثانية!

وعلى اية حال لم يسمعها: فقد كانا يقرآن، واحدهما قرب الآخر وكتفاهما ملتصقان:

- «ما النقيصة التي تميل بشكل اكثر لغفرانها؟ المداهنة. شاعرك المفضل؟ شكسبير، اسخيل وغوته. ولونك المفضل؟ الاحمر. حكمتك المفضلة؟ انا انسان وما من شيء انساني غريب علي. وشعارك المفضل؟ الشك في كل شيء.»

وظهرت العمدة اغلايا في الباب. وكانت قد استحمت في دش ماء وكان شعرها الاسود الكثيف مبللا يلمع. قالت:

- هناك شيء جميل، جميل بشكل مخيف فيكما كليكما. ولكنكما ما تزالان صبيين ابلهين. وجلست الى جانب فاريبا، وقالت في حسرة:

— من السهل عليكم ان تدرسا وتفهما ماركس
وانجلس، فانتما متعلمان. ولكن، يا للسماء، كم كان
ذلك عسيرا علي...

وبعد ذلك الأحد المشهود غالبا ما كان فولوديا
وفاريا يفكران في الامور سوية. وكانت فاريا تقرأ أقل
بكثير منه، ولكنها، حين كان يتكلم، كانت تستوعب
كل شيء في الحال، قبل أن تخرج الكلمات من فمه
تقريبا. وبعد أن قرأ فولوديا «العائلة المقدسة»،
تحدث الى فاريا في هذا الموضوع: وبعد ذلك انغمس
في كتاب «بؤس الفلسفة» الذي رآته فاريا يصعب
على الفهم كثيرا، ثم قضى بضع ليال يقرأ «١٨ برومير
للويس بوناپرت».

قالت العمة اغلايا، حين رأت الكتاب الذي يقرأه
فولوديا:

— أتعرف أن ماركس عندما كان يكتب هذا الكتاب
لم يكن له من الثياب ما يخرج بها، فقد كانت كل ثيابه
مرهونة.

ونظر اليها فولوديا في فراغ، وحشر بعض الكعك
في فمه، ومضى يقرأ. وفي ساعات الصباح الباكر تصفح
شلر ليكتشف بدهشة فرحة جواهر أكثر فاكث في
المجلد السميك.

الزمن يمضي مطلق السواح

وهو يبحث عن الرسوخ

فكن راسخا ايضا، وستعقله...

نعم، الزمن، ما العنه! انه يمضي سريعا حقا

وفولوديا لا ينجز غير القليل. كل شيء طريف، ومهم وضروري، حتى الاشياء غير الطريفة كانت اشياء طريفة لأنها تتطلب اهتماما. ولكنه في بعض الاحيان كان يتوق الى أن يسبح في اونجا. كان يريد ان يلقي بكل شيء ويدعو فاريا بصفارة مجلجلة خارج بيت ستيبانوف القديم، ثم يخرج الى النزهة معها في هزيع متأخر من الليل على ضفة النهر، ويسمعها تتشأب على حديثه المضجر، ويستمع الى هذيانها عن الفن. وهي قد تعلمت الآن بعض الحديث عن «المسرح». وتقول أن غاليليف - برسنيك، ممثل المدينة الأول، هو من «الدرجة الثالثة» وتؤكد أن «الممثلين جميعاً يعملون باعصابهم». ويضحك فولوديا بخفوت. فتضربه فاريا.

فكان يقول:

- اسمعى! ان لك يداً ثقيلة.

وفي الماضي كان يرد عليها بالمثل. ولكن ذلك غدا مستحيلا الآن لسبب ما. كما انهما كفا عن أن يتصارعا. وأصبحت فاريا تُجرح بسهولة أكثر فأكثر، وتبكي، ودموعها الحلوة تسيل بسرعة. وكان فولوديا يحس بشفقة شديدة عليها، وبخجل من نفسه. ولكنه لم يسألها قط أن تسامحه، بل كان يتمتم ببساطة:

- أوه، ماذا بك؟ ما الذي جرى؟ لقد أفسدت شعراً رائعاً بالعواء بدلاً من الانشاد. إن سماعك يضجر النفس.

- أحمق. انت لا تعرف ما هذا الوزن. وتجرو

على ان تصدر حكماً. إن ايسفير غريغوريفنا معلمتنا
تقول...

- حسناً، حسناً... ولكن ارجوك كفى عن البكاء.
وكان قاسياً عليها بلا شفقة. إنها كانت اصغر
سناً منه، وتبذل قصار جهدها. ولكن الأمر في بعض
الأحيان أكثر مما تتحمله.

ويبدأ فولوديا بالقول مرة أخرى:
- في سنك كان هرزن واوغارييف...
- لكنني لست هرزن ولا اوغارييف، - كانت فاريا
تقول معولة، - أنا فاريا ستيبانوفا. وانا لا أتصور نفسي
شيئاً.

- يوم السبت الماضي أعطيتك «أنتى دوهرنغ»
لتقرئيه. ولكنك حتى الآن لم...
- أوه، فولوديا رحماك!
- أكرر. يوم السبت الماضي...
فتصيح فاريا في غيظ:
- ولكن يوم السبت الماضي... كان عندنا التمثيل
التمهيدى الرئيسى!

- واليوم اى يوم؟
- يوم السبت.
- اذن لم تجدى وقتاً لفتح الكتاب طوال اسبوع؟
وتصمت فاريا منسخة.
ويأمر قائلاً:

- اجلسى هنا، واقرئى ما امرتك بان تقرئيه.
وساشتغل. انا فى شغلى. لا مسارح ولا سينما، ولا

نوادى لك. ثم لماذا انت متعطرة؟ الا تعلمين ان العطر لا
يستعمله في الغالب الا الناس غير النظيفين جسمياً؟
قالت فاريا ذات مرة:

— ساعضك جزاء لذلك، — وعضت اذنه فعلاً بشدة،
ثم طمأنته بقولها: — يمكن ان يكون الامر اسوأ من ذلك.
هل تعرف، اسناني حادة جداً. وفي وسعى أن أعض اذنك
القدرة حتى اقطعها!

صاح فولوديا:

— يا عمّة اغلايا، ابعدي محبوبتك فاريا عني، انها
تعضني!

ومع ذلك كان البقاء سوية يلذ لهما. وكانا
يستمتعان بصمتهما الطويل حين كان كل واحد منهما
مشغولاً بشؤونه الخاصة، ولا يلقي أحدهما اهتماماً
للآخر. وفجأة تغمرهما موجة من السعادة إذ يفكرا
بأنهما في مكان واحد: فولوديا على منضدته، وفاريا قرب
النافذة. وكان لهما دائماً ما يتحدثان به، وما يتخاصمان
عليه، ثم يتصالحان في الحال.

وبين حين وآخر كانت فاريا تجلب معها كتبها
«الخاصة»، وهي كتب ادبية. وحين يجنح فولوديا
الى العطف يتلطف فيسمح لها بأن تقرأ له بعض
الفقرات التي أشارت عليها لروعتها. وتحمر حمرة
متألقة، وتشد جديلة من شعرها، وتحشرها خلف اذنها
الوردية، وتقرأ بلهجة الابتهاال فقرة تصف محاسن
الطبيعة.

ويقول فولوديا وهو يتشأب عن قصد:

- مطول! من الذى يلذه ذلك؟ إن السماء
بنفسجية، والريح مثل فوطة مبللة تصفحك...
- لم يقل ذلك قط!... ليس هو على هذا الشكل
ابداً!

- استمرى فى القراءة!
وتستمر فاريا فى القراءة فى عجلة ودفاع.
ويقاطع فولوديا:
- لا تمثليه تمثيلاً. ولم كل هذا التصنع؟ ليس
فى وسعك ان تتكلمى على أية حال عن لسان ضابط
فرسان.

- ولكن أنا...
- استمرى فى القراءة.
وتستمر فاريا فى القراءة متعذبة. ويصغى فولوديا،
وهو يدق الطاولة بقلمه، ويخشخش فى اوراقه، ولكنه
فى آخر الامر اغرق فى الاستماع الى القصة متلذذاً بها
رغم نفسه. والانسان لم يعرف قط أى شىء يحرك اوتار
قلبه. وبالتدريج أخذت فاريا تعرف أى نوع من الكتب
كان يحتاجها. تلك هى الكلمة: «يحتاجها»، وما من حكمة
أخرى تلائم ذلك. وكان أول فهمها لذوق فولوديا فى
الكتب قد جاء مع قراءتها لكتاب تولستوى «سيباستبول
فى ديسمبر».

- «وتبدأون بفهم المدافعين عن سيباستبول،-
قرأت فاريا بعصبية، وهى ترمق فولوديا بطرف عينيها.
وقد وضع فولوديا اوراقه جانباً، وجلس ساكناً، مفكراً،-
ولسبب ما تشعرون بعذاب الضمير وانتم فى حضرة

ذلك الرجل. تشعرون بأنكم تريدون ان تقولوا له كثيراً لتفصحوا عن تجاوبكم واعجابكم، ولكنكم لا تجدون الكلمات، أو تجدون الكلمات التي تطراً على ذهنكم غير لائقة. وتحنون رؤوسكم في صمت أمام هذا الجلال الصموت، غير الشاعر بالعظمة وثبات الجنان، أمام الحيرة التي يظهرها إزاء جدارته».

- هذا - واقع، - قال فولوديا فجأة.

- ما هو واقع؟

- هذا! هذه الجملة عن حيرة المرء إزاء جدارته.

استمرى في القراءة!

واستمرت في القراءة، واستلقى هو على فراشه الضيق وذراعاها مطويتان تحت رأسه، وبدت الظلال الغامضة تمر على وجهه: وتجهم لحظة، ثم ابتسم أخرى إبتسامة سعيدة مباغته. وإذ كان يصفى كان يفكر بأفكاره هو. وكان دائم التفكير، ودائم الحل لبعض المشاكل المعروفة لديه وحده، مشاكل صعبة على الدوام، وفي الغالب معذبة.

- «إن الناس لا يستطيعون تحمل مثل هذه الظروف الرهيبة، من أجل وسام، أو من أجل لقب، أو تحت تهديد بعقوبة: بل لا بد من وجود سبب محرك آخر، أكثر سمواً يدفعهم الى ذلك. وهذا السبب هو شعور خجول، نادراً ما يظهر، في الروسي، ولكنه عميق في كل نفس، ذلك هو حب الوطن».

وسأل فولوديا فجأة وهو يعتدل في جلسته:

- ذلك شيء جيد، ممتاز. ولكن ماذا عنا؟

— نحن؟ — سألت فاريا مندهشة.

— نعم، نحن. عضوان في الكومسومول. فاريا
ستيبانوفا وفولوديا اوستيمنكو. كيف نعيش؟ ولأى
شئ؟ ولم ولدنا للنور على أية حال؟

ورفت عينا فاريا في خوف. إنه يهجم عليك
بطريقة مفاجأة. ما الذى يبتغيه؟ وما الذى يريد هذا
المعذب؟ ولكنه هدا وقال في صرامة:

— حسنا، لا تطرفي، ولكن كل الكتب دون استثناء
لا بد من أنها تكتب لغاية من الغايات. هل تفهمين؟ وكل
هذا: الغروب البنفسجي، وكل الرياح مثل فوطه تسوط
بشدة...

— أوه، كفى ذلك يا فولوديا!

— أو: هناك رائحة قشرة متعفنة للثلج الذائب في
العام الماضى...

— أنت تتكلم هراء.

— ليس هراء. ان الكتب يجب أن تجعلك تغبطين
الناس الرائعين، وتريدين ان تكوني مثلهم. وحين تقرئينها
تريدين أن تنظري الى نفسك نظرة أكثر انتقادا. هل
تفهمين، يا زنجبيل؟

وسألت:

— والشعر؟

— كل الشعر هذيان، ما عدا شعر مايكوفسكى!

— نعم؟ وبوشكين، وبلوك، وليرمنتوف؟

وقطب فولوديا ولم يقل شيئا. وبصوت ناعم يكاد
يكون همسا انشدت فاريا بيتا لبلوك:

ومعركة خالدة، والسكون
لا نتمتع به الا في احلامنا...

- ما هذا؟ - سال في دهشة.
وانشدت فاريا القصيدة كلها، وانصت فولوديا
وعيناه مغمضتان، وكررة:

ومعركة خالدة، والسكون
لا نتمتع به الا في احلامنا...

سالت فاريا:
- أليس جميلا؟
- أنا لا اقصد الجمال، - قال فولوديا وهو ما زال
يتأمل، - بل اقصد شيئا آخر. ارجو ان اعيش حياتي
حتى تكون على هذا النحو حقا: «ومعركة خالدة،
والسكون لا نتمتع به الا في احلامنا...»
قالت فاريا باحتراس:
- هل أنت متأكد من أنك غير مجنون؟
- أنا بحالة طبيعية. والآن يمكنك أن تنشدي
وحدك. وأنا اتابع ذراستي. انها كيمياء. هل سمعت عن
ذلك العلم؟

وجلس الى طاولته، وأشعل المصباح القديم ذا
المظلة الخضراء المرقعة، وفي الحال نسي أن فاريا هنا.
أما هي فظلت تحديق في مؤخرة عنقه النحيل، وفي كتفيه
الضييقين، وفكرت في سعادة وعاطفة: «هنا يجلس رجل،

ود في المستقبل وأنا أقرب أصدقائه، وقد أكون أكثر من صديق، رغم أننا لم نتبادل القبل بعد».

ودون ان تدرك ما تفعل اقتربت من فولوديا من الخلف ومدت يدها امام وجهه، وقالت:
- قبلها!

قال فولوديا في ارتباك:

- ولم هذا؟

قالت فاريا:

- قبل يدي. الآن.

- هذا شيء جديد!

قالت فاريا:

- لا، ليس شيئاً جديداً. ان المرأة تلدكم جميعاً

ايها الرجال. ومن اجل ذلك يجب ان تشكروا فضلنا عليكم.

ورمق فولوديا فاريا، وتجهم ضجراً، وطبع قبلة

هوجاء على كفها العريضة الدافئة.

- هكذا! - قالت فاريا في غبطة...



الفصل السادس

طلاق

في اواخر الخريف زار روديون بيته زيارة خاطفة. وكانت زوجته تستقبل ضيوفا لها. وكانت هناك سيدتان، كلتاها قد تخطت سن الشباب، وكلتاها تدخن، وكلتاها مائلة الى السمن، وتحب الحديث عن مزاجها السيء، وعن خفقات قلبها غير المنتظمة، وأن كل ذلك، بالنتيجة، عائد الى «الأعصاب». وكانت هناك ايريدا ابنة العميد في معهد سيتشينوف، فتاة فرعاء رشيقة خضراء العينين تعلق عددا لا حصر له من السلاسل والطلاسم والنياشين وكانها فازت بكل جوائز معرض

للكلاب. وكانت هناك « مدام » ليس، نجمة الخياطة في
البلدة ومحط رعاية الجميع. وكان هناك ايضا رجلان هما:
دانييل بوليانسكى (دوديك) الذى يدخن غليوناً
برشاقة، وصديقه ماكافيينكو ذو الشعر الاشقر، والعينين
الوقحتين المرحتين اللتين تلوحان خارجتين من
مجحريهما. وكانوا يتوقعون ايضا مجيء البروفيسور
جوفتياك، ولكنه تلفن لهم قائلاً انه لم يستطع ان يدبر
مجيئه، وانه « اخلد الى اليأس » من جراء ذلك. وبعد ان
استمعوا الى بعض الاسطوانات لفرتينسكى وليشجنكو
المشتراة من السوق السوداء تعشوا وجلسوا يشربون
القهوة مع العنبرى. وتحدثوا عن احداث اسبانيا. وتكلم
دوديك عن رئيس وزراء اسبانيا حوسيه غيرال وكانه
صديق قريب له، كما تحدث شيئاً عن حوسيه دياز.
واستمع روديون بصر الى السيدتين والى ماكافيينكو
وايريادا ابنة العميد، وجميعهم اعربوا عن اهتمامهم
بالوضع فى اسبانيا، واستحسنهم لمقالات ميخائيل
كولتسوف الممتعة المحفزة. ومع ذلك لم يشاطرهم
دوديك هذا الرأى. قال:

- تعرفون، إن كل مَنْ يشاهد الحوادث فى
اسبانيا بام عينه يستطيع ان يكتب عنها شيئاً
أروع وأكثر حيوية مما يكتبه كولتسوف. الشيء
الرئيسى ان يكون المرء هناك مع الشعب...
- ومصارعة الثيران؟ اعتقد أنها فى اسبانيا
ايضاً، - سألت فالتينا اندريفنا على طريقتهما المسترخية
المعهودة.

فأكد ما كافيينكو قائلاً:

- بالتأكيد. هي رياضة قومية عندهم، مثل
دولاب الهواء عندنا، أو، قولي، العراك بالقبضات. إن
هذه اللعبة مقدرة تقديراً عظيماً في مدريد...

ووضع روديون فنجان قهوته على الصينية قبل أن
يتمه، وترك الغرفة. وكانت فاريا في الخارج طبعاً. وفي
المطبخ رأى يفغيني يأكل حساء.

وسأل روديون:

- كيف تجري الأمور؟

اجاب يفغيني بتراخ:

- كنا نرتب صحيفة. يا للضجر! ليس عندنا
أحرف جيدة، والمواد مملة وسطحية، وعلى أن أكتب
جميع المقالات بنفسى لكل شخص. وذلك ليحملك
على البكاء! أنا محرر صحيفة المعهد يا أبى!

قال روديون:

- حسناً، لا تكتب لكل شخص إذن. الكتابة

للآخرين غش...

فتأوه يفغيني:

- أوه، يا أبى، انت رجل مثالى.

وطاف روديون في الغرفة في كسل، مدخناً ومفكراً.
وعاد الى غرفة الطعام، وسمع زوجته تتحدث الى دوديك
في القاعة. وانتفض ألماً.

كانت تقول:

- ينبغى أن تسوى القضية تسوية جذرية. بصورة
قاطعة، ونهائية! فانا لم أعد أتحمل مجيء ذلك الرجل

الى هنا، رجل غريب عنى خلقيا، وفى كل شىء.
يا للسماء، ألا ترى كيف اختنق فى هذا الجو...

قال دوديك بعجالة:

— حسنا، حسنا. أنا على اتم الاستعداد، ولكن
بالتأكيد ليس اليوم...

فهددت فالتينا قائلة:

— سأقول له اليوم!

ثم قرع الباب. ودخلت المرأة التى حسبها ستيبانوف
زوجته الى غرفة الطعام. ووقف روديون امامها، ضامًا
قبضتيه بقوة ساكنا وشاحبا وطلب:

— قولى لى اليوم!

وصرخت الفتينا:

— كنت تسترق السمع! يا لك من نبيل! ان هذا
الرجل كان يسترق السمع فوق كل شىء!
قال روديون:

— عليك ان تخبرينى بنفسك. اننى اعرف ذلك
كله منذ زمن طويل فالاحمق الاعمى وحده لا يرى.
ولكن عليك ان تقولى لى الكلمة الاخيرة. قولى!
— ماذا؟

— هل تريدان الطلاق؟

صاحت:

— اريد ان اعيش عيشة إنسان! وعليك ان توفر
لى هذه العيشة! ولكن ماذا املك؟ ان الزوجات الأخريات
يملكن كل شىء: السيارات، والبيوت الريفية، ويسافرن
الى الجنوب للراحة ثلاث مرات فى السنة! وأنا...

وكانت القصة القديمة إياها. بنفس الدموع، وقطرات القلب. ثم جس يفغيني نبضها. لا لم يعد يتحمل ذلك قط...

فقال بصوت هادئ، ولكن أجش:

— لنفصل بسلام. واذهبي انت لدوديك.

قالت:

— هذا نبل منك! سأتحول الى حجرة واحدة، وأنت تعيش هنا عيشة لورد. لن يكون ذلك، يارفيق ستيبانوف.

— إذن، فالغرفة هي ما يهملك؟

— هذه، وكل شيء. أنا ارفض ان أترك معدمة.

لقد عملنا كلنا من اجل ذلك. وعلينا ان ننصفه!

وهز روديون رأسه، ولم يستطع أن يتكلم أكثر من هذا. وبعد عشر دقائق سمع الفتينا تتلفن لكل صديقاتها السيدات على التوالي بقدره نشيطة وهمة، مجهشة قليلاً وهي تحدثهن عن متاعبها، وشكت لاحداهن:

— اه، يا طفلي، انت تعرفين ذلك جيداً مثلما

اعرفه أنا. ينبغي ان يولد الانسان باشا.

وكان يجب وضع حد لكل هذه الاشياء في الحال. وما إن عادت فاريا الى البيت حتى دعا روديون العائلة إلى غرفة الطعام، وشرب قدحاً من الماء البارد، وقال وهو يركز على الكلمات:

— لقد قررنا، الفتينا وأنا، الانفصال. وكلاكما قد شب عن الطوق، وستفهمان. ولكن هناك شيئاً يجب

ان تقرر اه بانفسكما: هل تبقيان معى هنا، ام تتركاني مع امكما؟

وشدت فاريا كم ابيها بشدة، ولم تقل شيئاً، وتوهجت نقط حمر في خديها، اما يفغيني الذي كان يرتدى بيجامة مخططة، ويضع على رأسه شبكته، فقد تمشى ما بين المائدة، وخزانة الاواني. وصاحت أمه في تودد:

- يفغيني! كيف يمكنك ان تتركني؟
وسحق يفغيني سيكارتته في نفاضة السيكاثر، وتكلف الابتسام، وقال مقلصاً عينيه:

- أنت شخص غريب، يا ماما! وبالتأكيد أنت لا تتصورين أنني سأترك روديون ميفوديفتش من اجل ذلك... مهيب وجميل، وظريف... ولكن... اعذريني، مبهم.

وثبت ستيبانوف بصره بيفغيني. ماذا عني؟ ما الذي يفكر به حقاً في هذه اللحظة؟
واعلن يفغيني:

- سأترك التفاصيل، وأقول أنني احب ان ابقى ابناً للرجل الذي ادين له بكل شيء. وذلك سيسهل عليك الأمور ايضاً يا امي العزيزة. فستكونين طليقة شابة. والحياة تبدأ من جديد. اليس كذلك؟
وحضن أمه، وقبلها، وخرج.

وفي الصباح جاء دوديك في سيارته. وكان بادی الانزعاج للغاية، وحيا روديون بجفاء، ومضى قدماً الى غرفة فالتينا اندريفنا. وبعد قليل طرق غرفة روديون.

- ينبغي ان نتحدث حديث رجل لرجل، - قال
ذلك وجلس على مقعد، وحشر التبغ في بصلة غليونه
مستعملاً إبهامه، - يجب أن نتفق على ترتيب البيت،
والاثاث، وما إلى ذلك. فإن فالتينا اندريفنا قلقة على
ذلك... وأنت ستسافر...

فقاطعه ستيبانوف قائلاً:

- نعم، انا سافر؛ يمكنك أن تتفق في كل ذلك
مع يفغيني، فإن له عقلاً، هكذا...
وتحول الى النافذة.

وسمعهما يغادران البيت - زوجته و «دوديكا» ،
وسمع الباب الامامى يدق، وتنطلق السيارة. ودخلت
فاريا في هدوء وسألت:

- هل تريد شايا؟

وقال في جزع:

- لا.

- وقهوة؟ هل تريد أن اغليها لك؟

- ولا اريد قهوة ايضاً.

- إذن، فلعلك تريد كأساً من الفودكا؟

قال بابتسامة معوجة:

- هل تحاولين ترضيتي؟ لا يا ابنتي. عندى قوة

احتمال...

- لعلك تريد أن اذهب أنا ويفغيني معك الى

كرونشتاد؟

وفكر لحظة قبل ان يجيب:
- انظرى، يا ابنتى العزيزة. اقول لك سراً، لا معنى
لانتقالكما الآن. لاننى لا استطيع ان اعرف أنا نفسى اين
ساكون غداً.

- ماذا تعنى بذلك؟
- هكذا. فقد أبعث فى رحلة طويلة. إن افاناسى
بتروفيتش خرج على هذا النحو، وقد انقضى اسبوعان
على خروجه.

وتعلقت فاريا بكتف أبيها. وهمست:
- أنا افهم، يا ابنى، أنا افهم! ولكن فولوديا لا
يعرف شيئاً.

- سنذهب ونراه بعد قليل، وسيعرف - اذ ذاك.
وبينما كانت فاريا وابوها فى الخارج تماحك،
يفغينى مع دوديك، بانشرائح وشراسة، على أوانى البيت،
والكتب والاثاث، وتبديل الشقة.
وقال دوديك فى شكاسة:

- أصغ، هل أنت تحاول أن تخدعنى؟ أنا لست
طفلاً، كما تعرف.

قال يفغينى:
- ولا أنا ايضاً. أنا اقسم كل شيء الى أربعة اجزاء،
ثلاثة اجزاء لنا، والبقية لكما. سأل اى محام. ليست،
هناك طريقة أخرى. والأمر على اية حال مضحك. أنرى،
تحب، أنت معشوق، وها أنت تماحك على التوافه.
هذا شيء غير لائق إذا اردت ان تعرف. قصة طريفة
للصحف...

فسأل دوديك في عبوس:
- والبيانو الكبير؟
- ليس كبيراً، بل صغيراً. ولَمْ تريده؟ ماما لا
تعزف عليه.
- أنت صخر! - زمجر دوديك غاضباً.
وغادر ستيبانونوف في قطار الليل.

نمحن، الجنودا الحمر

منذ ذلك اليوم أصبحت صداقة فاريا وفولوديا
اقوى. والآن أصبح لهما سر يتقاسمانه، سر مكتوم عن
كل انسان. وأشتركا في عزة نفس واحدة، وفي قلقهما
المستديم على ابويهما، على الطيار افاناسى اوستيمنكو
والضابط البحرى روديون ستيبانونوف. ولم يفشيا سرهما
لأحد، وحتى للعممة اغلايا. فقد أتفق فولوديا وروديون
في اليوم الذى غادر فيه على ان لا معنى في إقلاق اغلايا
التي عرفت كثيراً من الحزن في حياتها، فلماذا يضاف اليها
ذلك القلق ليل نهار على سلامة أخيها! فقد قالوا لها
إنه بعث في تفويض، والجهة غير معلومة.

- الى اسبانيا؟ - سألت بتجهم.
- ليس لنا ان نعرف! - قال روديون وقد أحمر
لأنه كان لا يجيد الكذب.

فما كان من اغلايا إلا هزت رأسها. فمن المفروض
انها لا تعرف شيئاً. ولاحكام الكتمان وضعت خارطة

اسبانيا في غرفة فاريا لا في غرفة فولوديا. واشترت
اغلايا خارطة لنفسها دون ان تقول لفولوديا. وكانت
تدرسها في الليل والباب مغلق لتتفادي ابن اخيها.
وكان افاناسى هناك. انها كانت تعرف ذلك. فلن يستطيع
إلا ان يكون هناك. تماماً مثلما كان يفعل زوجها المتوفى
بالتاكيد لو كان على قيد الحياة. وهى تعرف ذلك الجيل
من البلاشفة جيداً، أولئك الفتيان جهيرى الاصوات
الذين مروا خلال الماء والنار والملمات. وفي سنوات
الحرب الاهلية كانوا في الواقع أميين، اما الآن فخريجو
اكاديميات. وما من شيء لم يقدرُوا على فعله، أولئك
الرجال الذين قدوا من الصلب. وفي صبارة البرد حاربوا
من اجل برم، وفي حمارة القيظ حاربوا عصابات
«الباسماتش» في تركستان. ولأول مرة في حياتهم، وهم
واهنون وجياع، استمعوا إلى اوبرا «يفغينى أونيفن»
واحبوها. وقبل أن يستريحوا قليلاً من غاراتهم العميقة
في مؤخرة العدو جلسوا على مقاعدهم في صف دراسى،
وتعلموا النحو الانكليزى.

وانكبت على الخارطة ساعات في سكون الليل، ورنّت
في اذنيها الاغنية التى أحبها افاناسى وزوجها غريشا
المرحوم:

نحن خارجون لمحاربة
اصحاب المصارف وملاك الاراضى،
وسنقضى على جميع الكولاك، النزأفين
نحن، الجنود الحمر،
نحارب في سبيل الفقراء

ولنعطى الناس الحرية، وضمان الحياة...
كانت رياح نوفمبر تصفر وتهب من خلف النافذة.
وكان فولوديا مستلقياً على ظهره، ويداه مطويتان خلف
رأسه، محدقاً في الظلام يلعن بصراحة مصارعى الثيران
في سيفيلا الذين استسلموا الى الجنرال المتمرد كيبو
دى ليانو. ثم رأى من خلال حجب النعاس جزيرة
مينوركا وحملة فيلنسيا على ظهرة البارجة «الميرانته
ميراندا». أوقفت البارجة محركاتها. وكان روديون
ستيبانوف ينظر من خلال منظاره، ثم الطائرات البحرية
التي يقودها أبوه تحلق في سماء اسبانيا الصافية. خيرة
الطيارين، وأحسن وأخلص ما في العالم: ايطاليون، وألمان،
وفرنسيون، وبلغاريون كلهم يطرون خلف طائرة
قائدهم، أبيه...

واختلطت الكلمات اللاتينية في رأسه المتعب مع
اسماء المدن الاسبانية: وفجأة اختلطت ساراغوسا
بـ«موسكوليس ركتي أبدومينيس» - عضلة البطن.
وبارغاس بـ«كوادريتسيبس فيموريس»، وقد مضى وقت
طويل وهو لم يشرح جثة! فينبغى ان يتردد على غرفة
التشريح، الى غانيجيف. والنزول في ايفيز؟ ما الذى
يحدث هناك الآن؟ لماذا لم تكتب الصحف شيئاً عن ذلك؟
وفاريا الآن ترتدى طاقية اسبانية، وتبدو أنحف،
وأكبر سناً. وجاءت الرسائل «من هناك» باسمها.
وبالضبط، لم تأت رسائل «من هناك»، بل كان رفيق لا
تعرفه يرسل اليها بانتظام تحيات والديهما، ويخبر بان
كل شيء على ما يرام. ولا يمكن ان يكون خلاف ذلك.

وتناقش فولوديا مع فاريا فى الأمر. فمن المضحك أن يأملا شيئاً آخر، أن ذلك سيفيد منه الفاشيون.

وكل الأشياء الصغيرة فى الحياة، تلك الأشياء التى بدت من قبل ذات أهمية، تقهقرت إلى الخلف، وصارت بعيدة جداً. وكان يرعب فاريا أن تفكر بأنها لم تكن فى البيت على الدوام حين كان أبوها ينتظرها هناك أبوها الذى يحارب الآن من أجل حرية كل العالم. هناك فى اسبانيا البعيدة، اسبانيا الغربية والرائعة. ولربما يستطيع الآن التكلم بالاسبانية بلهجته الفولغوية الحبيبة الطريفة، ولعله دائماً يفتش عن قدح من الشاي القوى، إذ أن الاسبانيين لا يشربون الشاي على ما يبدو ولم يكن من أحد يجيب على سؤالها: هل يشرب الاسبانيون الشاي، أو القهوة وحدها؟

وحين تظهر فى الصحف انباء سيئة كان فولوديا يقطب، وحين تظهر انباء سارة يتهلل وجهه. ولاح له أن الأمور لا يمكن أن تسوء حيثما يحارب أبوه ونسوره. وكان فى وسعه أن يراه بشعره الذى قصرته الشمس، ووجهه الحسن الحلاقة ينفذ ببصره فى السماء البعيدة. ها هو الآن يتسلق الطائرة إلى مقصورته، ويجلس مرتاحاً، ويصيح:

— ابتعدوا عن المروحة!

كيف تكون هذه الجملة بالاسبانية؟ أن الصديق فى الاسبانية يسمى «اميغو» والعدو «اينميغو» ولكن كيف تكون جملة «ابتعدوا عن المروحة»؟ آه، لو كان فى وسعه أن يراهم جميعاً! اينريكو ليستر، والجنرال

لو كاتش، وأبوه. ماذا يسمونه هناك؟ ما معنى أفاناسى
فى الاسبانية؟ وروديون؟ ألم يلتق الاثنان - البحار
والطيار - هناك؟

وفولوديا الآن يفكر أطول وأعمق فى فحوى وجود
الانسان. وكان يبتعد أكثر فأكثر عن زملائه الطلاب الذين
يتركز طموحهم فى رغبة نيل احسن العلامات، ومن بينهم
من يناقشون بصراحة الطرق والوسائل التى تتيح لهم
البقاء فى المعهد بعد تخرجهم منه لمتابعة دراستهم فى
الصفوف الخاصة: فذلك افضل من العمل؛ عن زملائه
الفتيات منهم والفتيان الذين يختارون بامعان الاختصاص
الذى يعطيهم فرصة البقاء فى المدينة ويجنبهم التعيين فى
البلدات والارياف النائية.

والامهات والاباء؟

الامهات اللواتى يبكين على عتبة مكتب العميد؟
والاباء، العسكريون، والموظفون، الذين «يضغطون» على
العميد، أو يأتون بتوصيات من اصدقائهم ذوى
النفوذ طالبين أن تعطى فرصة اخرى للطالب الذى
سقط مرة اخرى فى موضوع من الضرورى اللازم أن
يعرفه الطبيب!

وما من أحد جازف فتقرب بطلب من هذا النوع
الى فولوديا الذى كان فى هيئة منظمة الكومسومول.
والحقيقة ان العميد الذى كان رجلا ضعيفا كان يلجأ الى
مساعدة فولوديا حين تصبح الهجمات عليه كثيرة جدا
ومنذرة بشر. واذا ذاك يطرد فولوديا المهاجمين بقسوة
وغلظة ودون شفقة.

قالت له نيو سيبا يلكينا:

- انت منافق!

وقالت سفتلانا:

- سيكون اوستيمنتكو المتخرج الوحيد من معهد

سيجينوف الطبى، الوحيد الذى يستحق - ذلك الشرف!

وقال ميشا شيرفود ساخرا:

- احسن ارثدوكسى بين الارثدوكسين!

وحدث فولوديا فى عينى شيرفود الصافيتين

الجاحظتين، الحقودتين. ان هذا الفتى سيتمادى فى الامر!

فهو لا يملك شيئا من المعارف الجيدة، وما يزال يفتش

عن موضوع ملائم يحوله الى اطروحة يدفع بها لينال

اللقب العلمى «المرشح فى العلوم» بعد تخرجه من المعهد

مباشرة، دون ان يشتغل طبيباً ممارساً. ولكن من يحتاج

الى علاماتهم ولو كانت جيدة، والى امتحاناتهم والى

اطروحاتهم؟.. من يحتاج اليها غيرهم؟

بيتش العجوز

فى تلك الفترة عقد فولوديا صداقة ودية وثيقة مع

بيتش، او العجوز، كما يسمى الطلاب بافل جيركوف

الذى كان قد بلغ الرابعة والثلاثين عندما دخل المعهد.

وكان بيتش صموتا وجافا، وله لسان لاذع. وكانت

عيناه الصغيرتان الزرقاوان الصافيتان تنفذان فجأة فى

الشخص مثل مثقبين من حديد. وكان لا يهضم المعرفة

الا بصعوبة اشد من اى صعوبة يجابها اى طالب فى
المعهد. ولكنه كان مواظبا ويعرف ما لا يعرفه كثير من
زملائه الموهوبين. وكان فولوديا غالبا ما يساعده. ولم
يحدث لبيتش ان شكر فولوديا على ذلك، او هز يده
مصافحا، بل كان يقول زافرا:

— انت موهوب يا اوستيمنكو!

كان يقولها دون ظل من حسد، على اية حال، بل
بشئ من اللطف، او الرقة. وكان كلاهما منكبا على
غانيجيف وبولونين، وذات يوم استبقاهما غانيجيف
بعد محاضرتة وقال بعبوس وهو يغلق الباب:

— استمعا اليّ يا رفيقى نصف المحترمين. لقد
راقبتكما، ورأيت انكما قد اصبحتما مصابين، ولربما
ذلك بمساعدتى، بمرض كبريه مخجل يسمى النهلستية
الطبية. ان كلمات مثل «تدجيل» و «الديماجوجية
العلمية» و «المطبخ اللاتينى» وغير ذلك من الكلمات
تتردد على شفاهكما الطفولية اعتذرانى على هذا القول
بالطبع. انكما اكثر قليلا من جاهلين، وليس من شأنكما،
ايها الشيطانان الشابان، ان تسخرا من المساعى
التراجيدية عن الحقيقة المستمرة منذ قرون. واريد انا
والبروفيسور بولونين ان نحرك فكركما، ولكننا لا
ندعكما تضحكان من حالة العلم المعاصر. ابحثا، ولكن لا
تسخرا، ولا تجسرا على السخرية ابدا! وفى وسع العقل
الانسانى العظيم عند الانصات الى القلب، ان يحدد، دون
مساعدة آلة، اى مصراع من مصراعيه يعمل بصورة
سيئة وما هو هذا العجز. ثم المخدرات، واللقاحات؟

وكان غانيجيف منزعجا تماما. تمخط بصوت عال
وقال بحدة:

— اذهبوا واقروا بيروغوف، وفكروا بما قلت!
واعطاهما كتابا، بين صفحاته بعض الاشارات.
وخرجا.

قال بيتش:

— لقد اثرناه.

اجاب فولوديا:

— هذا غلطى. الا تذكر حين بدأت الحديث يوم
امس عن التدجيل فى علم الصيدلة؟ كيف ابتدرنى بالقول:
«ألا تتناول البيرميدون حين تصاب بصداع؟»
وفى تلك الليلة قرأ بيروغوف سوية جالسين على
سرير بيتش فى القسم الداخلى.
وقال بيتش وهو يغلق عينيه التعبتين اللتين احمرت
حوافيهما:

— بعض النسبة! ثلاثة ارباع الذين تجرى لهم
عمليات يموتون من التسمم التقيحى!
قال فولوديا:

— وكان ذلك فى ايام بيروغوف.

— مفهوم...

— «لا اعرف شيئا ايجابيا اقوله عن هذا العذاب
المخيف فى الممارسة الجراحية. ان كل شىء غامض:
الاصل ومجرى التطور...»

ووجد فولوديا الاشارة الثانية وقرأ:

- « وحين أفكر في المقبرة حيث توجد قبور كثير من المرضى المصابين في المستشفيات لا اعرف بم اعجب اكثر: برواقية الجراحين الذين ما يزالون يخترعون العمليات الجديدة، ام بالثقة التي ما يزال المجتمع يكتنحها ازاء المستشفيات... »

وسأل بيتش:

- ما هي استنتاجاتك؟

- ليستر.

- المعقمات.

قال فولوديا:

- بالضبط! انت ذكى جدا، ايها العجوز! قل ايضا ان الجراحين الذين كانوا ذات مرة عبيدا للتسمم التقيحي اصبحوا المنتصرين عليه. وسيكون كل شيء على اسلوب صاحبنا اغورتسوف. هو يحب مثل هذا النوع من الكلام.

قال بيتش بجدة:

- ولم لا؟ ان عاطفة قليلة تنفع في بعض الاحيان. ونحن نتحدث ونتحدث، ولكن لكى تكون طبيبا ينبغي ان تكون قادرا على الايمان بليستر جديد.

قال فولوديا في حسرة:

- لا يمكنك ان تعيش بالايمان وحده. اتذكر ماذا فعل الاغريق القدامى؟ وفيما بعد ايضا؟ منع خريسيبوس الاكل على مرضاه المصابين بالحمى. ومنعهم ديوكسيبوس من الشرب، واجبرهم سيلفيوس على ان يعرقوا، وجعلهم

الشيخ المحترم بروسىاس ينزفون حتى اغمى عليهم،
بينما اعطاهم كورى حماما باردا.

قال بيتش بغضب:

— حسنا، نحن نعرف فيرسايف.

— كان طبيبا رائعا.

قال بيتش:

— اصفى الى. اذهب الى البيت. ان راسى يتصدع.

غير ان فولوديا لم يذهب. وطفق بيتش ينزع حذاءه
الطويل القديم. وعاد زملاؤه فى الغرفة الى البيت، ولكن
فولوديا ما زال يتفلسف:

— لقد اعطانا علم الفرائز اشياء كثيرة. وهو
يعطينا اكثر فاكثر بمرور الايام. وقد قرأت فى مكان ما
ان علم الفرائز، فى الحقيقة هو الطب النظرى، لهذا فان
علم الفرائز يجب ان نستقى منه التطبيقات اللازمة،
وسيخلق الطب العملى التطبيقى. اما عن كتاب
الطب...

قال ساشا بوليشوك:

— والآن نجلس مكتفى ايدينا. ها؟

وبدا فى الغرفة ضجيج. وبدأ بيتش يرتدى حذاءه
آليا. وكان ذلك طبعا له يعود الى زمن الحرب
الاهلية. كل ضجة فى الغرفة تحمله على ان يرتدى حذاءه
قبل ان يستيقظ تماما.

قال اغورتسوف، وهو فتي منمش البشرة له اسنان
متباعدة، مهاجما فولوديا:

— انت تقترح العودة الى الاقاليم السماوية للعلم
الصافي؟ تكلم يا اوستيمنكو. وعلى اية حال ما هذا
اللغو الذى تجادلنا به؟

فتدخل ميشا شيرفود قائلا:

— لماذا لغو؟ اوستيمنكو على الحق! قد يتذكر
احدنا ان طبيبا عربيا حكيما قال ذات مرة: «ان الرجل
النزيه قد يجد لذة فى نظرية الفن الطبى، ولكن ضميره
لن يسمح له قط بان يحترف ممارسة الطب مهما تكن
معرفته واسعة...»

فسال بيتش بصوت عال:

— ماذا؟

واعاد شيرفود ذلك.

قال بيتش وهو يحدق بفولوديا بعينيه الصغيرتين:
— هذا تلخيص لجدالنا انه حق. انه حكمة حقا.

اننا من النزاهة الكثيرة بحيث لا تلذ لنا غير نظرية
الطب. ونحن ورعون للغاية، ومدققون، هكذا. سنجعل
الناس يتعفنون حتى تصل نظريتنا الى الكمال. لتمت
النساء فى مخاضهن، وليهلك الاطفال بالملثات، وليتعذب
شعبنا السوفييتى بالدفتريا والتيفوس، والانفلونزا
الاسبانية— ولن نتزحزح عن مقاعدنا! وسنجلس فى
مختبراتنا وسندعم كل شىء علميا، وسنحصل على مهارة
اكثر فاكثر فى اخضاع كل شىء الى الشك، وننتهى الى
فقدان الايمان بعملنا كليا. فذلك يقلل المتاعب!

ونهض بيتش، وشرب قدحا من الماء، وفى الصمت
الذى خيم على الجمع اخذ يتكلم باقتناع ملزم وانفعال

حتى ان فولوديا الذى لم ير العجوز بهذه الصورة من قبل
قد صعق:

— لقد كان لفوجنا ضابط آمر هو جيلين، وهو
شخصية بطولية اسطورية. ولكنه ذات يوم مرض ونحن
فى المسيرة. وكانت هناك عاصفة ثلجية مزمجرة، وكان
البرد مفرعا، ولم يكن لنا شىء ناكله. وكان آمر الفوج
يهذى من الحمى، يهذر بكل صنوف الهراء الذى لا
نعرف له ذيلا من رأس. وكان فى فوجنا مساعد الطبيب،
انه عجوز، قضى فى المدرسة الطبية ثلاثة اعوام فقط
اسمه توتوجكين، لقد جندوه لخدمة الجيش. وكان
علينا ان نشد وسادة من ريش على سرجه. كان نكتة
حقا! وقد القى نظرة على جيلين وقال: حصبة. الحصبة
القديمة اياها. وفضلا عن ذلك كان قلب جيلين لا يقوم
بوظيفته بصورة لائقة. وهكذا، بمبلغ خيالى من المال
حصلنا على بعض زيت عياد الشمس، وغليناه، واذاب
صاحبنا توتوجكين بعض الكافور فيه. وشرع يحقن
جيلين به. وكانت تغطى جسمه بثور بحجم قبضة اليد.
ومع ذلك فقد عاد الى سرجه، وقاد الفوج ضد البيض.
حسنا؟ ما هو؟ العلم؟ التطبيب التجريبى؟ وما ا قوله
هو دع الاساتذة هنا يعلموننى ويدربوننى لآكون توتوجكين
آخر، فاعرف كيف اعيد رجلا هالكا الى الصفوف كما
فعل توتوجكين مع جيلين الذى اصبح فيما بعد قائد
فرقة، ثم قائد جيش ذا شهرة اسطورية، ليفعلوا ذلك.
اننى اتكلم معكم كشيوعى: يجب ان ندرك كليا صعوبة
عملنا وتعقيده. انا اقول ما يحاول غانيجيف وبولونين

ان يبشاه فينا - وذلك اننا في معالجة كل حالة يجب ان نتهيا لمجابهة علة من العلل فريدة وغير معروفة. يجب دائما ان نسعى، ولا نكف عن السعى. ويجب ايضا ان لا نترك العمل الذى بين ايدينا. وكل هذه النظريات العربية للرفيق شيرفود كريهة، ويجب ان ننساها. وانت ايضا يا اوستيمنكو، انا انصحك بان تفكر قليلا. انه لا يحب الكلمات السامية. ولكنى احبها. وهذا كل ما فى الامر. والنوم حان موعده!

واخذ بيتش يخلع حذاءه ثانية، وانسل فولوديا من الغرفة، وهبط السلم، ورفع وجهه الملهب لملاقاة الريح الثلجية. وفى الثلج المدوم كانت مصابيح الشارع تومض بعيونها المدورة الصفراء عمها. واستشعر بخجل مضم وزاد الطين بلة أن شيرفود تبعه خارجا وقال باسلوبه المتأنق الشكلى:

- التمس منك، يا اوستيمنكو ان تسندنى اذا قرر بيتش ان يثير الضجة. ولى وجهة نظرى الخاصة بى، ولبيتش وجهة نظره. ولكنه يريد ان يجعل كل الناس ينظرون بالطريقة التى ينظر هو فيها الى الاشياء بينما انا...

قال فولوديا:

- انا اتفق كليا مع بيتش، وانا لا اتفق مع عربيك ذلك مطلقا. ان رأيا مثل هذا الراى يجب ان يسحق، وان يسحق بلا رافة.
- اوه، هكذا اذن؟

قال فولوديا بحزم:
- نعم هكذا. وإذا كنت تنوى ان تبني اطروحتك
العتيدة على هذه النظرة، فستفشل!
- ان اطروحتي المقبلة ستكون على اساس الافكار
المتفقة مع مفاهيمنا عن الحياة، ولا شيء آخر! اما
عن عبارة «ستفشل» فانها فظة ورعاعية، ولا تليق
بك قط.

وشد شيرفود بيده المعطف الذى كان يتدلى من على
كتفيه، وعاد الى المنزل. وركض فولوديا الى الترام، وقفز
اليه وهو يتحرك، وقال:
- خنزير.

وبعفو خاطر قرر ان يذهب الى فاريا ليفضى لها
بما فى حناياه، وليقول لها كما كان بغيضا الى نفسه.
وتعيش عائلة ستيبانوف الآن فى شارع كراسيفايا.
وفتح جد فاريا الباب له. وقد اخبر روديون فاريا بان
تكتب لجدها ليسكن معها، وان لا تدعه يعود مهما
كان.

- ان الضيف الطيب ياتى دائما وقت الطعام، - قال
العجوز بمواربة، وعاد الى المطبخ حيث تنبعث منه
رائحة البطاطة المحمصة المعذبة باثارتها الشهية.
ونادت فاريا:

- فولوديا، أهذا انت؟
اجاب جدها من المطبخ:
- ومن غيره، - وصاح: - يا فاريا اطردى القط!
انه يتشمم القشدة!

وخرجت فاريا الى الصالة، وكانت تضع على كتفيها شالا صوفيا، وتبدو متوردة. وكان القط يحك نفسه بساقيها.

قالت بقنوط:

- قل ما تشاء، ولكن لن أكون جيولوجية وقد قررت رأيي. سيكون المسرح مهنتي. هذا قطعا. لماذا تحدى؟

فتوسل فولوديا:

- فاريا، انهي مدرستك الثانوية المهنية اولا.

- لماذا؟

- لانك... اعرفك... انك لن تحرزي نجاحا

كممثلة...

- لانني غير موهوبة؟

لاذ فولوديا بالصمت وهو ينظر اليها بكآبة من خلال اهدابه الوطف. ولفت شالها حولها، وانتظرت ومضى القط واكسى يفرك جسمه بساقي فاريا القويتين الجميلتين.

قال فولوديا:

- انظري، يا فاريوخا. منذ لحظة دخلنا في جدل ونحن في مسكن الطلاب - ومن الصعب ان اشرحه لك. ولكن الشيء الرئيسي، في رأيي، ان كل ما يفعله المرء يجب ان يكون مهما وضروريا، لا بالنسبة لك وحدك، ولكن للجميع، للمجتمع، للشعب. وحينذاك يظل فعله مهما وضروريا الى الابد. ولكن اذا كان ضروريا لنفسه وحده فسيفقد معناه...

وصاح الجد من المطبخ:

- تعالا حيث الدفء لاتفقا هناك! البطاطة جاهزة،
فهينى المائدة، يا فاريا! واحضرى بعض الخيار،
وكان عشاء صامتا. وكان الجد يحب ان يشترك في
المحادثات وكان يعبر عن رأيه في كل شيء باشد الجزم،
ولهذا كان يتكلم وحده، في العادة، قدر ما يشتهى قلبه.
ولكنه في تلك الليلة كان منحرف المزاج، فظل يشتم
القط.

- انه ملعون. انه فاسد للغاية. فلا يصيد الفئران
بل يحدق بها لا غير: وفي هذا الصباح جاء فأر فادار له
ذيله. ربما ينبغى ان نقص ذيله، ايه؟
قالت فاريا في قلق:

- ولم ذاك؟

قال وهو يملأ صحنه بشيء من الملفوف المخلل:
- ان القطط المقصوفة الذيول اسرع. وفي
سيبيريا يقص الفلاحون ذيول جميع القطط. ويمكنك ان
تفهمى وجهة نظرهم. ان البرد قارس خارج البيت،
والقطط بطيئة في الدخول في البيوت والخروج منها، وما
دام القط يدخل في البيت او يخرج منه، يظل الباب
مفتوحا ويقتحم الهواء البارد البيت. ولكن القط المقصوص
الذيل انما هو اقصر من القط العادى ولذلك يستغرق نصف
الوقت الذى كان يستغرقه من قبل في الدخول والخروج -
هذا محسوب بالحساب، وهو اسرع فيما يتعلق
بصيد الفئران ايضا: اذ انه يخاف ان نقص ذيله مرة
اخرى.

قالت فاريا:

-- يا جدى! لو تقصر ذيل واكسى فسأترك البيت!

ثم قالت فولوديا:

- ان جدى يشبه ماليوتا سكوراتوف.

وبينما كانت فاريا تغسل الصحون فى المطبخ تحدث فولوديا مكدسا اللوم لنفسه ورافعا بيتش الى السماء. وجاء يفغينى الى البيت وعنف فولوديا قائلا:

- لماذا لم تأت الى النادى؟ انك دائما تتنصل عن واجباتك الاجتماعية. استضاف الطلاب الكاتب المعروف ليف غولين. ونحن، الطلاب السوفييتيين، نتناقش حول كتابه، مناقشين اياه بحماس وبروح الرفاقية، ولكن ثلثى الطلاب لم يجشموا انفسهم عناء الحضور. هذه اهانة صريحة.

فسأل فولوديا:

- ولكن ماذا لو اننى لم اقرأ الكتاب قط؟
- هذه حقيقة مؤسفة فى سيرة حياتك. ان ليف غولين يطوف الاتحاد السوفييتى، ويعقد الاجتماعات مع قرائه.

فقالت فاريا غاضبة:

- حسنا، ضعنا مع الاميين. لماذا لا تتركنا وشاننا؟

قال يفغينى بحنق:

- هذا من مصلحتكما. اقول بصدق ان تفهمانى: ان الحياة هى الحياة، وان عليك ان يلاحظك الناس ويروك ويسمعوك. بطاطة للعشاء فقط؟ - قال الجملة الاخيرة

بنفس اللهجة. وقص لهما، وفمه ممتلئ بالطعام، كيف
اعتلى المنبر يناقش غولين. ومع ذلك فقد جعل الاجتماع
يفهم ان غولين، حسب رأيه، قد اساء عن قصد او غير
قصد، لسمعة الطلاب السوفييتيين ككل بتصوير الطالب
شيميماكين كدوار مع الزمن، ووصولي، وشخصية خليعة
العدار.

سالت فاريا:

— هل قرأت الكتاب؟

— تصفحته قبل المناقشة، كما نظرت فيما قال
النقاد عنه. ولهذا عرفت طريقى، ولا حاجة لان تقلقى
على...

قالت فاريا فى تنهيدة:

— ستذهب بعيدا بالتأكيد، يا محبوبنا!

— لا انوى قط ان أقف فى اى مكان قريب من هنا،
يا اختى. لا استطيع ذلك، لان جميع الناس سيرون ان
يفغينى ستيبانوف ليس فتى موهوبا جدا. ولكن اذا
ابتعدت قليلا، وبمشيئة الله، ارتفع...

صاحت فاريا:

— اذهب، اذهب، يا يفغينى، ارجوك!

وفى الصباح التالى ذهب فولوديا الى بيتش وقال انه
متفق معه فى كل شىء، وانه يقلع عن موقفه النهليستى
البليد هذا. وتقبل العجوز الاعتراف بهدوء شديد حتى
شعر فولوديا بجرح بسيط. ولكنه لم يستمر طويلا.
وسرعان ما تناقش فيما يسمى « بالتنفس الجيد ». وقد
قرا فولوديا كراسا عن ذلك فى الترام وهو فى طريقه الى

المعهد في ذلك الصباح. وتحدث عنه الى بيتش. في العادة يقضى رجال الطب الاتراك زمنا طويلا في «سحرهم الاسود» يعلقون التعاويذ على مرضاهم، ويتمتمون بالرقى، ويحرقون البخور، ويرقصون حولهم، وفي نهاية العلاج، ينفخون على المريض بشدة. غير ان الخوجه - وهو البارى «بقوة التنفس» - هو وحده القادر على النجاح في اشفاء المريض حقا. ومؤلف الكراس، وهو طبيب بارز، قام بدراسة شاملة طويلة لرجال الطب الاتراك، وهو يؤكد لقرائه بحزم ان «التنفس الجيد» يلعب دورا كبيرا في شفاء المريض.

وفكر بيتش لحظة، ثم فرك عينيه التعبتين على عادته وقال:

- تفكرى الشخصى ان القضية كلها تتوقف على ثقة المريض بالطبيب. فما فائدتى وفائدتك، يا اوستيمنكو اذا شخصنا المرض تشخيصا لا خطأ فيه، ووصفنا العلاج الصحيح، ولكن عجزنا، وارجو المعذرة، عن كسب روح المريض؟ ان المريض مثله كمثل جندى في معركة ينبغى ان يثق بضابطه القائد تمام الثقة، عارفا بأنه لن يخفق. ينبغى ان يؤمن بأنه تحت قيادة هذا الرجل سيقضى على العدو بسرعة، ويخرج من المعركة سليما معافى.

- احسب أنك على حق...

ومنذ ذلك اليوم كان فولوديا وبيتش يدرسان سوية دائما دون ان يتفقا على ذلك سلفا، بل يحدث ذلك عفوا. يأتى بيتش الى بيت اوستيمنكو وقت العشاء،

ويتناول صحننا كبيرا من الحساء ويدخن سيكارة تبغ
مزروع بيتيا. ثم يجلس الاثنان للعمل. كان بيتش مشابرا
بصورة مدهشة، وكان فولوديا موهوبا. وكان بيتش في
بعض الاحيان يظل طويلا في مكان واحد، حتى يغلبه
فولوديا بشوط بعيد، ولكن معلوماته في بعض الاحيان
تكون سطحية. وكان بيتش يتعمق في المعرفة، قالبا
الطبقات الكثيفة الثقيلة، وفولوديا ينهمك في سباحات
الخيال. وكانا يتجادلان بشدة، ويتخاصمان، ويتشاتمان،
ولكن احدهما كان لا يستغنى عن الآخر.

قال فولوديا ذات مرة:

— لو عينونا، انت وانا، في مستشفى واحد بعد
التخرج!

فاجاب بيتش بخشونة:

— لا يجوز! لقد الف احدنا ان يكون خشنا مع
الآخر. وانت تعرف الحال في المستشفيات «ارجو
المعذرة يا بافل لو كيتش» — «اوه، لا، غلطى يا عزيزى
فلاديمير افاناسيفتش» وينبغى ان تحتفظ بهيئتك
كطبيب.

وهكذا جاء الربيع.



@BLOG_BIB



الفصل السابع

الاسعاف العاجل

كان الصيف قائظا، هذه السنة، لا قطرة مطر فيه، وكان مغبرا ثقيلًا على الصدر وتتابعت الزوابع الرعدية والرياح وكانت النار تشتعل في الغابة على الجانب الآخر من نهر اونجا والدخان يزحف فوق البلدة. وفي البلدة نفسها اندلعت نيران أكثر. فقد اتت النار التي اضرمتها زوبعة رعدية على يامسكيا سلوبادا، والمخازن القديمة للبضائع في شارع بوريتشنايا وقرب المرفأ. وعمل فولوديا كمرض في عربة الاسعاف العاجل. وكان الاسعاف في البلدة لا يملك غير سيارتين، من نوع

«رينو»، قديمتين جدا لهما هيكلان واطنان وخزانان
تبريد افطسان. ولكن كان هناك عدد وافر من عربات
ذات دواليب، لها صلبان حمروان على الجانبين والواح
شبابيك يغطيها دهان ابيض، وكانت الخيول التي تجر هذه
العربات بحال جيدة دائما. كان فولوديا يجلس كالعادة
الى جانب السائق، وكان قلقا دائما من التأخير. وكان
يصحب الطبيب، حاملا الحقيبة الخشبية التي رسم عليها
صليب احمر، ويدق الباب او الجرس وحين يسأله صوت
«من الطارق؟» كان يجيب بنفاد صبر: «اسعاف».

وقد رأى الموت اكثر من مرة حتى الآن. ورأى الوأنا
مرعبة لا تكبح من نزيف الدم. ورأى نزاع الموت، كما
رأى عودة الانسان من «هناك»، كما كان يسمى ذلك في
افكاره. ولم تكن هناك معجزات في هذه «العودة» بالنسبة
للدكتور ميكيشين العجوز القصير النظر. غير ان فولوديا
الذي كان يساعده بحيوية جرب بنفسه شعورا من
الغبطة والسعادة. وكان قنوطه سحيق القرار حين تأبى
المعجزة على الحدوث، حين يرفع ميكيشين نظارته
باشارة معتادة، وينظف حنجرته، ويغادر الغرفة حيث
«العلم عاجز في هذا الامر».

ويقول الدكتور ميكيشين وهو يتسلق الى العربة:
- ان حقيقة الامر هي كالاتى: جئنا متأخرين قليلا،
يا فولوديا. فلو جئنا قبل ساعة او ساعتين...
ربما...

وتصفق الباب، وتمضى العربة تفرقع على الحجارة
المرصوفة متأرجحة ذات اليمين وذات اليسار. وكان

فولوديا يحس بخوف شديد، وخجل من النظر الى الخلف، فكان يبدو له ان افراد عائلة المرحوم ينظرون اليهما، فولوديا والطبيب، بعيون مليئة بالكره، ويتخيل انهم جميعا يلعنون العلم، وميكيشين، وفولوديا. ولكن النداء الثانى ينسيه عواطفه التى كان ينفعل بها قبل دقائق. وقد رأى رجلا عاد الى الحياة سريعا جدا بعد زراقات من الكافور، والكافين والمورفين. وبعد ان زال الممض تلفت حوله فى ارتباك. وكانت هناك المحقنة والانابيل ويدا ميكيشين، وتجربته التى اعادته الى الحياة. وقال ميكيشين:

— ها هو ذا حسنا! — وسوى قوس نظارته خلف اذنيه.

— الآن، لا يحتاج الا الى قليل من الهدوء، وكل شيء سيكون على ما يرام.

« كل شيء سيكون على ما يرام. أسمع؟ — كان فولوديا يريد ان يصيح هذه الكلمات بصوت عال، — وانت زوجته، وابنته، وكلكم — ألا يمكنكم ان تفهموا ان الرجل كان ميتا! والآن يطلب شيئا مزا يشربه، ولكنه قبل لحظة كان ميتا ».

ومن جديد تفرقع العربة فوق حجارة بلوتنيتسكايا سلوبادا ويمسد السائق سنيمشيكوف لحيته الغزيرة المحبوبة ويقول:

— بالتأكيد، ستأتى اليوم نداءات. هذا ما يعلمنى به قلبى. وان اتمكن من ان اخذ حماما بخاريا بصورة طيبة! كانت الحالة التى اثرت فى نفس فولوديا اكثر من

غيرها حالة بسيطة تقريبا، ذلك هو الواقع، ولكنه حسبها معجزة. وقد حدث ذلك في اواسط الشهر آب، اذ تلقوا نداء مستعجلا بعد منتصف الليل ليذهبوا لعيادة شخص اسمه بلياكوف يعيش في شارع كوسايا في جناح منعزل في الفناء. فالفوا في غرفة نظيفة منخفضة السقف، وعلى سرير عريض، رجلا قد تخطى سن الشباب يحتضر، وقد أضنته ساعات العذاب وسكرات موت بطيء مؤلم. وكان صدره الواسع ذو الاضلاع البارزة يرتفع ويهبط باضطراب، والعرق يتصبب من جبهته، ويملاً محجريه، ويجرى على خديه، وكانت تشنجات الالم الطويلة تجعله يئن ويصك اسنانه.

وشرح فتى في السن المدرسية الحالة لميكيشين شرحا سريعا:

— كان أبى، ايها الرفيق الدكتور، كثير الاضطراب في بادى الامر، يقفز لحظة، ويهدأ اخرى، ويطوف راكضا في جميع الغرف، ثم اخذ يرتجف. والطريقة التي كان يرتجف فيها لم ار شيئا لها قط. ثم قال انه جائع... «لنتناول عشاءنا يا انا تولى». وانا تولى اسمى. «لنتناول العشاء».

وسأل ميكيشين وهو يلتقط انبولا فارغا:

— ما هذا؟

— لقد حقن نفسه بحقنة الانسولين. فهو مصاب بالبول السكرى، — شرح الفتى ذلك.

وهز ميكيشين رأسه، وحدث في وجه بلياكوف ثانية او ثانيتين وقال:

٢٢
- قليلا من السكر، اسرع!

وانشابت بلياكوف نوبة تشنّج عنيفة جدا حتى لقد
قرقع السرير تحته. وقلبه ميكيشين على ظهره، وبدأ
بسرعة وحذق ينثر السكر في فمه، موعزا الى فولوديا
في نفس الوقت بان يعد حقنة جلوكوز داخل الوريد.
وبعد زهاء عشرين دقيقة، حين توقفت نوبات التشنّج
اعطى بلياكوف حقنة ادرينالين. ورقد بلياكوف مرتاحا
دهشا. وكان الفتى النحيف الذي كان يبكي في الزاوية قد
زايله الخوف.

قال ميكيشين للمريض:

- لقد اعطيت لنفسك قدرا زائدا من الانسولين
يا عزيزي. فاذا ما شعرت بشيء من هذا، لاسمح الله -
فاسرع في أكل قطعة خبز أبيض او قطعتين من السكر في
الحال. ولكن كن على حذر اكثر في المستقبل. وفي الغد
يجب ان تأتي الى المستشفى.

واذ كانا يخرجان من مدخل البيت المظلم انتاب
الغضب ميكيشين فجأة فصاح:

- اوه. من انا؟ قس أم اسقف؟

وشرح سبب ثورته وهو يتسلق الى العربة:

- ذلك الغلام اراد ان يقبل يدي.

وتسلق فولوديا الى جانب السائق، وقال له بصوت

مقبوض:

- ليس هناك شيء اروع من العلم يا رفيق

سنيمشيكوف. قبل دقيقة انقذ الدكتور ميكيشين الرجل

من الموت بالضبط، من الموت المحتوم.

قال السائق بعبوس:

- لا يمكنك ان تنقذ الانسان من الموت المحتوم.
يمكنك اذا كان موتا غير محتوم. وانت منذ قليل بدأت
تخرج معنا. اما انا فاراقب علمكم منذ اكثر من عشرين
سنة. انقاذ من موت محتوم، هكذا! حتى الاساتذة
لن يستطيعوا ذلك، فدع عنك عجوزنا ميكيشين.
وكان لسنيمشيكوف عقل شكوكى. وليست له ذرة
من الاحترام لميكيشين الذى كان من شدة ادبه يردد
دائما «من فضلك» و«دمت بخير». وكان له معطف
قديم يرتديه العام بطوله.

كان ذلك بعد الساعة الثانية ليلا. وكان القمر
يسبح فوق البلدة، وفوق ساحاتها التربة، وفوق منتزه
النبلاء سابقا، وفوق منتزه التجار سابقا، وفوق قباب
الكاتدرائية، ونهر اونجا العريض. وكانت كلاب الرقابة
الجائعة الضارية تنبح وتشد سلاسلها فى الباحات
الخلفية. ومن الجانب الآخر من النهر تنبعث رائحة الغابة
المحروقة. وحين اقتربت العربدة من محطة الاسعاف
العاجل رفع ميكيشين طاقيته البيضاء وقال بصوت
اجش، وهو ينزل من العربدة:

- اليس جميلا يا فولوديا!

فتمتم فولوديا:

- شكرا لك يا انتون رومانوفيتش!

- على اى شىء؟

- على انك...، على تعليمك لى.

- على تعليمك؟ - قال ميكيشين فى دهشة صادقة.

- ليس في معنى ذلك. اقصد، الليلة. مثلاً... - قال فولوديا ذلك وقد ارتبك كثيراً.

قال ميكيشين في اسي:

- آه، الليلة! أتقصد بلياكوف؟ ولكنها كانت حيلة بسيطة، ابسط حالة يتصورها عقل...
واحس فولوديا في صوته بنغمة اليقة - نغمة بولونين - نغمة ساخرة قليلاً، ومازحة وتعبية بعض الشيء.

وقبيل بداية الدروس، اضطرمت النار في مخازن الاخشاب في الجانب الآخر من النهر. انفجرت النار فجأة قبل ان يبرز فجر، في العنابر التي ينام فيها شحانو السفن، ولم يستيقظ واحد منهم بسرعة كافية. وهبت ريح قوية في عصفات شديدة، ووزعت الجمرات الحمراء، والرماد الحارق. ونخر حصانا سنيماشيكوف الاسودان، وتراجعا، وحادا عن الجادة. وعبرت الجسر سيارات اطفاء الحريق الواحدة بعد اخرى مسرعة، وكانت اجراسها تدق، واخذ رجال الاطفاء في ثيابهم المدخنة يجرون الضحايا من اللهب، ويحملهم رجال المستشفى في عجلة الى نقالاتهم وعرباتهم.

- معالجة الحروق شيء لا نعرف عنه شيئاً حتى الآن، - قال ميكيشين حين انقضى ذلك اليوم الرهيب. كانت عيناه منتفختين، وشفته مسفوعتين؛ وقد فقد طاقته البيضاء، والآن ينتصب شعره كالريش.
وفي ذلك اليوم الشاق رأى فولوديا فاريا تمشي هابطة شارع لينين. وقد عرفت من بعيد - يجلس في محله

المعتاد الى جانب السائق - ورفعت يدها، ولكنها لم تجرؤ على التلويح بها. كان يبدو تعباً جداً ووجهه قاسياً. وفي بداية الفصل الخريفى كان فولوديا قد خلف وراءه كثيراً من هموم الماضى: منها اشارات الالتهاب الذى كان عليه ان يدرسها على ظهر قلب: الحرارة، الالم، الانتفاخ، الاحمرار، وتخريب الوظائف. وكان على اتم الثقة بان ادراك جوهر اى موضوع ليس من العسير جداً. وكذلك اصبحت مجادلاته عن الغاز الطب فى القرون الوسطى، وعن باراسيلسوس الذى عالج القلوب باوراق اشجار على شكل قلوب، والكلى باوراق اشجار على شكل كلى. كما تغلب منذ زمن بعيد على الخوف الذى كان يدخله فى روعه الباب الثقيل لغرفة التشريح المكتوب عليه «هنا الموت يساعد الحياة». وهو الآن يشعر بتمالك الاعصاب، وبدون تأثر تقريبا وهو فى الغرفة التى لم يعد الموت فيها شيئاً غامضاً بل شيئاً دنيئاً ينبغى ان يحارب ضده ليل نهار. ولكن كيف تجب هذه المحاربة؟

لم يعد منظر الجثث يخيف فولوديا. الا انه ارتعش داخليا، حين رأى مرة، على طاولة التشريح، فتى رياضيا فى التاسعة عشرة من العمر، لوحته بشرته الشمس وقد تدرب تدريباً رائعاً على حياة طويلة معافاة. فلم عجزنا عن انقاذ هذا الانسان؟ ولماذا كان النصر الى جانب الموت؟ وكم من الوقت سيستمر الاطباء فى كلامهم الكثير غير الجدى عن الامكانيات الكثيرة التى يكمن فى العلم والتى ما زالت غير معروفة؟

وقد مر بالاشياء الكثيرة، ولكن كم من الابواب ما
زال ينبغي عليه فتحها، وماذا ينتظره خلفها؟
وبتصلب فتى، ونهائية اخذ فولوديا الآن يقسم
اساتذته ومعلميه الى موهوبين وعديمى الموهبة.
وعارضه بيتش بشيء من العقل قائلًا ان السبب في
احتياج الانسانية الى اناس مثل تولستوى وجايكوفسكى
ومندلييف، ولومونوسوف، وماياكوفسكى، وشولوخوف
يعود بالضبط الى انهم عباقرة، بينما الاطباء لا يمكن
ان يكونوا كلهم عباقرة «فليس هناك عباقرة يقدر كاف
يا أبا الرأس الحار، لكى يشغلوا اماكن الاطباء فى مسافات
شاسعة من البحر الاسود حتى بحر بارينتز!»
وكان للعام بداية صعبة.

وشعار «احرق نفسى واضىء للآخرين» بدا غير سهل.
أولا ينبغي على المرء ان يعرف كيف «يضىء» بشيء من
الفائدة. ولكن، ماذا فى وسع المرء ان يعمل فى هذا القبيل
حين يعترف طبيب مجرب ومخلص وحاذق مثل ميكيشين،
الذى قال لفولوديا اكثر من مرة فى ذلك الصيف:
- ذلك ما نزال نجهله يا زميل.

او:

- لا مرد لهذا المجرى.

او ثانية:

- اصغ يا فولوديا، لا تعذب نفسك دون داع. فنحن
ما زلنا لا نعرف كيف نعالج الزكام بصورة صحيحة!
وبولونين، ذلك الرجل ذو الذكاء العظيم، كان يجيب فى
بعض الاحيان حين يسأل ان يقدم وصفة لحالة مريضه:

— لا شيء على الاطلاق. انها تشفى بنفسها.
ذلك ما قاله في حالة المرأة البولونية ذات العينين
الزرقاوين والبشرة العاجية التي اشرف عليها فولوديا في
عيادة بولونين:

— انها تشفى بنفسها!

— ولكن كيف؟

— هكذا.

— بنفسها؟

— او، حسنا. انها تحتاج الى الهدوء، والغذاء
اللائق، والنوم، والحديث معك بين حين وآخر — انت لست
بالفتى الخامد الفكر، ولكنك جدى اكثر من اللازم. وسيزول
كل شيء مع الوقت. هل عندك شيء تقوله خلاف ذلك؟
لا، ليس هناك شيء يقال.

البروفيسور جوفتياك نفسه

اقلقت فولوديا بعض الملاحظات الغريبة. فكلما كان
«العلاج» اكثر عملا وازعاجا، وكلما كان المريض يخضع
لالوان اكثر من العلاجات، وكلما اعطى ادوية اكثر، اصبح
ممتنا اكثر. ومن جهة اخرى، اذا ما وصف له دواء قليل،
او اذا كان لا يجبرونه على ان يبتلع قرصا، ولم تجر له
الفحوص بكثرة، فان المريض يتشكى من انه «يعالج
معالجة قليلة جدا»، او معالجة سيئة، او انه مهمل
كلية. وقد لاحظ فولوديا ايضا ان اكثر الاطباء شعبية
هم «رقاق» القلوب، سواء اكانوا حاذقين او مخلصين

او موهوبين او لا. كما ان المرضى يحبون ان يبدو الطبيب «وعليه هيبة بروفيسور» مع لحية مقصوصة قصا جميلا، وخواتم في الاصابع. وتأخذهم الهيبة، عن غبطة، من هيئة الملكية التي يدخل عليهم فيها بعض رجال الطاب الذين عرفوا قيمة الفخفة في مهنتهم.

- يا له من رجل وجيه، - سمع فولوديا ذلك من مريضة عجوز تعبر عن اعجابها بجوفتياك الطبيب البليد المغتر بنفسه، ومع ذلك فهو دكتور في العلوم وبروفيسور - مفهوم من اول وهلة، انه ليس من جيل الاطباء الحالي، انه البروفيسور حقا، وبكل معنى الكلمة! ابتسامة محسنة، ومداعبة صغيرة للطفل، ونكتة

صغيرة - هي كل اسلحة جوفتياك الذي لا يتورع عن شيء للمحافظة على شعبيته، شأن المرضى معه شأن الزهور ترفع وجوها للشمس. وفي نفس الوقت غالبا ما ينال بوستنيكوف، الجراح العبوس الجهوم الصموت، الذي لا يحمل، بالمناسبة، اى لقب علمي، ملامات من هؤلاء الناس الذين انقذهم من المآزق التي لم يحاول البروفيسور جوفتياك ان يخلصهم منها، مفضلا ان يستخدم بوستنيكوف وقت الحرج. وفي الحالات القليلة جدا، الميئوسة للغاية حين «يخطأ» بوستنيكوف، يهز البروفيسور جوفتياك رأسه الجميل ذا الصلعة المعطرة، هذا كثيرا وفي تأنيب ويوبخه في صوت مخملي:

- ليس هذا تعقلا منك يا زميلي! ما الذي جعلك تقوم بعملية في حالة لا تصلح لعملية؟ لماذا تعرض احصاءاتنا للخطر؟ لولا ذلك لقضى وهو في البيت سعيدا

وحوله اعزائه واقرباؤه. ولكنك تأتي وتفسد احصائيات اعمالى. وما فائدتك من ذلك، على اية حال؟ لا، يا عزيزى، لا تفعلها ثانية، لا تشوه نمط عملى. فكر فى مكانتنا. ان مجازفة خطرة اخرى من مجازفاتك تجعل الناس يبدؤون بالكلام عنى شخصيا، سيقولون ان البروفيسور جوفتياك متهاون. ولست انا اصغر شخص فى هذه المدينة او هذه المنطقة، وليس هناك اى سبب يدعونى الى ان اكسر رقبتى بسببك.

وحين يقدم جوفتياك نفسه كان يصر دائما على لقب: «البروفيسور جوفتياك»، خلافا لعادة غانيجيف وبولونين.

وكان نادرا ما يجرى العمليات الجراحية، واذا اجراها، اجراها عن غير موهبة، ولكنه كان يتباهى بها كثيرا، وكان ولوعا فى التفوه بالاوليات وهو يعمل، او «يقتبس اقتباسات» كما سماها بولونين ذات مرة وهو فى لحظة غضب. وكان جوفتياك لا يخاطر فى القيام باية عملية اذا لم يكن بوستنيكوف حاضرا، واقفا الى جانبه، وكان البروفيسور طالب متمرن. وكل انسان فى وسعه ان يرى ان بوستنيكوف يراقبه ثائر الاعصاب، وكان الجميع يشعرون بالخجل، وكان جوفتياك نفسه يخجل قليلا. وعلى اية حال سمعه فولوديا ذات مرة يقول بصوت شقى قليلا وهو يفسل يديه بعد عملية غير يسيرة بصورة خاصة:

— ان الشيخوخة ليست بغبطة... فى الماضى كنت...
وسال بوستنيكوف بغلظة:

— ماذا كنت؟

وفي بعض الاحيان كان بوستنيكوف يحملق فجأة بعينيه المبهمتين الزرقاوين الباردين حلقه طويلة متاملة بوجه رئيسه الممتلئ ذى اللحية الاشورية، ولا احد يعرف بماذا يفكر في هذه اللحظات. وجوفتيك الذى كان منذ لحظة يتباهى بخفة روح، ويستمتع برنين صوته، يذبل فى الحال، ويحمر فى ارتباك، ويقطع محاضرتة، أو كلامه بالأحرى وهو فى وسط الجملة، ويسرع بالخروج. وكان جوفتيك يكره بوستنيكوف، ولكنه لم يستطع الاستغناء عنه. وكان بوستنيكوف يتحمل مسؤولية العيادة كلها. كان يدير دراسات الطلاب العملية، ويقوم بالعمليات الأكثر صعوبة. وهناك اشاعة فحواها أنه كان يكتب بعضا من مقالات جوفتيك ايضا. وكان جوفتيك رجلا مشغولا جدا فهو يعمل كمستشار فى كل مكان (وغنى عن القول انه كان يأخذ معه بوستنيكوف الصموت فى الحالات المعقدة جدا) وكان يخرج مع الناس الذين فى السلطة الى الصيد، ويتخذ لنفسه فى الاجتماعات هيئة جدية للغاية ومكبة على العمل، ويدلى بين حين وآخر بملاحظة لاذعة حين يكون الادلاء بها مأمونا، ويفتح المؤتمرات الطبية فى المدينة وفى المقاطعة، ويعرف جيدا كم ينبغى أن يصفق الانسان حين يرأس اجتماعا، ويبدأ كل خطبه بالطريقة التالية:

— رفاقى الاعزاء! فى البداية أسمحوا لى بان أحيكم باسم علماء معهد سيجينوف الطبى! (وهنا يبدأ جوفتيك بالتصفيق، ثم يقلب صفحات دفتر طويل

ضييق). وسابدا بالارقام: في عام ١٩١١ كان في عيادات
منطقتنا كلها ١٢٢ سريرا فقط...

ويقول بولونين عند ذلك:

- اسمعوا، بانتباه! انتم على وشك ان تسمعوا
انباء جديدة مذهلة! عندما كان نيقولاى الثانى على
العرش، لم تكن حماية الصحة جيدة كما هى الآن فى ظل
حكم السوفييت.

ولم يكن على خطأ قط. فقد كان جوفتياك يسرد كل
الاوليات القديمة مرة بعد اخرى، وينتقد عمل الموظفين
فى مناصب ليست اعلى من منصب رئيس الدائرة المالية
فى المنطقة - بينما يتبادل بقية اعضاء هيئة الرئاسة
الملاحظات المهموسة والاشارات، ويطن بين الحضور
طنين حديث متواصل مباشر. ويتكلم جوفتياك بلا تورع،
ويتحدث عن عدد الاسرة فى المستشفيات، مضخما العدد
النسبى الذى يحتل سنويا بعدد ايام السنة، محللا العدد
الكلى للأسرة الموجودة فى الريف، محللا الاسماء العلمية
لأسرة المستشفيات، وبعد اطناب طويل، وبعد أن يطيل
الوقت المحدد لخطبته ثلاث مرات يترك المنصة ورأسه
مرفوع عاليا.

وذات مرة سأل فولوديا بولونين:

- لماذا يفعل ذلك؟

اجاب بولونين بغموض:

- التوربنتين له فائدة ايضا!

- أى توربنتين؟

- هل تعرف ماذا يقول كوزما بروتكوف * في
« ثمار التأمل » ؟ « الاجتهاد يتغلب على كل شيء ». وله
حكمة قصيرة أخرى: « طبل وزمرا ! »

وتحول بولونين عن فولوديا وفي عينيه مرارة.
وكان جوفتياك لطيفا مع الطلاب ولا سيما اولئك
الذين قيل انهم موهوبون. وكان لطيفا مع يفغيني
ستيبانوف الذى يحرر صحيفة المعهد. كما كان لطيفا مع
بيتش العبوس ليكون فى الجانب المأمون، لان جوفتياك
كان يشعر بالقلق كلما أحس عدم رضاه، ولو كان صامتا.
غير أنه كان لطيفا مع فولوديا، وذودا أكثر منه مع
الآخرين جميعا لان فولوديا كان معروفا بأنه طالب ذو
موهبة عالية، ولأن فولوديا يجابهه بعداء لا يطاق. ومع
ذلك، ورغم كل المودة التى يحيط بها جوفتياك فولوديا،
فسرعان ما فهم فولوديا حقيقة البروفيسور المهدار،
فأحس بنفور منه، عنيف وقوى قدر الحب الذى أحس
به نحو بوستنيكوف الجهوم الكئيب. ولكنه ربما لم يفهم
جوفتياك تماما، ربما كان ذلك لان فولوديا المدقق
بطبيعته قد لاحظ الأدب المبالغ فيه الشبيه بالتودد
الساخر الذى يعامل به بولونين العيادة الجراحية.

وكان جوفتياك أغفل من أن يفهم ان تودد بولونين
هذا مخصص للذين يضمن لهم احتقارا عميقا. ولكن
فولوديا الذى يعرف غانيجيف وبولونين جيدا لاحظ
النظرات التى يتبادلانها وهما يصغيان الى مباهاة جوفتياك.

* الاسم الادبى المستعار المشترك لالكسى تولستوى والاخوان
جمجوشنيكوف. (ملاحظة من التحرير).

و ذات يوم، ا عاد الى ذهنه حديثا قصيرا جرى بين الاثنين
في الحديقة، وهما جالسان على مصطبتهما المفضلة.

قال غانيجيف في صوت ضجر:

- ان الازدراء الذي نحسه مسوَّغ. ان الازدراء

هو كره في حالة هجوع.

فسال بولونين في حقد:

- أليس مبكرا علينا أن ندخل في حالة هجوع؟

السنا غير مبالين بعض الشيء بهذا الاحمق مدلل المجتمع
بحيله السافلة؟

أجاب غانيجيف بعدم أكثر:

- أوه، كفى. نحن نقوم بعملنا باخلاص، فماذا

تريد أكثر من ذلك؟ ان الاشتباك معه سيستنفد منا وقتا
طويلا، انت تعرف.

وكان فولوديا جالسا في الحديقة على مقعد مجاور

لمقعدهما وقد سعل عن قصد ليخبرهما بأنه لم يكن
يسترق السمع. ونظر بولونين اليه بكسل، وقال شيئا ظل

فولوديا يتذكره زمنا طويلا بعد ذلك:

- ان مصيبتنا هي القصور الذاتي. وأنا اقل منك

في ذلك. نحن نعرف تماما ان الرجل هو ابن كلبة، وجدير
بنا أن نهاجمه بلا رحمة. ولكن ما نحن فاعلون؟

نضحك في سرنا...

وجعل فولوديا الفكرة تغرس: «قصور ذاتي. هو

قصور ذاتي. وبولونين على حق. أهذه هي السن التي تضيئ
الناس أم ماذا؟ ولكن انظر، ان جوفتيك في خير وعافية،

بل ربما في وسعه أن يعض!

وذلك اليوم شهد انطفاء نجم غانيجيف في عيني فولوديا، وسطوع نجم آخر - نجم بوستنيكوف. ان ذلك الرجل الانيق المتعالم، العبوس ذا الشارب الخشن الاشيب لاحظ فولوديا ايضا، وسمح له لا بالحضور فقط، بل بان يساعده ايضا، وكان يعلم فولوديا العمل الذى كان بوستنيكوف نفسه يعمل به بشكل ممتاز جدا حتى احس فولوديا بالغبطة.

وكان زملاء فولوديا من الطلاب يستجيبون استجابات مختلفة لمدحه بوستنيكوف. قال بيتش: «انه رجل اصيل حقا». وعبرت نيوسيا يلينا عن شكها: «ولكن لماذا لم يدافع حتى عن اطروحة مرشح في العلوم؟». وتمتم يفغيني ستيبانوف قائلا: «ان حماساتك صبيانية بصورة عامة يا فولوديا. هو ليس شخصا لامعا بالطبع، ولكنه مشغل بالطب جيد. لا احد ينكر هذا. ولكن نيوسيا على حق تماما. غريب انه لا يحمل حتى لقب مرشح في العلوم، مع الاخذ بعين الاعتبار الامكانيات التى تقدمها بلادنا للجميع، فلعل في تاريخ حياته بعض البقع «البيض»؟. واعلنت سفتلانا انها تحترم جوفتيك لانه حسن الاخلاق، وغير متكلف، ومؤدب. واندفع اغورتسوف يدافع عن بوستنيكوف، وسمى ساشا بولشوك سفتلانا بسمكة هلامية، لسبب من الاسباب. بينما فكر ميشا شيرفود بان من الأسلم ان لا يقول شيئا. وكان قد كف عن ان يدع لسانه يفلت منه. وقبل كل شيء ان جوفتيك هو الذى يعطيهم العلامات لا بوستنيكوف.

بوستنيكوف

بدأ ذلك كله في اليوم الذي رأى فيه فولوديا بوستنيكوف يأتى الى قسم بولونين كمستشار، ويجلس على مقعد مطلى بطلاء أبيض، وينحن نحو المريض - وهو مساح يدعى دوبرودوموف - ويستغرق في فحص المريض. وأخذ الصمت يخيم على الردهة بمرضاها الخمسة تماما. وقد طلب اليهم بولونين مقدما بان لا يحدثوا ضجة. وتلمس بوستنيكوف المريض بأصابعه، فكد كان لا يؤمن بالآلات. وقلص عينيه الباردتين، وأخذ يطبطب على المريض بقوة وسرعة تارة، ويمرر عليه أصابعه بنعومة تارة أخرى. وانقضى ما لا يقل عن ثلاثين دقيقة. والطبوبة الرتيبة المضجرة تجعل الانسان ينعس، وفكر فولوديا دون ان يخلو من نفور: «انه يتظاهر ويحاول ان يؤثر في النفوس ليس غير».

وفجأة انتصب بوستنيكوف، وأخذ زجاجة الايودين من يدى الممرضة، ورسم دائرة على جلد المريض قائلا: - هنا مكان التقيح انقله الى قسمى الجراحى.

ونفض بوستنيكوف، وغطى المريض بعناية، ورفع رأسه ومشى خارج الردهة.

- هل رأيت ذلك؟ - قال بولونين لفولوديا باعجاب.

- لقد رأيت، - اجاب فولوديا بآلية.

- وماذا رأيت؟

- كان شيئا رائعا.

وأجريت العملية لدوبرودوموف يوم الثلاثاء التالي،
وكان تشخيص بوستنيكوف صائبا تماما.

ونصح بولونين فولوديا قائلا:

— والآن دع بوستنيكوف يعطيك درسا في العناية
بالمريض بعد العملية. في القرن السادس عشر كان
أمريوز باريه يقول: «أنا أقوم لهم بالعملية، والآن
ليشفهم الله». فخذ درسا من الله. ان بوستنيكوف
طبيب — استراتيجي، وليس طبيبا يطبب بما توجيه
التجربة. انه الجراح الذي يفكر كثيرا. وان تتعلم منه
يمرنك على العمل في كل الظروف، وقد تجد ذلك نافعا
جدا، وانت لا تعرف، فقد تندلع حرب، ولا تجد جهاز
اشعة في كل مكان. واود ان احذرك: اذا كان بوستنيكوف
خشنا معك، فلا تكثر: انه رجل عمل، ولا يحب ان
اشعة في كل مكان. واود ان احذرك: اذا كان بوستنيكوف
خشنا معك، فلا تكثر: انه رجل عمل، ولا يحب ان يعترضه
احد في اداء عمله. ولا يستطيع تحمل الفضول الكسول.
وما عليك الا ان تتعلم منه. فأشرب الكأس حتى الشمالة،
على سبيل التشبيه الطريف، وستكون شاكرا للجميل أبدا.
واعاد فولوديا للصف ما قاله بولونين، وقال يفغيني
في حلق:

— لا، يا فتاي العزيز. ليست عندي رغبة في ان
ادرب نفسي على ظروف ليس فيها حتى جهاز اشعة.
وفي الحقيقة أنا لا استطيع ان اتصور تماما مثل تلك
الظروف. وبصورة عامة، هل تعرف، ان هناك شيئا
غريبا فيما يتعلق بنظريات صاحبك بولونين، شيء...

قال بيتش مهددا:

- مرة أخرى؟...

اجاب يفغيني بلهجة خصام:

- نعم، مرة أخرى! هناك غانيجيف، وبولونين،

والآن بوستنيكوف. هم ليسوا ناسنا، هكذا، ليسوا

ناسنا! هذه وجهة نظري!

وبعد زهاء اسبوعين سأل بولونين فولوديا:

- حسنا، هل تحتسى؟

- نعم، احتسى...

- وكيف؟

- صعب جدا!

- فلا غرابة ان تبدو نحيفا جدا.

وشكا فولوديا قائلا:

- ما زلت اعرف قليلا جدا! مخيف ان أعرف قليلا!

وزرر بولونين ممطرته حتى العنق، وقدم لفولوديا

يده الواسعة الدافئة وقال:

- الى اللقاء. لا بأس بان تعرف قليلا جدا. فان

صديقك ستيبانوف يعرف كثيرا جدا. صحيح انه يعرف

كل ذلك معرفة سطحية.

وتنهذ فولوديا، وعاد قلعا الى بناية القسم الواطئة

الجراحى يسير فى الممشى المصفوفة الى جانبه اشجار

الاسفندان. وهناك، فى المختبر، حبس كلب يدعى شاريك،

هجين ذو ثلاثة الوان، ضحية تجارب فولوديا.

وفتح الباب على مصراعيه، وأشعل النور ونادى

الكلب. واجاب شاريك من قفصه الواطئ بنباح ضعيف،

وحرك ذيله بوهن. «انا اعذبه، وها هو يحرك ذيله
ترحيبا بي»، - فكر فولوديا بغضب. والغضب عنده كان
دائما يرافق الشفقة.

وكان يسمع في صمت المختبر الارانب مشغولة في
قضم قطع الكرب، والفئران البيض تهزول في جزارها
الزجاجية. والكلب التجريبي لميشا شيرفود يلهث. وكان
بوستنيكوف يعمل في الغرفة المجاورة. وقد سمع
فولوديا كلمته المعتادة «حسنا، حسنا». وكان
بوستنيكوف يقضى ما لا يقل عن ساعتين كل يوم هنا
مجربا، ومتأملا، ومجربا مرة أخرى. «في العيادة التي
ارأسها...» عادت كلمات جوفتيك الى ذهن فولوديا
فجأة.

وزحف شاريك بصعوبة نحو باب القفص. ومضى
يلعق ندوبه، ويرتجف بآلم.
وهمس فولوديا:

- تعال، ايها الأحمق، لقد جلبت لك قطعة لحم،
وبعض السكر. هيا، شاريك!

وكان فولوديا نفسه جائعا جدا، وكانت معه شطيرة
لحم، ولما رفض شاريك تناول الخبز، وكان أضعف
الأثنين، اعطاه فولوديا قطعة اللحم وتناول نفسه
الخبز.

قال فولوديا:

- أوه، انت لا تريد اللحم؟ اذن فحتى اللحم غير
طيب لديك الآن!

وشم شاريك قطعة اللحم بعدم اكتراث، وتحول

عنها، وحط رأسه بين يديه، واغمض عينيه المعبثتين.
وكسر فولوديا قطعة من اللحم، ودعكها بأصابعه،
وحشرها في فم الكلب. وفي تلك اللحظة، دخل بوستنيكوف
وهو يخلع قفازه المطاطي، وقال:

— مانكين مريض، مصاب بالتهاب اللوزتين.
(ومانكين، الخادم العجوز في المستشفى، المسؤول عن
تغذية الحيوانات التي تجرى عليها التجارب). ان
الحيوانات لم تطعم. وقد اطعمنا — انا وآلا — « سفينة
نوح » هذه اليوم كيفما اتفق.

وغمرت آلا، الفتاة الجميلة، بعينها لفولوديا من
فوق كتف بوستنيكوف. وخلع بوستنيكوف في النهاية
قفاز يده اليسرى خطفا، والقاء على الطاولة، وحك اظفره
في الجرة التي تحتوى على الفران وقال:

— نصيحتي لك يا اوستيمنكو ان تأخذ كلبك
شاريك الى البيت، فلن ينهض الكلب على قدميه هنا بعد
العملية التي اجريتها له. وقد تستطيع، في البيت، اعادة
القوة للحيوان. وعلى كل حال، فالامر راجع لك. ان
شيرفود مثلا قال لي ان والديه لا يحبان الكلاب.
وفي ذلك المساء جاء فولوديا بالكلب الى البيت،
وتلفن لفاريا.

— اسمعى، يا فاريا، — قال ذلك بصوت خشن
يشبه صوت بوستنيكوف، — عليك ان تأتى الى في الحال،
بسرعة...

— ولكن عندي... — بدأت فاريا في القول ولكنه
قاطعها قائلاً:

— ما عندك هو من شؤونك الخاصة، ولكن تعالى
الى هنا في الحال!

وكانت العمة اغلايا في الخارج. ووضع فولوديا
شاريك على الارض في «مغارته» فوق لحاف مطوى.
وكان الكلب لا ينفك يرتجف، عالقا ندوبه، مرسلا صوتا
يكاد يكون صوت انسان. وادفا فولوديا بعض الحليب،
واذاب فيه قليلا من السكر، وبيضة، وشمه شاريك، ثم
عافه.

«هذه، فيما يظهر، الحالة التي يسلمها الدكتور الى
حفار القبور»، — تذكر فولوديا هذه الجملة من كتاب
قديم. ونظر بنفور الى «درس في علم التشريح». ابذل
جهدك وضي' للآخرين، حين لا تستطيع حتى معالجة كلب،
رغم أنك تعرف مصابه!

وحين وصلت فاريا كان ما يزال منكبا على شاريك
وياكل البطاطة المسلوقة الباردة.

وصاحت فاريا طربا:

— كلب! لقد اشتريت لى كلبا؟

— أوه، كفى عن الصياح!

وصاحت فاريا ثانية وهى منفعلة:

— هل هو مريض؟ هل انت تعالجه؟ أو، يا

فولوديا، أعد له العافية من اجل خاطرى! انه كلب
أصيل، أليس كذلك؟

وقرفصت الى جانب فولوديا وقالت:

— هو لا يعضنى، ها؟

قال فولوديا بكآبة:

— لقد قطعت قطعة كبيرة من امعائه، وهناك شيء آخر فعلته له. ومع ذلك فهو يلعق يدي، ويعاملني كصديق. ولا بد انه المخلوق الوحيد الذي يعتبرني طبيبا.

— وماذا عني؟ الا اعتبرك طبيبا؟

— على اية حال ينبغي على أن اشفى شاريك، وستساعديني أنت! اوضح هذا؟
— نعم.

— حسنا اذن اعتنى به. اما انا فسامعمل في العيادة طوال الليل. واذا حدث شيء تلفني لي في القسم الجراحي. خذى رقم التلفون.

وكتبته فاريا طائعة. وغادر فولوديا البيت بعد أن اغتسل في الحمام، وحلق، وتناول وجبة غريبة اعدتها له فاريا — وكانت تتألف من شيء مطبوخ في مقلاة تسميه «فنتازي» — ونسى فولوديا ان يودع فاريا. وفي واقع الامر انه ينسى دائما ان يقول «مرحبا» او «مع السلامة» وان يسأل «ما هي الاخبار؟» وكان ينسى دائما ان يحلق ذقنه او يقص شعره. كان ينسى دائما ان يفعل ما تسميه فاريا «التصرف كإنسان» ويسميه يفغيني «مراعاة قواعد الصحة العامة».

وصفق الباب الخارجى، ووجدت فاريا في جيبها قطعة حلوى قديمة مسلوقة، ففسلتها تحت الحنفية، وحشرتها في فم شاريك قبل ان يفطن. وقضما بين اسنانه وهز ذيله. اذ ذاك افرغت فاريا كل طاسة السكر على الارض قرب فم المريض ذى الشارب واللحية. ولحق

شاريك لعقة على سبيل التجربة، وفي اللحظات التالية كانت الارض قد مسحت.

- جروى، يا جروى الحلو. او يا جروى... جروى العزيز، - نادت فاريا مثلما ينادى الناس حين يخلون الى احبابهم الصغار، بطريقة بلهاء عجيبة، - ها، يا جروى اشرب حليبك الآن، شاريك شروكى. كل مثل الولد العاقل، وستنمو لك امعاء جديدة، هاك، يا جروى المحبوب، هاك. فقط لن تسمى شاريك بعد الآن. بل اسمك سيكون ايرنس. طيب؟ يا صغيرى ايرنس الذكى، الشرس، الجميل!

وكان فولوديا يدفع نقالة من غرفة التضميد حين دعته آلا، الممرضة المناوبة، الى التلفون. وكانت الساعة قد جاوزت العاشرة، وقد استلقى المرضى فى عيادة البروفيسور جوفتياك ليناموا، فكان عليه ان يهمس. صاحت فاريا فى اذنه:

- هو ياكل الآن! وقد شرب بعض الحليب ايضا!

- شكرا، - قال فولوديا.

- وهو لا يسمى شاريك بعد! ان اسمه ايرنس

الآن! فهل اخرج به؟ او، هل تعرف، لقد عثرت على مقلاة قديمة فى المطبخ...

قال فولوديا:

- شكرا جزىلا لك. - وعلق السماعة.

وسألت آلا وقد ومضت عيناها وميضاً رائعاً:

- اوستيمنكو! أهذا انت تترك النقالة هنا؟ -

وفكرت فى نفسها أن هذا الطالب الشاب المأخوذ ذا

الرموش الكثيفة، والشفيتين الطفلتين العاريفتين جداب جدا، - هل ادلك اين توضع النقالات؟

وكانت واقعة في حبه تقريبا، ولكن ذلك لم يمنعها من ان تساله ان ينوب عنها في خلال ساعة او ساعتين لتذهب للنوم. وكانت من اولئك الناس الذين يعتقدون بانك مهما حاولت جاهدا فلن تستطيع ان تفعل كل ما تحتاج الى فعله في هذا العالم، وكانت صريحة تماما في مراعاتها لصحتها اولا. وكان فولوديا يعتبر هذا الصنف من الناس جميعا من «عصابة» نيويسيا يلكينا وكان يدهشه ان يعجز بوستنيكوف عن ادراك من هي. بل حتى كان يشنى عليها رغم انها الكذب مجسما.

ومضت ساعتان، وثلاثة، واربعة، وآلا ما زالت نائمة وكان فولوديا يذهب لرؤية المرضى حين يدقون الجرس، ويحقن واحدا بحقنة مورفين، ويساعد آخر ليضع ساقه المصابة في موضع اكثر راحة، ويجلس الى جانب ثالث برهة من الزمن لأن الرجل تشور اعصابه من الخوف في الليل. وفي الساعة الرابعة صباحا تلفنت الدكتورة لوشنيكوف، وهي الجراحة المناوبة، طويلة جدا، مدببة الانف، الى بيت بوستنيكوف لتناقشه في عملية اضطرارية توشك ان تجريها. لقد تلفنت الى بوستنيكوف، وليس الى جوفتياك...

وكان فولوديا يقف قريبا جدا من التلفون حتى سمع جواب بوستنيكوف المعتاد: «ميمونة».

وبدت آلا غضة ومرتاحة، واومضت عيناها مرة اخرى اذ نظرت الى فولوديا وهمست:

- احب النوم!

وتحول فولوديا عنها.

ووصل بوستنيكوف حين كانت العملية تجرى.

وكان طرفا شاربه متصلين بارزين بخشونة،
وعيناه الزرقاوان الحليبتان هادئتين وباردتين مثل قطعتي
ثلج. وكان يأتى دائما هكذا، ولكنه كان لا يتدخل الا حين
تصبح نصيحته، او مساعدته لازمة. واذا سارت الامور
سيرا حسنا غادر فى صمت، وخطواته حازمة لم تزل فتية،
وراسه مرتفع.

وهذه المرة قال لفولوديا، وهو يغادر:

- غدا يوم الاحد. واذا لم يكن عندك شىء افضل
تفعله فتعال عندى بعد الثامنة مساء. ولكن لا تتأخر عن
التاسعة.

- شكرا، - قال فولوديا بنصوت مدهوش.

- عفوا! - وهز بوستنيكوف راسه.

- لقد دعاك الى بيته، ها؟ الى بيته؟ - بدأت آلا
تضايقه ما ان ابتعد بوستنيكوف عن مدى السمع.
- نعم.

- شيطان، كم انت سعيد الحظ!

لنا طريقان مختلفان

فى الساعة السادسة صباحا وصل الى البيت، وفتح
الباب بمفتاحه الخاص. حبا شاريك الى لقائه. وكانت

فاريا بملابسها الكاملة نائمة في سرير فولوديا، وقد
وسدت رأسها على راحة يدها. وكان المصباح الكابى
مغطى حتى لا يسقط الضوء على ذلك المكان فى الارض
حيث ينام شاريك كما هو المفروض. والى جانب فراش
«ايرنس» الذى فى سبيل الشفاء من المرض طاسة
قديمة مغطاة فى عناية بغطاء من المقوى الوردى.

ونادت العمة اغلايا بخفوت:

— فولوديا!

وذهب الى غرفتها حافيا، الا من جوربيه، محاولا الا
يحدث ضجة. وكانت جالسة فى السرير وقد غطت نفسها
فى البطانية حتى عنقها. واذ دخل تلقتة عيناها المنحرفتان
قليلا بصباة.

— هل تعبتي؟

— قليلا.

واخبرها فى همس عن دعوة بوستنيكوف. وللحظة
خيل اليه ان عندها ما تخبره به هى الاخرى. ولكنه نسي
ان يسألها لأن هناك كثيرا من اخبار الكلية الاخرى اراد
ان يشاركها بها، وحين فرغ منها كان موعد النوم
قد حان. وكان النوم دائما يستولى عليه ما ان يضع
رأسه على الوسادة. وسمع بشكل مبهم عمته تقص له
اخبارها حين انزلق الفراش وكل شىء فى قرار عميق
ناعم مريح. وغط فى النوم.

قالت العمة اغلايا، وهى تمسد شعر ايرنس

المستقبل خلف الاذن:

— هكذا، يا شاريك. لا احد يهتم بى...

ونخر شاريك قليلا، وحك نفسه بحذر - فكان شديد العناية بصحته.

وقالت برقة فهي تحك اذن الكلب:

- وانا اهتم بكل ما يتعلق به. ولم ذلك؟ لا تنشج!
انه لا يؤلمك. انت كلب عصبى جدا!

وظلت فاريا للفظور رغم نداءات جدها التليفونية المزعجة وصياحة: « ليس من سبب في ان تنام الفتاة في بيوت الآخرين وتاكل طعامهم! السماء تعلم، لسنا شحاذين بل لنا بيت وفطور كثير ». ومضت العمة اغلايا تنظر الى فولوديا والتساؤل في عينيها - هل سيسألها عن اخبارها في الليلة الماضية؟ - ولكن لا، لم يسأل. وكانت فاريا تعلم المسمى شاريك سابقا والذي قد انبسطت اساريره كثيرا، كيف يمد لها يده. وتشاءب الكلب ساهيا، وتحول عنها.

سألت فاريا فولوديا:

- هل تظن أن ايرنس سيتعافى؟

اجاب فولوديا:

- نعم!

- لماذا لا يني يتشاءب؟ أليس جائعا للاوكسجين؟

وتجاهل فولوديا السؤال.

وقالت فاريا للعمة اغلايا:

- لا يتلطف علينا بالجواب، هذا الرجل العظيم،

رجل المستقبل.

وقالت العمة اغلايا:

- وهو ساهى الفكر كشان كل العظام.

- ولكن الرجال العظام لا يزجرون الآخرين. وابن اخيك يفعل ذلك.

وحطت فاريا جسمها على حافة كرسي العمه اغلايا، وطفقت الاثنتان واحداهما تضم الاخرى بذراعهما، تناقشان امر فولوديا وكأنه غير موجود على الاطلاق.
- انه من اولئك الاشخاص الذين يركزون على انفسهم.

- معدن كاذب. هو فخور اكثر منه الذكى!
ورمق فولوديا عمته وفاريا بغير وعى وسأل عن الوقت، وغرق في اوراقه مرة أخرى.
وقالت العمه اغلايا مقترحة:

- ولكنه سيخيب ظننا جميعا. هو في الظاهر علم بحد ذاته، ومن فارغ الداخل.
وقالت فاريا في اكتئاب:
- النظر اليه يخيب الامل.
وقالت العمه اغلايا:

- بالفعل. ليست له معرفة حققة. انه لا شيء غير منظر. ونحن كنا نسمى الناس من هذا القبيل في كلية العمال « بالبارونات فقاعات الصابون ».
- ولكن، ربما هو عنود ويشوه دماغه ليس غير؟

- على الاكثر. وضيق الفكر ايضا.
فتسأل فولوديا ببؤس:
- اسمعا! لماذا تنهشاني هكذا؟
وفجأة فاضت دموع العمه اغلايا. وبكت بطريقتها

الخاصة، لا مثل ما تفعل النسوة في الغالب بل كانت تضحك ايضا. غير ان الدموع كانت تنهمر من عينيها.

— ماذا؟ ولم؟ سأل فولوديا ذاهلا ومرتبكا. ولكن لا فائدة من سئالها الآن.

ومسحت قطرات الدموع الكبيرة باصابعها، ولم تقل شيئا. وناولتها فاريا شيئا من الماء. وذهبت العمة اغلايا الى النافذة، وفتحتها، ووقفت مائلة نحوها. وكان كتفاها يختلجان. ثم حملت نفسها فجأة وقالت:

— لا تلتقنا الى، يا صغار. اننى احس بالاجهاد في المدة الاخيرة. يمضى الانسان في حياته ويمضى وفجأة يحس بالاجهاد. والآن اصعب على من قبل: هل اكون قادرة على هذا؟

— على اى شيء؟ — سألت فاريا برقة.

— على كل شيء، — اجابت العمة اغلايا بتفكير ولبست ممطرتها وخرجت.

وغسلت فاريا، التى تحاول ان تكون فتاة طيبة، الصحنون بينما كان فولوديا يقرأ الصحيفة. وفجأة ادرك ما كانت عمته تريد ان تقوله له في الليلة الماضية. فكان في الصحيفة مقال عن مؤتمر معلمى مقاطعة كامنكا عقد قبل يوم. وكان احد المتكلمين اغلايا بتروفنا اوستيمنكو رئيسة قسم التعليم العام في المنطقة.

— اسمعى هذا يا فاريا! اوه. أنا خنزير. طبيعى انه صعب في البداية. انه عمل جديد. وفي الليل الماضية عندما عدت الى البيت... كم كنت بليدا!

وجلست فاريا، وفكت حزام منزرها، والقت فوطه
الصحون على الطاولة.

قال فولوديا:

- حسنا، قولي شيئا!

- ماذا؟

- قبل كل شيء، لم أخطأ خطأ فاحشا.

قالت فاريا زافرة:

- ما العمل، اذ اكنت هكذا. والشئ الرئيسى عندك

هو ليس هنا، بل هناك.

- اين هناك، وما هو الشئ الرئيسى؟

فتضرعت فاريا بكآبة:

- لا تغضب! فقد يكون شيئا حسنا، ولكنه صعب

يا فولوديا. هناك، فى المعهد، ولعلك غير أنانى الباتة.

ولكنك هنا أنانى جدا، بل حتى مرعب.

كم هى ذكية، احيانا بشكل مدهش هذه الفتاة،

وكم هى سديدة فى ضرب المسمار على رأسه. ولكنها فى

اللحظة التالية فاهت بكلمات حمقاء للغاية:

- يوم الاحد الماضى أخبرتنى امرأة غجرية ببختى.

انت تعلم صدقا... انت لا تصدق بى... كلام شرف. امرأة

غجرية مفزعة لها انف مثل المنقار، وعينان نفاذتان

واسعتان. قالت لى ان... على اية حال، ان ذلك عنى

وعنك. قالت اننى غير ضرورية لك. قالت ان لنا طريقين

مختلفتين.

وكان فولوديا بطائيا فى الجواب. وقف وظهره اليها

يحدق بعناقيد شجرة الاجاص الحمراء خلف النافذة
المفتوحة، وهو يرتجف في ريح الخريف الباردة.
قال بتعاسة:

- حسنا، يا فاريا، اعرف انى حيوان ولكنى لست
سيئا الى هذه الدرجة. سأغير تماما وسترين ذلك. وسأكون
متعقلا... وماذا تسمين... كل تلك الكلمات السكرية
الأخرى.

- لن تكون قادرا على ان تفعل ذلك.

- على فرض؟

ونظرت فاريا فى عينيه تماما:

- اذن لن تستطيع ذلك، والا فستكون انسانا
آخر. ومن الضروري لى الا تتخذ انت طريقا مختلفة،
انت بالضبط!

- وانت؟

- ماذا انا؟

- قد تختارين انت طريقا مختلفة ايضا. لقد
قالت لك غجريتك المجنونة ان لنا طريقتين مختلفتين.
واقبل نحوها، وامسكها من ذراعيها فوق الكفين.
ومع انه كان يحبها فلم يستطع قط ان يحمل نفسه
على صياغة حبه بكلمات. وليس لانه لا يستطيع ان
يحمل نفسه، بل انه خجل. فلو انه قال لها: «انا
أحبك» فقد تجيب: «وماذا اذن؟». وهى بالتأكيد قادرة
على ذلك. وعلى اية حال كانت تعرف أنه يحبها.

- هل فهمت يا حمرائى؟

- ماذا؟ - سألت ببساطة تامة.

وامسك نسعى يديها. وحتى الآن لم يستطع الامتناع عن عادات تلامذة المدارس الذين يجرون البنات من ضفائرهن، ويلوون اذرعتهم. ولكن ليس الآن هناك ما يمزح به. لقد انتهت أيام مزاحهما الطفولي وان شفقتة وحنانه لها أقوى بما لا يقاس من دوافعه الطفولية الآن.

— اذن لا تفهمين شيئا؟

— لا شيء — قالت وهي تخفى وجهها.

— احذرى اذن، — قال فولوديا بخشونة وحضن

فاريا بارتباك، وضغط ظهرها على طوار الشباك.

ولفحت الريح الباردة خده، واهتزت اغصان الاجاص

بضجيج، ولكنه كان بعيدا عن ان يلاحظ اى شيء من

هذا، بل كان لا يحس حتى بمحاولتها ان تخلص يديها،

وتدفعه جانبا. ولم يعد اليه شعوره الا بعد ان رأى كف

فاريا تنحشر في اللحظة الحاسمة ما بين فمه وشفتيها

الورديتين.

قالت:

— هاك!

— وحماقة ايضا، — قال فولوديا فى غضب.

قالت فاريا بوقار دون ان تبتمس وهي تسوى

شعرها:

— يجب ان تعبر لى عن حبك بصورة لائقة. هل

تفهم؟ ان لك وقتا كافيا تخلوبه الى جرائيمك والى صاحبك

باستير او كوخ. ولكن اليس لك وقت لفاريا ستيبانوفا

المسكينة؟ لا تخف. انا لا أسخر منك.

— هل اقدم لك يدى وقلبى؟

- قلبك - نعم. ويدك يمكن الاستغناء عنها!
- تعنين أنك سوف لا تتزوجيني؟
- هذا شأني!
- ولكن حسبت كل شيء قد سوى.
- باي طريقة؟ - سألت فاريا دهشة.
- ببساطة تامة. انا وانت نتزوج.
- في وقت فراغك يا فولوديا عزيزي؟
- ورفت رموشه سريعاً، ولم يقل شيئاً، وكان قلبه ما يزال يخفق كثيراً، واخذت فاريا تسوى تصفيفة شعرها النسوية مكورة شعرها خلف رأسها. وقال فولوديا:
- انا احبك كثيراً يا فاريوخا.
- كما يحبون رفيقاً؟
- كرفيقة ايضاً، - قال فولوديا بشيء من الارتباك.

- في اوقات فراغك؟
- ماذا تريدان على اية حال؟ برجا عاجيا ام ماذا؟

قالت بلطف موافقة:

- البرج العاجي لن يكون شيئاً سيئاً. ولكن كوخاً خشبياً على بحيرة أحسن. انا وانت والاغنام الصغيرة البيضاء، وسنأخذ معنا شاريك واسمه الجديد الآن.

قالت ذلك ولاح الق في عينيها.

- انت خائف برعب من ان تكون عاطفياً، يا فولوديا. خائف على نحو مرعب، اشد من الموت. ولكن ذلك شيء محزن، كما تعرف. وجرك لشعري، وليك

ذراعى كان عملا عاطفيا ايضا. والان كل شيء
« باختصار » كما يقول صاحبنا يفغينى: « انت
ستتزوجينى »، وهذا كل ما فى الامر. آه، فولوديا، يا
فولوديا! فى بعض الاحيان يلوح لى اننى اكبر منك
سنا...

— انا لا افهم، بم انا سيبى.
— اوه، انت غير سيبى بل انت فتى طيب. فى وقت
فراغك، بالطبع.

واخذت تكنس فتات الخبز من على المائدة دون ان
تنظر اليه. ومرة اخرى لاح لفولوديا كم كان ادراكها
صادقا، وكم كان نظرها صحيحا تماما. وها هى هنا فتاة
يافعة ولكنها قادرة على ان تضع يدها على اطراف ما فى
المرء واقدره. وفى وسعها ان تعاقب بكلمة واحدة، وان
تصوب الى اوجع نقطة.

وفى ذلك اليوم هاجمته فاريا كثيرا.
اما هو فقد هز كتفيه لا غير.
الا انها امتدحته بعد ذلك.
— ستكون عاملا لا بأس به.
فقال وهو يحس بالجرح:
— أهذا كل شيء؟ لا بأس به؟ اما انت فلن تكونى
اى نوع من العاملات. صدقيني!
— لسنا جميعا عباقره فى هذا العالم المذنب.
— هذا ابتذال.
— ولكن ان تعيرنى ببساطتى ليس ابتذالا؟
— كفى، لقد شبعت، — قال فولوديا بحدة.

قالت فاريا وكأنها لم تسمعه:

- وهل تعرف شيئا آخر سيئا عندك؟ هل تعرف؟
انت عديم الرحمة، يا فولوديا. انت مؤلم فضلا عن ذلك!
انا لا اعرف كيف اشرح جيدا. ولكنك اما ان تبغض او
تعبد.

فتمتم فولوديا في غضب:

- اياك اعبد. على الاخص عندما لا تلقين خطبا
مطولة.

وجاء شاريك - ارنيس الى المطبخ، وكانت أظافره
تحك في الارض بحدة، وبعد ان ادار حول قدمي
فولوديا قليلا أستلقى.

وانشدت فاريا بيتين من الشعر مخطئة بهما
كالعادة:

سأجلس الى جانب النار، واشرب
ولطيف ان اشترى لي كلبا.
وكانت محتدة المزاج. وظهرت بقع حمر على
خديها.

وقالت بعد برهة:

- هل انت تعرف لم تحتاجني؟ هل تعرف ذلك يا
عزيزي فولوديا؟ لأنني انصت الى تخريفك لا حين اكون
مهتمة به، ولكن حين تريد ان يصفى اليه احد. انا اعرف
قيمتك واعرف قيمتي. وبالطبع كل شؤونك اطرف، واهم.
ولكن كل شيء يتعلق بشؤوني انا، لا يهمك اطلاقا ولا
يمكن ان يكون طريفا، اذ انه تافه بالتأكيد. هل تنكر
ذلك؟ وهل تعرف؟ لقد قرأت في الليلة الماضية كلمات

حاذقة في كتاب من الكتب وأنا اتذكرها: «لقد طرا
الخريف على علاقاتهما». ذلك عن علاقاتنا نحن.

قال فولوديا بتلطف:

— انت ما تزالين صبية حقا.

وكان عليه الا يقول ذلك. وغادرت فاريا مستاءة،
حتى صفقت الباب خلفها. وتركت فولوديا وحيدا مع
افكاره الحزينة، والكلب المريض. ويجب القول انه
شتم نفسه جزاءا على عدم مبالاته، وعلى القسوة
والفظاظة، وعلى انانيته اللعينة، وأخيرا على وقاحته مع
العمة اغلايا. والاشياء التي قالها لنفسه كانت أمضى حدا
من كل قول قالته فاريا. واقسم الا يكون حيوانا مع
آخرين. ولكن هل كان مذنبا حقا اذ بينما كان يشتم نفسه
اخذت افكاره تعمل في فكره، بهدوء، وبهمس خفي، أفكار
عذبته طويلا عن امكانيات تصنيف الامراض وعن اضطراب
الكيمياء في الجسم الانساني، وثم — في خلسة لص خجل من
فعلته — سحب مجلدا من مجلدات غامالايا من الرف
ليقرأ فقرة من اطراف الفقرات، فقرة واحدة لا غير، فقرة
واحدة لتذكره بالفكرة، لمراقبتها...

ثم كانت له حاجة ملحة في النظر في كتب أخرى،
وطبيعي انه لم يسمع العمة اغلايا وهي تفتح الباب
الامامية بمفتاحها، وتأتي الى غرفته وتسأل:

— هل سنتفدى، يا مجنونى؟

فتمتم وهو يقلب صفحات كتابه:

— ...م ...م ...م

— هل غادرت فاريا منذ وقت طويل؟

— من؟

وهو في طريقه الى بوستنيكوف تذكر، اذ ذاك، فقط، أنه قد نسي ثانية أن يسأل عمته عن متاعبها.

انا اشرب!

كان كل شيء غريبا، مختلفا جدا عما توقعه. فقد كان يتصور ان بوستنيكوف، حتى في حياته الخاصة، يعيش عيشة تقشف، في غرفة كئيبة فيها سرير ضيق، ومنضدة، وكراس. يعيش وسط الكتب. تصور فولوديا ان بوستنيكوف يملك الوافر منها. «وسيقدم لي الشاي، بالطبع، ولكن أظن أنني سأرفض»، — كان فولوديا يفكر بذلك في طريقه.

وفتح بولونين الباب. وكان يرتدى مئزر مطبخ، أبسط مئزر، مثل الذي تلبسه فاريا حين تطبخ. وكان غانيجيف يشد فوطة على بطنه. وكان هناك رجل آخر لم يعرفه فولوديا، كان يشد عليه فوطة مطبخ ايضا. وكان متين البنيان، ملوح البشرة، له وجه يشبه وجوه الكالميك قليلا. وكانت ايدي الثلاثة، ووجه غانيجيف مغطاة بالطحين. «ماذا بهم؟» — فكر فولوديا وشعر في الواقع بالخوف لحظة. ولكنه في اللحظة الثانية كان جالسا معهم الى طاولة مطبخ يصنع عليها البلميني. * وكان

* قوالب صغيرة من العجين تملأ باللحم المفروم وتطبخ في الماء المغلي، وتقدم مع الخل، والقشدة الرائبة. (ملاحظة من التحرير).

بوستنيكوف مشغولا في طرق العجين فhez رأسه لfولوديا.
وقال بولونين:

— أوه، أوستيمنكو انت لا تعرف نيقولاى
يفغينفتش، تعرف عليه،—والقى الرجل الملوح البشرة على
فولوديا نظرة نافذة وتمتم بسرعة:

— مسرور جدا. مرحبا، انا بوغوسلوفسكى...
وكان الاسم مالفافا. نعم. انه يتذكر الآن. لقد
سمعه من بولونين وبوستنيكوف، وكان غالبا ما يتردد
في البلدة ايضا لان بوغوسلوفسكى كان رئيس الاطباء
في مستشفى تشورنى يار، ورئيس قسم الجراحة هناك
ايضا. وقد قيلت اشياء كثيرة عن هذا الدكتور الريفى
الصورة، الحليق الشعر. والآن وجد فولوديا نفسه يحدق
بذلك «الدكتور الموهوب من الله» كما سماه بولونين
مرة، وهو الشخص البخيل في مدحه.
وعاد الثلاثة الى حديثهم المقطوع. فقال
بولونين:

— اريد ان اقول شيئا أخيرا، ولن أكرر كم اكثر،
والا فستغضبون. هناك رجل نزيه واحد في تاريخ الطب،
اذا وصلت القضية الى هذا، واسمه «الزمن». هل
توافقان؟

قال بوغوسلوفسكى في ابتسامة لا تكاد تدرك:
— يا لك من مبالغ: رجل واحد! كيف انجرفت؟
رجل واحد في تاريخ الطب!
— ولكننا لسنا بصدد الكلام على النزاهة الذاتية،
هذا شيء آخر بل عن النزاهة الموضوعية.

والقى فى حذق بولونين بضع بلمينى مصنوعة
بمهارة فى صحن فرش بالطحين، وقال:

- فكر ثانية، وانظر فيما اذا كان غير صحيح. ان
انزه الرواد الاوائل يدافعون عن انفسهم حين يكونون
على خطأ، وانزه المخطئين ايضا عارضوا الحقائق التى
لا جدال عليها اليوم وطوال سنى حياتى الطويلة، أفكر...
قال بوستنيكوف:

- السنون تجعل الرجال مسنين لا حكماء، فلا
تفاخر. انا اعرف ذلك بتجربتي انا نفسى.

ووضع المشبك، واخذ يصنع البلمينى باصابعه
الطويلة. وشعر فولوديا بياس شديد: لم ينجح فى صنعها،
وتمزقت صفحة العجين الرقيقة، وانبثق اللحم منها،
وامتنعت الحوانى على الالتئام. ومع ذلك فلم يلاحظ
أحد، او على الأقل تظاهروا بانهم لم يلاحظوا ذلك.

وغلا الماء المعد لطبخ البلمينى وتطوع بولونين
لاعداد المائدة، ودعا فولوديا الى غرفة الطعام.

وقال بولونين وهو يضع الصحون على المائدة:
- البلمينى التى يطبخها بوستنيكوف مدهشة حقا.
وهناك طرق مختلفة لاكلها. ولكنها فى هذا البيت
مستهلكة بطريقة كلاسيكية، بدون اى تزيين. هل تشرب
الفودكا؟

كذب فولوديا برباطة جأس اكثر من اللازم:

- اشرب!

- وهل تجيد ذلك؟

- وما الحيلة فى ذلك؟

— لا تقل هكذا!

واذ كان فولوديا يجلب الصحون والاطباق والكؤوس
والسكاكين والاشواك من صوان الاواني الصغير الم
بالغرفة كلها. ولا بد من انها كانت غرفة مرتبة جدا
من قبل. ولكن كل شيء الآن يبدو مهملا، وكانت تبدو
مهجورة، وذات طابع غير مأهول قليلا وكأنما وصل
اليها صاحبها اليوم فقط، أو بوشك ان يتركها. وكان
البساط على ارضيتها بشكل معرج، وثمة ستارة واحدة
مع البطانة الممزقة معلقة على نافذة واحدة من
النوافذ. وكانت مفارش المائدة موضوعة في حقيبة.
والكتب مكدسة على الارض، وفوق صوان الملابس، وعلى
عتبات النوافذ. وكان هناك مصباح، ولكنه معطل. وثمة
قط مستلق على المكتبة بتكاسل، واحد من قطط
«النفايات». وقد ترك له رب البيت كل الحبل على
الغارب. وكان في الغرفة رائحة قط، لا رائحة انسان.
وقال بولونين وهو يشعل سيكارة:

— ان البلميني هو تقليدنا. فنحن نصنعه كل عام
في عيد ميلاد بوستنيكوف. وهو أرمل، ونحن نأتى دون
زوجاتنا ونولم وليمة رجالية صرفة. ونتذكر اولغا دائما.
— ومن هي اولغا؟

— اولغا ميخائيلوفنا، زوجته المرحومة. ها هي
ذى، انظر.

ورفع فولوديا رأسه، والتقت نظراته بعينين
ضاحكتين شابتين مشرقتين لامرأة حلوة ذات شعر
مخمل، ناعم جدا في مظهره. وكانت تصفيفة شعرها

غريبة «تعود لما قبل الثورة»، كما فكر فولوديا.
وكانت تمسك في يدها سماعة طبية.

— هل كانت طبيبة ايضا؟

— نعم، وطبيبة جيدة جدا.

— وكيف ماتت؟

اصيبت بالتيفوس في مستشفى عسكري عام
١٩١٨،— اجاب بولونين وسحب نفسا عميقا من
سيكارته السميكة،— وماتت هناك.

فقال فولوديا:

— وكيف حدث ذلك؟

وفجأة رأى فولوديا صورة شمسية لآلا، آلا التي
كانت دائما تقول عن نفسها انها تريد النوم. وكانت
الصورة في اطار جلدى جميل له اركان برونزية. و آلا
تنظر من ورائه في تحد، وكأنها تؤكد انها السيدة
الحقيقية، لا تلك المرأة التي ماتت في مستشفى عسكري
عام ١٩١٨.

وقال فولوديا وهو ينقل بصره من الصورة المعلقة
على الجدار الى الصورة في الاطار الجلدى:

— قل لى، هل كان بوستنيكوف يحب زوجته؟

اجاب بولونين بهدوء واقتناع:

— جدا. وهو لم ينسها، بل ما يزال يحبها حتى

الآن.

فقال فولوديا بعناد:

— وماذا تفعل آلا هنا؟ اقصد صورتها؟

وابتسم بولونين ابتسامة عابسة:

— لقد تعجّلت في الحكم عليه؟ من رأيي أنك ستتحول الى نموذج صعب، نموذج صعب للغاية! واليك نصيحتي: كن أكثر يسرا مع الناس، على الاخص اذا كانوا اناسا حقيقيين.

واراد فولوديا ان يجيب، ولكن لم تسنح له فرصة. وفتح بوستنيكوف باب الغرفة برجله، ودخل يحمل وعاء كبيرا مليئا بالبلميني. وقبل ان يباشروا في اكله، وقفوا جميعا مواجهين الصورة المعلقة في الجدار، وشربوا كؤوسا داهقة من الفودكا المثلجة. ولم يفه احد ببنت شفة. وفي الواقع ان ما من احد منهم كان يعرف المرأة الا بولونين. وكانت البلميني لذيدة حقا، وطيبة الرائحة، وخفيفة، وحارة جدا: وذر بوستنيكوف لكل واحد ذرورا من الفلفل. وكان مضييفا طلق المحيا. وقد قال ان الطعام يلذ اكثر حين يقدم بسرور. وبعد الكأس الاولى شربوا الثانية، ثم الثالثة. وفي اخر الامر شربوا الفودكا المسماة «غوداوتكا» والتي قال بوستنيكوف انها «الحاكم العام على جميع انواع الفودكا». وسكر فولوديا في الحال، واحمر وجهه، وصار يلوح بيديه، وأوقع سكينه ارضا. ونصحه بولونين:

— قليلا من الفودكا وكثيرا من البلميني! وشرب بولونين دون ان يقرع كأسه بكأس أخرى. وكان دورق الفودكا يقف عند مرفقه، وكان يصبها لنفسه لا في كأس صغيرة بل في قدح اخضر يسع مئة غرام من الفودكا.

ورفع فولوديا كاسه:
- هذا نخبك يا بروف ياكوفليفيتش!
فاقترح بولونين قائلا:
- من الأفضل ان تأكل نخبي شيئا من البلميني.
- لست طفلا!
- بالطبع، لا يعارضك احد في ذلك...
وكان العشاء مطربا صاخبا لذيذا.
وشعر فولوديا بخجل قليل من نفسه لانه
فتح حديثا أبله مع بولونين عن وجود صورة
آلا هنا. وبالفعل، ما الذى لا يحدث في عالمنا
هذا؟

وكان بوغوسلوفسكى يقول:
- في اصطبلاتى...
سأل فولوديا:
- لماذا اصطبلات؟ الا تشتغل في مستشفى؟
فاجاب بوغوسلوفسكى بجفاف:
- لدى مستشفانا حقل صغير لتموين المستشفى
بالخضر...

«يا للسماء! اعتقد اننى سكران!» - فكر فولوديا
بذلك في رعب، ورجع الى البلميني. «الشيء الرئيسى:
الصمت!».

وللحظة سبحت امام عينيه الاطباق الجميلة بصورها
الزرقاء للساداة والبيوت والطواحين والزوارق والكلاب.
وصك على اسنانه، وتوقفت الاطباق مع صورها عن
الحركة. وقال فولوديا لنفسه: «الشيء الرئيسى ان

تكون لك قوة الارادة». وسبحت الاطباق ثانية:
«قفى!...»

آه، كم كان كل شيء طيبا! وما اطرف احاديثهم،
لو كان في حالة يقدر معها على ان يتابعها بكاملها بدلا
من ان يختطف كلمة من هنا وكلمة من هناك!
وسمع فولوديا بولونين يقول:

— اوده، كفى. في آخر الامر، كل شبكة تتألف من
ثقوب.

وركز فولوديا انتباهه مرة اخرى: «رائع! كما
هو صحيح! كل شبكة تتألف من ثقوب! ستعجب فاريا
بذلك. ولكنها زعلانة مني».

وبذل جهدا هائلا ليدخل نفسه في حديثهم، ولكنهم
الآن دخلوا في حديث الجراحة، لا في حديث الشبكات
ابدا.

قال بوستنيكوف وهو يجلس قبالة فولوديا وكأنما
يتأمل علنا:

— سباس*، على حق! سباس على حق في
كل شيء...»

— «هل يقصد المسيح؟» — فكر فولوديا في دهشة
سكري قبل ان يتضح له ان سباس هو الاسم المصغر
للبروفيسور سباسوكوكوتسكى.
وتابع بوستنيكوف كلامه قائلا:

* «سباس» بالروسية تعني «المنقذ». (ملاحظة من المترجم).

— غالبا ما تجدون جراحا لا يعرف كيف يستعمل ادواته بمهارة. وحتى الآن اشعر بلذة حين اراقب نجارا، او خياطا في العمل. فما امهرهما في استعمالهما لأزاميلهما او مناشيرهما او ابرهما، وكم لديهما من الاساليب الدقيقة والمعقولة! ولكن نحن... انتم تعرفون كيف يضحك الاولاد من البنات: كيف تقذفين الاحجار؟ وهناك عبارة: قذف الاحجار على غرار اسلوب البنات. هذا ما نفعله نحن في بعض الاحيان — نعمل بادواتنا على طريقة البنات. بالشيطان! ان للنجار قطعة من الخشب، وللخياط قطعة من القماش يعالجانها. اما نحن فتتعلق على عملنا حياة بشرية.

وصاح فولوديا:

— انت على حق، انا موافق كليا! — وفكر في غيره: «تري، هل يتحدث بذلك الى آلا ايضا؟».

وهز بوستنيكوف رأسه:

— انا مسرور لأن اسمع انك موافق، — وقال لبوغوسلوفسكى: — ضع البلميني للفتى من فضلك.

وأكل فولوديا صحننا مملوءا آخر وفكر: «ماذا قصد بوستنيكوف بكلمة «الفتى»؟».

وتكلم فولوديا ناطقا الكلمات بعناية ليبدا صاحيا:

— بهذه المناسبة، اذا كنت اتذكر جيدا، ان

البروفيسور سباسوكوكوتسكى صاحب هذه الحكمة: «لا قطرة دم على اصابع الجراح بعد عملية استئصال الفتق». صحيح؟

قال بوغوسلوفسكى وهو ينظر الى فولوديا وعيناه
ضاحكتان:

- صحيح، ولكن لماذا تذكرت ذلك؟
اجاب فولوديا وهو يحرك شفتيه بجهد:
- للسؤال فقط. سمحت لنفسى ان اسال. ومع
ذلك فعلى ان اعتذر. يبدو اننى قد قاطعت حديثكم؟
ولكن هناك كلمتين اخريين. او بالاحرى سؤال واحد
مهما جدا، مهما للغاية، عن آراء البروفيسور
سباسوكوكوتسكى عن الابحاث العلمية...
وصمتوا جميعا. وكانت الغرفة ساكنة، مخيفة. وكز
فولوديا على اسنانه ثانية: «اذن فانكم تظنون اننى
سكران؟. سأريكم هل انا سكران ام لا». وجمع كل
طاقاته، وسال بصوت عال، حذرا من ان يبلع مقاطع:
- هل صحيح ان البروفيسور سباسوكوكوتسكى
هو الذى قال ان المبادرة العلمية هى فقط الامارة
الوحيدة على قابليات المشتغل فى العلم؟
- نعم، - قال بوستنيكوف ذلك وهو يتمعن
بفولوديا جديا بعينين لم تكونا فى تلك اللحظة ثلجيتين، -
كما يحذر سباسوكوكوتسكى دائما من تكثير اعمال
الانسان العلمية، اى، من الثروة عن موضوع واحد
ولكنه يقدم بمظاهر مختلفة.
- رائع! - قال فولوديا وقد اضعفه السكر ثانية.
وانقضت اللحظة المريعة. وقد نهض لها. والآن فى
وسعه ان يجلس على الاركة وكأنه يتأمل.

وقال لقط المزابل:

— هالو، بس، بس.

ثم اغمض عينيه. وبدأ القط في الحال يهر في ركبتيه. وكانت تأملات فولوديا طويلة بعض الشيء. فقد نظفت المائدة، وكان الرجال يشربون قهوة قوية سوداء حين عاد الى المائدة.

وسمع بوستنيكوف يقول:

— آه، لو كانت للشباب المعرفة، لو كانت للشيخوخة المقدرة...

فسأل فولوديا بوغوسلوفسكى بصوت مخمور:

— عم تتحدثون؟

— هل غفوت قليلا؟

— لا، كنت افكر.

— يا له من فتى ممراح. انا أعرف هذا الصنف،

ولكن حين تضعهم تحت الاختبار، فان الممراحين الحلوين جدا في الحفلات لا يكونون ذا طيبة كبيرة، — قال بولونين في غضب وتحول الى غانيجييف قائلا: — على اية حال هذا كله جزء من تلك النظرية البهيجة من ان كل الناس الطيبين هم في الاكثر السكارى وان السكارى هم بالتأكيد اناس طيبون.

وسحب فولوديا قدحا كبيرا من القهوة، ورفع يده

لتناول زجاجة الكونياك.

فقال له بولونين بشدة:

— اوستيمنكو، كفاية!

فسأل فولوديا بعبوس:

— هل تحسب انى سكران؟ سا شرب كاسا اخرى،
ولن يحدث لى شىء.

— كفاية، وحافظ على سلوكك! لقد نمت قليلا.

— املك تريد ان اغادر؟

— لا حاجة لان تغادر. ولكن لا تضايق الكبار.

وكانوا يتناقشون حول جوفتياك ثانية، ولكنهم
كفوا عن ذكر اسمه فى حضور فولوديا، لاسباب تعليمية.
وثارت اعصاب غانيجيف ولوح بيده وقال لا
سبيل الى التغلب على بولونين فى نقاش، وذهب الى
الجيران وحمل منهم القيثارة.

وقال بولونين لفولوديا:

— اصغ لذلك. هذه اغنية «عند النهر، عند الجسر»

باللاتينية.

وغنى بخفوت بصحبة القيثارة:

Propter flumen, propter pontem—

ثم قال بعد ذلك بقليل:

— لقد سمعت كل ذلك منه، كل كلمة. ان ناسا

من هذا الصنف لا يخجلون. لقد كان فى الماضى معاون
الطبيب. شيطانا ماكرا، رجلا ذا مكر نادر...

قال بوغوسلوفسكى وهو يضحك بخفوت:

— هو ماكر بالتأكيد، ولكنه ولد فى زمن متأخر

قليلا، ليس الآن زمنه.

ومرر غانيجيف اصابعه على الاوتار، وتمتم بحزن

وكانه ينشد بصحبة الموسيقى:

— بالنسبة لامثاله فالزمن زمنهم دائما. ان الزمن

دائما لهم. فصاح بولونين:

- اصغوا، اللعنه! ذلك ما يندر سماعكم له.
خلال الحرب العالمية الاولى عندما عسكروا في
مكان ما بالقرب من فولوجيسك، وضعت زوجة ضابطهم
ورتبته رئيس، طفلا. وكانت هذه المرأة تنحدر من عائلة
تحمل اسم «تسو شتاكلبيرغ اوند فالدك». انا اذكر هذا
الاسم جيدا لان خادمتنا وعالق البصاق كان ينطق بكل هذه
ال «تسو» وال «اوند» بحماسة واعجاب كبيرين. حسنا.
لقد ولدت. ثم لم تكن تحب احدا من الاطباء، لانهم لم
يكونوا ملتفتين جدا لطفلها «اوند وتسو». وكان لهذه
الشيطانة كل الخدم يطوفون حولها؛ وبدأ الرئيس نفسه
يتناول قطرات للقلب. واذ ذاك اقترح فتانا النسر ان
يزورها قائلا: «سأسوى كل شيء، يا حضرة الرئيس،
ولن تشكو شيئا بعد». وهكذا زارها. واعاره طبيب
صديق له قميصه العسكري وكتفيتيه، زارها خادمتنا
العام، الحصان الجواد في اسطبلات الخدمة الطبية
المنطقية، وحمل معه بعض الادوات بحجم يستخدم
للخيول، اذ انه استعارها من البيطري. فضلا عن ذلك
اخذ ايضا بوصلة مسح، وقاعدة ثلاثية من العسكري
المشتغل بالمعمار. وقد تعجبت مدام تسو شتاكلبيرغ
اوند فالدك وتأثرت تأثرا شديدا، واخذت تؤمن بالطب
الى الابد بعد ان قاسها ذلك الجاهل المحتال، وقاس
مولودها بادوات الخيل، وصوب اليها بوصلة المساح.
وبعد ساعتين نطق بحكمة: «كل شيء حسن، ولكن
الطفل عصبي بعض الشيء ويحتاج الى عناية خاصة لا

توجد في ظروف خط القتال». وسافرت السيدة تاركة ضابطها الرئيس حرا في ان يعاشر ممرضة من منظمة الصليب الاحمر. وتسلم نسرنا مائة روبل كعمولة من المدام، ومائة اخرى من المسيو. وهناك حزم امره على ان يدخل المعهد الطبى لانه رأى بوضوح ان الطريق الى النجوم، رغم ما قاله سانايكا، ليس كثير الاشواك على اية حال. واستثمر اصله الوضيع. حاول واكتشف فيما اذا كان حقا من عائلة عامل منجم في حوض دونيتز، او ربما من طبقة التجار الماكرين كما يقول بعض الناس، حاول واكتشف.

قال بوغوسلوفسكى بحزم:

— سنكتشفه!

فقال غانيجيف دهشا:

— حقا؟

— ان لم نكتشف اليوم، نفعل ذلك غدا.

قال بوستنيكوف بضجر:

— اوه، كفى يا نيقولاى يفغينفتش. ليس هو

بالاكثر سوءا. فضلا عن ذلك فهو خالد. فقد كان هناك اناس من هذا الصنف فى الماضى وما زالوا موجودين حتى الآن.

فاجاب بوغوسلوفسكى فى جهامة واعتراض:

— هو خالد ما دمتهم، كلكم جميعا، ترتجفون

امامه. وحين يكف الناس عن ان يقوموا بعمله له، ويكتبوا المقالات له، ويشخصوا الامراض له....

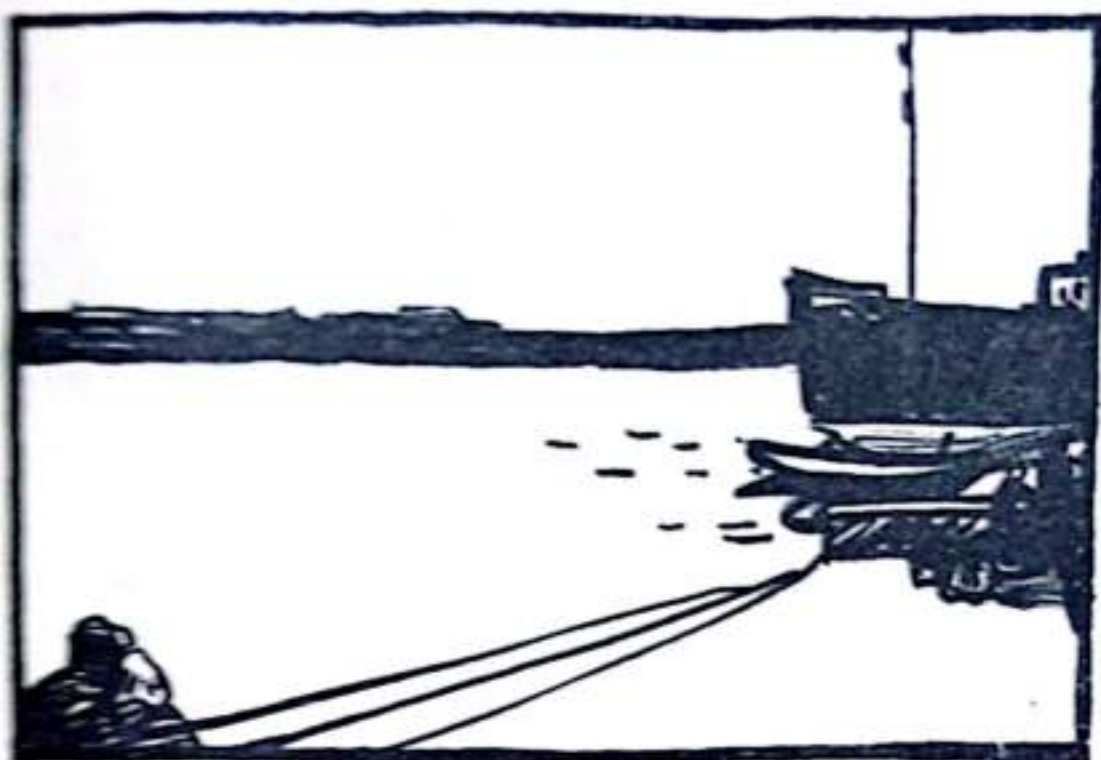
ورفع بولونين يده وقال:

- كفى. لقد حان وقت الذهاب الى البيت، والا
فسيحصل شجار.

وقال حين كانوا في شارع:

- لنتمش قليلا، فما زال الوقت مبكرا...

ورفض بوغوسلوفسكى وغانيجيف بسبب تاخر
الوقت، غير ان فولوديا وافق بالطبع. وكانت ليلة باردة
ونالت اواخر الخريف نصيبها: فكان الجليد يقرقع احيانا
تحت اقدامهما. وانزل بولونين قبعته فوق اذنيه جيدا،
ورفع ياقة معطفه.



الفصل الثامن

حديث ليلي

سأل بولونين فجأة:

- هل تذكر السؤال الذي طرحته على
بوستنيكوف، حول المبادرة العلمية باعتبارها الامارة
الوحيدة على قابليات العالم؟ هل تذكر أم كنت سكران
جدا؟

فغمغم فولوديا متجهما:

- اتذكر بالتأكيد.
- وهل تعرف ولو شيئا قليلا عن مستيفلاف
الكسندروفتش نوفينسكى؟

ولم يكن فولوديا يعرف شيئا عن نوفينسكى.
فامر بولونين بعبوس:

— فى هذه الحال تعال معى الى البيت. فالبرد قارس
بعض الشيء. وسنتناول بعض الشاى الساخن، حسنا؟
وعبرا ميدان السوق، ومرا بالكاتدرائية، وهبطا الى
شارع بريريتشنايا. وكان بولونين يعيش فى بيت صغير
منعزل، غير بعيد كثيرا عن بناية المحطة النهرية. وفتح
الباب بمفتاحه، وجعل فولوديا يدخل فى الدهليز الدافئ
المظلم، واشعل الضوء، وفتح باب مكتبه. ومسد
فولوديا شعره المشعث، ونظر الى رفوف الكتب والى
صناديق كارتات الفهارس الصفراء اللامعة والى المكتبة
الهائلة التى تتكدس فوقها المخطوطات، واصفى الى وقع
خطوات بولونين الثقيلة فى الارحاء الداخلية للمنزل
الهادئ، ثم ادار خلسة هندل التلفون اليدوى الاصفر
ورفع السماعة. وسمع من الطرف الآخر من يقول:

— الرقم من فضلك.

— ستة وسبعة وثلاثون، — اجاب فولوديا. وحين
سمع صوت فاريا الناعس قال بعناد:

— ستيبانوفافا، لا تنامى! سأتى حالا، او ربما ليس
سريعا جدا. انتظرينى. اريد ان احدثك عن شىء...
واقتربت خطوات بولونين، وقال صوت امرأة
حنون خلال الثاؤب:

— الشاى فى الدرج الايسر يا عزيزى، والحلوى...
وتمتم بولونين:

— حاوى، حاوى.. لم تكن الساعة الثانية عشرة
بعد، وانت فى فراشك. ولو ان تتحدثى معى...
قالت المرأة وهى تناكفه بطريقة مضحكة جدا:
— تتحدثى معى... لقد حرمتنى من نومى ثانية
وعشرين عاما انت واحاديثك الممتعة.

وعاد بولونين الى المكتب، واستراح على كرسى وثير
عميق قديم غطاؤه من الجلد، وأشار الى كارتات الفهرس
بهزة من رأسه وقال:

— هواية طريفة جدا. بالنسبة للحرب — احدث
اسلحة عصرنا. تستطيع ان تقرر مصير المعركة. ان
التصنيف فى هذا الموضوع لدو اهمية فائقة. وقد
اخترعت كل ذلك بنفدى. وانا فخور بذلك للغاية.
والقصص المجموعة هنا مهذبة للغاية، وصادقة تماما.
حسنا، أتريد ان تسمع قصة عن نوفينسكى؟ بينما نحن
فى انتظار الشاى. قصيرة جدا...

وسحب درجا كتب عليه كلمة «عريف»، وتناول
قبضة من الكارتات المحشوة بكتابات دقيقة، ونشرها على
شكل مروحة على الطاولة.

وسال فولوديا:

— هل كان نوفينسكى عريفا؟

فقال بولونين بضحكة خافتة:

— ابدأ. ان كلمة «عريف» على هذا الصندوق
ترمز الى قول غريبويدوف: «استطيع ان اصنع من كل
عريف فولتيرا». هل تذكر؟ هل قمتم بهذه التمثيلية

في المدرسة كما يقولون اليوم؟ حسنا. اذن ان نوفيونسكى...

والقى بولونين ظهره على كرسيه مغمض العينين نصف اغماضة وقص القصة ناقرأ بالكرتات على المكتبة، ودون ان ينظر فيها: في عام ١٨٧٧ أجرى نوفيونسكى عددا من التجارب على تطعيم الاورام الخبيثة، والى اطروحة العلمية ذات الاهمية للعالم كله. وكان عنوانها «حول مشكلة تطعيم الاورام الخبيثة (بحث تجريبي)». وكان هذا العمل نقطة انطلاق لتطور علم الاورام التجريبي لسنين عديدة. وقد تعرض السرطان لاول هجوم حقيقى.

— هل تدرك معنى ذلك يا اوستيمنكو؟

— نعم، يا بروف يا كوفليفيتش.

— والآن، هل تستطيع ان تتصور ان ذلك العالم الذى ربما اصبح عالما عظيما في المستقبل، رائدا حقيقيا، قد انخرط يخدم في الفرقة القوزاقية الثانية تحت قيادة الكونت لوريس ميلكوف الجنرال في حاشية جلالته، ولم يستطع ابدا ان يشتغل في العلم ثانية؟

فسال فولوديا وقد ارتعب من التهيج الذى ظهر في عيني بولونين:

— ولكن كيف ذلك؟

صاح بولونين:

— هكذا! اكان من اللازم حقا ان يؤدى الدكتور نوفيونسكى الخدمة العسكرية وفق جميع قواعدهم الملعونة؟ اكان من الفقر بحيث لم يستطع ان يدفع اجور الدراسة في اكااديمية الجراحة الطبية؟ اذن، فليخدم

قيصره وبلاده! وارسلت العرائض، وتبودلت المراسلات، وكافح عقلاء المجتمع من اجل نوفيونسكى كفاحا قاسيا. ومع ذلك فقد بعث الى حيث لا يصل انسان. اخدم القيصر! - هكذا امر ذلك الجنرال العريف. وفقدت روسيا احد ابنائها العظام، بينما آل علم الاورام الى ركود سنين عديدة. وانتهت مدة خدمته، وكان عليه ان يدبر موردا للرزق وان يشتغل باى عمل ميسور ليقيم اود عائلته. فاين له ان يجرى تجارب؟

واحضر بولونين ابريق الشاي، وبعض الحلوى فى علبة، وصب فولوديا وله. ومص السيكرة التى انطفأت، ودفعها من جانب فمه الى الجانب الآخر، ورمى كارتا بطرف عينه وقرأ:

- «عين طبيبا بيطريا للمنطقة فى بطرسبورج. وكان واجبه ان يفحص جميع الحيوانات التى كان يؤتى بها الى المدينة للذبح او الاقتناء، بما فيها الخيول. وكان عليه ايضا ان يفحص جميع الحيوانات التى ينقلونها من العاصمة». ذلك كل ما فى الامر فى الواقع.

وسأل فولوديا بصوت مبحوح:

- هل مات؟

فأجاب بولونين بمرارة وغضب:

- اوه، بالطبع، بالتأكيد! وهو منسى الآن كليا. وقد أشار اليه بتروف عام ١٩١٠. ولكن كتابا أصدره بلومنتال، وهو اجنبى، لم يذكر صاحبنا نوفيونسكى قط. ثم ان هناك اجانب مرة أخرى - غاناو ومورو. ولكن القضية ليست هذه، بل هى قضية أخرى، قضية اكثر

خطورة. ان جرة قلم لعريف كفيلة بان تحيل الى ركود ما كان يمكن ان يكون اعظم عصر للعلم، وتخلق فكر رجل من الممكن ان يكون عالما عظيما.

واعاد بولونين الكارتات الى الدرج، ودفعه، ونهض صامتا، وذرع الغرفة مرتين، وقال بابتسامة كئيبة:
- هذا يصلح موضوعا لطريفا لمقال بعنوان، ربما
«مهلا يا حضرات الجنرالات!»

وسأل فجأة:

- هل اعجبك بوغوسلوفسكى؟

ودون ان ينتظر جوابا تابع قوله:

- رجل مدهش تماما. وانا اذكره في لحظات الغم او الغضب ويتحسن مزاجي. ان الناس من صنف بوغوسلوفسكى هم الذين سيقلبون العالم وسيرتبون الحياة ترتيبا حقيقيا، ويضعون كل شيء في مكانه المناسب. واتوقع ان تكون لك علاقة ما معه ان آجلا ام عاجلا. اذن فاصغ لذلك. فهذا طريف للغاية.

وشرب فولوديا قدحا من الشاي. وشعر بان راسه قد راق تماما. ومن الممتع ان يستمع لصوت بولونين العميق الحازم. وانطلق بولونين بموضوعه المحبب، بالحديث عن رجل حقيقى، وحل الاعجاب محل غضبه. ... جاء بوغوسلوفسكى الى «جورنى يار» اول ما

جاء، طبيبا فتيا مع زوجته كسينيا ليقولايونا، المختصة بامراض النساء، وابنتهما ساشنكا. وكان الطبيب الاول في مستشفى جورنى يار رجلا اسمه سوتوغين عضوا في «المائة السود» فيما قبل الثورة، وقاتلا للابرياء، وكان

من قبل مكرسا لخدمة اصحاب الاراضى من عائلة
فويتسخوفسكى، وطبقة التجار فى جورنى يار، بل حتى
انه ارسل من قبل تلك الزمرة المحتالة الى بتروغراد
ومعه عريضة الى الدوما. ولا حاجة الى القول بانه قد
لقى بوغوسلوفسكى لقاء عدائيا:

- اوه! اذن فانت عضو فى الحزب الشيوعى!
ذق خبزنا وملحنا فى جورنى يار، ايها الرفيق
الشيوعى!

وكان سوتوغين يبدو مثل جنتلمان انكليزى، وكان
يدخن السيكار، ويضع على خذائه غطاء، ويركب الخيول
ويسبح فى النهر المثلج. بينما كان المستشفى يزحف
فيه القمل وكان باردا وعفنا، والمراحيض عاطلة عن
العمل. (وارسل بولونين الى هناك للتحقيق) وحتى اذ
ذاك كان من الواضح أن سوتوغين ليس الا مخربا غير
متستر. وكان يابى مداواة المرضى، ولا يقوم باى عملية.
صحيح انه كان مضطرا لأن يستدعى، فى بعض الحالات،
جراحا من المدينة، ولكنه كان يمنع رجال المستشفى
حتى الاقتراب من المريض الذى اجريت له عملية. فكان
يقول: «نحن لم نجر العملية فنحن غير مسؤولين عنها»
او قاعدته الاخرى: «بقدر ما ساء تحسن».

وفى اللحظة التى التقيا فيها سال سوتوغين
بوغوسلوفسكى - هل هو ابن الأب القديس يفتي
بوغوسلوفسكى، اسقف الكاتدرائية فى كامنكا. فأجاب
بوغوسلوفسكى: «نعم، أنا ابنه».
فسال سوتوغين:

- وهل انضممت للشيوعيين للحفاظ على نفسك في هذا الزمان الملعون؟

فاجاب بوغوسلوفسكى:

- لا، لا من اجل ذلك، بل قصدت الحيلولة دون اقتراب الوقحين من اضرابك، من خدمة حماية صحة الشعب، بمسافة طلقة المدفع.

وسارت الامور هكذا.

عمل بوغوسلوفسكى، بينما كان سوتوغين المتنكلز يكتب الشكاوى ضده. كان يكتب للجنة المقاطعة وللجنة المنطقة، وحتى للمفوض العسكرى ايضا. وكلما احسن بوغوسلوفسكى في عمله، كلما كان عليه ان يجابه لجانا وتحقيقات واستجوابات اكثر واشد صرامة.

ولم تكن الشكاوى بلا توقيع كما ولم تكن من ذلك النوع الذى يمكن ان يلقي ببساطة في النار. بل كانت جميع التواقيع والعناوين عائدة الى زبدة المجتمع السابقة في جورنى يار، اى الى اصدقاء سوتوغين.

وبدا بوغوسلوفسكى يضطرب. فان الوشايات والتحقيقات الناجمة عنها لا تشجع الانسان، كما هو معروف، على نشاط مثمر. وكان على بوغوسلوفسكى ان يعمل كثيرا، واذ ذاك يجب ان ينام نوما طيبا في الليل، بل لا يقضى ساعات طويلة مفكرا بافكاره المريرة.

وذات يوم وصل الى المستشفى الرفيق كوما ريتس، سكرتير لجنة المنطقة للحزب الشيوعى. وكان بولونين يعرفه. فقد كان فى السابق رمائا على نهر اونجا، وهو

فتى جميل، قوى الجسم، أحمر الشعر، يحب الاغنية
الجيدة. وكانت تصحبه امرأة شابة من لجنة المقاطعة
للحزب الشيوعى. امرأة اسمها اغلايا بتروفنا اوستيمنكو.
ولربما لها صلة قرى بفولوديا اوستيمنكو؟
- لا، - تمتم فولوديا بكذبتها عابسا فلم يرد ان
يعرف بأنه قريب لامرأة مشهورة فى المدينة.

قال بولونين:

- انت تكذب، ولكن كما تريد!

وتابع قصته.

وجمع كوماريتس كل شغيلة المستشفى، واقترح
ان يتناقشوا فى الحاجات الراحنة، وآفاق المستقبل
لهذه المؤسسة التى كان السكان هناك يسمونها «الطائرة»
بسبب من شكلها الغريب. كما حضر الاجتماع كثير من
المرضى الذين كانت حالتهم الصحية تسمح لهم بالمشى.
وفى مجرى النقاش ظهر ان بوغوسلوفسكى قد قام
بعمل عظيم وحينذاك نهضت اوستيمنكو الشابة وبصوت
حازم قرأت علنا كل وشايات الدكتور سوتوغين الموقعة
باسماء مختلفة، والمعنونة الى موسكو، والى مكتب
المفوض، والى الميلشيا، والى مفتشية العمال والفلاحين،
والى دائرة الامن الداخلى. كما قرأت النتائج التى توصل
اليها جميع المحققين. وبدا رجال المستشفى والمرضى
متجهمين. وكانوا خائفين: فقد عرفوا بوغوسلوفسكى
واحبه. وروعتهم دناءة العمل الذى قام به سوتوغين.
اما سوتوغين نفسه فقد ظل يبتسم بغموض ابتسامة
تهديدية ولكنها جبانة.

وقال كوماريتس:

— حسنا يا سوتوغين ماذا تسمى ذلك كله؟
وطرد سوتوغين، وقال كوماريتس واغلايا بتروفنا
أشياء جميلة كثيرة لبوغوسلوفسكى، ونصحاه بأن ينسى
كل هذه الوضاعة، ويستمر في عمله بعقل هادى. وقبل
أن يغادرا طافا فى المستشفى مرة أخرى. كانت البناية
قد رمت جيدا، وكان نظام التدفئة البخارية يعمل،
ولكن المعدات والادوات كانت ناقصة. كما كان هناك
نقص فى مفارش الأسرة، والاعطية، والاسرة ايضا، بينما
كان عدد المرضى الداخلين فى ازدياد، وقد اجريت اكثر
من ٢٠٠ عملية فى «الطائرة» خلال تلك السنة، وذلك
لاول مرة منذ وجودها.

وقال كوماريتس:

— ينبغى التفكير كثيرا كثيرا. ولكننا نعد
بالمساعدة...

وبينما كان يفكر، ذهب بوغوسلوفسكى الى مصنع
الزجاج فى سيبرتسى، ونظم اجتماعا عاما هناك. ووافق
العمال بالاجماع على التبرع باجرة يوم واحد للمعدات
الجديدة للمستشفى. واتخذ عمال معمل النشارة باسم
روزا لوكسمبورغ، ومصنع الطابوق، والطاحونة
البخارية، نفس القرار. وبرهنت الطبقة العاملة على مقدار
تأمينها لاهمية وجود مستشفى فى المنطقة، والحاجة الى
معاودة طبيب مثل بوغوسلوفسكى.

وجمع بوغوسلوفسكى ٧٤٤٧ روبلا و٩ كوبيكات،
ولف الفلوس فى قطعة قماش مربعة خاطتها زوجته فى

صدريته بخيط سميك، وذهب الى موسكو. وخلال ذلك
لفق سوتوغين وشاية جديدة على بوغوسلوفسكى
وارسلها الى لجنة المقاطعة على زعم انها من جماعة
من العمال يطلبون الحماية من بوغوسلوفسكى، الدجال
البلص الذى يبتز الفلوس منهم. وكانت التواقيع
واضحة. فقد قلد سيديلوف محاسب المستشفى بمهارة
امضاء ارتيخوف النشار الموجود بالفعل، وامضاء
الكهربائى اذ كانت فى سجل المكتب امضاءات يمكن
استنساخها جيدا وقامت زوجة سوتوغين بعمل كبير
فى تقليد توقيع الطحان وتواقيع اخرى. وبينما كانت
الوشاية الكذبة المطبوخة باتقان تفحص ويعاد فحصها
من جديد، وحتى يتمكنوا من استجلاء هذه الوساخة،
طلبت لجنة المقاطعة فى برقية الى موسكو للتأكد من
عدم شراء بوغوسلوفسكى لاي شىء، وتحويل
المبلغ الى اللجنة. وارسل بوغوسلوفسكى، الذى لم
يستطع ان يشتري شيئا بعد، الفلوس بالبريد الى
كوماريتس سكرتير لجنة المنطقة ثم طلب بان يرسل
كل ما كان المستشفى يحتاجه «بالدفع عند التسليم»
الى كوماريتس مباشرة. ولم يستطع بوغوسلوفسكى ان
ياكل فى القطار اثناء عودته غير الخيار الاصفر
والخبز.

ووصلت الادوات والاجهزة فى وقتها. ودفع
كوماريتس ثمنها. وكان قد نفذ الى اعماق تصرفات
سوتوغين الاخيرة. وفى آخر الامر القى القبض على
سوتوغين واصبح المستشفى شيئا مختلفا. وجاء الناس

الى بوغوسلوفسكى قصد معالجة فتوقهم القديمة جراحيا، أو العظام التي التحمت بصورة سيئة بعد كسرها أو قصد استئصال شظايا القنابل التي استقرت في اجسامهم منذ الحرب الاستعمارية. وجاءت النسوة من القرى البعيدة « بمغصهن » و « امساكنهن » و « ضيقهن » و « حرقتهن » وما الى ذلك من الآلام والعلل الغريبة. والان اصبحت الخدمة في « الطائرة » شرفا، ولمعت عينا بوغوسلوفسكى حين كان يقول وهو يضحك وينظر الى متحدثه بنظره الديكى المضحك:

— اذا استثمرنا كل الامكانيات الكامنة في نظام دولتنا السوفييتية، ففي ميسورنا أن ننجز ما يعجز عنه الشيطان...

وترأس ارتيوخوف النشار، وهو رجل موثوق به، « الثلاثى الخاص » قصد تقديم المساعدات للمستشفى. وشحن مدير قسم التجارة في مصنع سيبيرتسى للزجاج، وهو احد الثلاثة، الاواني الزجاجية، للمستشفى، بينما مون عضو « اللجنة الثلاثية » الآخر، وهو خولودكيفتش، المستشفى بالطحين الخشن.

وفي هذه النقطة بالذات أظهر بوغوسلوفسكى ناحية أخرى من مواهبه وهى ادراك معنى كلمة « الرزق »، ومعرفته عن الحياة الريفية، وحبه المتحمس للارض ولخيراتها. وطلب عن طريق البريد كل الكتب الاخيرة عن تربية الحيوانات، وتغذية الخنازير، وزراعة محاصيل الحقل. وأعد بوغوسلوفسكى و بليمنجوك، مدير التجهيزات، محل غسيل في أحد الاجنحة، يقبل

الغسيل من سكان جورني يار. وقد اندهش سكان
البلدة من هذه البدعة في بادئ الامر، ولكنهم قرروا
ان يجربوها، رغم انهم توقعوا ان يفسد الماء
الجافل بياضاتهم. غير ان البياضات قد مرت بالمحنة
سالمة من كل سوء. ومن الفلوس المكتسبة من محل
الغسيل الذى اطلق عليه اسما جميلا هو «بياض
الثلج» اشترى بوغوسلوفسكى اول بقرة للمستشفى
سماها ايضا «بياض الثلج». وهكذا كانت البداية. وخلال
ثلاث سنوات كان المستشفى يملك قطيعا كاملا من
الابقار، وحصل المرضى جميعا على ما يريدونه من
الحليب والقشدة، وجبنة الحالوم. كما سمح لشغيلة
المستشفى بشراء منتجات المشروع «للاستهلاك
الشخصى». واشترى بليمنجوك القصير الممتلئ بعض
الخنازير من مزرعة للدولة فى المقاطعة المجاورة. وهكذا
شرع فى انشاء حظيرة للخنازير. وفى وقت غير طويل
استطاعوا ان يذبحوا كل اسبوع خنزيرا. وكان
بوغوسلوفسكى يكرس كل اوقات فراغه لادارة المشروع
مشتغلا فى الحقول وفى الاصطبلات. وفى الصيف انسلخ
وجهه، وفى نهاية اليوم كان قميصه مبللا بالعرق. وكانت
قراءاته مزيجا من المجلات الطبية والمقالات عن توليد
الابقار وتخزين العلف المخمر، وتربية الطيور الداجنة.
وكان بليمنجوك يقول فى تلهف:

— لو كان لدينا مصنع للجبنة! انه عمل غير
معقد حقا. وانا ملم به الماما كافيا. وسنصنع الجبنة
للبيع — جبنة «ليمبورغ» و«باكشتين»، والجبنة الناعمة

في العلب. فان ذلك يأتى لنا بقدر من المال، ويكون
في وسعنا ان نبني مشرحة جديدة متمدنة.

ويرفض بوغوسلوفسكى قائلا:

— ان لك عقلا تجاريا جدا يا بليمنجوك. انا لا
احب ذلك.

ولم يمض وقت طويل حتى وجد بليمنجوك يسرق
بطريقة كبيرة. ودافع عنه محاميه الذى كان من بلدة
أخرى دفاعا عنيدا، ولمح للمحكمة وعيناه من وراء
نظارتين تنظران الى بوغوسلوفسكى، ان موكله ليس
مذنبا الا في اطاعة اوامر رئيسه. ودعا الحاكم المحامى
اكثر من مرة الى التزام النظام غير ان بوغوسلوفسكى
شعر بالتلوث والخجل. وقال بليمنجوك في كلمته
الاخيرة والدمع يتقرق في عينيه (كان بالاحرى موشكا
على البكاء) انه لولا «الجو» الموجود في المستشفى
لبقى نظيفا طاهر الذيل.

وأصدرت المحكمة عليه حكما بالحبس ثلاث
سنوات فقط، غير ان المدعى العام اعترض على هذا
الحكم فرفعه الى خمس سنوات.

الا ان المشروع قد تعرض الى فضيحة علنية. فقد ترك
بليمنجوك الملعون لطخة دائمية في مشروع يستحق
الثناء، وضرورى. واخذت زوجته، وهى كاتبة على الآلة
الطابعة في الدائرة المالية في المنطقة تنشر كل صنوف
الشائعات والاقاويل التى كان بوغوسلوفسكى عاجزا
ازاءها. والآن غالبا ما يبلغ السمع قول المرضى فيما
بينهم اذا كانوا لا يرفضون شيئا من هذا فكم ستسرق

الادارة من مبالغ، وكم هي مقادير الفلوس الذى تحصل عليها من بيع الحاجيات.

وكانوا دائما يتذكرون بليمنجوك النصف المنسى، وبعضهم يدعوه الجراح الرئيسى المخلوع وبعضهم زوجة مساعد الجراح، والبعض الاخر يسميه رئيسة الممرضات. وقد قال رئيس اللجنة التنفيذية في المنطقة، وهو رجل سمح، رفيق القلب، قال لبوغوسلوفسكى ذات مرة:

— ألم يحن الوقت لك لترتب كل شيء في مشروعك، يا صديقى الطيب؟ ان الناس يقولون كل الوان الكلام. فاجاب بوغوسلوفسكى بصوت تعب:

— لقد فعلنا اللازم منذ زمن طويل. وليس في وسع المرء ان يسد افواه الناس، كما هو معروف... وجاءت لجان التحقيق للمستشفى. ونبش المحققون ذوو النظارات في الكتب، وصاغوا البيانات، وتمتموا في معنى: «مم». وارادوا ان يروا القرارات التى تسمح للمستشفى بانشاء المشروع. وطالبوا بموافقة كتابية من مفوض الشعب، ومن الهيئات الادارية في الجمهورية وفي المقاطعة. وقالوا ان ثمن الحليب المستهلك من قبل المرضى منخفض وبعد اربعة ايام اخرى من العمل رفعوه الى ٢٩ كوبىكا.

وقال رئيس المحققين للجنة الخامسة التى قدمت الى المستشفى، وهو رجل ذو انف اسفنجى وشفة متدلية:

— انت جراح. اليس كذلك؟ فلماذا تريد، وانت جراح، ان تلوث سمعتك بهذه التوافه؟ سلم كل شيء

الى مزرعة اول ايار للدولة، وسندبر النقل. هذا طبعاً.
لقد قرأت مرة كتاباً عن الدكتور هاسه؛ انه قام بعمله
الانسانى، كما تعلم، دون كل خلايا النحل هذه وزرارات
الابقار والخنازير والدجاج...

ورفع بوغوسلوفسكى رأسه المتعب، وسمع المحقق
الحسن التربية والمثقف، بنغمة جشاء متقنة غضبى. وكان
كبوغوسلوفسكى لسان قارس، ويحب ان يطلق العنان
لنفسه فى بعض الاحيان. وتدلّت شفة المحقق اكثر،
واحمر انفه الاسفنجى، وقال:

— انا اقوم بواجبى!

فرد بوغوسلوفسكى:

— وكذلك انا! وفى الآونة الاخيرة نسيتهم جميعاً،—
ولياخذكم الشيطان! — ان لى بجانب المشروع مستشفى
فى يدي، وانا فيه لست الطبيب الرئيسى فحسب بل
الجراح الرئيسى ايضا. بكل ما فى ذلك من دلالة...

ووصلت حال بوغوسلوفسكى الى ذروتها القصوى
فى ذلك الربيع. واجتمعت زوجته الهادئة مع اللجنة
الثلاثية التى يرأسها ارتيوخوف، والفوا رسالة وقعها
الذين عالجهم بوغوسلوفسكى واجرى العمليات لهم.
وبعد تفكير طويل وجهوها الى اغلايا بتروفنا اوستيمنكو
شخصيا لانها كانت معروفة جيداً فى البلدة، وفى
المقاطعة، وسييرتسى، وفى جورنى يار. وتوقعوا ان تأتى
بنفسها، ولكنه وصل، عوضاً عنها، رجل قصير، مكتنز،
يلبس نظارات سميكة العدسات، مندوبا عن صحيفة
«عامل اونجا». وتسرع بوغوسلوفسكى وحسبه محققاً

آخر، وتحدث معه بلهجة خشنة بعض الشيء. غير ان شتوب - الرجل المكتنز - رئيس قسم في صحيفة المقاطعة لم يمتعض من ذلك. ونزل في نزل المزارعين، وقام بعمله بهدوء وبرودة. ولم تؤثر به الرسالة العاطفية الموقعة من قبل المرضى ولا اكوام الوشايات الموجهة ضد الطبيب. فقد كان يبحث عن الحقيقة. وكان مخلصا لنظامه الخاص في العمل، اى السير حلزونيا نحو المركز، ودون ان يضايق بوغوسلوفسكى على الاطلاق صاغ لنفسه ثانية، عمل ذلك الطبيب الريفى يوما فيوما، وشهرا فشهر، وعاما بعد عام، عمله الرائع، والانسانى، والشجاع والمفعم بالروح الحزبية. كما اكتشف كذلك ان بوغوسلوفسكى، عندما سلك طريقا آخر غير طريق ولده، لعن ذلك الخادم الصارم والعنيد لله ابنه الوحيد من منصة الوعظ في كنيسة كامنكا. كما انه اكتشف ان بوغوسلوفسكى تنازل عن فرصته في البقاء ضمن المشتغلين في المعهد الطبى بعد التخرج، وأختار عن طيب خاطر العمل في قرية صغيرة نائية جدا. كما اكتشف من بين التفاصيل الاخرى المهمة ان عائلة بوغوسلوفسكى لم تأخذ اى شىء من المشروع «لا حليباً ولا عسلاً، ولا بيضاً، ولا جبنة حالوم، ولا لحم خنزير». وتجشم شتوب عناء معرفة كل شىء عن المرضى الذين لا يأتون الآن من مختلف انحاء المقاطعة فحسب بل وحتى من بلدات بعيدة جدا. وقد جىء بطفل كسيح من استراخان قاطعا كل هذه المسافة الطويلة، كما جاء مريض آخر، وهو مساح ارض كهل جاء من كالوغا. وقد سمع شتوب

اشياء طريفة جدا من المشتغلين في المستشفى، من ماريا نيقولايفنا ممرضة قاعة العمليات، ومن الدكتور سموشكيفتش طبيب الاطفال، الاسود الشعر الكثير الحيوية، ومن الممرض بيتيا، والدكتور العجوز فينوغرادوف نائب رئيس الاطباء، والعمة بانيا المسؤولة عن البياضات، وروكافيشنيكوف مدير التجهيزات الجديد.

وأخبرت الدكتورة الكسندرا بتروفيخ الذكية الطيبة الانيقة شتوب عن ينبوع المياه المعدنية الذي اكتشف اثناء حفر البئر الارتوازية. وسوتوغين كان يعرف بهذا الينبوع، وهناك رسالة من هذا المحتال العجوز في ارشيف ادارة المحافظ يزعم فيها ان الينبوع كان ملكا خاصا له على اساس ان اسياده، من آل فويتسخوفسكى قدموه له هدية، وانه وجده بنفسه وسماه «الماء جيرنويارسكايا». ولم يكتشف شتوب هذه التفاصيل الا بعد ان استمع الى قصة بيتروفيخ. وقد اخبرته ايضا بان بوغوسلوفسكى قد حمل عينة من الماء الى موسكو ليحللها، وبعد ذلك حاول طويلا ان يقنع احد البيروقراطيين لاصدار أمر لبناء معمل صغير للمياه المعدنية قرب المستشفى. غير ان البيروقراطى اجاب، متثائبا، ان الينابيع المعدنية أصبحت موضة، وان الناس جميعا يكتشفونها؛ وهو يتعجب من سيشرب كل هذه المياه. ثم قال ان الزجاجات تشكل بعض الصعوبة ايضا. ولعل بوغوسلوفسكى المعروف بطابعه قد ختم المقابلة باحدى نغماته الحادة. فقد عاد يستبد به الغضب. وجمع ثلاثيه،

ووضعوا طريقة رخيصة بشكل مدهش لنقل الماء النافع للصحة الى الردهات، والى غرفة التضميد، وغرفة الطعام للمرضى الذين يستطيعون التنقل، والى المطبخ. وجلب روكافيشنيكوف بعض الانابيب المعدنية الدقيقة من المدينة. ليحمل هذه المياه الى حديقة الخضروات، وسرعان ما ردت التربة ما صرف عليها. فكان محصول الخضروات مضاعفا تقريبا. ثم بنى بوغوسلوفسكى بعض الدفيئات، وامن لمرضاه وافرا من الخضرة المبكرة: البصل والبقدونس والشبث، بل وحتى الخيار قبل ان يحلم به اى شخص فى جورنى يار.

وضحك شتوب أحسن الضحك حين سمع من العجوز ارتيوخوف الذى كان يعبد بوغوسلوفسكى، قصة «الانتصار الذى احرزه رئيس الاطباء على القسيس المحلى الأب ييفيمى».

لقد شيدت كاتدرائية بطرس وبول القديسين فى القرن الماضى على حساب الاخوان جوكونف تجار الحبوب وكانت تقع فى منتزه عظيم، وفى نهايته مقبرة لابرز اهالى جورنى يار. وكان المنتزه ما يزال مكانا مفضلا عند اهالى البلدة، ولكن لم يعد أحد يدفن فى المقبرة. وقد قضى عليها الاهمال وسياجها الرائع المصنوع من الحديد الصب المزين بالصلبان كان عديم الفائدة كليا. وكانت «الطائرة» بلا سياج، ولم يرد بوغوسلوفسكى ان يكون لها سياج من أعواد، ولم يكن هناك مال يكفى لسياج احسن يلف ارض المستشفى كلها وحدائق الخضروات والفناء والمباني الخارجية، وكل المرافق. وعلى اية حال

ظهر ان انعدام السياج شىء سيىء تماما فليس هناك ما يمنع اقرباء المرضى من ان يجلبوا للمرضى اثناء تنزههم فى الحديقة اشياء ممنوعة كالفطر والخيار والكرنب المخللة، ومعها فى بعض الاحيان نصف زجاجة من الفودكا. وبعد ان امعن بوغوسلوفسكى التفكير فى القضية لبس بدلته السوداء الذى فصلها ليرتديها خصيصا فى سفراته الى موسكو؛ وذهب لمقابلة القسيس الاب ييفيمى. وكان يزور القسيس العجوز الحقود كل ليلة حتى أفلح فى آخر الامر فى عقد اجتماع للجنة الكنيسة المؤلفة من عشرة اشخاص. وذهب الثلاثى برئاسة ارتيوخوف وبصحبة بوغوسلوفسكى لحضور ذلك الاجتماع الذى اظهر فيه الاخير معرفته التامة بالانجيل، والعهد الجديد، وكتاب المزامير وغير ذلك من الكتب المقدسة. وحصل نقاش مؤدب فى بادىء الامر، ثم مزوق، ثم عويص. وقد أستند بوغوسلوفسكى فى مطلبه على استشهادات رائعة منتقاة من آباء الكنيسة وبرهن للجنة العشرة بشكل لا يدحض على ان السياج المصنوع من الحديد الصلب ينبغى ان يسلم الى المستشفى لان ازالة العذاب قضية اكثر مسيحية من تزيين المعابد. وقد جادل الاب ييفيمى بخشونة، وبعد قليل من التذبذب ظهرت فى لجنة العشرة اراء مختلفة وفى النهاية ايد ثمانية من عشرة رأى بوغوسلوفسكى. ونقل سياج كاتدرائية بطرس وبول القديسين الى «الطائرة» فى عربات تابعة للمستشفى ونصب هناك بأمان. وبعد ذلك بقليل اجرى بوغوسلوفسكى بنجاح عملية استئصال

الفتق للقس ييفيمى العجوز، وبينما كان هذا القس يتمشى فى حدائق الخضروات فى المستشفى، تلك الحدائق المسيجة بسيياج الكنيسة، راى شفا المياه المعدنية، معجبا بالمحاصيل الوفرة من الخيار والبصل والكرنب وغيرها من «النعم»، تأثر فغنى مزمورا بترنيمة نحيلة جشءا، متنهدا برضى، واعترف فى آخر الامر لبوغوسلوفسكى انه كان على غير حق، وانه نادم على فظاظته، وعلى «الكلمات السوداء» التى استعملها.

ومكث شتوب فى جورنى يار حوالى شهر. وقبل ان يغادر سرق تصوير بوغوسلوفسكى من ملفه الشخصى، واخذ نسخة له. وبعد اسبوع من مغادرته ظهر مقال فى صحيفة «عامل اونجا» وكان التصوير منشورا هناك. وحين قرأته زوجة بوغوسلوفسكى بكى وقالت لابنتها: - انظرى، يا ساشنكا، ان اباك كان على حق. وهو دائما على حق مهما صعب عليه الامر. وارجو ان تكبرى وتكونى مثله...

وبكى ساشنكا ايضا. وكانت تحب اباها، وقد تعذبت بصمت حين كان كل اولئك المحققين يأتون لاذلاله. بل انها كانت تسترق السمع حين يفيض الى امها بمتاعبه. والآن كل شىء قد انتهى. فمن هو شتوب هذا؟ وكيف عرف كل شىء؟ ولماذا كان كل ما كتبه حقيقة؟ صحيح ان فى العالم اناسا طيبين مثله؟

وفى ذلك اليوم عاد بوغوسلوفسكى الى البيت فى وقت متأخر، وكان يبدو مرتبكا، وكانت تفلت منه بسمة خافتة عند كل كلمة. وصنعت زوجته كسينيا ليقولايونا

فطيرة عليق، وفي وقت متأخر من ذلك المساء جاءهم
ضيوف: الدكتور فينوغرادوف، والدكتورة الكسندرا
بتروفيخ، والدكتور سموشكيفيتش الذى جاء بزجاجة
من البراندى المصنوع بيتيا من التفاح، والعم بتيا
الممرض فى المستشفى، وماريا نيقولايفنا ممرضة قاعة
العمليات. وغنوا «غاوديموس ايفيتور» و «سامشى
خلال الجودار الطويل» و «العيون السود» و «النورس»
الذى «اوقعه، قصد التسلية، صياد مجهول،
وسقط ومات فى القصب». ووصل كوماريتس على صهوة
جواد عند ما كانوا وسط الاغنية؛ وعانق بوغوسلوفسكى
وقبله، وألقى خطبة «بالنيابة عن... وباوامر من...»
وعاد راكبا فى الليل الدافئ المضاء بالنجوم.
وقال سموشكيفيتش الطبيب النحيف الاسود الشعر:
— عندما تكون الصحافة كفوءة لمهمتها، عندما
تكون للصحافة شعور بالمسؤولية، وتفهم رسالتها،
الصحافة...

فاقترحت كسينيا نيقولايفنا:

— اسمعوا، دعونا نرقص. فانا ونيقولاى راقصان
جيدان، نعم وايم الحق. فنحن نستطيع ان نرقص
«المازوركا» و «بولكا» و «الفالس»، و «كراكوفياك»
و «الباديسبان»...

وشرح فينوغرادوف وجهة نظره الى الكسندرا
بتروفيخ:

— من رأى ان نتائج نقاشنا يمكن تلخيصها كالآتى:
لا تجر العمليات ولا توص باجرائها الا فى ظروف مماثلة

نتلك الظروف التي توافق فيها على ان تجرى لك، او
لشخص تحبه.

فصاحت:

— شيء تافه! لقد نادى بذلك سيدنهام في القرن
الثامن عشر...

وكان خداها ملتهبتين، وتريد ان ترقص، ولكن ما
من احد يراقصها. وسموشكيفيتش ما زال يفوه
بافضال الصحافة..

وتأوه بولونين للذكرى منتهيا من سرد قصته:
— لقد كنت هناك ايضا. ولكن في الواقع كان
مجلس شورى اكثر من حفلة. وعلى أية حال لقد كنت
حقا شاهد عيان للنصر الذي احرز به بوغوسلوفسكى
واغلايا بتروفنا قريبتك. لقد تم كل شيء بصورة جيدة.
فسأل فولوديا:

— هل سجلتها في سجلك ايضا؟

— لا، ليس في هذه الادراج الصفراء غير الموتى.
هذه توابيت مصغرة يا اوستيمنكو. واترك الاحياء لك.
فحين تبدأ بممارسة الطب خذ لنفسك قدرة من
اشخاص مثل بوغوسلوفسكى.

ودقت الساعة في الغرفة الاخرى — الواحدة، ونهض
فولوديا، وصحبه بولونين الى الباب.

وقال عند الانصراف:

— فكر في الاشياء، فذلك ينفع. ولكن لا تفرط في
ذلك. ان المرء يعيش بافعاله.

وعندما اقترب فولوديا من بيت فاريا، كان الوقت

متاخرا جدا. ولكن قبل كل شيء، هل عليه ان يريح
ذهنه من الأفكار المَمتَظَة فيه أم لا؟

وسألت فاريا وهي تتلوى في مقعد:

— هل تريد ان تتحدث؟

— نعم، فهل تغضبين علي يا شقرائى؟

لا، لم تكن تغضب عليه. فهل كانت تستطيع ان
تغضب عليه حقا؟

وقال فولوديا:

— انت صديقة حقيقية، وانا خنزير. ولكن هل

تعرفين، يا شقرائى ان المرء يعيش بافعاله.

وتحير واضاف قائلا:

— هذا ما قاله بولونين، لا انا.

فأمرت فاريا:

— حسنا، قل لى كل شيء ولكن قلّه بانتظام. فانا

اكره القصة المفككة. لقد دعيت الى بيت بوستنيكوف

فذهبت اليه، والآن دخلت بيته...

فمضى فولوديا يقول:

— دخلت. وبدأت بصنع البلميني...

اذهب الى «طائرة» جورنى يار!

قبل ان يغادر فولوديا لتدريبه العملى التقى هو
وفاريا ببولونين فى المنتزه. وكان ثمة جوق نحاسى يرسل
النغم من على منصة الموسيقى البيضاء وكانت شجيرات
الليلاق قد ازدهرت، وكان سكان المدينة المسنون

يتمشون في بدلاتهم الدمقسية، والنجوم تتلألأ بدفء في
السماء العميقة السوداء. وكانت يد فاريا دافئة ايضا.

ونادى بولونين:

- مرحبا اوستيمنكو!

وشد فولوديا على كوع فاريا قويا لينبها الى ان
شيئا غير اعتيادي ومهما على وشك ان يحدث. وعرفت
فاريا في الحال ان ذلك الرجل الضخم الطويل ليس الا
بولونين استاذ فولوديا الاسطوري.

وقال لها فولوديا:

- تصرفي وكأنك ذكية ذكاء خارقا!

ثم حيا بولونين بجفاف:

- وكيف حالك يا بروفيسور؟

وكان كلما زاد تعلقا ببولونين وبوستنيكوف كبر
ظنه بهما وظهر له خلقاهما انبل كلما اصبح فولوديا
اكثر شكلية وتحفظا معهما اذ كان لا يريد ان يظناه
طموحا اليوم مثل ميشا شيرفود، أو - وهذا اسوأ -
انه يسعى الى صداقتهما.

- هل انت مغادر؟

- نعم، مغادر.

سأل بولونين وهو يعرف تماما ما يسأل عنه:

- قالوا انك ذاهب الى جورني يار، الى

بوغوسلوفسكى؟

- نعم، هذا صحيح...

- انا مسرور. ان الطبيب يستطيع ان يتعلم شيئا

كثيرا عن بوغوسلوفسكى، حتى الطبيب المجرب بله

طالب الطب، وعلى كل حال انت تعرفه. اليس كذلك؟

وأحمر فولوديا قليلا متذكرا حفلة البلميني، وكيف سكر سريعا هناك.

وقال بولونين مغيرا الموضوع:

- لماذا لا تقدمني الى صديقتك؟

وقدمت فاريا له كفها العريضة الدافئة ابدأ،

وقالت:

- فاريا.

وحدقت بالرجل الضخم الذى كان من فراهة القامة بحيث اضطرت الى ان ترفع وجهها اليه.

واقترح بولونين:

- دعنا نجلس، ونستروح. انه يوم قائف والحرارة

لا تطاق...

وخفق صدره العريض تعباً، وكانت سحنته مجهودة ومتعبة: ومع ذلك فبعد ان اشعل سيكارة من سكاثره الغلاظ بتلذذ، وسحب نفسا طويلا. قال فى اسلوبه المعتاد:

- من المصادفة الغريبة اننى كنت افكر بمستقبلك فى هذا الصباح فقط، وفى بوغوسلوفسكى ايضا، رغم اننا قد تحدثنا عنه كثيرا ذات مرة. وهناك شىء واحد اريدك ان تفعله يا اوستيمنكو. بينما انت تتمرن على يد بوغوسلوفسكى دون جيذا الاشياء الصغيرة كهذه مثلا: ان الجراح الجيد يمكن تمييزه بحسب الحالات التى

يعزم فيها على اجراء العمليات الجراحية اقل مما يمكن
تميزه بحسب الحالات التي لا يلجا فيها الى العملية...
فهمت فاريا:

- رائع!

فهز بولونين رأسه:

- انا اظن ذلك ايضا. ان العملية بحد ذاتها هي
قضية الفن تقريبا. بينما تجنبها يتطلب قابلية عقلية
من طراز رفيع، ونقدا ذاتيا على ادق ما يكون، ومراقبة
لا خطأ فيها.

قالت فاريا وهي تغضن جبهتها:

- انا لا افهم!

فهمس لها فولوديا:

- اسكتي!

واستمر بولونين يقول:

- والشئ الثانى الذى ينبغى ان تلاحظه وانت تعمل
مع بوغوسلوفسكى هو الدور الذى تلعبه شخصية الطبيب
فى معالجة المريض. والامر هكذا. بعض المرضى لا
يؤمنون بطبيبهم الا حين يكون الطبيب بروفيسورا. ومع
ذلك ففى وسع المرء ان يكون بروفيسورا دون ان
يكون اى نوع من الاطباء.

فسالت فاريا:

- هل هذا عن صاحبك جوفتياك يا فولوديا؟ ذلك

الرجل الذى يضمخ صلعته بالعطر.

فابتسم بولونين ابتسامة خفيفة جدا جدا. ووكزها

فولوديا بكوعها لكى لا تتدخل فى الحديث.

وكرر بولونين قائلا:

- نعم، دون ان يكون اى نوع من الاطباء. اما بقدر ما يتعلق الامر بى فظن بى ما تظن، ولكنى لا ارى هرطقة فى ان ارفع فى نفسى شان طبيبنا الريفى المسلح بالسמاعة وميزان الحرارة. وهو اقرب من قلبى بتجربته، وبراعته وحدة ملاحظاته، وصفاء عقله، وفوق كل شىء، انسانيته. نعم، بالطبع، ان اجهزة الاشعة والمختبرات وكل شىء من هذا الطراز حسن. ولكن المرء يريد ان يشق برجل اكثر من ان يشق بآلة. ان عملى وعملك انسانى، يجب ان تدرك ذلك. واستنادا على هذا، تأمل تنظيم العمل عند بوغوسلوفسكى، والجوهر الفكرى لاعماله. انه طبيب رفيع المبادئ، قوى الروح ومحنك. وهو لا يعتمد على العلم والتكنيك فحسب، بل ويعتمد ايضا، وعلى نحو اكثر، على شخصية الطبيب وعلى اطبائنا الاعتياديين والرائعيين فى الوقت نفسه. ان احسن الاطباء، بالطبع، هم الذين يمزجون هذه اللوازم الثلاث: المعرفة والتكنيك والصفات الشخصية. فعليك ان تكتسب من هذه الصفات الشخصية بقدر ما تستطيع، وان تكتسب قدر ما تستطيع ايضا من عزتنا الصافية، تلك التى جعلت شفيننغر ذات مرة يهتف فى لحظة يأس وهو الى جانب سرير مريضه: « لن ترونى حين استنفد كل وسائلى! » انا أميل الى الاعتقاد بان ما رد الى المريض عافيته هو استصراخ وقوة روح اكثر منه وسائل طبية.

فقالت فاريا:

- متفقة معك! متفقة كليا!

فاقر بولونين بأدب:

- انا مسرور بذلك. هل انت طالبة طب ايضا؟

- انا؟ لا. انا شخصيا اشتغل في الفن. انا ما ازال

في المدرسة المهنية الثانوية، ولكن...

- تشتغلين بالفن في البيت؟

- لا، في الاستوديو...

- اوده، حقا؟ ما هو - نحت او رسم؟

- لا، بل مسرح.

- هكذا. اذن فستكرسين حياتك للتمثيل؟

- نعم، تدرسنا ايسفر غريغوريفنا ميشيرياكوف...

- ان اسمها الحقيقي ليس ايسفر. اليس كذلك؟

انه يفدوكيا. ولها لقب مركب ميشيرياكوف - بروسكيا.

وهزت فاريا رأسها. وكانت، رغم كل اخلاصها

لمعلمتها تشعر من الخجل من ان اسمها ولقبها مزدوجان.

وقال بولونين:

- ان ذلك شيء غريب عند الممثلين القدماء. ولا

وجود له عند الممثلين الشبان. فان القدماء يريدون

ان يكون لهم، حتما، اسم مزدوج ذو جرس جميل. واذكر

انه ذات مرة كان عندي في ردهة واحدة ممثل عجوز

هو فرونسكى - غولوندو. ولص سابق، خبير في فتح

الخزائن في البنوك. وكان اللص لا ينى يناكف غولوندو.

فكان يقول: لى اسماء ستة: «شكورين - بوروفيكوف -

زوند - برينتكوفسكى - ايفانوف - كاسيس». ولكنها

على الأقل وفرت لى حاجتى من المال. حسنا، حسنا...»
نعم ولكن ماذا تستطيع ميشيرياكوف ان تعلمك؟
فقلت فاريا:

— كيف؟ ان تكنيكها مدهش!
— ولكنها ممثلة ميؤس منها. اليس كذلك؟ ارجو
المعذرة. انا اتكلم كرجل عادى، ولكن المرء يمكنه ان
يتعلم الفن من ذوى المواهب فقط. وان الطبيب الذى
يدرس الآخرين يجب ان تكون له موهبة معينة بجانب
اتقانه للفن...

قلت فاريا:
— ان لميشيرياكوف موهبة دقيقة اصيلة، انت
على خطأ فى ذلك. اما عن التكنيك فان غلاما نفسها
مدحتها عليه...

— آه، غلاما، — هههه بولونين بضحكته الخاصة
المعهودة، — حسنا، اذا مدحتها غلاما فليس لى حق المجادلة.
ولكن هل مدحتها غلاما حقاً؟ وهل المدح هو
الرئيسى؟ خذى مثلاً صاحبنا غانيجيف، استاذ فولوديا.
كان فى كثير من الحالات يتعرض للتنديد وفى امكانى ان
اقول: للاهانة وحتى للازدراء. ومع ذلك فما زال
غانيجيف هو غانيجيف. لا يتزخرج من مكانه. هكذا...
وتحول الى فولوديا وقال:

— اقول مرة اخرى اننى مسرور جدا بعملك مع
بوغوسلافسكى لا مع شخص آخر. فاذكرنى له، وقدم له
تحياتى. متى سيقلع مركبك؟

- في الساعة الثالث ليلا.

- حسنا، سارك في الخريف اذن. ومن المؤسف انك لا تستطيع ان تعمل معه اطول من ذلك. وقد قرأت في مكان ما ذات مرة انه من الواجب ان يسأل الاستاذ قبل السماح له بتدريس الطلاب: هل عملت، يا حضرة اللامع طبيبا ريفيا ولو سنة واحدة؟
وضحك وهز يد فولوديا:

- سارك في الاول من ايلول اذن. الى اللقاء ايها الممثلة العتيقة! «يا عزيزتى الممثلة الحلوة» - أليس هذا ما كتبه تشيخوف لزوجته؟ وبهذه المناسبة ان تشيخوف كان طبيبا رائعا و«طبيبا ريفيا» في ارفع معاني الكلمة.

ونهض فولوديا وفاريا ليذهبا.

ومن الرسالة التي بعثتها اليه فاريا الى جورني يار، من تلك الرسالة فقط عرف ان بولونين مات في تلك الليلة ذاتها وهو جالس على نفس المصطبة التي جلس عليها ثلاثتهم. وكان قلبه سيئا جدا، ولكنه لم يعتن به بصورة لائقة ابدا، وقد مات فجأة وسيكارتة موضوعة بين اصبعيه. ولربما كانت نفس السيكرة التي اشعلها بتلذذ عندما كانا معهما ولربما كان الجوق ما يزال يعزف رقصة الفالس، ربما لم يذهب فولوديا وفاريا بعيدا حتى دعاهما بولونين وقد احس بمجىء النوبة. كل شيء كان ممكنا. ولا احد يعرف بالضبط كيف وقع الحادث، ولا احد سيعرف ابدا.

وكانت فاريا الشخص الوحيد الذى اتى لوداع فولوديا. فقد كانت العمة اغلايا فى مأمورية. وكان متاع فولوديا يتألف من زوج من الجزمات الجلدية المتينة، ومشمع مطر ناتى، ومجلدين لبرغوف، وبعض الكتب المشدودة فى سلك. وكان يحمل لفة ورقية فيها السمك الرنجة التى اشتراها تحت الحاح جد فاريا الذى اكد لهما ان وضع الرنجة فى جورنى يار متوتر. بالاضافة الى هذه الاشياء حمل معه بعض الملابس الداخلية ووسادة هوائية، ورزمة من الاغلفة قد خطت عليها فاريا عنوانها بيدها. كما حمل معه صورة فاريا الشمسية، وصورة ابيه المأخوذة اثناء الحرب الاهلية: وفيها كان ابوه يبدو شابا جدا، وبسيطا للغاية، يقف وقفة لقطة رائعة الى جانب طائرته «سوفيتش» وعلى ثغره ابتسامة، وكأنه يقول: «انا هنا، ايها الناس، انظروا اى فتى بديع انا!»

وكان بيتش قد غادر من زمان، وكذلك اغورتسوف. وكانت فاريا ترتجف اذ كانت الليلة باردة، وكانت فى فستانها الابيض الجديد غير المرّدن الذى صنع خصيصا لهذه المناسبة. وكانت تريد ان يحفظها فولوديا فى ذاكرته على هذه الصورة: غير عادية ومدهشة. ولكنه لم يلاحظ هذا الفستان الجديد، فقد كان غارقا فى افكاره عن الايام المقبلة.

وصاح بهما بحار يحمل حزمة كبيرة:
- هاى! ايها الزوجان الفتيان! افسحا الطريق!

وكان المحرك يرتجف في أحشاء المركب، وكانت
الصفارة تتمايل، وجانب المركب ينحك على رصيف
الميناء.

وقالت فاريا:

- احضنى - انا اشعر بهردا

فاجاب فولوديا:

- اوه كالفو مع امه

وحينئذ انزوت فاريا تحت ذراعه، استكنت لصيقة
به في دفء سترته. وكان لا يعرفان مثل هذه الوداد من
قبل، ونظر فولوديا في رجفة الدهشة الى عيني فاريا
الماكرتين. وقد علفت في شعرها نداوة حبيبة من النهر.
وكان قلبها يخفق بجانبه، ويدها بيده. واغمض فولوديا
عينيه وضغط خده على شعرها المخمل، وقال بصوت
اجش:

- يا شقراى، انا احبك.

فردت من خلال دموعها الحلوة المسرة:

-- هذا ما تقول - وانت لا تهتم بغير بافلوف

وسيجينوف، ولماذا يولد الانسان، وهرزن. ستصفر

الآن الصفارة الثالثة. قبلنى...

وقبل فولوديا ثغرها المفلق المبلل بالدمع.

وقالت:

- ليس على هذا النحو. قبلتنى كما يقبلون الموتى.

قبلنى بفراهم...

وبفضب فصل شفتيها والصقت هى جسمها الفتى

به. وفوقهما فى مكان ما صفرت صفارة المركب.

قالت فاريا وهي تطلق نفسها من قبضة ذراعيه
القويتين:

— لا شيء في ذلك. لقد قرأت في الكتاب ان للقلب
مذاقا لاذعا!
فغضب وقال:
— حمقاء!

وجرت الصقالة من تحت قدميه، فقفز الى ظهر
المركب واخذ المركب « بطل اونجا » يتحرك ببطء نحو
عرض النهر. وجلس فولوديا على ظهره طوال الليل
تقريبا، متمتما في نفسه: « يا شقرائي انا احبك، احبك،
احبك ». وفي ندم مرير استرجع في نفسه الساعات
التي كان في وسعهما ان يقضياها سوية ولكنه قضياها في
وحدة. وتذكر نكاته الحمقاء على حسابها، تعنيفاته لها
ولهجته المترفعة الخرقاء، وعينيها اللتين دائما تفتحان
عن سعة لتستقبلاه، واستعدادها لان تلقاه في كل ساعة
من ساعات اليوم او الليل، وذوقها الحلو، وصبرها عليه
حين يناقش لساعات طويلة اشياء تلذ له، ولا يمكن ان
تلذ لها. « يا حبيبتي، يا حبيبتي، يا اعز حبيبة لي يا فاريوخا
الشقراء الحلوة! » — فكر بذلك وهو يمشی جيئة
وذهابا متعثرا في الركاب النائمين على سطح المركب،
ودون ان يسمع اية لعنة تتبعه، — « يا حبيبتي، انا احمق،
حيوان، دودة ».

قبيل الصباح استولى عليه النوم. وبعد ذلك اكل شيئا
من الخبز والسلامة ثم شرب الماء الدافئ من قدر ماء
الشرب واراد ان يستأنف افكاره عن فاريا، ولكن اية

فرصة لم تسنح له لان المركب صفر وتقدم نحو رصيف
جورنى يار.

- مرحبا يا اوستيمنكوا الا تعرفنى؟ - نادى
بوغوسلوفسكى فولوديا. وكان ملوح البشرية بالشمس
اكثر منه فى الخريف الماضى.

وكان قميص بوغوسلوفسكى القطنى الذى غسل
كثيرا مفتوحا عند العنق، وبنطلونه من الملسكين
محشورا فى حذائه الطويل العتيق. وكان يحمل فى يده
كرباجا. وكان القميص والقبعة التى يضعها فى مؤخرة
راسه تلائمه اكثر من تلك البدلة الداكنة، والياقة
المشدودة، اللتين كان يرتديهما فى بيت بوستنيكوف تلك
الليلة.

وسأل فولوديا:

- هل انت راحل؟ - متوقعا ان يرتقى
بوغوسلوفسكى الصقالة، وتنحى ليدعه يمر.
- لا، لا سمح الله، انا هنا للقياك.

ولكزهما الناس بحقائقهم وسلالهم، وكثيرون منهم
كانوا يعرفون بوغوسلوفسكى فحيوه. ونظر اليه
فولوديا. وتعجب فلم يسمع ان يأتى رئيس الاطباء للقاء
طالب. ولو يخبر الطلاب فى المعهد بذلك لن يصدقوه.
وقال بوغوسلوفسكى وكأنه يجيب عن افكار
فولوديا:

- وعندى تجربة عن الوصول لتسلم اول عمل
ايضا، كما تعرف. والفرق الوحيد بيننى وبينك هو اننى
كنت احمل دبلوما. كما لم ترسل الى المحطة خيول. والرجل

العجوز الذى جاء للقياء وهو اشتراكى ثورى سابق،
وبالمصادفة طبيب محترم، استقبلنى استقبالا غير ودى.
ثم لاحظ ان الطريق الى مكان عملى استغرق ٤٨ ساعة.
وظل فى نفسى شعور بالمرارة زمنا طويلا.

وجر الحصان الرمادى المرقط البديع العربية
الصغيرة من الرصيف صاعدا بها الى البلدة. وجلس
بوغوسلوفسكى الى جانب فولوديا على مقعد ذى لوالب،
مريح، وهو يمسك بالعنان عن خبرة، ويحيى الناس عن
يمين وشمال:

— احترامتى يا ماريافلاديميروفنا! هالوا كينفتش،
كيف حالك يا بيترونكا؟ يا يلزافيتا نيكانوروفنا
احتراماتى!

وحول سيكارتته من طرف فمه الى الطرف الآخر
وتكلم فى بربرته الريفية:

— لقد حجزنا لك غرفة بنسيون كامل وصاحبة
البيت امرأة لاتفية عجوز اسمها داونه. وهى بستانية
عجيبة تعلمت كثيرا منها. وستحصل على حليبك من
استثمار المستشفى، وينبغى ان تشرب من الحليب قدر
ما تستطيع ان تشربه ونحن نبيعه بسعر الكلفة، للتر
الواحدة بـ ٢٩ كوبىكا. كيف حالك يا انا سيميونوفنا! هذه
كاتدرائية بطرس وبول القديسين، يا زميلى، نتحدث
عنها فيما بعد. بانتظارك عمل هائل فاهتم بغذائك.
مرحبا يا سيميون تريفونتش. وستخضع لى وحدى
يا زميلى، انا من انصار الادارة الفردية انا مداحها واخلص
معجب بها. المركزية الديموقراطية شىء عظيم...

ودكن كفل الحصان الرمادى المرقط الخفيف
الحركة من العرق. ووقع بوغوسلوفسكى بضربة ماهرة
من سوطه ذبابة خيل، واخذ يتحدث عن محصول ذلك
العام. وحدث فولوديا بيدي بوغوسلوفسكى - هل كان
يرى خيالات؟ هل يمكن ان يكون الجراح على هذه
الشاكلة؟ لقد كان حديثه فصيحاً، وحين كان يتحدث عن
سعر الكلفة للحليب كانت عيناه نفاذتين على نحو غير
مألوف، وكان يمسك بالعنان مثل حوذى اصلى. ولكن
يديه! اوه، اية يدين! كانتا هائلتين، واسعتين وقويتين،
مرقشتين بالنمش الاصفر. يا للسماء! اى شيء لا يستطيع
المرء ان يصنعه بمثل هاتين اليدين! ومرة اخرى قال
هذا الجراح المدهش، وكأنه قد قرأ افكار فولوديا او
عرف كنه تحديقته، قال:

- وبلاضافة الى ذلك لقد ولدت اعسر يا زميلى.
فلو ان عيبا فطريا يستغل استغلالا طيبا يأتى بنتائج
مثمرة. ان يدى اليسرى ساعدتني كثيرا سواء فى محاربتى
لكولجاك او فى الجراحة. ومن المؤسف اننى لا استطيع
ان انقل تجربتى فى هذا الحقل، واذا كنت تعرف طالبا
اعسر فارسله الى. فساجعل منه جراحا ممتازا.

وكانا يجتازان حقولا. وكانت القبرات تترنم فى
السماء الزرقاء الحارة. وقد تشبع قميص بوغوسلوفسكى
بالعرق، وكان فى الهواء رائحة عرق الحصان، وغبار
الطريق، والجلد والقار.

قال بوغوسلوفسكى:

- هنا، فى ميسورك ان ترى «طائرتنا» الآن، -

وقلص عينيه في الشمس، مشيراً بقبضة سوطه - وهي
إيماءة حوذي ابدية، - كانت المقر الريفى السابق لآل
فويتسخوفسكى. وخلال الحرب العالمية الاولى لم تخطر
على ذهن اولئك «الوطنيين الروس» فكرة احسن من بناء
مستشفى لاسرى الحرب من الضباط النمساويين في
اراضى ملكيتهم. وقد صمم مهندس معمارى نمساوى
وهو بارون، هذا البناء الاحمق لهم...

وحدد فولوديا بالوادي. لقد كانت البناية على
هيئة طائرة ذات جناحين وهيكل ومؤخرة، وكانت تبدو
خرقاء ووقحة منبطحة بين اشجار التامول الطوال
والزيزفون. وفجأة عاد الى ذهن فولوديا ذلك الحديث
الليلى لبولونين عن بوغوسلوفسكى بكل تفاصيله الحية
حتى لكانه جرى في ليلة البارحة.

وسأل بوغوسلوفسكى فجأة:

- هل تشرب؟

- ماذا تعنى؟ - قال فولوديا وقد احمر وجهه في

خجل.

- اعنى الفودكا. عندما التقينا لأول مرة كرعت

كثيرا. وتركت في نفسى انطبعا كريها.

قال فولوديا بصوت مسحوق:

- تلك هى المرة الوحيدة التى شربت فيها في

حياتى كلها. ولا بد من اننى قد بالغت في قابليتى على

الشرب، او لم اكل كثيرا...

فقاطعه بوغوسلوفسكى:

- لندع علم النفس جانبا. والافضل ان ننظر الى

استثمارتنا، ففى وسعك ان تراها منبسطة تحت. وقد
اشتغلنا بمشقة لنصلح هذه الشطحة الخيالية للبارون
الاحمق.

وشد عنان الفرس فى المنحدر المائل وقاده قيادة
ماهرة. وشرح التخطيط له مشيرا بقبضة السوط:
- هنا المستشفى، والبنائات الملحقة به،
الاستثمار، وحظيرة الالبان، وبستان الخضروات،
والبلدة...

ودخلا البلدة مارين بجمع من الاطفال يلعبون لعبة
صاخبة مرحة مع كليب، وكانت ساعة الراحة بعد الغداء.
وكان المارة قليلين. غير انهم حيوا بوغوسلوفسكى
جميعا. واقترب من بيت ابيض انيق ذى سقف من
الصفيح ووقف، وفك نسع السرج عن الحصان، وفتح
البوابة التى صرت صريرا مألوفاً، وقال لشخص يتمشى
فى نهاية الحديقة.

- ها هو ذا، يا برتا ايرنستوفنا. ارجوك ان
تحبيه: فلاديمير... واسم ابيك؟
- سمنى فولوديا فقط.

قال بوغوسلوفسكى بجهامة وحتى بغلظة:
- لا، سيدعوك كل انسان باسمك الكامل. وحتى
اذا نادتك ماريا نيقولايفنا ممرضة قاعة العمليات
العجوز «فولوديا» فقط، ينبغى عليك ان تصلح لها.
هل فهمت؟

- فهمت...

- حسنا، اذن فلاديمير؟..

— افاناسيفتش اوستيمنكو... —

— اذن فاسمك الكامل هو فلاديمير افاناسيفتش اوستيمنكو. حسنا جدا. والآن لنذهب ونر ماذا اعدوا لك.

وصحبتهم صاحبة البيت المتهيبة قليلا الى غرفة فولوديا. وكانت في الغرفة رائحة ارض منظفة حديثا، ورائحة خبز مخبوز؛ وكانت زهرات مجد الصباح الوردية في حجم غير اعتيادي تتمايل بحسن مع النسيم خارج النوافذ الواطئة المفتوحة. وسرعان ما ظهر سماور مصقول لامع، منحني القوائم يضوضيء عاليا؛ ثم جلبت صاحبة البيت صحنًا مملوءًا بكعك الكردياء، وبعض المربى في اناء زجاجي.

وسال بوغوسلوفسكى بتقطيب:

— كيف ذلك؟

فاجاب فولوديا:

— رائع!

فاستمر بوغوسلوفسكى في تقطيعه:

— ستدفع برتا ايرنستوفنا اجرة الغرفة مقدما. كما ينبغي ان تعطيها بعض الفلوس للحليب. فستشترى لك. ولا يوجد هنا بق او حشرات أخرى. انا اتعهد لك. والآن لنجلس ونستمتع بالشاي. فانا اشعر بالتعب: لقد اجريت عملية في هذا الصباح، ولم اتم في الليلة البارحة قط: فقد دعوني الى المستشفى مرتين.

وجلس ماسحا وجهه وعنقه بمنديل كبير نظيف للغاية. وصنع بيديه القويتين الشاي وصبه لفولوديا.

وكانت على وجهه الملوح البشرة مسحة تفكير، وفي تلك اللحظة بدا وجهه جميلا جدا - وجه رجل روسي بالوجنتين العاليتين، والجبين البارز، رجل ذى عافية نادرة في الجسم والعقل.

وكان فولوديا صامتا ايضا مستمتعا بالسكون والنسيم والشاي، وبصحبة بوغوسلوفسكى. وفكر دون ان يخلو من زهو: «تصور، ذلك الشخص المدهش يجلس هنا معى. وهو ليس متلهفا للخروج ايضا. أيعنى ذلك انه يجب مصاحبتى ايضا؟»

عبارات حادة

بعد ان شرب بوغوسلوفسكى القدرح الثانى من الشاي، وبعد ان مسح وجهه بمنديله قال بشيء من العبوس ودون ان ينظر الى فولوديا:

- ينبغى على ان احذرك من شيء واحد. انت فتى جميل الطلعة وشاب. ان الحب والسقوط فيه الى اقصى حد، وما الى ذلك من الامور العاطفية التى توصلك فى الوقت المناسب الى سجل عقود الزواج - كل ذلك من شؤونك... ولكن اذا قمت بذلك مع ممرضاتنا...

وهنا ارسل بوغوسلوفسكى فجأة عبارة حادة قوية وتصويرية فى نفس الوقت، ونطقها بصوت عادى وممل ايضا حتى ان فولوديا تلفت فيما حوله ليتأكد من ان صاحبة البيت العجوز بعيدة عن مدى السمع. ثم استأنف بوغوسلوفسكى بلهجته المؤدبة:

- وذلك بالتأكيد لا أطيعه. فإذا ما لاحظت شيئا من هذا القبيل، وكنت على اتم التيقن منه، سألقيك في الخارج حالا، وحتى لا اعطيك عربة توصلك الى السفينة. وبهذا المغزى بالذات أصبح مستشفانا معروفا بـ «دير بوغوسلوفسكى». هل بلغت التحذير في الوقت المناسب؟

- نعم.

- لقد حذرتك لان حادثا من هذا الشكل قد وقع لنا. والآن لننتقل الى اعمالنا.

وفي السنوات التالية كان الدكتور اوستيمنكو، وهو في سن الرشد والشخص غير الهياب، كلما يسترجع هذا الحديث الذى دام ساعتين يتصبب عرقا باردا. واذ كان بوغوسلوفسكى يشرب قدحه الخامس من الشاي نظر الى فولوديا نظرة ثاقبة ودودة مقصودة، وأمطره بوابل من الاسئلة غير المتوقعة مطلقا واحدة اثر اخرى، سابرا غور معرفته من كل زاوية، مهاجما اياه بهياج مباغت، مشككا اياه بأجوبة معيدا اسئلته بضحك قصير حتى اجتاح فولوديا طوفان من عبارته الملعونة: «والآن، افرض اننا اضفنا ذلك الى الاعراض...». وفي نهاية الساعة الثانية من هذا الحديث شحب لون فولوديا وشعر بدوار مثل دوار متسلق على هيكل حديدى لأول مرة او مثل راكب طائرة جديد.

- تعبان؟ - سأل بوغوسلوفسكى.

- أحس بنوع من الغثيان.

فلاحظ بوغوسلوفسكى:

— ذلك من كمية المربي التي التهمت بها بينما نحن نتحدث. فقد كان هناك ما لا يقل عن رطل. اشرب قليلا من الشاي. فسيغسل جوفك.

ففكر فولوديا بنفور: « اذن كان ذلك من المربي. الشيطان يتظاهر بانه لطيف! »

لقد بدا لفولوديا بالفعل ان شيئا شيطانيا في هذا الجراح الاعسر، العالي الوجنتين، برضائه عن الشاي وبالطريقة التي يعاين فيها فولوديا، من طرف عينيه كالديك. ومع ذلك فقد كسب فولوديا تلك المعركة الصغيرة، وقد فهم ذلك. ولكن هذه المعركة الاولى مع بوغوسلوفسكى ليست الا معركة شفوية، وكان العمل بانتظاره. وهز رأسه مستشعرا بالمحن التي يخبئها القدر له في شخص الرفيق بوغوسلوفسكى الجراح الاول في مستشفى جورني يار.

وخلال ذلك ذهب بوغوسلوفسكى الى النافذة وحط على طوارها ودخل في حديث عميق مع صاحبة البيت سائلا اياها ماذا ستقدم للطبيب الشاب في الغداء اليوم، ناصحا اياها باحسن طريقة لجعل الطبيب فلاديمير افاناسيفيتش، وهو طبيب حسن جدا، طبيب مقتدر، رغم حداثة سنه، يأكل اكبر كمية من الحليب ليسترجع صحته التي أضعفتها الدراسة الكثيرة.

وفكر فولوديا: « طبيب! هو يدعوني طبيا. انا لست طبيا بعد وهو يدعوني طبيا بالفعل! »
ومرة أخرى اعتراه الزهو بنفسه، ولكن ليس لمدة طويلة، بل لبرهة قصيرة جدا في الحقيقة.

- الى الغد! تعال في الساعة الثامنة، وسننظر... -
قال بوغوسلوفسكى وكان في كلماته غموض.
فماذا قصد بـ«سننظر؟».

فرد فولوديا بجفاف:

- شكرا للطفك، - ولم يكن ساذجا. وان طيرا كبيرا
لا يصطاد بقشة. «تحسبني عديم النفع. ولكننا سنرى!
علينا ان نرى ايضا» قال ذلك لنفسه وهو يتخطى
الارضية التي صرت تحت قدميه.
وكانت مشاعره خليطا عجيبا: اعجابا بالرجل
واحتداما. ولكنه اعجاب اكثر.

وتذكر فولوديا مرة اخرى وهو غاضب: «انا لم
اكل رطلا كاملا من المربى! فلم يكن في الدورق الا ملعقة
واحدة». كان جائعا، وزايله الشعور بالغثيان
والآن لا يحس الا بشيء من وخزة الخوف عند التفكير
بالغد. ولكنه كان خوفا من نوع مثير. ففكر: «لا بأس،
سنعيش وسنعلم. فانت يا رفيق بوغوسلوفسكى لم تولد
وانت جراح. فقد كنت مثلي، ايضا، ذات مرة!».

وبعد ان ازدرد حساء الحليب، وجبنة الحالوم،
واللقم مع اللبن الخاثر، وجبنة الحالوم مع العسل، ثم
مزيذا من اللبن الخاثر مع السكر خرج الطبيب اوستيمنكو
الى الحديقة. ووضع الى جانبه مجلدا لبيروغوف للمظهر،
وبعد ان اخذ يمضغ قلمه بعض الوقت اخذ يكتب رسالة
حب الى فاريا. وركض في الحديقة طفل زغبى الشعر
ينفخ في صفارته.

وهمست له صاحبة البيت بشدة ليسكت:

- شش! يا سيزار. شش! ان الطبيب يشتغل!
وكان سيزار من صغر السن بحيث كان يجري في
الحديقة دون بنطالنه. وقد القى نظرة خائفة الى فولوديا،
واندفع الى حرش نبات الثعلب وهناك كان في الامكان
سماعه يتحرك، ويرسل قباعا خافتا مدة طويلة. وكتب
فولوديا وكتب. ولم يدرك من قبل قط انه يحب فاريا
على هذا النحو، وانه احبها كل هذه المدة. وفي اطاره
الذهنى السامى الراهن ظهر كل شىء، على اية حال، اكبر
من حجمه فى الحياة، واكثر استثنائية، وأعظم ابهة مما
هو فى الواقع. الحديقة، والطاولة التى يكتب عليها،
وابنة صاحبة البيت، او حفيدتها - وهى الفتاة الطويلة
القوية عريضة الكتفين، والغسق الدافئ، وفكرة الحضور
الى المستشفى يوم غد... كل هذه الاشياء مذهشة
واستثنائية على نحو لم يعرفه من قبل.

وتتمم فولوديا بينما كان قلمه يستريح على
الورق: «نحن الفرسان الحمر ويفنون عنا...»
وكتب فولوديا وقد نسى تماما ان الفقرة السابقة
كانت كلها عن الحب: «أتعرفين يا شقراى. ربما يطردنى
بالفعل من المستشفى فى الغد. هذا الشيطان، ولكننى لن
أرحل. وعلى ان اعمل معه، وان ادرك اى مصدر تأتى
منه قوة هذا الرجل. كما اريد منك ان تعرفى ايضا
انه لو يأتى طبيب شاب للعمل معى فى المستقبل،
فسأ...»

وفكر فولوديا وتروى، وشطب على كلمتى «طبيب
شاب» وكتب فى مكانهما «طالب». «لو يأتى الى طالب

من الصف الرابع للتدريب فاستقبله الاستقبال الذى حظيت به هنا» .

وكانت مدهشة تلك السخافات التى كتبها بعد ظهر ذلك اليوم كله. وتعجب زمنا طويلا بعد ذلك كيف سيتيسر لفاريا ان تفهم كل هذا الخليط من المشاعر والافكار والتهديدات، والخيلاء، والخوف. وقبل العشاء هرع الطبيب اوستيمنكو الى يانجا وهو رافد نهر اونجا، وسبح فى ضوء القمر الوضاء. وحرك ذراعيه سابحا، وخرج من النهر، ولبس ملابسه، وطارد بعض الحيوانات الصغيرة فى العشب، ثم مشى الى بيته. وكان فراشه قد هىء بالفعل. وكان ثمة صرصار يصوصىء فى مكان ما من البيت. واراد ان يركز فكره « ليقدم لنفسه تقريرا » كما تعودت فاريا ان تقول. ولكنه نعس ونام ما ان مس رأسه الوسادة، نام كالخشبة حتى الساعة السادسة صباحا.

وأخذه بوغوسلوفسكى فى جولته، وقدمه الى المشتغلين فى المستشفى بلهجة لا تعبير فيها: « هذا فلاديمير افاناسيفتش اوستيمنكو، طالب طب، جاء للتدريب عندنا » .

وأنحنى فولوديا بطريقة خرقاء، وأحمر بصورة فظيعة، واختبأ وراء الخزانة فى الدهليز. واستغرقت الجولة ساعتين، وبعد ذلك تحدث بوغوسلوفسكى الى اطباء الآخرين. ولم يستطع فولوديا ان يفهم عن اى شىء كان الحديث، ولكنه ادرك شيئا فى الحال ادراكا تاما: هو ان بوغوسلوفسكى لم يكن رجلا يستهان به.

فلم تنفع دموع الطيبة الشابة السمراء الجميلة ولا
وعودها.

فقد قال بوغوسلوفسكى بوضوح ومهابة:
- ساطردك. وفضلا عن ذلك سأعطيك أسوأ صفة
ممكنة. وانت حرة في تقديم شكواك الى من تشائين.
الطبيب الأول لمستشفى جورني يار، الطاغى المنفلت،
ابن القس، الكولاك، او اى صفة تعودت على قراءاتها
في الوشايات، فذلك لن يخيفنى. والقضية الآن مغلقة. هل
انت هنا يا فلاديمير افاناسيفتش؟

فاجاب فولوديا بصوت مخنوق نسبيا:
- نعم، هنا.

- الى قاعة العمليات لتساعدنى!

وتوقف بوغوسلوفسكى ليتكلم مع شخص فى الممر،
وذهب فولوديا وحده. وكان يغسل يده حين لاحظ
مقعدا يشبه مقعد الدراجة الى جانب المغسل، فدفعه
نحوه بركبته، وجلس.

- حسنا، حسنا، - قال شخص من ورائه. وكانت
ممرضة قاعة العمليات ماريا نيقولايفنا، امرأة مخيفة
لها وجه شهيد.

وتجاهل فولوديا الـ «حسنا، حسنا»، اذ كان يجلس
جلسة مريحة، وصفر بنغمة، ومضى يغسل يديه حسب
قواعد العلم.

قال بوغوسلوفسكى وهو يدخل الغرفة:
- وتصفر ايضا، انت شاب يا فتى وتفتسل قاعدا.

والآن فهم فولوديا السخرية في «حسنا، حسنا»
فقفز على قدميه. ولكن بوغوسلوفسكى قال:
- انته من غسيلك كما بدأت به.

وضغط بوغوسلوفسكى على دواسة مفسل آخر
واخذ يفرك يديه الضخمتين المغطاتين بوبر احمر. وفعل
ذلك بعناية مفرط بها واختلس فولوديا نظرة اليه.
كان بوغوسلوفسكى يقطب مفكرا.

وعملا في قاعة العمليات حتى الساعة الثانية بعد
الظهر. وشعر فولوديا بضعف في ركبتيه، وكان يشعر
بصداع ممزق، وقد التصق قميصه على ظهره بلزاجة.
وكان بوغوسلوفسكى طربا منتعشا وكأنه لم يعمل اليوم
اطلاقا. واذا كان يفرك يديه كان يغنى لنفسه بخفوت:

انيرى انيرى يا نجمتى
انيرى ليلتى الحالكة
فانت نورى الهادى الوحيد.

ولم يعلق بشيء على عمل فولوديا. فلعل هذا
الجراح الذى يبدو مثل عفريت من خشب نسي ان
فولوديا هنا؟

وعلق بوغوسلوفسكى الفوطة بعناية واتقان،
والتفت الى فولوديا فجأة:

- هل تعرف لمن اجرينا العملية اليوم؟
- تعنى العملية على جهاز الهضم؟
- لا، التقطيع. انه سيديليف، المحاسب فى

مستشفانا سابقا. انه سيديليف، كما تعرف، الذى
ساعد سوتوغين ليكتب الوشايات ضدى. فقد ارسلنا
اربع عشرة وشاية بالمجموع لمختلف الاماكن. و آخرى
نقل العجوز الى زارجيه، غير ان القدر جاء به الى هنا.
وقد ايقنت زوجته تماما اننى ساقته عامدا على طاولة
العمليات. وقد صرحت بذلك علانية لكل شخص فى هذا
الصباح. وبصراحة، لقد شعرت بقلق ما ان أعطوه
المخدر. وكان العجوز ينظر الى، وقد رأيت من سحنه
انه قد شعر عن صدق بان ساعة انتقامى الدامى قد
قربت. يا لله! أليس هذا منفرا!
وارتعش بوغوسلوفسكى، ولاحت على محياه نظرة
مريرة.

فسأل فولوديا بهدوء:

— ولكن، لماذا كتب كل هذه الاشياء!
— وهل كان الوحيد؟ لقد كان طفلا بالمقارنة الى
الآخرين. لقد كان حينئذ زمنا مليئا بالاحداث.
ومشيا خلال غرفة الانتظار، ثم فى ممر معكوف،
وجاء الى ما ظنه فولوديا ذيل شطحة الخيال للمعمارى
شتاوبه. وكانت اشجار التامول ترسل حفيفا رقيقا
خارج النوافذ العريضة المفتوحة. ونهضت ممرضة لدى
اقتراب بوغوسلوفسكى، فرحب بها بهزة من رأسه. وهز
فولوديا رأسه ايضا باحتشام دون ان يعرف ان الفضيحة
ستصم آذانه عن قريب.

وجلس بوغوسلوفسكى على مقعد ابيض الى جانب
المريض، وتناول يد الرجل المعروقة والثقيلة الصفراء

الخالية من الحياة، وانصت لنبضه. وكان تاريخ المرض مسجلا على لوحة الى جانب السرير. فلو ان فولوديا نظر اليها ولو بنصف عين لكان كل شيء مختلفا، غير ان حشمته الطبيعية حرمت عليه ان يفعل ذلك.

— يغوروف،— قال بوغوسلوفسكى للمريض.

قالت الممرضة:

— لا فائدة. لقد جىء به هكذا فى حالة سيئة

للفاية.

فأوعز بوغوسلوفسكى لفولوديا:

— انظر فيه. اجر الفحص واستخلص النتائج.

وساعدت الممرضة فولوديا على ان يرى الشيء الذى ظنه خراجا. كان كل شيء واضحا. وهل تستحق هذه الحالة البدائية البسيطة الوقت الذى صرفه بوغوسلوفسكى ليرىها له؟

وسأل بوغوسلوفسكى بعد برهة:

— رأيك؟

فاجاب فولوديا:

— يجب اجراء العملية.

— هل انت متأكد؟ خذ بعين الاعتبار ان يغوروف

يعمل فى مؤسسة لصنع الاحذية اللبادية.

آوه، لماذا اعار اذنا صماء لتلك الملاحظة عن

الاحذية اللبادية! غير ان الشبان متسرعون، وحادو

المزاج. «ما علاقة الاحذية اللبادية بذلك؟» — مرت فى

ذهن فولوديا فكرة خاطفة. — «لا تخدعنى، ايها الدكتور

بوغوسلوفسكى، آوه، كلا».

واعلن فولوديا بصرامة:

- العملية لازمة. الق نظرة بنفسك على هذه الورمة.
ثم ان الظواهر العامة خطيرة ايضا. وهناك تجمع في
العنق: ان جمرة مثل هذه قد تؤدي الى الالتهاب
السحائي.

وحدقت عينا بوغوسلوفسكى المغمضتان قليلا
بكرهية متزايدة.

وسال:

- نعم؟ وكيف ستجرى العملية؟

- ساحز حزا على شكل صليب شارحا حتى
الانسجة السليمة، ثم افصل اطراف شرائح الجلد، وازيل
الانسجة البالية، بالطبع، وافتح القيح، واطهر التجويف...
وفجأة زفرت الممرضة زفرة حزينة.

وسال بوغوسلوفسكى بصوت هادى وفي نشوز:
- ولا تعتبر من الضرورة اجراء تحليل
بكتريولوجى للقيح؟ ايه؟ ربما يحصل خطأ صغير
مهلك.

وان المريض بضعف، وبدأ يتقلب.

- خذ تاريخ المرض، ايها الطبيب اوستيمنكو، -
قال بوغوسلوفسكى دون اى اثر للسخرية، بل بالتشديد
على لفظ «طبيب» لا غير.

وارسل الممرضة لحاجة. وسمع صوته وكأنه خلال
ضباب كثيف، ولكنه ادرك ان بوغوسلوفسكى يشفق
عليه.

القرحة السيبيرية

«القرحة السيبيرية» - هذا ما قرأه فولوديا في الورقة، وظهرت قطرات العرق الدقيقة على جبينه. ولاحظ ان كلمات «معمل الاحذية اللبادية في قرية رازغونيه» قد خط تحتها خط احمر.

وسال بوغوسلوفسكى:

- وماذا؟

ولم يستطع فولوديا ان يحمل نفسه على النظر الى بوغوسلوفسكى. ولكنه حين افلح في ذلك في آخر الامر، لم يلاحظ على وجه هذا الرجل علائم الانتصار، بل الحزن والكآبة بالاحرى.

وسمع فولوديا وكان الصوت صادر من مكان بعيد: - يجب ان تكون اكثر امعانا، يا صاحبي. والامعان يتطلب ايضا جهودا كبيرة كما تعلم. ولقد جئنا خلال غرفة الانتظار التى علق على بابها رقعة: «قسم العزل». ومررنا بدهليزين، ومرة اخرى جئنا الى باب عليها ورقة «المدخل الى ردهات العزل». وفضلا عن ذلك، لفت نظرك الى حقيقة ان يغوروف يعمل في معمل الاحذية اللبادية، او بعبارة اخرى، يعمل في ظروف تماس مباشر بصوف قد يحمل عدوى مرض... وما زالت تقول: عملية. الست مستعجلا في استعمال السكين! ان اى شق ممنوع بصورة قطعية في هذه الحالة... فتمتم فولوديا قائلا: - ارى الآن...

واعاد بوغوسلوفسكى بصوت حديدى رن بشقة
لا شك فيها:

- ممنوع قطعيا! ان الشق، والسبر والسد، وكل
ما اليه ممنوع قطعيا وبتاتا، - كرر للمرة الثالثة هازا
اصبعه لفولوديا، - لأن الاضرار بالبؤرة الاولى يؤدى
الى امتصاص... اى شىء؟

فاجاب فولوديا وتنفس الصعداء:

- امتصاص الجراثيم بالطبع يؤدى الى تغلغل
الجراثيم فى الدم فتتطور الحال الى حالة تعفن خطير.
وابتسم بوغوسلوفسكى:

- احسنت. واى علاج يوصف؟

وذكر فولوديا الحقن بمصل الدم، وحقن
السفرسان داخل الوريد. ووقف بوغوسلوفسكى مفكرا
بشىء، باستغراق وتجهم.

وعادت الممرضة. وهنا فقط لاحظ فولوديا انها
جاءت من باب، وغادرت الغرفة من باب آخر، وهذا
يعنى ان فى الغرفة مدخلين. وغسل هو وبوغوسلوفسكى
ايديهما بعناية، وخلعا مريوليهما فى غرفة الانتظار،
وخرجا الى الحديقة.

وقال بوغوسلوفسكى وهو يجلس زافرازفرة تعب:
- سارسلك فى مهمة ليست مسرة جدا. اليوم
سبت. وغدا ستكون هناك سوق فى رازغونيه. ويجب ان
تعلن المنطقة غير مأمونة، ويجب ان تؤخذ جميع التدابير
الضرورية، وبمساعدة المفتشين البيطريين يجب ان
تجرى التعقيم فى تلك المؤسسة الملعونة، مؤسسة

الاحدية اللبادية، ويجب ان نقضى على مصدر العدوى،
يا فلاديمير افاناسيفتش. والقضية هي ان يفوروف هو
الاصابة الثالثة بالقرحة السيبيرية هناك. وكانت عندنا
اصابتان مميتتان احدهما كانت معوية والاخرى رئوية.
وقد اضطرت الى طرد اخصائيتنا بالامراض الوبائية
(واعاد فولوديا في ذهنه الحادث هذا الصباح)، وهى
مخلوقة لا فائدة منها، ضعيفة وجبانة وتحب العراك.
وليس فى امكانى ان اخرج بنفسى. فهناك عدة عمليات
تقرر ان اجريها غدا. وعلى اية حال ليس فى وسعى ان
اترك المستشفى الآن. ومهمتك ان تفرض حجزا صحيا
على المكان، وضع «فيتو» على السوق. وان تقوم
بتحقيق مفصل فى المكان، وان تخلص الناس من هذا
المرض. تعال ساكتب لك الوثائق، ومذكرة وقائمة
باسماء الذين قد تحتاج اليهم وما الى ذلك.

وبينما كان بوغوسلوفسكى منهمكا فى الكتابة فتش
فولوديا بشئ من الهياج الكتب الموجودة فى المكتبة فى
الغرفة المجاورة. وبصورة اجمالية عرف كل شئ
بخصوص الاجراءات الوقائية. وراجع طريقة الفحص
بحسب اسكولى مرة اخرى، والآن شعر بانه قد استعد
تماما.

وفى الباحة فى الخارج رأى ملازما طبيا ذا شارب
يضع فى عربة صغيرة صهاريج وخراطيم، وبعض
الزجاجات الكبيرة المغطاة بالقش، وفاسين وخطافا ايضا
يا للغرابة.

وقال بوغوسلوفسكى وهو يطل من النافذة:

- يمكنك ان تعتمد على هذا الرجل تماما. فقد عملت معه سنين عديدة، وانا اعرفه واثق به. فاصغ الى نصائحه. وعلى ان احذرك ايضا من ان هناك موظفا يدعى غورشكوف شخصية قذرة، حقود ومؤذ ولص. وانا لا افهم بعض الاشياء، ولكن وراء تصرفاته سرا. وبعد ساعة صعد فولوديا العربة وهو جائع وتعب وعبوس وفخور. وكان العربة يجرها نفس الحصان الرمادى المرقط الذى جاء به الى جورنى يار. وكان النهار خانقا وساكن الهواء وكأنه قد توتر ليلا فى عاصفة تتجمع. والعم بتيا الملازم الطبى الذى يزين وجهه العجوز الشبيه بوجه جندى، شارب حنطى اللون ضم العنان بيديه غير متعجب، وصاح للبواب:

- هاى، فوموجكين، افتح الباب!

وتحرك الحصان يخب خبها هادئا. وفتح فولوديا صحيفته. ان المتمردين يتقدمون فى بلباو مرة أخرى. وقرأ: «قوات الفاشيين الجوية ترتكب الفظائع طليقة العنان... الابدانة الاجماعية للمسالمين من السكان». «طائرات «يونكرس» دمرت غيرنيكا المدينة المقدسة عند الباسكيين، والآن تحاول ان تجعل من بلباو غيرنيكا أخرى أكبر».

وصك فولوديا على اسنانه.

«اين انت يا ابي؟ هل انت حى؟ لا بد من انك فى وقت عصيب جدا. تخرج من معركة وتدخل أخرى، تعود من غارة، وتنطلق الى غارة؟ فلست انت من ذلك النوع

الذى يزجى وقته فى مقهى والعالم تجرى فيه هذه الاحداث» .

وكان العم بتيا كثير الكلام. فقد طفق يتحدث منذ اللحظة التى خرجوا فيها من القرية، لا يتوقف الا حين يلف ويشعل بين آونة وأخرى سيكارة من سكاثره ذات الشذى المطعمة بالبرسيم.

- ان جراحنا ليس جراحا اعتياديا، - وكانت لهجة العم بتيا تتحدى اى اعتراض قد يصدر من فولوديا، - فنحن، الشغيلة المساعدين الذين اشتغلوا معه بعض الوقت نحترمه اكثر من الجميع، ونقف الى جانبه، ولا نسمح لاحد بان يلحق به ضررا. انت طبيب شاب، اليوم هنا، وغدا ترحل. وقد رأينا الكثيرين من صنفك. وفى وسعنا ان نعبر عما فى ذهننا اذا اقتضت الضرورة. ولكنه الآن يعود لنا. ان الطب لا يستطيع ان يفعل كل شىء بسهولة. ولكن كل ما يستطيعه يفعله بوغوسلوفسكى بمهارة. وانت طبيب شاب وغالبا ما اعود بامثالك الى المركب..

فقاطعه فولوديا قائلا:

- وما علاقة شبابى بذلك؟ اما عن العودة الى المركب، فقبل كل شىء انا لست طبيبا، فما انا الا طالب. وعلى ان افرغ من الدراسة فى المعهد اولا. واستمر العم بتيا بنفس اللهجة:

- حسب ما تريد، وليس لنا ان نتدخل. ولكننا نرى شبانا يأتون الى هذا المكان ويبقون فيه زمنا متعلمين من جراحنا شيئا، ثم يذهبون دون كلمة شكر.

ونحن الشغيلة المساعدين نرى كل شيء. ولا نقول شيئا،
ولا يسألوننا بالطبع، ولكننا لا نستطيع ان نصرف
عيوننا عن رؤية الاشياء. ونحن نقول كلمتنا عندما
يكون هناك اجتماع حزبي. هل انت عضو حزبي؟
- لا، ما ازال في الكومسومول.

- يعنى، لا حزبي. اذن لن نخوض بامور حزبية.
ولكننا نقول ما نقوله في اجتماعات الاعضاء الحزبيين
المقفلة. وذلك لا شأن لاحد به.

وزفر فولوديا زفرة حنق. وكانت الرحلة طويلة
والعم بتيا يتحدث دون ان يتوقف ليتنفس. وكان الجو
جارا بشكل لا يطاق، وخنقا. واشكال البيوت غير
الواضحة تلوح في الاغبرار المتألل خلف الوهاد الارضية،
وكانت تصدر من الغرب دمدمة خفيفة، وفي السماء
سحابة رعديّة تزحف.

- هل تلك رازغونيه؟

فاجاب العم بتيا وهو يمد شاربه الحنطى:

- نعم. وسنلقى عناء من ذلك ماتفى!

- من هو؟

- آوة، غورشكوف الرئيس. وبمناسبة السوق،

انا اراهن انه سكران منذ الفجر.

بالتاكيد كان غورشكوف سكران. فقد راياه جالسا

خارج بيته يعلم كلبا هجينا نحىلا متدلى الاذنين:

- الى هنا، يا توبيك، اجلس هنا!

وكانت نظرتة ثقيلة كامدة. وكانت المطارق تطرق

عن كشب عند الزاوية حيث كان يجرى نصب ارجوحة في

الساحة. وكان ثمة رجل اشعث الشعر غليظ الرقبة يصدر الاوامر امام دكان كانوا يسمرون على واجهته لوحة كتب عليها «اطايب، نبيل وحاجيات أخرى». وكان هناك رجل من رجال الميليشيا يحاضر امرأة عجوزا تباع بذور عباد الشمس وضعتها في سلة. وكانت ممثلة عن قطاع «المشاريع الخاصة» في السوق.

وخرجت من البيت شابة حبل بشكل ظاهر وناولت غورشكوف قدحا من الحليب المقشد اخرج منه باصبع طويل ذبابة، ونفخ فيه، ورشف رشفة، وحول نظره الى فولوديا.

— هل تريد ان تراني؟

اجاب فولوديا بالاشمئزاز الذي يحسه دائما نحو

السكرى:

— نعم اذا كنت غورشكوف.

— هل انت من المعمل؟

— لا. هناك ثلاث اصابات بالقرحة السيبرية بين

اعضاء مؤسستك. وهذا هو السبب في وجودى هنا.

فقال غورشكوف بزفرة:

— اذن فنحن نعود من حيث ابتدأنا. لقد طردت

ملعونة مضايقة، والآن يأتى آخر! يا توبيك اعضضه!

ونخر الكلب وشم حذاء فولوديا وانبسط على الارض.

واعلن فولوديا فى حزم ووضوح:

— لن تكون هنا سوق غدا. ويجب وضع الحراس

حول القرية. وسنبدا بتعقيم المعمل فى الحال. وقبل كل

شئ موادك الخام. فضلا عن ذلك...

وقال غورشكوف:

— لا يمكن ذلك.

— ماذا تعنى؟

— ببساطة تامة. لا يمكن ذلك. هذا فصل الخطاب.
وبالفعل اتخذنا قرارا لحرق جميع الورش باعتبارها
مصدرا للعدوى. وقد نقلنا الكاز ونجارة الخشب،
وبراميل الماء الى المكان بالفعل. هاى! بابيجيف! —
صاح فجأة برجل من رجال الميليشيا مهيب.
وجاء بابيجيف يمشى بخفة فى حذائه من جلد
الجدى.

— هل سنحرق الورش؟

— نعم، — اجاب بابيجيف ونظر الى فولوديا بعينه
الكبيرتين النديتين.

— وهم يمنعوننا من القيام بالسوق.

وضحك رجل الميليشيا مبديا اسنانه البيضاء
الجميلة، وقال:

— ان مصدر العدوى يجب ان يقضى عليه من
جذره. فاذا ما احترقت جثث الحيوانات المصابة فكيف
لا يحرق الصوف والمنتجات الجاهزة الحاوية على
البكتريا؟ ولسنا نحن هنا جهلاء تماما، انت تعرف، نحن
عارفون جيدا — وغمز لفولوديا غمزة مقصودة. واضاف
وهو يضغط على المقاطع:

— لقد استشرنا...

— من؟

— نحن نعرف من نستشير.

فقال العم بتيا بحدة وتقدم الى الامام:
- انظر يا بابيجيف، لا تحاول ان تراوغ عنا.
انا اعرفك وانت تعرفنى.
وتبادلا النظرات ولاح بابيجيف مسترخيا.
- من استشرتم؟
واجاب بابيجيف وهو يشير براسه الى
غورشكوف:

- الرئيس تحدث ليس انا.
وتراجع خطوة او خطوتين.
وقال العم بتيا:
- انتظر لحظة. هل جردتم الموجودات في
مستودعاتكم؟ اين بيان المحقق؟
وكان فولوديا ينظر الى غورشكوف فاتحا فمه
كالطفل. واخذت الحقيقة تظهر له من توها. ومرر
غورشكوف لسانه فوق شفتيه، ونهض، ثم جلس ثانية،
وصاح. على العم بتيا:

- هل انت فى كامل عقلك، ايها الشيطان ذو
الشاربين؟ كيف ادع الناس يدخلون المستودع ويطوفون
به فى حين تنتشر بكترياك الملعونة فيه؟ افرض ان
المحقق اصيب بالمرض فمن الملووم؟ غورشكوف ايضا
على ما اظن؟ افرض انك دخلت واصبت بالمرض فمن
المسؤول؟ انا؟ اوه، لا! لن ادع احدا يدخل. لقد ختم
على المكان بالشمع بحضور الرفيق بابيجيف، وعليه ختم
الادارة. ولن تستطيع الدخول ذبابة واحدة.
وخطا بابيجيف عدة خطوات اخرى الى الورااء

متراجعا نحو الساحة. وراقب العم بتيا تراجعاه بهدوء،
وبنظرة تكاد تكون خارقة.

ثم قال لفولوديا بلهجة راجحة وهو يغمز له:
- حسنا. حسنا، نحن اناس صفار لا يحق لنا ان
نقرر. ساجلس معك في الظل واستريح، وسيذهب
فلاديمير افاناسيفيتش ويأخذ التعليمات عن كيفية
الشروع في الحرق. فلا يمكن اجراءه بالطريقة الاعتيادية
بل يجب ان يجرى بصورة علمية، لا مجرد حرق، بل
تعقيم تام «نورماليس».

وغلبت لغة العم بتيا العلمية غورشكوف السكر
تماما. ففغر فاه الحائل اللون وترنم نغما بصوت اجش.
وهمس العم بتيا لفولوديا:

- هذا العمل فيه رائحة قانون العقوبات
والمحاكمة. وذلك ما تصادفه حين تمتهن الطب. وانا
رجل محنك وقد فهمت ماذا في ذهنه. فضعضعت ابن
الزنى بتلك «النورماليس».

وهدر الرعد في السماء فوق الاشجار، خلف بيت
الرئيس الجديد الحسن البنيان، واقترب صوته على نحو
لا يحتمل؛ ان عاصفة هوجاء غبراء لا مطر فيها موشكة
على الهبوب.

وهمس العم بتيا:

- خذ العربة وسقها بكل ما تستطيع من قوة فوق
الطريق القديمة، وعبر الجسر، الى المعسكر الحربى.
وعندما ترى الخيام على يمينك، وصفوف الخيول، قف،
واسال عن الطبيب العسكري الرفيق كوديموف. واجلب

معك بعض الفرسان. والا فسيحرقون المستودعات فارغة، واذ ذاك حاول ان تفتش المكان الذى اختبات فيه القرحة السيبرية. وستكون المنتجات الجاهزة التى تساوى آلاف الروبلات ضائعة ايضا. قل لهم ان يرسلوا احدا للمدعى العام او قاضى التحقيق، والى الميليشيا ايضا. فعندنا بعض الميليشيا الفرسان فى جورنى يار لزلزلة العدو!

فهمس فولوديا:

— احذر من ان يحدث شئ معك هنا!
وفى الساحة اخذوا يجربون الارجوحة، وجلس غورشكوف رافعا عقيرته بالغناء.
وظهرت امرأة شابة فى مدخل مرة اخرى، وقد جلبت معها هذه المرة زجاجة فودكا، وبعض الفجل، والرنجة المملحة فى صحن.

ونادى غورشكوف العم بتيا:

— هاى يا طب، تقدم الى هنا، ولنقم بتعقيم «نورماليس». لنشرب حين يبرق البرق ونضمر امنية.
وجلس العم بتيا يمد شاربه البديع، وتناول قدحا من الفودكا. ونظر فولوديا اليه نظرة اخرى وجمع فى يديه العنان على نحو غير متقن، وقال للحصان بخفوت:

— هيا، يا من لا اعرف اسمه، لنذهب!

وطقطقت العربية ماضية عبر الساحة.

وسأل العم بتيا غورشكوف:

— اسمع يا ماتفى! اين بابيجيف؟

— يقوم بواجبه.

فقرع العم بتيا الكاس مع كاس غورشكوف قائلا:

— يا له من واجب! انه مشجع!

— ماذا تريد ان تقول؟

والعم بتيا يحب الاحاديث الحادة، والاضاع
الخطرة والآن تملكه شعور بالخفة وكأنما طائر في
ارجوحة.

— حقا كيف؟ هكذا ايها المواطن غورشكوف. كل
انسان يعرف ان اللص ليس هو الشخص الذى يقوم
بالسرقة، بل هو الشخص الذى يحرض على السرقة!
ومرة اخرى برق قوس اصفر تحت السماء
بالقرب من الجسر، وانحنى غورشكوف وارق شيئا من
الفودكا. اما الحصان الرمادى المرقط الذى يقوده فولوديا
بغير مهارة، فقد قرفص لحظة، ثم انطلق يعدو فجأة
واذناه تختلجان. وكاد فولوديا يسقط، فطوى العنان
على يديه، وصاح محاولا ان يكون صوته اعلى من
الرعد:

— على مهلك، يا حصان! على مهلك يا احمق!

وود لو انه يعرف اسم الحصان. وبماذا تسمى
الخيول على العموم؟

وبعد ذلك اصبح كل شىء خليطا من الانطباعات:
العشور على كوديموف الذى كان اثر نوم القيلولة ما
يزال عالقا في اهدابه، والبرق يهدر مثل طلقات النيران.
والهتاف: «اركبوا الخيول»، والغبار الاصفر الكثيف على
الطريق، والفرسان يرقلون مسرعين، والعربة الصحية،

وكوديموف راكب الجواد، وأمر الفصيلة المعكوف
الانف الحسن الحلاقة، ثم العم بتيا ثانية سكران، ولكنه
سالم معافى، ثم البرق مرة أخرى دون مطر، ودون قرقة.
رجال الميليشيا الفرسان، وصهاريج القاز بجانب الورش
المختومة بالشمع، ورش معمل الاحذية اللبادية، وصياح
غاضب ارسلته جمهرة من اللبادين والعمال الآخرين
والعتلة التي كان رجل الميليشيا يكسر فيها القفل،
وتهديدات غورشكوف: «ستحملون المسؤولية عن
ذلك، ستحملون المسؤولية! يجب التعقيم!». ثم
كوديموف مرة أخرى يقول وعيناه متقلصتان في وجهه
الضاحك:

— اوستيمنكو، الق نظرة، ان المستودع خال
لقد سرقوا كل شيء، اولئك الاوغاد، لقد اخذوا كل
شيء! اوه، هنا بعض الاشياء، ولكنها لا اكثر من عشرة
كيلوغرامات من الصوف والاحذية! اين الاحذية؟ تقول
الوثائق ان هناك اكثر من اربعة آلاف زوج من الاحذية
المخزونة في المستودع حقا ايها المدعى؟
ولم يكن هناك اى زوج من الاحذية الجاهزة واعتقل
غورشكوف وبابيجيف، وقد جاء المدعى العام بمحقق،
رجل غامض يحمل الى جنبه مسدسا كبيرا. وله انف
مثل منقار البط، وعيناه تنفذان فيك تماما. فذكر ذلك
كله فولوديا ايام حداثته حين كان يطالع روايات
كونان دويل.

— ارجوكم لا تدعوهم يفسدون اثار اقدام
المجرمين، — ردد المحقق...

وكان الظلام قد ساد، والجميع يحملون الفوانيس، وكل شيء غامضاً ومخيفاً كما هو في الطفولة.
والتفت فولوديا الى المدعى العام الذى كان شاباً ايضاً يرتدى معطفاً رمادياً قصيراً، وقبعة جلدية. وقال:
- يجب ان نعرف فى الحال اين ذهب الصوف والاحذية. ان جرائيم القرحة السيبيرية قابلة لان تعيش على نحو استثنائى. ولا تقتل الا بعد غليانها عشر دقائق. والحرارة الجافة لا تقتلها الا بعد ساعة او ساعتين.
فرد المدعى العام:

- ولكن هذا الملعون سكران! فلن نستطيع ان نفتح فمه الآن. فهو سكران ميت. وفي وسعك ان ترى ذلك بنفسك.

وصاح العمال يطالبون بمحاكمة علنية لرئيسهم. وكان بابيجيف ذو عيني الثور يبكى مثل امرأة، ويضع على عينيه منديلاً ابيضاً. وكان العم بتيا يتحدث الى فرسان شارحاً لهم ان القرحة السيبيرية خطيرة على الانسان خطرهما على الحيوان.

وفي منتصف الليلة، صحا غورشكوف من سبات السكر، وادرك انه معتقل. واعترف بكل شيء، متعثراً بالكلمات من عجلته. لقد اخذ الاحذية تاجران عجوزان من زاريجينسك وحملها بلوريين ليلة امس الاول. وكانت النقود كاملة استطاع الرفيق المدعى العام ان يحملها الى خزانة السوفييت، وكانت مخبأة فى دلو قديم للحليب حيث تحفظ المسامير. وجلس المدعى العام على طاولة ماسحاً العرق المتصبب من وجهه، وبدأ يعد الفلوس

التي كانت خارجة من البنك مباشرة، وما زالت مغلقة بورق التغليف غير الممزق. ووضع الفلوس المحسوبة في طاقيته، ثم اختلط عليه الحساب فبدأ يعد من جديد. وصاح عليه بابيجيف من الغرفة المجاورة: - عندي ٢٢٠٠ روبل آخر في البيت. وقد اخذتها، ولكني ارجو ان تلاحظ ايها الرفيق المدعى العام، انا اعترف اعترافاً اختيارياً!

وكان كل شيء طريفا للغاية. ولما ذهب كوديموف ليختلس ساعات قليلة من النوم، ناب فولوديا عنه في تنظيم مواقع حرس الحجز الصحي. وشرح بأدب لكل جندي مهمته اذ لا يجوز دخول فلاحين في السوق مهما تكن الظروف، وان المكان تحت الحجز الصحي، وليس في الامر مزاح. ونعس الجنود وهم على صهوات خيولهم. فقد كان حديث فولوديا مفصلاً بعض الشيء ومسهباً. ولكنه لم يلاحظ ذلك. ولم يعد يتذكر الكلمات التي قراها منذ وقت قريب في كراس عن القرحة السيبيرية «لا تبالغ في تقدير المرض». فخیل له انه يكافح الوباء على الاقل.

وعند الفجر اخذ رجلان من رجال الميليشيا، المجرمين الى جورني يار، وصعد المدعى العام والمحقق الى عربة العم بتياء، وكان يحرسهم ستة من الفرسان. ورأى المحقق في فولوديا مستمعا جيداً فقص عليه عديداً من القصص الطويلة عن الجرائم الفظيعة التي زعم انه اكتشفها. وكان فتى لبقاً يحب النكتة، ويمزح اينما يستطيع. وتالقت عينا فولوديا المحاطتان برموش

كثيفة بنور الشوق، فقد كان يجيد رواية القصص على
الاخص حين تحس بالنعاس. وكان المدعى العام يشخر
وكان العم بتيا يدخن ويتنهد. ولا بد من ان مزيدا من
رجال الميليشيا قد وصلوا الى زاريجينسك.
وقال المحقق:

- انا اخشى من ان يحصل تشويش.

فسال فولوديا بحذر:

- تقصد اطلاق رصاص؟

ولم يعثروا على الصوف والاحذية اللبادية الا في
اليوم التالى لا في زاريجينسك بل في مزرعة في غلينشى.
وظل فولوديا والعم بتيا دون نوم ٤٨ ساعة اخرى.
وفاحت منهما رائحة الكلور وتعاركا مع بيطار
زاريجينسك، وفقدوا خرطوم الماء، ولم يستطيعا العودة
الى جورنى يار الا مساء الثلاثاء. واستحم فولوديا
فى النهر، وارتدى ملابس نظيفة، ومشط شعره الكابى،
وذهب الى بوغوسلوفسكى بهيئة المنتصر يخبره بالامر.
- اخبرنى، - قال بوغوسلوفسكى بعد ان استمع
اليه بانتباه، - ماذا فعلتم بشأن المستودعات والورش
فى رازغونيه. مجرد هجرها؟ دون تعقيم او اى شىء؟
ولم يكن عند فولوديا ما يقوله: فقد نسى تلك
المستودعات الفارغة نسيانا تاما. فقد كانت المطاردة
مثيرة جدا، وكان البرق يبرق، وكانت خيول الحرس
تنخر فى الليل على نحو مفرع، وتجارب المحقق قد
حكيت بشكل مثير. وكان العثور على الاحذية والصوف
المسروقة مهما جدا...

- انت فتى على كل حال، وانا لست مندهشا من نسيانك ذلك. فانا لم اعتمد عليك على وجه الخصوص. ولكن كيف تصرف سيوموجكين، ملازمنا الاكثر خبرة، كاحمق لا يحسن اتقان العمل! - قال بوغوسلوفسكى ذلك بخشونة، وأمر بايقاظ العم بتيا فى الحال.
قال فولوديا:

- كل ذلك خطأ منى، - غير ان بوغوسلوفسكى قاطعه بخشونة:
- اسكت.

وبعد زهاء اربعين دقيقة انطلقا عائدين الى رازغونيه. وكانت الليلة ذات نجوم، وحارة، وساكنة. وظل العم بتيا يتشاءب تشاؤبا طليقا طويلا عاويا. وعدا الفرس الداكن بخطى قوية، واهتزت اللوالب مرسله صوتا ناعسا. والتزم فولوديا الصمت مخافية ان يتكلم فيعطيه العم بتيا ما يستحق. ومع ذلك فقد بدا العم بتيا اكثر ما يكون نزوعا الى السكينة.

- لقد قلت لك يا فلاديمير افاناسيفتش ان جراحنا ظاهرة من الظواهر. انه ينفذ ببصره الى ثلاثة امتار تحت الارض. رجل مخيف. ولكن اياك ان تفرط فى الاشياء مرة اخرى. وكانت غلطتى ايضا، بالطبع، فقد تماديت مع ذلك اللص القذر، ونسيت مهمتى الخاصة. وتشاءب مرة اخرى، وقال بتفكير:

- وبهذه الطريقة تكافح الخدمة الصحية السوفيتية بقايا القيصرية الملعونة. ان بوغوسلوفسكى يفسر ذلك تفسيراً صحيحاً!



الفصل التاسع

« زميلي »

ومرة اخرى لم يكن هناك اطراء. ولم يذكر احد فولوديا. وها قد جلس في مكانه المألوف خلف الخزنة الصفراء اللامعة، واشعة الشمس تسقط على وجهه. والآن تبين ان كل حوادث تلك الايام الثلاثة - المطاردة، والبحث، والفرسان، المفتش البطل والسكير غورشكوف، وايماض البرق ليست الا توافه لا تستحق الملاحظة. وطبيعى جدا، ان فولوديا قد زعل، ولكن ماذا في وسعه ان يفعل؟ ان ينتصب واقفا ويخبرهم كيف كان الامر

صعبا، وحتى مخيفا؟ وانه والعم بتيا كانا رائعين؟ لا، لا يستطيع ان يفعل ذلك. وبعد زمن قصير غرق في عالم المستشفى، في جدية واتزان، ونسى كل ما حدث في رازغونيه.

وفي ذلك الصباح قال له بوغوسلوفسكى بان يهين المزعوم رومان تشوخنين، المريض الجسم في الردهة رقم ٥، للعملية وكان ذلك الفتى القوى الذى يسميه المرضى «رومكا»، خائفا. ولفيضه من جبنه الذى يخفيه عن نفسه وعن رجال المستشفى، جعل حياة الملازمين الطبيين والمرضة وزملائه المرضى، والطبيبة نينا سيرغييفنا اللطيفة، حياة تعسة. واكثر ما ينفر من ذلك هو ان «رومكا» الذى قرأ بعض الكرسات الشعبية عن الطب يزعم بوقاحة ان جميع اطباء جورنى يار جهلاء، ومخرفو طب اميون، متخلفون سنين عما سماه «منجزات العلم الطبى الحديث». وكان يطوف في الممرات عرقا، ممتلى الوجه، يتشمم كل شىء، ويتفرج على كل شىء، ثم يشوه الحقائق، ويقصها على المرضى بتلذذ.

— فى الليلة الماضية انتزعوا عجوزا من هنا واخذوه الى ثلاثة الموتى. كانوا مخطئين فى تشخيص المرضى! وهم جميعا جديرون بان يقاضوا ويحاكموا دون رافة. فهم ليسوا اطباء. بل جماعة من المحتالين. وقد قضوا على حياة فتاة ايضا: فقد تسرب الى قلبها قليل من الهواء نتيجة غلطهم. لقد رايت انبوب اكسيجين يؤخذ الى الردهة رقم ٣ — لماذا؟ وهناك ايضا رجل يوشك ان يقضى نحبه...

وكان يقول ان الطعام ردىء، ويحكى اقذر القصص
عن سونيا، الممرضة الشابة، ويؤكد لزملائه المرضى،
انهم لن يخرجوا من هنا الا وارجلهم فى المقدمة.

- ليس عندكم علاج اللىسيت مطلقا، ذلك حين
يستخدم البول، وارجو المعذرة، فى العلاج، - قال ذلك
لفولوديا ذات مرة فاندesh فولوديا، - وعلى اية حال،
ايها الرفيق الممرض، او الملازم، او ايا كنت، ان
الهيموغلوبين فى دمي والخلايا الحمراء اقل من الحد
الطبيعى. فينبغى القيام بشيء فى الحال بخصوص ذلك.
وبدلا من ذلك تريدون ان تجروا عملية.
وسال فولوديا:

- هل انت رجل طب؟

فقال رومكا وهو يضحك ضحكة خافتة معاضدة:
- انا مثقف سوفييتى اعتيادى. ونحن نعرف قليلا
عن التشخيص وعن اشياء اخرى...

ونظر الى فولوديا بوقاحة وازدراء. وضحك المرضى
الآخرون فى اسرتهم، وقدم رجل طاعن فى السن مصاب
بكسر مضاعف فى عظم الفخذ اقتراحا:

- لماذا لا تطردونه من هنا؟ لقد اضجرنا كثيرا.
وقد عيل. صبرنا ايضا، واذا أخذنا القانون بايدينا
مثلا يفعلون مع لصوص الخيل، فسيحدث شيء غير
جميل.

قال رومكا متأوها:

- هذه هى الحال. وارجو ان يأتى الى هنا مفوض
الشعب الصحى وان يرى ذلك. ثم همس:

— ٢٥ — بالمائة من المرضى على الأقل ممتارضون.
لاحظ ذلك. والآن جهازى الهضمى ليس بحالة جيدة.
ولا استطيع ان اوافق على العملية.

وارسل فولوديا ممرضة لتحضر بوغوسلوفسكى.
وبينما كانت الممرضة تبحث عنه اخذ رومكا يتهكم على
فولوديا، وعلى شبابه الظاهر، وعلى رموشه الكثيفة،
وتورده. وتظاهر فولوديا بعدم الاكتراث، غير ان ذلك
كان تعذيبا.

وجاء بوغوسلوفسكى ووضع مقعدا الى جانب سرير
رومكا وقال:

— انظر يا تشوخنين. لقد جئت الى هذا المستشفى
برغبتك الخاصة، وطلبت الينا ان نصلح لك وجهك الذى
شوه، كما قلت لنا فى امر سرى ولكن بطولى. لا سر
فى ذلك كما عرفت. ان ذلك كان نتيجة مشاجرة اعتيادية
فى حالة سكر فى عيد كنسى.

وتكلم بوغوسلوفسكى بصوت عال عن قصد ليسمعه
جميع المرضى.

— ان اشتراكك فى تلك المشاجرة كان امرا منفرا
لللغاية، لانك شخص مثقف بعض الشيء، محاسب. وانت
تلبس ربطة عنق، وقبعة لباد، وتحترق الذين يستغنون
عن الربطة والقبعة. ولقد اشتبكت فى الشجار بطريقة
احتيالية، ورغم اننى لا اميل الى المناقشة عن طريق
الملاكمة، فأننى فى هذه القضية بالذات اعتبر العدالة قد
تحققت. لقد جرححت اذنك، ورغبتك فى اصلاح مظهرك
امر مفهوم، ولكن سلوكك هنا كريه. واليوم لا نجرى لك

عملية، ولكن يوم الجمعة اما ان توافق على اجراء
العملية او تطرد في نفس اليوم. واذا ما قمت باثارة
المتاعب مرة اخرى فسنطردك اليوم. هيا، يا فلاديمير
افاناسيفيتش.

وقال حين كانا في الممشى:

- ان عملنا صعب غير مشكور، يا فلاديمير
افاناسيفيتش وعندما كنت على وشك بداية الممارسة كنت
اعتقد باننا، نحن الاطباء، اذا ما كرسنا ادمغتنا وقوانا
للعمل، وقمنا به عن ضمير، بالطبع، فسنستحق جزاءا
وفاقا من الكلمات القلبية، وهزة يد قلبية، وغير ذلك من
تعبير العاطفة التي تجعل الحياة امتع. غير ان واقع الحال
بعيد عن ان يكون هكذا. ان سيديلوف الذى كان يصوغ
الوشايات ضدى، والذى انقذناه انا وانت من مازق، نسي
الآن مخاوفه في ذلك الوقت - تذكر انه كان يتصور اننى
سأذبحه - وهو غاضب على "جدا لاننى" «قد شرحته اكثر
من اللازم» كما قال اليوم. وفي صباح اليوم صاحت
امراته في وجهى قائلة انه كان فى وسعى «ان اجتهد
احسن من اجل معاونى السابق». نحن مضطرون الى ان
ننصت لذلك كله لاننا لا نستطيع ان ندعو الميليشيا
لحمايتنا كل مرة. وهناك امرأة هى الآن فى الردهة
الرابعة، آزا ليادوفا. وهى شخصية مثقفة تزوجت من
موظف مسؤول. وانا لا اريد ان اتباهى بذلك ولكننا
انقذناها من مازق حرج. صحيح انها تتعذب الآن. وماذا
تظن؟ انها لا تدعونى انا ونينا سيرغيوفنا التى هى مثال
الوداعة، الا بالجزارين، بالساديين وحتى بالماسوخين،

وترمى الاشياء على الممرضات. وزوجها الرزين المحبوب
والاب الطيب حلق في تقطية مشينة وهو لا
يكتفى بالتحديق فقط بل يقول اشياء نحن مضطرون
الى سماعها ايضا. اوه، هذا لا شيء! قبل ايام هاجمت ام
مغرمة عجوزنا الطيب فينوغرادوف بعصا. وانا اقص
عليك كل ذلك لانك توشك ان تدخل مهنتنا، ويجب ان
تعرف ان لا يجوز لك ان تتوقع دموع امتنان من اقرباء
متأثرين، ولا مصافحة، ولا باقات زهور برية قطفتها لك
ايدي اطفال شاكرين ممتنين لك. وعلى الاخص حين
يكون الطب عاجزا. فتهيا لاسوا الاحتمالات. حتى
الاستدعاء الى مكتب المدعى العام يجب ان لا يزعلك.
فان قلب قريب محب يمكنه ان يكون حقودا للغاية.
وانت الذى تصنع اكثر من مقدرة انسان بمعرفته
المحدودة ستكون مجرما، ربما غير محكوم، ولكنه
«مشبوه». وذلك صعب على المرء بالطبع. ولا حاجة الى
القول بان هناك اشياء معاكسة تماما: رسائل شكر
شخصية، وعن طريق الصحافة في بعض الاحيان ايضا.
وكلها مؤثرة وجميلة، وتكاد تدر دموعك. ولكن الشيء
العجيب اننا في الغالب نتلقى الشكر من حيث لا نستحقه:
حظ موفق او حيلة من حيل الطبيعة. ومريضنا الممتن
ليس طبيبا، وليس له اى المام بما هو معروف لدينا.
فبولونين مثلا، صديقى الطيب، واستاذك كان غالبا ما
يستشهد بقول غاندى الذى هو، حسب رأيى، حقيقى
جدا: «انا لا اعرف غير طاغ واحد، وذلك هو صوت
الضمير الهادى».

وتنهذ بوغوسلوفسكى، ورشف رشفة من ماء
الصودا من قدح سميك وقال وكأنه يرد على افكار فولوديا:
- ومن الخطأ ان نتجاهل كلمات كالضمير والشرف
والنزاهة متصورين انها لا تخص لغة رجال الطب. ولكنها
تخصصنا، وتخصصنا فقط. لان الجراح في العالم الرأسمالى قد
يجرى فى بعض الاحيان عملية لا لان العملية ضرورية، بل
لان المريض غنى، ويمكن «احتلاب» قدر كاف من الباون
الاسترلين او الفرنك، او الدولار منه حسب الحالة. ان
ادويتهم الجاهزة يعلن عنها مقرونة باسماء العلماء من
اجل الفلوس. ونحن نعمل فى عالم الشرف والضمير
والنزاهة، وينبغى ان نشن كفاحا ضد اولئك الذين
يخنقون فى انفسهم «صوت الضمير الهادى» تماما
كما نكافح ضد كل ما هو معاد لايدولوجيتنا، لان
جوفتياك، مثلا، الذى ادعوه فى احاديثنا اللاحقة
البروفسور...

وفى هذه اللحظة نظر بوغوسلوفسكى الى فولوديا
وتذكر ان جوفتياك استاذة على اية حال فكف عن الكلام
بارتباك مضحك، واضطرب، ثم ضحك بخفوت وقال:
- حسنا، لنذهب ونجر العملية، يا زميلى. فانت
وانا ينتظرنا يوم مدهق بالعمل!
«يا زميلى»!

«وانت وانا» - قالها هذا الرجل الركين، عريض
الكتفين، الملوح البشرة، الرائع. وطوال الوقت الذى كان
بوغوسلوفسكى يجرى العملية وكان فولوديا يعطى
المخدر للمريض، وينقل اليه الدم، ويحقنه بالمحلول

الفيزيولوجي، ويفحص نبضه، كانت الكلمتان « انت وانا »
ما تزالان تدويان في اذنيه، الكلمتان اللتان قالهما
بوغوسلوفسكى دون اى اثر للتصنع، بصوت غليظ
خشن بعض الشيء. انهما اعتراف بانه واحد منهم، ورغم
انه ليس المساعد الرئيسى بمدى بعيد، فهو مساعد على
اية حال، اهل لان يسمع تلك الحقائق المريرة التى لا
يقولونها، دون شك، لاي شخص كان.

ودقت ساعة غرفة الانتظار الساعة الواحدة حين
اشعل بوغوسلوفسكى فى اخر الامر سيكارة رقيقة،
ومسكها بملقط. وفرك فولوديا يده وغسلها شاعرا
بالانهاك تماما. وكان مبتلا بالعرق، وحلقه معطل بالاثير
الذى كان يجد صعوبة فى التعود عليه.

وكان الدكتور العجوز فينوغرادوف يقول غير موجه
كلامه لاحد على وجه الخصوص:

- ان القرع الدوائية فى السيقان العن شىء، فى الحق.
وانا اتذكر حالة كانت لنا...

وفتح الباب الى النصف، وظهر روكافيشنيكوف مدير
التجهيزات وهو رجل متوقد الحيوية طيب القلب هادى
ووديع.

- جئت لاقول لك، يانيقولاي يفغينيشتش، ان
الحاصدة قد ركبوها وسيجربها فاخراميف وانتوشكا،
يسيرانها على سبيل التجربة. وها هى ذى! أليست
جميلة؟

وكان فى الوسع رؤية حاصدة لامعة الطلاء تزوح
وتجىء فى الجانب الآخر من سياج المستشفى. ولم يفهم

فولوديا شيئا من حركاتها، غير ان بوغوسلوفسكى قال بغضب:

- انا مندهش لانك تدع انتوشكا يجربها. فانه يكسر الاشياء دائما! اذهب وقل له ان يترك الحاصدة وشانها.

ورأى فولوديا الجانب المضحك: كان بوغوسلوفسكى في الظاهر يود من اعماق قلبه ان يجرب الحاصدة بنفسه. ولكن لم يكن في وسعه ان يفعل ذلك لان عليه ان يعود الى قاعدة العمليات ليجرى اصعب واطول عملية لذلك اليوم. لقد رفس حصان بطن بوبيشيف العجوز الذى يعمل فى الاسطبل فى مزرعة الدولة «زنميا ترودا». وكان قد جىء به الى المستشفى قبل وقت وجيز. وكان بوغوسلوفسكى يعرفه ويحبه شأنه مع كثير من الناس الذين يعملون بعناء فى الاماكن المجاورة.

- اخشى ان يكون طحاله قد تمزق يا فلاديمير افاناسفيتش. لاحظ ذلك: يزداد الشحوب، وينخفض ضغط الدم، وبرودة فى الجلد. هل تتحس ذلك؟ وبالإضافة الى ذلك غثيان. انه يحس بالغثيان دائما. حسنا، لنبدأ، - قال ذلك فى تقطبة الم، لأن الرأفة لم يفقدها، يا للغرابة، حتى بعد كل هذه السنين الطويلة من الممارسة.

وفتح بوغوسلوفسكى جدار البطن بشرطة قوية وجميلة، وشرح لفولوديا بصوت خفيض كيف مزق الطحال. وكانت ماريا نيقولايفنا تناوله الادوات بتتابع خاطف، والصمت مخيم لا يعكره غير الصوت المعدنى

للمقصات والملاقط والمشد او المشرط ترمى على المنضدة بعد الاستعمال، وغير تنفس المريض المتعب. وكان بوغوسلوفسكى يسال بين حين واخر: - النبض؟

وكان فولوديا يجيب بصوت خفيض وفق طريقة السلوك السائدة في قاعة العمليات في مستشفى جورنى يار. وكان الدكتور فينوغرادوف المكتنز الجسم يتنفس بصوت مسموع. ودقت الساعة في غرفة الانتظار الساعة الثانية، ثم الثانية والنصف. وفي الساعة الثالثة والدقيقة الثانية والثلاثين كان بوبيشوف ينقل من قاعة العمليات. وغرق بوغوسلوفسكى في مقعد لحظة من الصمت الحجرى ثم قال:

- أفلننا في انقاذ العجوز؟

وفجأة وقع بصره على الحاصدة الجديدة تسير نحو السياج الحديدى مباشرة، فصاح وقد غضب واحمر: - انتوشكا! انتوشكا وحده! يا للشيطان!

سيكسرونها، ومن اين احصل على اخرى؟ واندفع خارج الباب والقى في غضب صدريته وقناعه في طريقه، وفتح البوابة، وصاح على انتوشكا ذى الشعر الكتانى، وغير الخائف، ملوحا بذراعيه بصورة مضحكة، فاتحا فمه واسعا جدا. وراقبه فولوديا من النافذة فرآه يقفز الى حاصدته العزيزة، وانتوشكا يركض الى جانبه، بينما كان فاخرامبييف الملازم الطويل الساقين الذى ظهر فجأة واقفا يضم يديه على صدره، ويصلب بحرارة.

- يا للسماء! اي رجل هذا، اي رجل عجيب!
- قالت ذلك نينا سيرغييفنا واقفة عند النافذة الى جانب فولوديا، - كان على وشك ان ينهار في هذه اللحظة. الم تلاحظ يا اوستيمنكو؟

وقالت ماريا نيقولايفنا:

- مأخوذ العقل، وليعذرني الله! اذا تريد ان تعرف الحقيقة، لقد قضى نصف الليلة وهو يركب تلك الحاصدة مع فاخراميف.

وحين ترك فولوديا المستشفى بعد زهاء عشرين دقيقة رأى بوغوسلوفسكى مشمر الاردان يصيح على فاخراميف:

- ألم اقل لك ان عليك ان تشد المحور اكثر؟
فماذا فعلت؟

وكانت طاقة الجراح البيضاء ما تزال على رأسه، ولكنها انحدرت فوق اذن، وجعلته يبدو مضحكا، وراقبه مرضاه الذين كانوا يسرون في الحديقة، او يطلون من النوافذ، راقبوه بدهشة حين كان يتقدم من الميكانيكى الزعزوع مهددا وسائلا اياه بكآبة ودون حقد:

- من اين سنحصل على دولاب الموازنة الآن؟ من اين؟ هل نقتطعه من انتوشكا؟

فقال انتوشكا باكيا:

- اقتطعه، اقتطعه منى اذا كان هذا خطا منى.
لقد وضعت بنفسك المحور في غير محله والآن تصيح على. وانتوشكا دائما، هذا وذلك! فلربما ساشنق نفسى!
فزمجر بوغوسلوفسكى:

— سأريك انا!

وجر حصانان ناعمان من خيول المستشفى الحاصدة الى ورشة التصليح، ولبس بوغوسلوفسكى سترته القديمة، وذهب الى مكتبه الصغير ليوقع على الاوراق. وكان فولوديا يراقبه من نافذة الغرفة التي أدخل فيها بوبيشيف بعد العملية: تبادل في طريقه مع البستاني بعض الكلمات وهز اصبعاً على باوشكين وهو مريض مصاب بمرض القلب كان يدخن بشراهة من سيكارة كبيرة مصنوعة يدوياً، ثم دخل البناية.

ايتمها الحياة الحلوة، مرحباً بك!

سمع فولوديا ابنة بابيشيف، وهى امرأة حلوة مرتبكة، تبكى فى خفوت فى الجانب الآخر من الباب. وكانت الممرضة العجوز العمة كلافا تقول لها: — لا تياسى يا فتاتى. فان له يدا خفيفة واهبة للحياة. انه غير مؤمن، ولكن ما من قسيس يستطيع ان يتبارى معه. ان القسس يحرقون البخور لا غير، اما هو فيخدم عن صدق. فكرى بذلك يا فتاتى. ولا تياسى! قال فولوديا وهو يكرر الكلمات مع نفسه بحزم وانشراح: «يخدم، ولا يحرق البخور! يا له من قول طيب! يا له من قول مدهش».

وصمتت المرأتان. ودخل بوغوسلوفسكى، ونهض فولوديا، غير انه قال: «اجلس» وجلس هو ايضا على كرسى آخر. وحدقت عيناه الحادثتان الثابتتان فى وجه بابيشيف الابيض تحديقاً طويلاً هادئاً.

وقال بخفوت:

- ان لهذا الرجل عقلا رائعا، اصيلا وناهما.
شخصية روسية حقيقية. لقد قضيت معه ساعات طوالا
لذيذة. نعم. أريدك أن تدرك ان هناك في الحق عديدا
من الناس الرائعين في منطقتنا. ولكنني قبل أيام التقيت
في المدينة بواحد من زملائي الطلاب القدامى. وهو الآن
بروفيسور ودكتور في العلوم، ومؤلف لسلسلة من
الكتب الطبية بمواضيع معروفة كثيرا، ولكنه على اية
حال مهيب المظهر ورجل لامع. حسنا. لقد سألني
«احسب أن الحياة مضجرة جدا هنا حتى لتضطر الى
الانعكاف على شرب البيرة خلصة؟». أليس من العجيب
أنه بعد كل هذه السنوات من الحكم السوفييتي بما في
ذلك من منجزات رائعة، وآمال مستحيلة تتحقق، يأتي
بروفيسور وهو عادى العقلية ليحكم على حياتي وحياتك
بما يتذكره من قصة جيخوف «الردهة رقم ٦» معتقدا
بصدق اننا نعيش في حنان ونشرب البيرة. حسنا، وفي
ذلك المساء زرت زميلي القديم هذا، اذ تشرفت بدعوة
الى حفلة «سواريه» كان يقيمها كما قال. وماذا تظن؟
لقد كانوا يلعبون «الوينت»!

فسأل فولوديا:

- ما هذا؟

- هي لعبة ورق على طريقة سرعة البديهة. وقد
استسلموا للعبة بكل جوارحهم. لقد كانوا منهمكين فيها
تماما ساهين عن العالم. وطوال المساء لم ينطق بكلمة
نابهة، ولا بشبح فكرة! وسالت نفسي: لماذا اتيت الى

هنا؟ جحش بليد. وها هو بروفيسور دكتور في العلوم ومؤلف عدد من الكتب، اذا شئت! ولا غرابة في ان هناك قولا ماثورا عن اولئك الذين «كل شيء لمجدهم ولكنهم يعجزون عن ان يصنعوا مجدا لنا». لماذا حصل على لقب «بروفيسور»؟ وفكرت: ربما انا مخطئ في حكمي، فانا متسرع جدا. وحاولت ان اشبك زميلي الطالب بمحادثة عن علم الهرمونات الجراحي. وتصور: لقد دبّت على كتفي هكذا، برعاية تامة قائلا: «نحن في هذه الليلة نريح عقولنا. ولكن اذا اردت، تعال الى عيادتي غدا، وتحدث في الموضوع مع مساعدى». وطبيعى اننى لم اذهب الى عيادته...

وضحك بوغوسلوفسكى ضحكة لطيفة جدا من تلك الذكرى وتوقف ليتحدث الى ابنة بوبيشيف، فى الممشى، ثم ذهب الى المستوصف.

وفى الليل كان فولوديا خفيرا فى المستشفى مع زوجة بوغوسلوفسكى كسينيا نيقولايفنا. ومعها سوية قام باصعب توليد. كانت طويلة ونحيفة مثل فتاة، وشعرها مكور تحت طاقيتها البيضاء، وفى خديها احمرار باهت، وفى عينيها نظرة عبوس، ولكنها لطيفة. وكانت تشرح الاشياء لفولوديا وهى تعمل دون ان تبدى اى استعلاء كطبيبة ذات خبرة، بل كطالبة زميلة، كصديقة تعرف عن الموضوع اكثر مما يعرف.

وكانت الوالدة تصيح بصوت أجش، معذب. وكان الجو حارا فى غرفة التوليد.

وظلت كسينيا نيقولايفنا تحشها:

— جاهدى يا عزيزتى. فالولادة عمل شاق. ولكنك
بعد ذلك ستسعين جدا برؤية الطفل او الطفلة الوليدة
بعد عملك الشاق هذا...

وكانت تتكلم مثل زوجها، وكان فولوديا يود كثيرا
ان يتكلم مثلها ايضا.

— ستولدين طفلا...

وقالت المرأة باكية:

— انا اريد طفلة! كل الاولاد ماكرون وقبل ايام

اطلق ابن جيراننا سهما فاصاب بقرتنا...

واخذت تصرخ ثانية، وانحنت كسينيا نيقولايفنا
عليها هامسة بعبارات تحبب مهدئة اياها. وكان فولوديا
يحس بالشفقة عليها. رمقها فى اول الامر، ثم انحنى
نحوها وبدأ يعانى مثلها. وقد لاحظته المولدة العجوز،
واربكته بقولها وهى تبتسم:

— وانت ايضا يا فلاديمير افاناسيفتش؟ من
المضحك ان جميع طلاب الطب يعانون ايضا لكى
يساعدوا على الولادة... انتم، ايها الشبان، قوم
مضحكون!

وقبيل ان يطلع النهار اخرج الطفل الوليد. وقد
امسكته المولدة العجوز من ساقيه، وضربت عجزته
بيد حمراء واسعة، واصفت الى بكائه لحظة، وقالت:
— لقد انجبت ماكرا وسيطلق السهام، ويرمى
بالمقاليع ايضا...

وساعد فولوديا كسينيا نيقولايفنا فى الخياطة. وكان
الدم ينتشر على الفراش كله، وعلى المفارش المطاطية،

والقطنية. وكانت المرأة مستلقية دون حراك وقد ازرقَّت
جبهتها وخداها على نحو ينذر بالنحس. وجس فولوديا
يدها متحسسا نبضها - وكانت اليد دبقة بالعرق.

وقالت كسينيا نيقولايفنا:

- لنبدأ بنقل الدم. امسك الأنبول أعلى قليلا.
هكذا...

ونقلوا اليها ٥٠٠ سنتمتر مكعب من الدم. وعند
الفجر جاءت الممرضة بجهاز حقن المحلول الفيزيولوجي.
وفعل فولوديا ما اخبرته كسينيا نيقولايفنا به، وفكره
ناعس. «انه الموت» - فكر فولوديا بذلك، - انه الموت
فماذا في وسعنا ان نفعل اكثر؟ لماذا لا ندعو جميع
الاطباء، لماذا لا نرسل في طلب بوغوسلوفسكى؟»

وكان هناك صوت قرع زجاج، وكانت الطبيبة الشابة
النحيلة تصدر الاوامر بهدوء - ألم يفهموا؟

ولكن هو الذى لم يفهم. وحين حل الصباح رأى
وجه المرأة مكتسبا لونا ورديا. وكانت الغشاوة ما زالت
في عينيها المفتوحتين وما زالت غير قادرة على ان
تستحوذ على مداركها. الا ان ذلك لم يكن موتا، ولم يكن
نهاية، بل كان حياة، بداية...

وبدأ النهار وكان المواليد يصرخون في مكان خاص
بهم، وكانت الممرضات يحملنهم، من بنين وبنات،
للرضاعة. وسرعان ما ستضع هذه المرأة ايضا حلمتها
السمراء في فم مولودها الاول. وستنسى انها كانت تريد
بنتا، بل ستداعب ابنها، وتترنم له لينام، وتقول لكل
الناس كم هو مفرط في الذكاء... ولقد شهد فولوديا

في هذه الليلة معجزتين: امرأة لا يمكن، حسب كل قوانين التوليد القديم، ان تضع طفلها وان تبقى على قيد الحياة، ولكنها الآن حية؛ وطفل لا يمكن حسب نفس هذه القوانين ان يولد حيا غير انه الآن على قيد الحياة. ان ذلك نتيجة لجهود الناس، جهود كثير من الناس، الناس الذين لا يقيمون «سواريه» ولا يلعبون «الوينت»، الناس الذين لا يبذلون قصارى جهدهم في سبيل درجاتهم العلمية التي تتيح لهم حياة الرغد، والنوم في ترف، والمرح في ساعة الكوارث الوطنية...

سيجينوف، وغوبوريف، وفيودوروف، وكاديان، ودياكونوف، ولندن، وبوغوموليتس، وسباسوكوتسكى - وقد جاهد فولوديا كثيرا ليتصور وجوههم. «لماذا لا نعرف غير القليل عنهم؟» - فكر ذلك بأسف مرير. لقد كانوا جميعا هنا في الليلة الماضية، اشتركوا في المعركة، وهزموا الموت، الموت نفسه، ومع ذلك لم يكتب في الكتب المدرسية عنهم الا الشيء القليل، بضع سطور مضجرة. والفصل الموضوع عنهم وعن امثالهم يجب ان يعنون: «المنتصرون على الموت».

وسأله كسينيا نيقولايفنا:

- ما الذى تتممه؟ لماذا لا تذهب وتنال قسطا

من النوم؟ تظل تتمم وتتمم.

قال:

- الى اللقاء!

فاجابت:

- الى اللقاء يا فلاديمير افاناسيفتش!

وكانت الممرضة تمسك فوطه لتمسح كسينيا
نيقولايافنا يديها بها. وما زال فولوديا في مكانه.
لم يكن بوسعه ان يذهب بكل بساطة: ان الليلة
الماضية كانت طويلة جدا، وقد ادرك اشياء كثيرة
خلال هذه الساعات، وكان كيانه كله يمتلئ بشعور هائل
بالامتنان.

وسأل وهو يشير الى قاعة العمليات بهزة من رأسه:
- هل كانت الحالة سيئة جدا؟

- كانت معقدة بالاحرى.

- جدا؟

- نعم، اظن ذلك، - قالت كسينيا نيقولايافنا وهي

تبتسم باهتة.

- والآن؟

- لقد رأيت بنفسك...

وكان عليه ان يغادر منذ وقت طويل. فلماذا يظل
هنا اكثر؟ لقد ودعته قائلة «الى اللقاء»، فماذا
ينتظر؟ يا للشيطان! فلماذا لا يذهب هذا الاحمق؟..
ودمدم بعبوس خجلا من نفسه:

- اذا كان بوسعى ان اقدم لك خدمة فارسلنى فى

طلبى رجاء...

وهزت رأسها. وكان يريد ان يقبل يدها، لقد
كانت تبدو نحيلة جدا بأوردتها الزرق الصغيرة الظاهرة،
يد نحيلة حلوة. ولكنه بالطبع لم يجرء على ذلك. وتراجع
الى الباب، وخرج - صبيا طويل الساقين والزراعين،
بحذائه القديم البالى. ووقف مندهشا فى الابواب: وكانت

الطيور قد بدأت زغردتها بالفعل في حديقة المستشفى،
وجففت الشمس الندى إلا أن شدى الزهور ما زال قويا
وحادا. ورفت لحلة كبيرة وصدمت خد فولوديا
تطن طنيننا لطيفا، وطارت لتقوم بواجبها النحلى المهم.
وقال فولوديا لنفسه وهو يشعر بالتوتر في حلقه:
«يا حياة! أيتها الحياة الحلوة، الصعبة، والحقيقية معا!
مرحبا! انظرى ها أنا اساعدك. وليس في وسعى إلا
الشيء القليل، وما أنا إلا ساع لك. ولكنى بالتأكيد
ساكون مثلهم، وستحترميننى، أيتها الحياة الحلوة!

وذهب لرؤية بوبيشيف قبل أن يذهب إلى البيت
ونظر العجوز إلى الطبيب الشاب الشاحب نظرة استغراب،
وتشكى من الألم. وجس فولوديا نبضه وتأفف. ألم - أية
كلمة عجيبة؟ انظر انت حى يا عزيزى بوبيشيف
العجوز، انت حى! ولربما ستعيش سنين طويلة أخرى،
ومع ذلك فقد كنت ميتا عندما جاءوا بك.

غير أن بوبيشيف لم يفهم شيئا من ذلك. ولا غرابة
فهو لم يكن يعرف من وراء أية عتبة قد جروه... والآن
يتألم ويغضب. ومن المضحك أن تقول له أن يفرح
لأنه حى.

ونام فولوديا حتى منتصف النهار. وجعلت صاحبة
البيت العجوز كل أفراد العائلة يمشون على رؤوس
الاقدام.

وهمست:

- شش! شش! أيتها الشياطين الصغار! ان
الطبيب نائم. سامسك شوبكى وأقتلكم جميعا، حيث لا

يستطيع الطبيب ان ينقذكم! شش! سيزار، اترك صفارتك!

«اذن فسيزار كان يصفر بصفارته» - طرات في ذهن فولوديا هذه الفكرة وهو في غيش النوم.

فيم السعادة؟

كان فولوديا يتناول فطورا فائضا حين جاءته صاحبة البيت برسالة من فاريا. وبدأ يقرأها وهو يأكل. وفجأة تعسرت في حلقومه قطعة من كعك جبنه الحالوم وسعل، وبصق. لقد مات بولونين. مات! ولكن كيف حدث الأمر؟ كيف؟ لا! لا بد من ان في الأمر خطأ. لعله شخصا آخر له نفس الاسم، وسيتوضح الأمر كله مباشرة. وترك غذاءه، ونسى ان يشد شريط صندله على رجله، فكان يتدلى وهو يركض. وهرع الى المستشفى. وكانت نسخة من صحيفة «عامل اونجا» على المنضدة في المكتب. ان معهد سيجينوف الطبى يأسف على وفاة البروفيسور بولونين المفاجئة، ويقدم تعازية لعائلة الفقيد. وكان في الصحيفة ملخص حياة الفقيد وصورة بولونين - انها لا تشبهه كثيرا - أحيطت باطار اسود. وقرأ فولوديا من خلال الدموع:

«البروفيسور بولونين كان...» يا للسماء! كم كانت تلك السطور المضجرة والرخوة بعيدة عن ان تصف بولونين، وبأى مظهر موظف دواوينى يظهره هذا النعى.

وماذا قال هو نفسه لو انه قرا هذا الهراء الحشو
المبتذل العديم اللون ولماذا يستعملون كلمات
كـ «حساس» و «العطف الحار» و «الصورة التي لا
تنسى»، كلمات كان بولونين دائما يعتقد انها نسائية.
فقد كان يقول: «خلصوني من العاطفيات النسائية، اما
الذين يشتمونني، فساتغلب عليهم انا بنفسي».

وقال فولوديا لبوغوسلوفسكى بشفتين مرتجفتين:
- مات، مات بولونين!

- اعرف. لقد قرأت ذلك في صحيفة الصباح...

وشد بوغوسلوفسكى على قبضته، وقال في حزن:

- انها حماقة! حماقة لا مبرر لها! اى حق له في

اهمال صحته؟ ان يبصق عليها كما كان يفعل؟ لقد قلت

له مرارا: يا بروف كفى تحامقا! ماذا تحسب انك

فاعل؟ تدخين لا ينقطع، واكل طعام دسم، وعمل طوال

الليل، وشرب قهوة قوية، وشاي وفودكا... انت لا

تعرف كيف كان يقضى اجازاته. هل تعرف؟ كان يستاجر

زورقا صغيرا ويسير به على النهر وحده من «الشلالات

الكبيرة». نعم وحده. لاحظ ذلك! وقد راقبته مرة من

الشاطئ من «صخرة البكاء». وصدق او لا تصدق لقد

جعل المنظر بدني يقشعر. ثم يشعل نارا. على الضفة

ويطبخ شوربة سمك، وسكاثر... وتفكير دائما، وبحث

دائما، وتبعات جسام على قوته، ونقد لا رافة فيه

لنفسه. كان لا يكف قط، ولا يعطى لنفسه لحظة من

السكينة الذاتية. وما يستطيع الانسان ان يريد اكثر؟

لقد كان دكتورا في العلوم، بروفيسورا. وقد دعوه الى

العاصمة، ولكنه رفض ضاحكا: «اي نوع من الاساتذة انا؟ انا غراب وليس بروفيسورا على الاطلاق. وكل انسان يستحق من القيمة بقدر ما ابدع بالفعل مطروحا من ذلك زهوه. بروفيسورا! حقا ان تاريخ الطب يعرف عديدا من الناس الذين كانوا يعتبرون جهلاء ولم يستطيعوا الحصول على لقب بروفيسور طوال حياتهم، والآن هم ميتون، وهناك مئات من الاساتذة يعيشون على حساب اذاعة ارائهم، دون اظهار لموهبة. ثم تقول انت: «بروفيسور».

وصمت بوغوسلوفسكى، ثم تابع كلامه مفكرا:
- قبل ست سنوات فكرنا في الاحتفال بميلاده الخمسين. اوه، يا للسماء! كم ثار وزمجر! فاقبلنا عن الخطأ. قال: «هذا ابتذال، ان اجلس على كرسى، واسمع رثاءكم. ستشرعون في تعداد اعمالى، وثلاثة ارباعها لغو. ثم ماذا بعد ذلك؟ هل تدعوننى من مكان الشرف الجالس فيه لألقى خطبة عن اخطائى؟ وكيف بوسعى ان لا اخطأ، والطب كله تاريخ للاخطاء البشرية؟» فحاول وتحدث مع هذا الرجل! ثم انه القانى على البساطة قائلا: «حياة تريد أم موتا؟». والآن هكذا...

وصمتا. وصفى بوغوسلوفسكى حنجرتة بالم وقال:
- انها خسارة فاجعة لا تعوض. لقد كان صادقا في كل شيء. لا مع اصدقائه فقط، بل مع نفسه ايضا. ان كل شيء فيه عظيم. وحين كنت اتحدث اليه قائلا هذه الاشياء التافهة البليدة حول العناية بنفسه كان يجيب: «اجد في ذلك لذة اكثر». والآن حصل ذلك - مات موت

الفجأة. ولكنه كان يريد دائما ان يموت هكذا. كان يريد ان يموت فجأة - لا اقراص، ولا مساحيق، ولا اطباء. وارتجف حنك بوغوسلوفسكى فانفجر قائلا:
- ولكن، ربما كان على حق؟ ربما حقا ان في ذلك لذة اكثر؟ ربما كان ذلك اصح بالنسبة له؟ وهناك اناس لا يستطيعون، ولا يرغبون، في آخر الامر، ان يعيشوا باقتصاد...

واشعل واحدة من سكاثره الرخيصة، وعب منها بشراهة نفسا عميقا، وضرب بقبضتي يديه واحدة باخرى بقوة، وسأل:

- من اجل اى شىء يعيش الانسان؟ ونظر اليه فولوديا بدهشة حزينة وفكر: «هل يمكن ان يظل هذا السؤال يقلق هذا العجوز (وكان بوغوسلوفسكى بسنه يبدو في عيني فولوديا عجوزا، بالطبع)، هذا الطبيب الذى قد قام بالكثير في حياته فعلا، وسيقوم باكثر من ذلك؟».

وسأل بوغوسلوفسكى في انفعال:
- من اجل اى شىء؟ ألم تفكر بذلك قط؟
- لقد فكرت...

فتابع بوغوسلوفسكى كلامه قائلا:
- أعتقد ان كورولينكو هو الذى قال ان الانسان يولد من اجل السعادة. من اجل السعادة كما يولد الطير ليطير. قول جميل، ولكنه غامض. ان الناس يفسرون هذه السعادة وسيفسرونها دائما بصور مختلفة. خذ مثلا بولونين، وزميلي هذا الذى يقطن الآن في موسكو في

بحبوحة من العيش والذى حدثتك عنه على ما يبدو. فمن
منهما عرف السعادة الحققة؟ بولونين الذى كان دائما
مستعدا لأن يخاطر، ام البروفيسور لاعب الورق؟
بولونين العيوف المدمر ام مؤلف الكتب التى لا يحتاج
اليها أحد غيره؟ واين السعادة؟ هل فى لعبة الوينت ام فى
زورق صغير تتقاذفه شلالاتنا المزمجرة؟ فى افتراضات
بولونين الخطرة ام فى تكرار العقائد الجامدة التى لا تضر
ولا تنفع؟ فى شعور بولونين بالعجز الفاجع ومحاولاته
للثورة ضده ام فى الاستسلام الوديع لهذا العجز،
الاستسلام بلا شرط، لاحظ ذلك، حتى لا تزعج نفسك
بتأملات زائدة؟ ولكن الناس يقولون، وهو قول حكيم
جدا: «انه حى، ولكن قيمته لا تعادل قيمة راحل».
أليس ذلك عين الحق؟ حتى الناس الاقوياء النفوس فى
روما القديمة كانوا يزعمون ان ليس هناك مصيبة اعظم
من فقدان غاية الحياة فى سبيل البقاء فيها لا غير. وماذا
يعنى ذلك؟ وحسب كل احتمال، يمكن المرء ان يشعر
بسعادة عميقة عن حق وهو مستلق على شاطئ رملى
دافئ عند البحر مصفيا الى غناء الامواج او شئ آخر؟
ولكن أليس ذلك هو بالضبط نوع من السعادة التى يحس
بها عجل صغير يقفز على العشب وذيله فى الهواء؟ ففى
كلتا الحالتين ثمة استمتاع بالعيش لا غير. وهناك عدد
لا حصر له من الناس يحسبونه سعادة. ولكن، يمكن ان
اسأل، لماذا يسمى الناس بملوك الطبيعة؟ ومنذ قرون
وحب الرجل للمرأة كان يقارن شعريا بحب الحمام،
الحمام الهادل، الحمام المداعب، وكل ما الى ذلك من

التوافه التي ترتقى الى عليا الشعر. ولكنني آبي ان
اتصور نفسي حمامة هادلة. فبالاضافة الى ان ذلك
مضحك بالنسبة لرجل في مثل سني فهو حماقة صريحة.
والسعادة على غرار الحمام عند اناس من نوع بولونين
عذاب لا يحتمل. فاذا انت انسان حقيقي فانت تطمح
بشيء اكثر من الشعور الجسماني بالسعادة وانت
مستلق على رمل حار، تريد اكثر من هدوء الحمام -
ولاحظ ان جميع الحمام شحاذ وطفيلي يراه الناس لسبب
او لآخر مؤثرا جدا - وانت تريد اكثر من ذلك كله،
تريد ان تتقدم، ان تكافح، ان تتغلغل في حقول من
المعرفة لم يكتشفها احد من قبلك، ان تشعر بانك نافع
لا لنفسك ولاطفالك، (فان ذلك قليل بالنسبة للمجتمع)
بل تريد ان تشعر بانك تعمل، وتخلق، وتساهم بالقضية
العامة...

- تقصد ان السعادة تكمن في النضال؟

- في النضال؟ - فكر بوغوسلوفسكى في جوابه، -

نعم، اعتقد ذلك، نعم، بالطبع. حين نقصد الانسان
بالمعنى الحقيقي للكلمة، الانسان العامل، المحرك، وليس
مجرد مستهلك، فان النضال بالطبع هو السعادة... ولكن،
دعنا نذهب لقد حان وقت اجراء العمليات...

وعمل فولوديا في المستوصف وردة القبول طوال
المساء. ومهما فعل كانت هذه الفكرة تلازمه: «ذهب
بولونين، ذهب ولن يعود ابدا. لم يعد موجودا. مات.
ولن يضحك قط ضحكته الهادرة، ولن يدخل قاعة

المحاضرة بخطواته الواسعة السهلة، ولن يقطب جبهته العريضة النمشة. لقد مات بولونين».

— وهناك شيء آخر عجيب، — قال بوغوسلوفسكى وهو يدخل ردهة القبول، — شيء آخر عجيب هو ان الناس من نوع بولونين ليسوا طموحين على الاطلاق. فهم لا يحسدون احدا، ولا يضعون تواقيعهم ولا علامتهم الفارقة على اى شيء: صنعه كذا وكذا. فاذا ما لاحظ أحدهم دليلا جديدا، فلا يصيح من فوق سطوح البيوت: انظروا جميعا، هذا هو الدليل الذى اكتشفه بولونين! فهو لا يكثر لذلك، وهو كريم، ومصادره عديدة ولكن بعد شخصيات مثل شخصيته يتغير دائما شيء فى العلم، يتغير بدفعة. ان ذلك عجيب للغاية، أليس كذلك يا فلاديمير افاناسيفتش؟

ولم يعد فولوديا لقراءة بقية رسالة فاريا الا فى هزيع متأخر من تلك الليلة، ومرة أخرى أعجب بفتاته فاريا، كم هى تحسن فهم الاشياء دائما. لم يكن فى وصفها لتشجيع بولونين شيء زائد ولا حشو. لقد كتبت انها سارت مع الجنازة حتى المقبرة ووضعت على القبر باقة صغيرة «باسم فولوديا». «وماذا كان فى وسعى ان افعل اكثر؟ لم اربط اى شريط بالزهور او اى شيء آخر بالطبع. بل همست وانا اضعها على القبر: هذه من فولوديا، من تلميذك فولوديا اوستيمنكو. غير اننى همست ذلك بالطبع، فلم يسمعنى أحد».

وكان لديه مزيد من الاعمال فى كل يوم. ولم يمض وقت طويل حتى اصبح ضروريا لكل شيء، وذلك بالمعنى

الانسانى العاطفى، وذلك بسبب من اليقظة الدائمة فى عينيه الواسعتين، من استعداده لان ينهض للعمل، ومن الاخلاص والرعاية اللتين يسال بهما الاطباء ليشرحوا الاشياء له، ومن رغبته فى ان يكون مفيدا قدر مستطاعه اكثر من ان يكون ظاهرا، ومن حبه للتعلم، وجمع المعرفة. وحتى ماريا نيقولايفنا ممرضة قاعة العمليات العبوس كانت تدعوه فى الغالب لتلقنه تلك الكفاءة الخاصة التى تدير بها عملها المعقد، والعالى المسؤولية. وكان يعلم نظريا كل ما كانت تلقنه له ولكن مراقبته لطريقة استعمالها للادوات كانت تعجبه دائما.

وكانت تقول، وهى تقرقع بادواتها:

- والآن، هذا طقم من الادوات اضعه فى المعقم، ومن ثم، وأرجو ان تلاحظ ذلك، بدون اى اضاءة للوقت، اتجه الى المغسلة، وأغسل يدي « لتقديم الادوات اثناء العملية ». راقبني بعناية، ولا تضيع شيئا، فسيأتى الوقت الذى ستروض فيه بنفسك ممرضاتك لقاعة العمليات. ولا تعبس: هذا ترويض بالضبط، وما من طريقة أخرى. والآن بينما انا ألبس مريلى المعقمة، وتكون الممرضة المساعدة قد اخرجت الادوات من المعقمة. اضعها انا فى الجانب الايسر من طاولة الادوات، واغطيها بغطاء... يجب ان تراقبني بامعان اذ ان امامك ممرضة من الدرجة الاولى، جديرة بجراح مثل بوغوسلوفسكى.

وحضر فولوديا كل تشريح للجثث. وصحب نينا سرغيوفنا فى زياراتها لقريتي اوبوليه وبالشويه غريدنيفو. وشخص اربع حالات بصورة صحيحة -

إصابة بالتهاب الزائدة الدودية الحاد، وإصابة بالمغص وإصابة بالحمت، وإصابة بالاشحام. وكان يشرف على اثنين من المرضى بنفسه، وقد مدحه الدكتور فينوغرادوف على ذلك حين كان في جولته الطبية، وقال بوغوسلوفسكى «مم». وقد شرح فولوديا بنفسه الندبة قرب أذن رومكا تشوخنين. وقد جرى ذلك تحت إشراف بوغوسلوفسكى بالطبع، وصار ذلك المزيج من الردهة الخامسة يتكلم مع فولوديا لهجة التزلف. كما قام ببعض العمليات الصغرى الأخرى أيضا. وكان الجميع يسمونه «فولوديانا» أو «فولوديا العزيز» أو «الدكتور فولوديا» رغم أمر بوغوسلوفسكى. وكان فولوديا يحافظ على هيئته، ولا يكاد يبتسم رغم أنه كان غالبا ما يريد ذلك. وكان يتكلم بجفاف. ولكنه في بعض الأحيان كان يقول بلطف مغالبا نفسه:

— هل لى ان اسألك رجاء...

بينما كان عليه ان يأمره، لا ان يرجوه. ومن غير المناسب أيضا ان يلتفت ثانية الى الشخص الذى أصدر له الأمر. ولكن فولوديا كان يلتفت، ويعتذر عما جشمه من متاعب.

كما كان فى بعض الاوضاع المربكة أيضا. فذات مرة كانت امرأة فلاحه شفاها من التهاب الشدى فى المستوصف، تنتظره خارج المستشفى، وحاولت ان تقدم له هدية — سلة مليئة بالخضر والعسل قائلة:

— هذا بعض العسل الطازج لك يا عزيزى فولوديا واريدك ان تستمتع به. لقد كان علاجك حسنا جدا،

فشكرا لك يا ولدى العزيز. ومبارك انت. وضعت لك
في السلة بعض الخيارات الصغيرة ايضا، وقليلًا من
الطماطة، واللفت الحلو.

فسأل فولوديا في ارتباك وهو يمسك السلة:

- من؟

- انت يا فلاديمير افاناسيفتش لاشكرك على
كل صنيعك.

- هل انت مجنونة؟ - قال فولوديا وقد احمر من
الغضب.

فلوحت بيدها في عدم اكتراث واسرعت نحو
حصانها وعربتها. ووقف فولوديا مسمرا في مكانه لحظة،
ثم ركض نحوها وصندله المحلول يخفق.

- لا تجسرى على ذلك! - صاح وقد لحق بها، - انا
امنعه! وسأقدمك للمحكمة على ذلك!

وظل زمنا طويلا حين يسترجع هذه الذكرى يتلوى
من صراخه الاحمق، وتهديداته. وكان يخجله ان يتذكر
نظرة الارتعاب في وجه المرأة الرؤوم.

ومرة اخرى فيما بعد سأل حارس مستودع
المستشفى وهو رجل صغير الجسم ذو مكر، وذو فم معوج
يلقب بـ«حالب المعزى»، سأل فولوديا ان يعطيه
سنة روبلات، ويحفظ ذلك سرا.

- لماذا تريدها؟ - سأل فولوديا.

فسأل الرجل:

- ما هو هذا اليوم؟

- يوم جمعة.

- واى عيد للقديسين؟ اسالك يا عزيزى الدكتور.

وكان فولوديا لا يعرف، ولم يكن له وقت ليقف ويشتبك في حديث، فاعطى «حالب المعزى» الفلوس. وقبل ان ينتهى النهار سكر الحارس سكرة معربة. واجرى بوغوسلوفسكى تحقيقاً كاملاً، ووقع اللوم على فولوديا. وقد حلف «حالب المعزى» يمينا بان الدكتور اوستيمنكو هو الذى اعطاه الفلوس ليحتفل باليوم المشهود. وعنف فولوديا بقسوة.

وقد قال له «حالب المعزى» بعد ذلك:
- اعذرني أرجوك. فلم يتركني الرئيس وشأني وامسك بتلابيبى: من هو؟ من هو؟ وانا رجل بسيط واحترم بوغوسلوفسكى فقلت له: انت الذى اعطيتنى النقود.

وكان فولوديا يتعلم على الدوام يتعلم شيئاً جديداً من بوغوسلوفسكى سواء اقام بالجولة معه، او عمل معه فى المستوصف، او فى ردهة القبول.
- لقد قال الالمانى بير فى حينه بعض الكلمات الخسنة، ولكنها صادقة: «القيام بالعمليات بصورة دائمة يبلد الفكر». يجب ان تفكر فى البدء كيف تعالج شخصاً لا كيف تجرى له تدخلاً جراحياً. ان العملية يجب ان تكون ضرورية مطلقاً.

وسأل بوغوسلوفسكى فولوديا ذات مرة:
- انظر! لماذا تلوح وكأنك تستشير المريض؟ يجب ان تدرك ان المرض يجعل الشخص ضعيفاً، فى وقت تعب فيه من العذاب، ويريد ان يدبر امره. بينما انت تبحث القضية معه وكأنك فى مجلس اللوردات.

و ذات يوم شديد الحرارة رأى بوغوسلوفسكى
فولوديا منطرحا على كرسى فى المستوصف وقد ارمضته
الحرارة:

— هل تحس بتوعك؟

— الجو قائف.

— تقول قائف؟ — صاح بوغوسلوفسكى وقد صار
وجهه الاسمر محمرا، — اذهب الى البيت اذا كنت مشويا
الى هذه الدرجة. ان الطبيب ليس قطعة من اللحم
المشوية، بل يجب ان يكون رجلا قويا و ذا حيوية!
ويجب ان تكون شامخا فى قوتك المعنوية، اسطورة،
عملاقا خرافيا، لا سمكة هلامية. ويجب ان يسعى
المريض الى الشفاء من اجل طبيبه الجيد، كما يجب
عليك ان تؤثر فيه بشخصيتك لا ان تعتمد فقط على
المبضع، والعلاج، او على المستحضرات. فاذهب الى البيت
وعد رجلا.

فقال فولوديا فى تجهم:

— ليس فى مستطاعى ان اكون اسطورة. انا
اوستيمنكو ليس غير.

— اغطس فى النهر قليلا. وتعال. اهذا واضح؟

— نعم واضح، — قال فولوديا ذلك وهو يحس
بالاساءة.

وفى اليوم التالى ساله بوغوسلوفسكى:

— هل قرأت الانجيل ولو مرة واحدة؟

واجاب فولوديا مندهشا من السؤال:

— كلا، ابدا!

- اما انا، بوصفى ابن القسيس، فقد قرأته
بالطبع. وفيه شيء عنك.
- عني؟

- في انجيل لوقا يوجد هذا القول: «الويل لك
حين يقول لك كل الناس خيراً». مفهوم؟ وتذكر شيئاً
آخر: ان اقوم بعملية بنفسى اقل صعوبة على بكثير من
ان اقف الى جانبك واراقب. ولا يسرع اليك الغضب من
ملاحظاتى هذه، لأن عدم ابدائها اقل صعوبة بكثير ايضا.
وارجو ان تخجل من نفسك على قولك انك لست
اسطورة، بل انت اوستيمنكو لا غير. انا اريدك ان
تكون اسطورة فيما بعد.

قال ذلك وخرج من الغرفة. وشرب فولوديا قدحين
من الماء المعدنى، وفكر: «كيف خلطت الاشياء خلطاً!
وليس فى وسعى حتى ان ابوح بذلك لفاريا. اما
بخصوص الاسطورة على اية حال - فممكن!»

وفى الغالب كان فولوديا يقوم بنوباته مع
فينوغرادوف. وحوالى منتصف الليل يستلقى الطبيب
العجوز على اريكة فى غرفة الطبيب المناوب، بعد ان
يستحم فى الدش بشدة، وينام زافراً شاخراً. وكان
فولوديا يطوف فى الردهات، ويتأكد من ان الممرضات
المناوبات غير نائمات، وان المرضى لا يلعبون الشطرنج
فى الممشى بعد منتصف الليل، وانهم لا يظلون يتحادثون
الى وقت متأخر مزعجين بذلك الآخرين. وبالتأكيد كان
يوقظ فينوغرادوف مرتين او ثلاثاً فى الليلة الواحدة:
- سافجنكو يسعل، - كان يقول للطبيب.

- ماذا؟ - كان الطبيب يسأل بوعق.
- سافجنكو في الردهة الثالثة يسعل. بعد عملية
اخشى انه...

ويرتدى فينوغرادوف ملابس مطيعة، ويذهب الى
الردهة الثالثة متثائباً ناخراً. ويكون السعال قد انتهى
وسافجنكو قد نام. ويتوقف فينوغرادوف فجأة في
الممشى لدى عودته، ويصفى وفي عينيه نظرة خائفة.
ويسأل فولوديا في شيء من الارتباك:

- ماذا بك؟

- أنا أصغى.

- لماذا؟

- ماذا لو يعطس أحد...

ويبتسم فولوديا متكلفاً.

ويقول فينوغرادوف وهو يعود إلى فراشه:

- ايقظني حين يعطس أحدهم. فسأتى لامسح له

أنفه. فهذا واجبى، أليس كذلك؟

ويضحك فولوديا بخفوت وفراغ كارهاً نفسه

لذلك. ذلك بسبب ضميره الملعون. وماذا في وسعه

ان يفعل؟

وفي الليلة الرابعة منع فينوغرادوف فولوديا من ان

يوقظه الا حين توافق الممرضة على ذلك.

- اننى رجل مسن يا ولدى، والنوم افضل شيء

لى. فاعذرني، وقد حسبت في الليلة الماضية حساباً - لقد

ايقظتني احدى عشرة مرة دون وجه لضرورة.

- ولكن افترض...

- اذهب الى الشيطان، - قاطعه فينوغرادوف بلطف، - سابلغ الستين قريبا. أفلا يعنى ذلك شيئا عندك؟
واراح نفسه متهيئا للنوم، ضاحكا بخفوت متمتما بشيء فى سره - فيا له من دب عجوز ذى دهاء وحكمة!
وحين أستقر فى مضجعه تشاءب بتلذذ وقال:

- انا اعرف ماذا فى ذهنك فى هذه اللحظة. أعتقد انك تديننى. ونصيحتى اليك، ايها الشاب، ان لا تفعل ذلك. فنحن، الاطباء القدامى، أناس غير طالحين. ونحن نزيهون فى الغالب ومستقيمون. وقد مررنا بأشياء كثيرة، كثيرة. أوه، كثيرة...

وأصغى فولوديا فى صمت:

- فى سنى القيصرية التى لم تمر بها من حسن الحظ مررنا جميعا بزمن صعب، لا سيما الشبان الذين تزخر عقولهم بالمبادئ والأفكار وأنا لا احسب من بيننا اولئك الاطباء الممارسين على النمط الجارى ذوى العربات الخاصة والمغانم العظيمة. وحين اندلعت الثورة كانت لى اكثر من عشرة اعوام خدمة فى الريف. وقد عرفت جيدا «بكم يباع الرطل من البؤس» كما يقال. واحسب انك تنظر الى الآن وتظننى رجلا انانيا، أهتم كثيرا بذاتى. فماذا عندى والشيخوخة تقرع بابى؟ وأنا اريد ان أعيش اكثر، اريد ان استمتع بحياتى الحاضرة اكثر والناس يحترموننى. عندى منزلة ما. فلست انا اقل من فى المنطقة. وقد كسبت ذلك بنفسى فقد كنت اعمل بعناء، واكسب خبزى بطريقة شريفة وكل الناس يعرفون ذلك. ولكن عملنا فى الايام الخوالى يا عزيزى

الشاب لم يكن مامونا على الاطلاق. فان سبعة وستين
بالمائة من اطباء الريف الميتين ماتوا بامراض معدية؟
سبعة وستين بالمائة! نسبة غير صغيرة اية؟ اما نحن،
وقد عرفنا الى اين نذهب، ذهبنا الى قرى واماكن
ناحية، وعملنا هناك دون ان نفكر بسلامتنا. ولقد عملنا
في اقاصى لن تجد مثلها الآن ولن توجد بعد الآن...
ثم ماذا عن الظروف التى عملنا فيها؟ لقد عد البروفيسور
سيكورسكى ان اكثر من ١٠ بالمائة من الوفيات بين
اطباء الريف كان نتيجة للانتحار، لقتل النفس بالنفس.
اكثر من ١٠ بالمائة! وما هى نتيجة الحساب؟ مات
من كل مائة طبيب ٦٧ طبيبا من الامراض المعدية،
و ١٠ بالمائة بالانتحار. فها هى ذى هذه صورة للحياة فى
روسيا القديمة. حياة متعبة، بتعبير الطف. وانا تعب
يا عزيزى الشاب، وهكذا اريد ان احصل على كل ما
استطيع ان احصل عليه من النوم، فلا تحكم على
بقسوة!

- ولكننى لم احكم عليك.

- لا، انك تحكم! ولكن من الطبيعى ان

يحكم الشبان على كل شخص. رغم اننا نحن الشيوخ
لا ندعكم تفعلون. ونحن لا نريد منكم منا ولا شكورا
على الطريقة التى عشنا بها حياتنا الماضية، اتفهم يا
عزيزى الشاب، مع السلامة، اذن!

وترجع فولوديا بتؤدة وغادر الغرفة وارتقى
السلم الحلزوني الى الايوان المفتوح على سطح «الطائرة».
وكانت النجوم تومض بدفء، وفى البعيد، فى البعيد

اللانهاى فى السماء السوداء ضوء صارخ ولعل اياه فى اسبانيا يرى نفس هذه النجوم، كما تراها فاريا فى المدينة، والعمة اغلايا تقضى ليلها فى نزل ريفى فى مكان ما، كما يراها غانيجيف، وبيتش، وابو فاريا من فوق جسر باخرته...

وامسك ركبته بيديه وحدق فى السماء، بقى مدة طويلة جالسا هكذا هو وحده، فى هدوء ليل الصيف الدافئ. وكان قلبه يخفق بتؤدة وتوازن، وكان رأسه صاخيا بشكل مدهش، وافكاره جلية ورصينة وفكر فى نفسه: «الناس قوم طيبون، ولا يهم فى ذلك ان يكون يفغينى ستيبانوف خنزيرا، كما لا يهم دوديك ولا فالنتينا. فالشعب لا يتألف منهم. الشعب ناس آخرون - انه بوبيشيف، وفينوغرادوف وبوغوسلوفسكى، وزوجته، والعم بتيا، وذلك المفتش الجسور، وابى، وفاريا، وغانيجيف، وبولونين. ومن المهم جدا ان يكون المرء ضروريا، شخصا يحتاج الناس اليه، شخصا لا غنى للناس الطيبين عنه. اما الآخرون فلا يهتمون كثيرا». ومن مكانه كان فى وسعه ان يسمع جرس البوابة الامامية. انها حالة طوارئ. عملية مستعجلة على اغلب الظن. واشتعل الضوء فى غرفة الطبيب المناوب وذلك يعنى ان الممرضة ايقظت فينوغرادوف. وبعد لحظة كانت النوافذ المربعة الواسعة فى قاعة العمليات طافحة بالنور. وقال فينوغرادوف وهو يفسل يديه:

- انها حالة صعبة!

ورغم أن حالة الرجل كانت ميؤوسة فقد دخل

المعركة. وخلال الساعتين التاليتين حاولوا كل شيء. وكان مريول فينوغرادوف مبتلا، وكان العرق يتصبب على وجه فولوديا تحت القناع الرقيق، وقد عقلت الممرضة الادوات مرتين. ولكن لم يكن بمستطاعهم ان ينقذوا الرجل بل استطاعوا فقط ان يجعلوه على الخط الفاصل زمنا أطول قليلاً. ولكن الموت كسب الجولة، فمات على طاولة العمليات، شاب جميل له جبهة عالية صافية، وجسم ضليع أخذ الآن يشحب وشفتان مشدودتان ثابتتان، وذراعان قويتان.

وسأل فينوغرادوف:

- أنتهى كل شيء؟

- نعم، - أجاب فولوديا، ووضع اليد التي بردت

الى جانب جسم الشاب، وكأنها مجرد شيء.

وسحب فينوغرادوف قناعه، وقال وهو يتنفس

بصعوبة:

- اى حظ كان لنا، يا للشيطان! اربعة رصاصات،

ثم الأماكن التي استقرت بها ايضاً. ولكن اى بنيان متين

هذا!

ورمق الوجه الساكن بأسف، وتحول ليذهب وأعطته

الممرضة شيئاً من الواليرانا وقطرات من الكونفا لارمين

في قدح، ورفعته في يده وكأنه كأس من الفودكا.

وقال في غضب:

- ما الذى يجرى الآن على اية حال؟ رمى شاب

بالرصاص! ما رأيك فى هذا؟ كان فى وسعه ان يعيش

خمسين عاماً أخرى على الاقل!

وحين عاد الى غرفة الطبيب المناوب ساله فولوديا عما حدث.

- كانت لا تحب زوجها. بل كانت تحب هذا الرجل.
غير أن الزوج كان يحب زوجته فقتل منافسه...
وزفر فينوغرادوف زفرة، وفتح النافذة على وسعها.
وسمع فولوديا أنيناً مكتوماً.
فقال فينوغرادوف:

- هذه هي. فأذهب وساعدها، يا فلاديمير
أفاناسيفتش. فهي في حالة سيئة.
وخرج فولوديا الى الحديقة. وكانت الممرضتان
بالفعل تقومان بما في مستطاعهما.
- أوه، يا إلهي، يا إلهي، لماذا، لماذا؟ - سمع
فولوديا بكاء خافتاً يمزق القلب - أوه يا إلهي، لماذا،
ولكن لماذا؟ دعوني أراه. دعوني أراه في الحال...
فقال فولوديا للممرضتين:

- دعيها!
وساعد بنفسه المرأة على الدخول الى الردهة
حيث نقلوا الجثة. وعند الباب سقطت على ركبتيها
وزحفت نحو الرجل الذي أحبته، مادة ذراعيها اليه،
هامسة:

- أصفح عني، اغفر لي، اغفر لي...
ثم نادته في همس:
- ايغور!
ثم بهمس أخفت:
- ايغور!

وحين التفتت الى فولوديا كان وجهها يرتجف.
- لا شيء؟ لا شيء يمكن فعله؟
ولم يجب فولوديا بشيء. وكان الوجه الميت ابيض
تماما. إلا ان نسمة الليل كانت تداعب شعره الاشقر
برقة.

وقالت المرأة:

- لقد قتلتموه هنا، يلعنكم الله! لقد كان حيا
عندما جئت به الى هنا! لقد قتلتموه، يا للجنة! هل كنت
تمرن يديك به، أيها الخنزير الشاب القذر؟ هل كنت
تتمرن على رجل لا حول له؟ تكلم!

فقال فولوديا:

- كيف يجوز لك؟ ألا تخجلين مما تقولينه؟
وحمت الممرضتان والملازم الطبي نيفيودوف
فولوديا من المرأة، وإلا لمزقت وجهه.
وقالت الممرضة له:

- اذهب، يا فلاديمير افاناسيفتش، اذهب! فلا نفع
لك في التحدث معها.

وذهب - محطما وتعيسا. ونظر في غرفة الطبيب
المناوب وسمع انفاس فينوغرادوف المتئدة، وخرج الى
الحديقة. ولكن صرخات المرأة كانت تصل الى اذنيه حتى
وهو هناك.

- قَتَلَةُ! لعنة الله عليكم، هذه فعلتكم،
انتم، انتم!

وفي نومه ايضا رأى وجهها يتلوى من الحزن

والكراهية، ويطفح الزبد من فمها. فلم كل هذا الكره
للأطباء؟ هل في وسعهم أن ينقذوا رجلاً ميتاً؟ هل في
وسعهم أن يقوموا بمعجزة؟

وكان عليه أن يغادر في اليوم التالي. وأعطاه
بوغوسلوفسكى رسالة موجهة إلى المعهد داخل غلاف
مختوم، وصحب تلميذه إلى رصيف الميناء. وكان ثمة
مطر خفيف، وسحب رمادية كدرة تتحرك بانخفاض
فوق قباب كاتدرائية بطرس وبول القديسين. وكان
بوغوسلوفسكى يحى الناس في الشارع كما كان يفعل في
يوم مجيء فولوديا، وهو يقلص عينيه التريتين الشابتين
وكان يتحدث مبتسماً:

— لا تكثر لذلك كثيراً. لقد قرأت في
«الازفيستيا» قبل بضعة أيام أن طبيباً في ريبنسك
يدعى نيكولسكى لم يشتم فقط، بل أصيب في الواقع. وفي
ايفانوفوفوزنيسينك ألقى رجل يدعى فيوكتيستوف
حامض النتريك على طبيب يدعى ويخمان. وبالكاد نجت
الدكتورة نارتسيسوفا بحياتها. صباح الخير ياسيرجى
سيميونوفيتش. وفي كالوغا قام ثلاثة من المدمنين على
المورفين بأعمال القتل في المستشفى الذى يعالجه.م.
كيف حالك يا الكسى بتروفيتش؟ وعليك أن تتذكر، على
اية حال، أن هذه الحالات تحدث الآن أقل كثيراً مما
كانت تحدث قبل الثورة، أقل بثمانى مرات في الحقيقة.
وبمرور الزمن سوف تتلاشى هذه التجاوزات وستنقضى،
وتنسى كما ينسى حلم مزعج غص...

وصافح فولوديا، وعاد الى عربته، رجلاً مقوس الظهر قليلاً يرتدى مشمع مطر قديماً، وقبعة جلدية قديمة الطراز. ولكنه عاد فجأة. وصمت، ونظر إلى فولوديا نظراته الشبيهة بنظرة الديك وسأله:

- اصغ يا فلاديمير افاناسيفتش. ربما سأغادر جورني يار إلى أماكن قصية في المستقبل، لا اليوم ولا غداً، فهل تأتي معي؟

- ومستشفى جورني يار؟

فأجاب بوغوسلوفسكى ضاحكاً:

- سيظل في مكانه. ولكنني، واقول لك بصراحة، لا أجد فيه خطوة أبعد. وأنا أحب المعارك وغليان الحياة، والبدء من لا شيء. حسناً، ألا تأتي؟

- آتى، - قال فولوديا في تصميم وقد طفق الامتنان والفرح في تلك الكلمة، - اعذرني على ازعاجي لك، وشكراً على كل شيء!

- احتفظ بالسر في الوقت الحاضر. ولكنه سيكون عملاً ممتعاً. والامتناع ليس الكلمة المناسبة له، فسيخلق لنا متاعب جمّة، والله يعلم...

وذهب الى حصانه وعربته. وكان فولوديا ينظر بارتياح الى الطريقة التي يضم فيها العنان بيديه في ايماءة فتية، حاذقة مجربة والطريقة التي يمس بها الحصان الرمادي بسوطه. وانطلق عائداً الى المستشفى دون أن يلقي نظرة الى وراء، غارقاً كالعادة في أفكاره الخاصة.

وفكر فولوديا: « الى اللقاء يا صديقى العزيز » .
وحدد في اشتياق بالطريق التي اختفت فيها العربة منذ
زمن. « الى اللقاء، أيها الرجل الطيب، أشكر على كل
شئ، وعلى كلماتك عند الوداع ايضاً. يعنى ذلك اننى
لست عديم الجدوى كلياً. اذ انه يدعونى لاشاطره عملاً
صعباً. فمن المهم جداً لقدر نفسك ان تعرف من الآخرين
انك لست رجلاً تافهاً » .



الفصل العاشر

دوديك وزوجته

انقضت ستة اسابيع لا غير، إلا أنه تغير تغيراً كبيراً حتى أن فاريا لم تصرخ في الحال: «أوه، فولوديا!» حين التقت وجهاً لوجه بهذا الرجل الطويل العريض المنكبين، غير الحليق المرتدى مشمع خيش مجعداً، وحذاء طويلاً متهرئاً. — أوه، فولوديا، — قالت ذلك بعد برهة مذهشة وسعيدة.

وكانت السماء ترسل رذاذاً، وقد جاء الخريف في ذلك العام مبكراً، وبارداً رطباً. وتساقطت قطرات المطر على وجه فاريا، ومشمع فولوديا، وبقيت على شعره،

ورموشه الكثيفة. وياللسماء، كم نما حبيبها فولوديا!
قال فولوديا:

- أوه، تبللت كتبي، يالللجحيم!
- مرحباً، - قالت فاريا دافعة كتبه المشدودة
بسلك. وارادت ان تضع يديها على كتفيه، وتضمه اليها،
وتقبله، وكانت الكتب معترضة طريقها. ولكن، كانت لها
طريقتها الخاصة في اتيان الامور، وقبلت فولوديا على
اية حال.

وقالت:

- فيك رائحة المستشفيات! واحتكاماً برسائلك،
انت الآن طبيب تماماً. أليس كذلك؟ لا تبتمس لى تلك
الابتسامة المناصرة، أجبني...
أجاب فولوديا:

- ماذا فى وسعى ان أقول؟ أنا نصف مطبوح لا
غير، وهذا كل ما فى الأمر. وعلى اية حال أنا لا أنصحك
بأن تدعيني اعالجك.

- لقد عاد يفغيني مهيباً...

ومشيا صاعدين على طول منحدر الشاطئ. وظل
المطر الخفيف يسح، وكانت ثمة سواق صغيرة وحلة
تجرى على طول الطريق. وتكلمت فاريا دون توقف.
والقى اليها فولوديا نظرة حائرة: لم تكن ثرثرة على هذا
النحو من قبل، ربما حدث شيء ما؟

وسأل:

- ألم تأت اى رسائل من هناك فى المدة الأخيرة؟

قالت:

- من هناك؟ لا. ما من رسالة منذ امد بعيد. هل رأيت صحيفة الأمس؟ هل قرأت عن ذلك اللواء الرائع الذى عبر نهر إبرو مقتحماً؟ والبطارية المسماة باسم ارنست تايلمان...

- لماذا ترغين هكذا؟

فصرفت فاريا وجهها عنه، وأمسك كتفيها، وجعلها تنظر اليه. وكان يعرف ذلك: لقد كانت تبكى بالطبع. وسأل فولوديا:

- هل جرح؟

- لا، لم يجرح أبوك، وأبى حى، - اجابت فاريا بذلك فى حزم.

فلم ينتبه فولوديا لعبارتها الغريبة.

- ليس هناك اذن شىء يستوجب البكاء. لقد خفت طاعتك وانت بدونى. هكذا...

فقالت فاريا موافقة:

- نعم، لقد تفككت أعصابى.

- اى اعصاب لك! أنت صبية، وحتى السماع بذلك مضحك.

ومشيا إلى بيت ستيبانوف. وكان من المتوقع أن لا تعود العمة اغلايا من رحلتها إلا فى اليوم التالى. وكان يفغينى مستلقياً على الأريكة. كان قد عاد هو الآخر من توه بعد أن قضى مدة التدريب العملى. وكان يبدو كدر المزاج على اية حال.

وقال ما إن غادرت فاريا الغرفة:

- أنا احترق فى نار زرقاء! وما من أحد اتشاود

معه. إنها حكاية حمقاء لا غير. إننى أودها بالطبع
كإمرأة وكصديقة، ولكن الزواج شئ يحتاج الى التفكير
فيه ثم أن هناك أباهاً، وهو عميد، فإذا استعمل لسانه
فسأكون هالكا...

وانصت فولوديا مقطب الوجه.

وقال بعد برهة:

— أنا لست مشاوراً فى مثل هذه الأمور. ولكن
بصورة عامة أنت حيوان قذر بالطبع.
— وانت قديس! إنتظر، وستصنع لك أختى قرناً
رغم قداستك، وحينئذ ستفهم... ان طبيعة الانسان هى
طبيعة الانسان...

وأراد فولوديا أن يحرك ساكن غضبه غير انه لم
يستطع ففكر: « ذلك مثلما أن يكون احدهم أشقر والآخر
اسمر. ولا لوم على الشخص إذا كان أسمر بالطبع.
وكذلك الأمر مع يفغينى. فلا ينفع أى عمل لشفاء حمقه،
وانانيته وبخس قيمه أو فلسفة الحياة التى اتخذها
لنفسه مرة والى الابد ».

وكانت على طاولة مستديرة صغيرة — يراها كل من
يدخل الغرفة — كومة من شهادات الشاء الخاصة بعمل
يفغينى كمحاضر. نظر فولوديا اليها — وكانت من مختلف
الحجوم بعضها فى ورق رسائل، وبعضها كتب على اوراق
انتزعت من دفاتر مدرسية، وبعضها كتب حتى على ظهر
ورقة مطبوعة مستعملة، ولكنها كانت مصدقة جميعاً،
ومذيلة بتواقيع وأختام مطاطية. وقد اطريت محاضرات
يفغينى اطراء كثيراً وكانت حول مواضيع مختلفة بما فى

ذلك الاجراءات الوقائية ضد السرطان، والصحة الشخصية، والعدوى اللاهوائية ومرض الحمرة، والتمرير الجسماني للأطفال.

وقرأ فولوديا في احدى الشهادات « الآفاق التفاؤلية التي اعرب عنها المحاضر... »
فسال فولوديا:

- في كل يوم محاضرة على العموم؟
- ماذا تنتظر؟ في بعض الاحيان اثنتان. انت تعرف كيف ان الشعب السوفييتي يسعى الى المعرفة. انا اشعر بالانهاك كالكلب، يا عزيزي.
- وماذا كنت تفعل في المستشفى؟
فقال يفغيني بغموض:

- اوه، يالى! وبالإضافة الى ذلك، لاحظ، كان على أن ألقى المحاضرات على الممرضات والملازمين الطبيين، واتحدث الى المرضى، واقوم بواجباتي الاجتماعية الأخرى...

- يعني أنك كنت مسامراً لهم؟
وكانت طريقة مدهشة تلك التي أبى فيها يفغيني أن يزعل وترك الملاحظات غير المسرة تمر غير مسموعة.
فلم يقل إلا:

- يالك من طفل مسكين، انت لا تعرف الحياة على الإطلاق يا عزيزي الغالي!
وسمن شاريك تحت رعاية فاريا فجاء يهرول من الباحة مرحاً وكان في فروته لمعان جميل، وكان في عينيه نور مرح.

وقالت له فاريا:

— ارنس! مُتْ هنا، يا ارنس!

واستلقى ما كان يسمى شاريك سابقاً «ميتاً» على الأرض، ثم جاء بحذاء فاريا، و«أخرج صوته». وراقبها فولوديا بأناة شيخ حكيم، وفكر: «ما زالت طفلة تماماً!»

— أوه، يا سعادتي! — قالت فاريا لشاريك — سأكلك الآن — وعضت أذن شاريك في الواقع.
فتأوه يفغيني قائلاً:

— هذا مارستان حقاً!

وكان يمشى في الغرفة جيئةً وذهوباً ممتدحاً البروفيسور جوفتياك مسمىً إياه «بالعجوز الطيب» و«العجوز الرقيق» و«العجوز المقتدر» و«عجوزنا». وكان ينم من أقواله أن فولوديا هو المعلوم على الموقف غير السليم الذي وقفه الصف من جوفتياك في المعهد. فالواجب احترام سنه والطريق الذي قطعه في حياته واحترام قلب العجوز الطيب.

وسأل فولوديا:

— متى اخذت تعرفه بهذا القرب؟

— لقد قضى الصيف حيث كنت، وكنا نخرج معه لصيد السمك، وبصورة عامة أصبحنا أصدقاء سريعاً.
فقال فولوديا ضاحكاً:

— إستمِر، إستمِر، وانت من طبقه.

— حماقة!

— لماذا حماقة؟ سترى، فسيبدأ في إسنادك، فمن

غير المريح ان يفعل ابو ايرياذا ذلك. ولا بد من ان لجوفتياك من يستند اليه، وستجران ميشا شيرفود معكما ايضا، فهو فتى ذكى، كما تعرف، ليس مثلك... واختلج انف يفغينى مثلما يختلج انف الارنب وبطريقه مضحكة، ووافق بصراحتة الخالصة:

- نعم، ولم لا؟ انها لفكرة رائعة! إن شيرفود ذكى، وموهوب كما ينبغى ان اقول، وفي وسع جوفتياك ان يستند اليه بامان تام...

وعاد الجد من السوق، وقدم لهم حساباً طويلاً عن الاسعار، وتذمر من انه لم يحصل على كبد عجل لا هنا ولا هناك. وكانت ثمة تلال من الجزر، ولكن من يريد ها؟ «هل نحن ارانب ام ماذا؟ ها قد اشتريت سلة كاملة منها، ولكن ما من كبد تباع».

فقال يفغينى:

- قل لى يا جدى العزيز، هل ذقت اللحم غالباً عندما كنت فلاحاً فى روسيا القيصرية؟ أتوقع ان ذلك كان لا يحدث إلا فى عيد الميلاد وعيد الفصح، على احسن تقدير...

وتحير العجوز.

فقال يفغينى بلهجة ناصح:

- انا سعيد بانك ترى ذلك. بالطبع لدينا نقائص، على الاخص فى التجارة، ولكن ينبغى ان لا نبالغ فى ذلك. لا، فان ذلك لا ينفع على الاطلاق. إن خلق الاشاعات فى السوق هو من نصيب ضيقى الأفق.

فقال الجد:

— أوه، انا لا أريد شيئاً من هذا الكبد. فما يهمنى منها؟ ولكن فاريا تريد دائماً الكبد المقل...
فقلت فاريا:

— اترك جدى، وشانه. لماذا تضايقه؟
وشرحت فاريا لفولوديا:
— منذ أن عاد مساء أمس، وهو يعلمنا طول الوقت!

وجلست قريبة من فولوديا، وضمت يده بين يديها، ونظرت فى عينيه. وقالت:

— هل تعرف؟ اليوم عيد ميلاد دوديك، زوج أمانا. يبدو ذلك حماقة، ولكنهم سيتأثرون جداً إذا لم نحضر. لقد دعونا مقدماً، وكذا، وكيت. وعليك ان تاتى معنا.

— نعم، تعال،— قال يفغينى عن طيب خاطر،—
لنتعذب سووية. الطعام هناك دائماً غير لذيذ والجو مضجر بالطبع. ولكن الأم هى الأم، ولا مفر لنا من ذلك، فأغتسل، وألبس، ولنذهب سووية. فنحن الجيل الفتى، زهور الحياة قبل كل شىء، فلنذهب ونزين بحضورنا مجتمعهم الآسن...

فقلت فاريا:

— حقيبتك قرب باب غرفة الحمام فى الممشى.
واغلق يفغينى الباب باحكام بعد ذهاب فولوديا.

— لن تقولى له شيئاً؟

— لا، لا أستطيع!

— ربما، أنا؟

- لا تحشر نفسك. لا يمكن ان يقول ذلك إلا أبى.

- وإذا ظللت تبكين طوال الوقت؟

- ليس هذا من شأنك.

وهز يفغينى كتفيه وقال:

- على أية حال، يجب ان نبقيه معنا أكثر، فالحال

أحسن مع الآخرين دائماً. ولكن حقيقة كهذا، أى الموت

فى قتال ضد الفاشية، وبشجاعة كالتى اظهرها أبوه...

- اسكت!

فتح فولوديا حقيبته، وتناول منها طقماً من

الملابس الداخلية التى غسلتها وأصلحتها صاحبة البيت

فى جورنى يار، ورسالة بوغوسلوفسكى الى العميد بغلافها

المختوم، وزوجاً من الجوارب، وربطة عنق لم تسنح له

مناسبة قط بارتدائها، وقميصاً رمادياً من النوع «الذى لا

يكوى». ونظر بلهفة الى كتبه المشدودة بسلك. إنه لم

يقرأ سطوراً واحداً فى جورنى يار.

وخرج يفغينى من غرفة الجلوس، والقى نظرة على

الرسالة، وصفر:

- اود لو اتصور ماذا كتبوا عنك! لنفتحها

بحذر، وبعد ذلك فى وسعك ان تقول لهم أن الختم قد

أنكسر. هيا لنقرأها! ذلك شىء ممتع!

فقال فولوديا:

- ضعها فى مكانها!

فقال يفغينى:

- أوه، فىك رائحة المستشفى. ولم تحصل لنفسك

على شىء جديد. أما أنا فقد حصلت بهذه المناسبة على

بدلة ممتازة من مخزن الدولة هناك. وكانت صفقة بالطبع، فقد القيت محاضرة - مجانية بالطبع - عن «الصحة في الزواج»، قدمتها بتوازل لاذعة. وكل شيء كان في الحقيقة. ونحن في آخر سنة فيجب أن نبدو محترمين...

وتركه فولوديا يتحدث، فقد قرر أن لا يتجادل مع يفغيني مرة أخرى. فان ذلك مضيعة للكلمات، لا غير. وبعد أن حلق دخل تحت شؤبوب الماء، واستمتع طويلاً بشعائر الاستحمام التي ورثها من أبيه. فقد علمه أبوه أن يزيد الصابونة وأن يحك جسمه تحت ماء قليل، ثم تحت ماء كثير، غاسلاً جسمه غسلاً «ابتدائياً» ثم غسلاً «نهائياً»، وأن يختبر نظافة شعره بأن يرسل «صريراً» لدى حكه. وفي الأيام الخوالي كان يذهبان سوياً إلى الحمام، وكانا يدلكان جسميهما كلياً، ثم يدخلان غرفة البخار حيث كانا يثنان ويلهثان من الحرارة، وبعد أن يشربا الكفاس البارد يبدأان مرة أخرى. ولا بد من أن أباه وجد حماماً عاماً في إسبانيا، نوعاً مصنوعاً من المرمر، ربما، فيه أعمدة منحوتة، وملائكة وردية رسمت في السقف.

سأل يفغيني:

- هل ستغتسل مدة أطول؟

وربطت فاريا ربطة العنق له، إذ أنه كان عاجزاً تماماً في مثل هذه الأمور، ومسدت شعره بفرشاة، أما يفغيني فقد نشر العطر على نفسه. وساعد فولوديا فاريا في ارتداء معطفها.

ونادى يفغينى الجد من المطبخ:

— سوف لا نتناول غداءنا فى البيت اليوم.

— لا اهتم،— اجاب العجوز وهو يقلب صفحات

مجلة «أوغونيوك». فقد كان يحب النظر فى الصور.—

ليت شعرى ماذا ستأكلون هناك؟ فقد رايت

طباختهم فى السوق هذا الصباح. وهى تقول إنهم لم

يعطوها إلا فلوس ضئيلة، وقالوا لها ان تطبخ غداء

لفرقة كاملة...

وكانت هناك ايريادا، وبعض النسوة المتزينات

كثيراً وكان فولوديا لا يعرفهن. وكن يجلسن فى الشرفة

الباردة لبيت فالينتيننا أندريفنا. وكانت ايريادا تزين

المائدة باوراق التوت الصفراء واوراق الاسفندان. كل

ورقة بمثابة «فوطه» تحت كل صحن وقدر.

— أوه، وصل الطبيب الريفى،— قالت فالنتينا

اندريفنا، وقدمت لفولوديا يدها وقد رفعتها وأعدتها

ليقبلها. ولكنه هزها بقوة مصافحاً،— حسناً، ماذا كنت

تفعل؟ تعالج المرضى طوال الوقت؟

— نعم، طوال الوقت،— اجاب فولوديا بعبوس.

وكان دوديك خارج البيت: فقد كان يرعى بعض

سباقات الدراجات البخارية. وكان كلبه المستعمل فى

الصيد ينبح وهو فى سلسلته فى الفناء. وكانت لوسى

ميخائيلوفنا، وهى صديقة لأم يفغينى، تتحدث وحاجباها

مرفوعان بتشامخ:

— أه، يا عزيزتى لا تجادلينى. إن التجاعيد المبكرة

تظهر لأننا لا نعى العناية اللائقة بانفسنا. خذى الضحك،

مثلاً. فأنظري كيف أضحك. أشكل دائرة مفتوحة
بشفتي، وأصدر الصوت هيؤ - هيؤ - وأظهرت لوسي
ميخائيلوفنا كيف تضحك ثم قالت: - عملية الضحك تتم،
ولكن الجهاز العضلي لا يرتخي...

وحدد فولوديا بالمرأة، وكان على فاريا أن تلکزه
على ضلوعه لتوقفه عن ذلك، وكان يفغيني يتمشى في
الشرفة، يدخن، ويتشاجر في غيظ مع إيريادا. وكان
ماكافينكو، وهو رجل ممتلئ سليط، يسامر السيدات
كالعادة بالقصص المضحكة، وكالعادة أيضاً كان هو أول
من يضحك.

ووصل ضيفان آخران - زوجان. كان فولوديا لا
يعرفهما. وكان للزوج وجه أسد، وكانت الزوجة ترتدي
حريراً يرسل حفيفاً عالياً حتى بدت وكأنها تهمس طوال
الوقت.

وسأل فولوديا فاريا:

- من هما؟

فقالت له فاريا:

- هي الخياطة الرئيسية في البلدة و تسمى « مدام
ليس » على الطريقة القديمة. والرجل زوجها، وهي تأخذه
الى الحفلات معها.

وعادت لوسي ميخائيلوفنا الشاحبة المتفضنة الى
محاضرتها ثانية:

- يبرهن العلم على ان ظهور التجاعيد مبكراً يعود
كذلك الى وضع جانب الوجه من الرأس في موضع غير

مرغوب خلال عملية النوم. ويمكن تجنب التجاعيد المبكرة إذا راقب المرء نفسه خلال النوم...

ورأت فولوديا يشبث عينيه بها، فشككت «دائرة مفتوحة بشفتيها» عوضاً عن الابتسامة، وسالت:

— أليس صحيحاً يا طيبينا الشاب؟

فأجاب بصوت سليط:

— لا أعرف، فنحن لم ندرس الموضوع بعد. ثم

كيف يمكن ان يراقب المرء نفسه في النوم على أية حال؟

— هيؤ — هيؤ — هيؤ — ضحكت لوسى ميخائيلوفنا

— سهل جداً، جداً. ويجب أن أقول، أيها الرفاق، أننا

جميعاً لا نفكر إلا قليلاً جداً بالتدليك الذاتى الذى يتم

عن طريق طبخة التجاعيد والفضون والترهلات...

وهمست فاريا لفولوديا:

— سأتقيا في دقيقة واحدة! ما أظع حديثها عن

هذه الطبخة!

ولكن لوسى ميخائيلوفنا لم تستطع ان تتوقف:

— ان التدليك الذاتى هو غويتي، والاول والآخر

عندى، هو ولعى. والآن طبطبى بيدك اليمنى على التجاعيد

في الجهة اليمنى من وجهك، وطبطبى باليد اليسرى على

التجاعيد في الجهة اليسرى من وجهك، كما يجب أن تربتي

على الترهل تحت العينين باطراف أصابعك. ثم كيف

تداربين الترهل والتجاعيد تحت الفك: يجب أن تربتي

بظهور أصابع كلتا يديك في آن واحد...

وبدأت الطبخة تحمل السلاطة، انواعاً كثيرة من

السلاطة في كأسات زجاجية جميلة، مؤلفة من البطاطة

والجزر والبنجر والخس والبصل، وتشممها ماكافينكو
وقال بوقاحة:

- دائما عند المتزوجين حديثا خضروات! علف
اخضر! انها صحية، ورخيصة، ولها مذاقها الخاص. وقد
قلت لكم من قبل، كما تعلمون، اننى احب اللحم.
وجاء دوديك بسيارته. واول ما فعله هو ان شغل
الغرامافون ذا الماركة الأجنبية فى داخل غطاءه. ووضع
احدى اسطوانات فرتنسكى:

اصابعك تفوح برائحة المر.
وفى عينيك يغفو الأسى...

وقال يفغينى لدوديك بصوت خفيض:
- انظر! هذا تجاوز. لقد جئت واختطف
الغراموفون ببساطة. لقد حملت جدى على اعطائه لك
وأنا غائب...

قال دوديك:

- أوه، كفى، أيها الرجل العنيد!
وكان قد حلق من توه، وتبودر. وكان فى ذقنه
غمازة وبين اسنانه غليون قصير مستقيم انكليزى الصنع.
وكان من الأناقة بحيث قد يرتاب المرء فى أنه لص دولى.
وشربوا الفودكا، والماديرا، والبورت، والبيرة
والشارتريز. وجلست فالنتينا اندريوفنا واطراف
اصابعها تضغط على صدغيها.
وقالت ليفغينى:

— أحقاً أن العلم لا يستطيع أن يفعل شيئاً بشأن
الصداع النصفي؟ إنه يقتلني منذ ثلاثة أيام، ثلاثة أيام
بطولها!

وكانت السيدة غوغوليفا، زوجة المحامي، تتشكى
دائماً من الصداع النصفي، وكانت تضغط أطراف أصابعها
على صدغيها.

وقال يفغيني:

— أشربى قليلاً من الفودكا يا أمي، فستوسع
الشرايين الدموية، ويتلاشى الصداع.

— حقاً؟ — قالت وهي توسع عينيها دهشة.

وبعد الفودكا شربت الماديرا والبيرة.

وكانت لوسي ميخائيلوفنا تقول في الجانب الآخر
من المائدة:

— أوه، لا، ماذا بك؟ هناك عالم من الاختلاف بين
العناية بالجلد الدهني، والجلد الجاف. هذه بديهية. ذلك
من الجهل مثل استعمال المراهم المرطبة، ودهونات
التدليك عند وجود الجمرات...

وتوسلت فاريا بصوت خفيض:

— فولوديا، كف عن الحملقة! لا تصغ، وهذا كل
ما في الأمر. لا حاجة إلى التدقيق في كل شيء...

— ولكنني لا أدقق في أي شيء.

صاحت:

— لا، انت تدقق! الأحسن أن تشرب شيئاً من
الفودكا!

- إنه مضحك للغاية، - كان دوديك يقول ذلك.
وكان يجلس في منتصف المائدة، وحوله باقات الورود
وزجاجات الخمرة، - شيء مضحك. في جو ممطر، وعلى
المتسابق أن يراعى بعض القواعد...
وصاح ميكافينكو بوقاحة:

- مرحى! مرحى! أعتقد اننى عثرت على قطعة من
اللحم البقرى فى هذه السلطة! وبهذه المناسبة اقول ان
مدام ليس تستمتع بطعام آخر قدم لها خصيصاً. هناك
سلطة من دجاج. مرحى للمتزوجين حديثاً، مرحى
للكريمين!

وضربت مدام ليس يد ميكافينكو. وزوجها الأسدى
الوجه صب لنفسه قدحاً كاملاً من المشروب الدبق.
وسالت ايربادا:

- يا مدام ليس، هل صحيح أن موضحة «الفيغارو»
ستشيع ثانية؟.

فأجابت مدام ليس:

- إن الحديث عن العمل لا يكون إلا فى جو عمل،
يا حبيبتي!

فصاحت فالنتينا اندريفنا وهى تصفق:

- برافوا، برافوا! بصراحة دعونا، العمل لا يكون
إلا فى جو عمل! وفى هذه الليلة سنشرب، هذا عيد، عيد
عائلى!

وكانت فالنتينا اندريفنا فرحة. وقد صعدت الخمرة
الى رأسها، وبدت وليمة الغداء مثل ولائم الغداء التى كان
يقيمها آل غوغوليف بالضبط. فقد كان هناك أولئك

الناس المحترمون ياكلون ويشربون على مائدتها، ولا أحد يتحدث عن البواخر، والبنادق، والمناورات أو ساعات الطيران، وما من صوت أجش ينطلق باغانى عن الفرسان الحمر.

وبعد السلاطات قدمت الطباخة لكل واحد منهم صحناً من الحساء الصافى مع فطيرة لحم صغيرة؛ ثم قدمت لهم شرائح صغيرة من اللحم مع البازلاء، ثم كعكة هائلة بشكل مخيف، دهنت بشكل غير مرتب.

وهمست فاريا لفولوديا:

— جاء بها ماكافينكو. وهو مسؤول عن قسم صنع الكعك. وتقول أمى ربما سيرمى فى السجن قريباً، فهو يسرق بشكل هائل.

وشعرت فالنتينا بالغثيان، والغداء لم ينته بعد. واختفى يفغينى وايريادا، وساعد فولوديا فاريا لتصبح أمها الى غرفة النوم التى وضعت على طوار نوافذها أصص الصبر، وعلى الحائط علقت صورة صَبِير.

وراقب دوديك زوجته وهى تغادر الغرفة، و فرغ غليونه بكعب حذائه، وقال لماكافينكو:

— هذا ما يسمى بنعم الحياة الزوجية. أنا لا أستطيع حتى الخروج لأنها ستبدأ تصيح أنها مريضة، وأنا اتسكع...

واقترح ماكافينكو:

— لنشرب!

— هيا!

وانضمت اليهما لوسى ميخائيلوفنا وامرأة فى

منتصف العمر تدعى بابه. وكان شعر بابه قد قص قصاً
قصيراً وملونا حديثاً ومجعداً مثل فروة حمل صغير.
وكانت كتفاها الورديتان عاريتين.

وقال ماكافينكو السليط:

— حسناً، يا كبيرات، سنحارب الترهل، اليس
كذلك؟ لقد سمعت أن القناع المصنوع من طحين الجودار
كثيراً ما يساعد الحسنان اللواتي تجاوزن الخمسين،
فانه يشفى التجاعيد. تلتطخ السيدة وجهها وكفى!

فصاحت بابه:

— قول لا يليق برجل جنتلمان! ينبغي أن يكون
المرء رقيقاً...

فقال لها ماكافينكو:

— أنا لا أدعى بالجنتلمانية. أنا أعمل في التجارة،
يا حبيبتي، والتجارة يحكمها قانون الغاب!
وقرص كتف بابه الوردية قرصة لطيفة:

— غام— غام! هل فرغت؟

ووضع دوديك اسطوانة في الغرامفون وسال كوكي
أخت بابه الصغيرة أن ترقص معه. ودعا ماكافينكو بابه.
وغنى صوت مخملي يفيض بالدسم:

حين قبلت الشمس المتعبة

البحر عند الغروب، مودعة،

قلت، يا حبيبتي

إن الحب قد انتهى...

وجلس فولوديا في مكتب دوديك وأخذ يقلب كتبه
بغضب، وفي الغرفة المجاورة كانت فالتينا اندريفنا،

مستلقية على سريرها، ممسكة بيد فاريا، باثة لها همومها:

- انت لا تتصورين كم من الصعوبة ان اعيش معه يافتاتى الصغيرة. هو يصر على ان تكون لى اهتماماتى الخاصة، وهو فى الواقع يرغمنى - وهو ذو ارادة قوية فقد رايت فكه الضخم - حسناً هو فى الواقع يرغمنى على ان ادخل دورة خياطة. وليس ذلك لأنه من مصلحتى فقط بل لأن ذلك يعنى فلوساً. هو مجنون. هو يريد ان يخلق دنيا من الجمال حولى، هو يريدنى ان استمتع بكل لذائد الحياة دائماً. ويقول لى «يا صغيرتى» - هو يحب ان يدعونى «يا صغيرتى» و «يا حلاوتى» و «يا طفلى» - يقول لى: «يا صغيرتى إن لك ذوقاً رفيعاً، وفى وسعك ان تكونى الخياطة الرئيسية فى البلدة». ولا يعنى ذلك أننى سأصنع الثياب بيدي، بل أصدر الاوامر فقط... خذى مثلاً ما يسمى بالثياب المحكمة التفصيل. إنها مريعة، لا خط على الاطلاق. فهم لا يعرفون أبداً كيف يأخذون قياس الفخذ. أنا وبابه نتعلم الآن فى دورة عند مدام ليس...

ونادى فولوديا بعبوس من الغرفة المجاورة:

- فاريا، تعالى!

فاجابت فاريا:

- انا آتية!

وسالت الأم:

- هل هذا فولوديا؟

فهزت فاريا رأسها.

فقلت الأم:

- هو غليظ على أي حال، جاني الطبع، وخال من كل سحر. والسحر هو كل شيء في الرجل. وأنا الآن أقرا دستويفسكي. إن الأمير ميشكين أبله، ولكن أي سحر فيه!..

فقلت فاريا في شجن:

- ماما، أرجوك! لا تتحدثي عن أشياء لا تفهمينها!
- ماذا تعنين بذلك؟

- لا تتحدثي عن الأمير ميشكين رجاء.

- أنت فظة معي يافتاتي الصغيرة، أنت فظة مع

امك...

- لا تتحدثي عن الأمير ميشكين، لا تجسري، -

صاحت فاريا ذلك، وهرعت خارجة من الغرفة.

- فاريا، عودي، أنت وقحة، فاريا!

فهمست فاريا لفولوديا:

- لنخرج من هنا!

وسكر زوج مدام ليس، وسقط نائماً على الأريكة.

وكان وجهه الشبيه بوجه الأسد يتوسد مخالبه الضخمة

المشعرة. وكانت مدام ليس ترقص مع دوديك. وكان

الصوت المخملي ما زال يتغنى بالشمس المتعبة. وكان

كلب دوديك الأبيض الذي أثارته هذه الحياة الغريبة

يصلصل بسلسلته، ويعوى مجيئاً على نحيب الأغنية،

وكان ماكافينكو الجالس على حافة المائدة يلقي خطاباً

موجهاً لكوكي أخت بابه:

- نعم، إن الغرض من الحياة هو أن تحصل منها

كل ما تستطيعين، دون ان تؤجلى تحقيق رغائبك دقيقة واحدة، ولا ثانية واحدة! فاصغوا الى جميعا، كما يقولون في اوديسا! انا مادي، ولا اؤمن بنعيم السماء بعد الموت. تعال هنا، ايها الشاب - صاح مناديا على فولوديا وقد وقعت عليه عيناه وهو في المدخل - تعال سريعا! احسب أنك لا توافق على الفكرة. هل هو لا يتفق معي يا عزيزتي كوكي، أيوافق؟ إذن ماذا؟ انا انال من الحياة كل ما أريده، لأنني لست مثاليا مثل بعض من اعرف...

وقالت فاريا:

- لنذهب يا فولوديا!

وسأل فولوديا:

- لماذا جئت بي الى هنا؟

استشهد الأب

وكانت السماء ما تزال ترسل رذاذاً. وذهبا الى السينما يداً بيد. وقبل الفلم القصصى، عرض فلم اخبارى عن الحوادث في اسبانيا. وكان الالمان من لواء تايلمان يغنون «الكارمنول». ودبابات المتمردين تتقدم في اتجاه خاراما، والمدافع المضادة للطائرات تطلق قنابلها، والمتطوعون يأتون الى منطقة جسر سيغوفيا. وطائرات «اليونكرز» الشيطانية الهائلة تلقى احمالاً بعد احمال من القنابل على مدريد القديمة الجميلة.

وقال فولوديا بخشونة:
- كفى عن البكاء، يا للسماء!
- لا أستطيع، لا أستطيع، لا أستطيع! - قالت
فاريا بين النشيج.

ولم يظلا حتى يريا الفلم القصصى الى النهاية. فقد
كانت قصة الحب رخوة ناعمة منذ البداية. وكانت
الموسيقى من طراز «الشمس المتعبة»، والبطل كان
يشبه دوديك، بغمازة الذقن والغليون القصير المستقيم،
وكل شيء. والفرق الوحيد هو أنه لم يكن يدعى دوديك،
بل الرفيق المدير.

وقالت فاريا:

- فجأة أصبح كل شيء صعباً للغاية!

- ولماذا؟ - سأل فولوديا مستغرباً.

فامسكت يده، ولم تقل شيئاً.

وعندما وصلا الى البيت رأيا يفغينى وايريادا
جالسين على الأريكة لا يستضيئان بغير مصباح صغير عليه
عاكس نور كثيف. وكان كلاهما يبدو غير مرتاح.

وقال يفغينى فى سخرية:

- يمكن ان تهنئنا - (وكان لسبب من الاسباب

يتحدث بسخرية فى حضور ايريادا) ونحن نقبل التهاني!

فسالت فاريا:

- عماذا؟

- عن قرارنا فى ان نجعل علاقاتنا رسمية فى

مكتب التسجيل.

- نعم، - قالت ايريادا مؤكدة وقد خششت
سلاسلها ومدالياتها المتعددة، - وكما يقال باللغة
الدواوينية: لقد حلت المسالة حلاً ايجابياً!

وضحكت دون فرح كثير.

وقال يفغيني وهو يتمشى في الغرفة:

- ونرجو لكم ذلك أيضاً، قبل ان يفوت الأوان.

فان ذلك أكثر كياسة...

فسألت فاريا في حيرة:

- ماذا تعني؟

- أعني، يا أختي العزيزة، أننى احب ان يكون

الزواج اختياراً حرّاً، لا ضرورة تقليدية. فنحن الاثنان،

مثلاً، قد لعبنا حتى الضرورة..

- يا ابله، يا مغفل، يا حيوان، يا وقيح، يا

تافه...

فتوسل اليها يفغيني:

- فاريا، لا تشتمى، فمن السهل عليك أن تشتمى،

ولكن فكرى بما اشعر أنا وايريادا في ذلك. والافضل

ان تخبرينى كيف الحال هناك؟ أحقاً انها تريد أن تكون

خياطة؟

واصفى الى فاريا فقال:

- إن الخياطات الماهرات، على العموم يحصلن على

فلوس كثيرة. ولما كنا لا نعيش معها فلا يهمننا امرها

حتى إذا قبض عليها مفتش الضرائب. ولكننى شخصياً

اتوقع أن احصل على شيء ما من هذه الفعلة...

فصاحت فاريا:

— أوه، يا للسماء! أنا لم أر ندلاً بمثل هذه
الحال الصافية النقية!

وسأل يفغيني باستغراب صادق:

— ولكن لماذا تدعوني ندلاً؟ هل أنا آكل الاطفال
ام ماذا؟ أنا على وفاق رائع مع الكل. وليس لى اعداء.
ولكن بالتأكيد على أن افكر بنفسى، أو هل سيتحمل
صديقك فولوديا همومى؟ أو ربما تنوين مساعدة اخيك
صاحب العائلة مادياً؟ أو أن أبى سيرمى الى مبالغ كبيرة؟
حسناً، آمل فى ان والد زوجتى العتيدة، الرفيق العميد،
سيقدم لنا شيئاً، ولكنه لن يكون شيئاً كثيراً على أية
حال. وكذلك عندنا منحتى الشهرية كطالب، ومنحة
ايزيادا الشهرية كطالبة. جميل! ولكن الطفل؟ والمربية،
وسرير الطفل، والقماط، وما الى ذلك؟ ثم أن ذلك ليس
مجرد سنة واحدة. فهل فكرت فى ذلك؟ وأنا وهى
جالسان هنا نقلب الأمر على وجوهه. كم سأحصل بعد
تخرجى مباشرة؟ وكم بالروبلات؟

وخلع سترته، وعلقها على ظهر الكرسي، وتناول
قطعة من الورق عليها الحسابات.

— ماذا عندنا فى البداية؟

ونهض فولوديا قائلاً:

— أنا ذاهب يا فاريّا.

فأجابت فاريّا بصوت متعب.

— اذهب.

يا له من يوم طويل، صعب، غير نظيف! والآن
بعد كل عذابها قرأت تقريراً فى عيني فولوديا. وهى

المدنية قبل كل شيء! وهو، فولودكا، لم يساعدها قط.
بل انسحب في غشيان، وكأنه يقول: ابعدي عني ذلك.
فلا شأن لي بمشاجراتك التافهة.

ولبس مشمع المطر دون ان ينظر الى فاريا، وتناول
حقيبته وكتبه. وكان عجباً كيف أنه لم يلتفت ولم ينظر!
وبالتأكيد كان يريد ان ينظر اليها نظرة أخرى، وبالتأكيد
انه أحس كم هي تعيسة، ولكنه ذهب وقفل الباب بدون
ان يودعها ولو بهزة رأس! إن ذلك الرجل يبقى دائماً
مستقلاً! والآن بالطبع سيظل غائباً زمناً طويلاً...

وفي الفجر عادت العمة اغلايا الى البيت وهي ترتدى
حذاءً عالياً، ومشمع مطر له حزام، وتشد رأسها
بمنديل. وبدأ لفولوديا أنها هي الآن شأنها شأن فاريا
تعرف شيئاً تخفيه عنه. وكانت قد نحفت خلال الاسابيع
الستة التي قضاها بعيداً. وفكر بأن هناك خطوطاً صغيراً
من المرارة في طرفي فمها الذي ما زال أحمر، وكان
البؤس في عينيها، وقد تعودت عادة جديدة هي أن
تنقل الأشياء على المائدة: مرة علبة ثقاب، ومرة ملعقة
شاي، ومرة مملحة، ثم تضعها ثانية، ثم نهضت فجأة،
وذهبت لتسوى صورة على الجدار. وكانت تبدو أجمل
من ذي قبل رغم ذلك. فيا للعجب كيف لم يفتن الرجال
بها!

وقال فولوديا:

— أنت مضطربة للغاية، فليس في وسعك ان تظلي
ساكنة دقيقة واحدة. الآنك رئيسة كبيرة الآن؟
فقالت في شرود:

— حماقة!

— وأنت أصبحت أكثر جمالاً. جداً. أنت جميلة

جداً يا عمتي العزيزة!

— ماذا ينفع جمالي؟ تعال. خبرني عن نفسك وأقلع

عن هذه السفاسف. خبرني عن بوغوسلوفسكى، وعن
المستشفى، وكل شيء. هل أجريت عمليات؟

واندفع فولوديا سارداً قصته. ولكن شيئاً قد
أوقفه عند حده — إن عمته لم تكن تصفى. وسأل:

— ماذا بك؟

— تحدث، لا شيء، أنا تعب قليلاً لا غير.

فقال فولوديا في تبرم:

— شيء محير! فإرياً تقول إن أعصابها متفككة.

وأنت تعب. وكلتا كما لا تشبه نفسها.

غير أن عمته لم تصغ حتى إلى تلك الملاحظة. فقد
كانت مشغولة بأفكارها وكان فولوديا ليس في الغرفة.
ورأى شفيتها تتحركان دون أن ترسلا صوتاً. والآن فهم
كل شيء، ولكنه لم يتجرأ طويلاً على السؤال.
فقد كان مرتعباً جداً. وفي آخر الأمر سأل بشفتين
فقط:

— هل استشهد أبى؟

فهزت أغلايا رأسها بصمت.

— قتل؟ — صاح فولوديا وهو يقفز على قدميه.

— نعم، استشهد، — أجابت أغلايا بخفوت وثبات، —

لقد احترقت طائرته في معركة فوق مدريد.

— ومات... أبى؟

- نعم، يا فولوديا، مات أبوك.

- هل مات حرقاً؟

- لا أعرف يا عزيزي فولوديا، غير أن أفاناسي

مات، ودفن.

- هل ذلك أكيد، أكيد تماماً؟ - سال في همس

مائلاً على المائدة نحو عمته، - هل هذا صحيح؟

وتحركت شفتا عمته بحركة «نعم» ولكن لا

صوت. وفاض الدمع على وجهها مدراراً. ووقف فولوديا

دون حراك. وقبل مدة قصيرة لا غير استرجع فولوديا

صورة أبيه وهو يبحث عن حمام مزين بالاعمدة

المنحوتة، والملائكة المجنحة. وكان أبوه إذ ذاك ميتاً.

وكان ميتاً حين كان يقرأ انباء اسبانيا.

- اين دفنوه؟ هناك؟ في اسبانيا؟

- لقد استشهد محارباً من اجل حريتهم، فدفنوه

في أرضهم، - قالت العمة اغلايا بصوت خفيض، - وهل

تفهم انه...

ولم تستطع ان تتم كلامها، رغم انها كانت تحاول

ذلك. وكانت تعض هذب الشال الذي انحدر على كتفيها،

وتهز رأسها لتكف عن البكاء، ولكن الدموع كانت تنهمر

على خديها، وفجأة بدأت تشهق. وأشعل فولوديا مصباحاً

كحولياً، وعقم سرنجته وحقنها بزرقة كافور.

- يجب ان... - قالت ولم تتم قولها. كانت

تريد ان تقول له: يجب ان تحاول وتكون مثل أبيك.

ولكنها إذ ذاك أدركت ان لا حاجة الى قول ذلك، وأنه

الآن رجل يعرف كل شيء بنفسه. وكل ما

قالت: « فولوديا يا عزيزى » وضغطت وجهها على صدره.

لقد كان أقوى منها فى تلك الساعة. مسد شعرها وحق صامتاً فى النافذة الرمادية. ولم يتبادلا كلمات اخرج فى ذلك الصباح المضرب الرطب، المريع. فلماذا يعذب احدهما الآخر بالكلمات الزائدة عن اللزوم؟
- هل ستغادر؟ - سألت العمة اغلايا وقد أفرعها منبه الساعة الذى نُصِب قبل ليلة، وراقبت فولوديا يرتدى ملابسه.

- نعم أنا ذاهب الى المعهد، - قال دون ان يلتفت.

ولعل عمته كانت الانسان الوحيد فى العالم الذى يفهم لماذا يذهب الى المعهد دون حاجة الى أن يقول لها: كانت تفهم كل شيء. كانت تفهم ان حياة فولوديا منذ الآن ستكون حياة مختلفة، وان الحياة القديمة قد انتهت وظاهراً. ستبقى الحال كما هى، ولكن كل شيء سيتغير فى الداخل. فعليه أن يمضى فى العمل الذى تركه والده. واعادت اغلايا الكلمات هامسة لنفسها مرة بعد أخرى فى الايام التى اعقبت ذلك: يجب أن يمضى من حيث ترك أبوه. إن ابن سائق عربة من خاركوف، الطيار افاناسى اوستيمنكو، الاوكرائى لا يمكن أن يموت كفاحاً عن حرية الشعب الاسبانى دون أن يترك أحداً يمضى فى الكفاح، لا يمكن..

وراقبت فولوديا، دون بكاء الآن، وهو يستعد للخروج. وكان عليها أيضاً ان تخرج هى الأخرى. وغادرا

البيت سوية، حاملين بينهما عبء الحزن المشترك، الذي لم يان الأوان ليتحدثا عنه.

- لقد مات أبى، - ذلك ما سيقوله فولوديا للآخرين إذا سئل.

مات! مات ببساطة! والناس قد يموتون بالأمراض. ويعيش الإنسان، ثم يحمل الى فراشه ويموت وتحزن عليه عائلته واصدقاؤه واقاربه.

متزمت ومعذب

- مرحباً يا فتاى العجوز، كيف حالك؟ - قال ذلك يفغينى وقد مر بفولوديا فى المعهد. وكان فى عينى يفغينى حنان.

ولم يقل فولوديا شيئاً. بل تفرس فى وجه يفغينى الوردى المدور اللطيف فى محاولة للفهم. وكان بالأمس، اذ كان يعرف بما حدث لوالد فولوديا، يفكر بالفلوس، ويتحدث عن ميزانية عائلته الجديدة.

وسال يفغينى:

- لِمَ التحديق؟

وشد بيتش على يد فولوديا بقوة. لا بد ان يفغينى حدث كل شخص بالخبر، لانهم جميعا نظروا الى فولوديا بصورة خاصة. وجميعا حاولوا ان يقولوا شيئاً مقوياً للعزم على وجه خاص، جميعهم الا بيتش. فلم يتحدث الا عن تدريبه العملى. وكان الحظ قد وآتاه، فقد كان المستشفى صغيراً الا انه مدار ادارة حسنة جداً. بل حتى

سرد بعض تجاربه المدهشة وابتسم فولوديا. ولم يكن يبدو شاحباً، او شارد القلب، او مفجوعاً كما يحصل لابن بطل صريع. وقد لاحظت ذلك آلا شرشنيفا وهي طالبة زميلة لفولوديا فحدثت به صديقاتها.

وقالت نيوسيا الفتاة التي نصحتها غانيجيف ذات مرة بأن تترك الطب، وتحترف الاختزال:

- ليس هو من النوع العاطفى جداً من الرجال، وفيه قساوة.

وقالت سفيتلانا، معرجة شفيتها المصبوغتين:

- هو تياه بنفسه. وسنقاسى معه كثيراً من المتاعب فيما بعد.

ولم تعرف الفتيات الثلاث كم كانت سفتلانا حكيمة فى قولها، وأى بعد نظر دلت عليه كلماتها، بعد نظر تام لا يناسب عقلها التافه.

وقال ميشا شيرفود ملخصاً:

- هو متزمت ومعذب وارجو المعذرة عن اللغة الدارجة، ولكنه من ذلك النوع المعروف شعبياً بالمؤذى العفن. ولا اريد ان اجد نفسى تابعاً له فى يوم من الايام، لا، لا اريد.

ولم يعد فولوديا يضحك من البلادة والكسل ولم يعد يسمى سفتلانا دمية ازياء، ولم يتغاض عن حيل يفغينى الدنيئة. ولم يحدث له الآن أن رثى لحال الطلاب الذين فشلوا فى الامتحانات مهما يقدم اولئك المساكين من اعذار.

وقد طالب فى اجتماعات الكومسومول قائلاً:

- اطردهم، اطردهم قبل ان تحين لهم فرصة
لجلب العار على مهنة الطبيب! ويجب ان لا تكون هناك
تدابير وسط، ولا احاديث تشقيفية، ولا اسناد.
اطردهم! وليذهبوا الى الشيطان. وكفى مداراة لأولئك
المدللين عند امهاتهم. فهذا النوع، هؤلاء الذين نحملهم في
هذا المركب مجدفين لهم بعناء، هم في الواقع يشكلون
فصائل كاملة من اولئك الذين يابون ان يعملوا في الارياف.
هم ذلك الصنف من الناس الذين يشقون طريقهم الى
قوميسار الشعب المفوض بسبل منحرفة ومعهم
مذكرات تشهد على سوء صحتهم. هم ذلك الصنف من
الناس الذين يبلون بنظلماتهم في معاهد الابحاث الكاذبة
بدلاً من ان ينزلوا الى ميدان العمل الحقيقي...

لقد تكلم من منبر قاعة الاجتماعات في المعهد -
شاباً نحيفاً له شعر صبي مجعد، وعينان تلمعان غضباً
من تحت حاجبين معقودين. وما من شيء كان يردده. فهو
الآن فخر المعهد، وكانوا يتحدثون عنه كشهاب المستقبل،
ولم يكن من احد يرد عليه بقول كهذا: «أنظر الى نفسك
قبل كل شيء!». وقد اضحى وجهه اشد شحوباً ونحافة
في ذلك الخريف الصعب. واصبحت نظرة عينيه اقصى
واحد. وحين كان يسخر من تقصيرات احد الناس، كانت
سخريته اكثر حرارة. وكان يقضي مع غانيجيف في قاعة
التشريح اوقاتاً اطول من ذي قبل متلهفاً لان يدرك ما لا
يعرفه، ويفهم ما لا يزال غير واضح ليدخل المعركة
مدججاً بسلاح المعرفة.

وذات يوم قال له غانيجيف:

— الطلاب لا يحبونك كثيراً يا فولوديا. هل انت تعرف؟

فاجاب فولوديا بعد لحظة من التفكير شحذ فيها مبضعه في المسن:

— هذه حقيقة محزنة، ولكن الناس ما زالوا يحبون من على شاكلتهم. يحبون ذوى « النفوس المفتوحة على مصاريعها ». ولكن اعتقادى، على اية حال، ان هؤلاء حشرات ضارة. وهم، فى البدء، بعد شربهم الفودكا، يغنون اغانى طلابية قديمة، ثم، من أجل امكانية البقاء فى سكر وغناء، يبدأون بالمساومة على ضمائرهم، ثم ينتهون الى ان يصبحون خراجاً فى جسم البشرية.
فقال غانيجيف:

— لقد اصبحت طليق اللسان، كما اصبحت عنيفاً ايضاً.

فقال فولوديا، وهو يشرح الصفاق فى ورك الجثة:
— لقد اصبحت انا أكثر عنفاً، واصبحت انت أكثر شفقة. وفى رأى ان أرقاء الناس اقل منفعة لبلادنا فى المصاعب التى ينبغى ان نذلها. قل لى مثلاً، لماذا اعطيت علامة جيدة ليفغينى ستيبانوف وهو شخص تحتقره؟ هل اراد جوفتياك ذلك ام اراده العميد؟ لقد كنت شفيق القلب، ولكن ذلك ازاء نفسك ذاتها. ان شفقتك هذه تولد ازدراء للمعهد وللعلم وللعدالة عند بعض الطلاب... ثم انك لا ترين: ان تغضب العميد او جوفتياك. انا لست طفلاً، انا افهم تماماً.

— انظر، ايها الشاب، ألم يخطر ببالك اننى

استاذك؟ - سأل غانيجيف في غيظ، ثم فكر في نفسه: «هذا الخيار الفتي المجنون هو على حق تماما، وهو غير خائف من ان يقول القول. اوه يا للشيطان، ولماذا لم يخف؟»

وطبقا يعملان في صمت برهة طويلة. وشعر غانيجيف بعدم ارتياح، واستمر فولوديا في تقطيعه. وفي آخر الامر اصبح الصمت اقسى من ان يطيقه غانيجيف: - انت تهاجم ستيبانوف هنا. ولكنني متأكد من انك لا تقول شيئاً من هذا القبيل في وجهه. وهل ان هذا السلوك سلوك الرفيق، حسب وجهة نظرك، - سأل غانيجيف ذلك وهو ينظر الى رأس فولوديا المائل، والى يديه الواسعتين الذكيتين اللتين اصبحتا مقتدرتين. قال فولوديا بعد التفكير:

- عبث قولك هذا. فقد قلت بنفسك قبل مدة ان الطلاب لا يحبونني كثيراً. ان هذا الموقف الدنيء ما زال فينا - وكأننا ندرس لمصلحة شخص آخر، وليس لانفسنا. واقصد الغش في الامتحانات والحيل الاخرى القدرة. وانت تتحدث عن الصداقة! بالتأكيد انهم لا يحبونني. وماذا عني اذا كان ستيبانوف، مثلاً، يعدني على شاكلته؟ اوه، افضل ان اشنق نفسي. انا دائماً اعارضه على المكشوف، وهو يعرف ذلك ولذلك لا يحبني. واعتقد ان هذه هي الطريقة الوحيدة في التصرف، والا فستنحدر الى الجحيم. اما عن عدم الحب، فليسوا جميعاً لا يحبونني. هناك مثلاً اغورتسوف، وبيتش، وآخرون ايضا هم اصدقائي.

وكان في صوت فولوديا أثر من حزن فقرّر غانيجيف ان يغير الموضوع فسأل:

— هل ستبقى في الكرسي الذي اشرف عليه، بعد التخرج؟

فنظر اليه فولوديا وفي نظارته رد على السؤال:
— ولكن لماذا؟

قال غانيجيف وقد تحير صدقاً:

— ماذا تقصد بلماذا؟ في كرسيي...

— لا، لا اريد ان الحق بكريسيك، بل اريد ان اكون طبيباً — بالطريقة التي بدأ بها كل واحد مثلاً — الطريقة التي بدأ بها الفقيد بولونين، وبوستنيكوف، وفينوغرادوف، وبوغوسلوفسكى... هذه هي الطريقة التي اريدها...

وكان غانيجيف منزعجا ومضطرباً، واراد ان يكون لفولوديا رأى احسن فيه. ثم قال:

— لم يبدأ كل واحد بهذه الطريقة. فانا مثلاً بدأت بداية مختلفة تماماً. هيا لنخرج، سأخبرك بذلك اذا اردت.

وغطى فولوديا الجثة بقماشة، ووضع غانيجيف ادواته، وغطى وتشاءب وقال:

— كانت الطريقة التي بدأت بها غريبة بعض الشيء. لقد تركت كلية اللغة وانا في الصف الرابع فتصور ذلك!...

وخرجا الى الحديقة، وجلسا على مسطبة، وتناول

غانيجيف سيكارة وعجنها باصابعه الغليظة قبل ان يشعلها.

لا، لا يفكر فولوديا قط بان غانيجيف كان ذات مرة طالب لغة يكتب الاشعار والنثر المسجوع، ثم سجل في مدرسة للرسم والنحت، ثم الكونسرفاتور...
- ومتى درست الطب لأول مرة؟

- عندما كنت في التاسعة والعشرين يا عزيزي
لقد تركت كل شيء: النحت، ورسم الصور، وكتابة الاشعار التافهة، الفضائية في اسلوبها، المهددة في تأثيرها، بل حتى تركت حبيبة قلبى التى كانت تؤمن بمواهبى الجبارة. وقد حدث ذلك بسبب طافى حريق كان يدعى اورست ليوناردوفتش سكريبنيوك. خلال الحرب الاهلية كانت مدينتى المحبوبة كييف تتبادلها الايدى بصورة فاجعة، وقد غزا كل اولئك السكوروبادسيكون والبتلوريون، والحرس الابيض، والالمان، وكييت وكييت. وكان الغزاة جميعا يقصفون المدينة بالطبع. نعم لقد رموا كييفنا الرائعة بالقنابل واحرقوا فيها النيران. ويجدر بى ان اذكر اننى كنت في ذلك الزمن اسكن قريباً من محطة اطفاء الحرائق. وكان يسحرنى ان اراقب فرقة الاطفاء، وهى تتألف كلياً من الرجال المسنين، كيف بدأت تكافح ناراً من تلك النيران الهائلة المضطربة بعرباتها القديمة ذات الصرير التى تجرها خيول كالهياكل العظمية. وسواء كانت هناك نيران ام لم تكن، فان اصحابى الابطال ذوى اللحي الرمادية بقيادة سكريبنيوك- وكان رجلا عظيماً في الشتيمة

وولوعاً في الخمرة أيضاً - ياتون مرقلين في منظر بديع
وهم في خوذهم البرنزية اللامعة: وكل شيء في فوضى، وكان
نهاية العالم قريبة، ولا سلطة في المدينة، لأن الفوضى في
تلك الساعات كانت هي التي تحكم، ولكنهم، لاحظ ذلك،
كانوا يسرعون الى الحريق. لقد اعجبت بذلك كثيراً،
ولكن سكريبنيوك شرح الامر لي: « افرض ان طفلاً تلتهمه
السنة اللهب والحمقى لا يستطيعون انقاذه، او ربما
هناك كسيح في البيت او شيء آخر، وليس لهم ادمغة
تنجيه. ومفهوم اننا لا نقوم بعمل كبير جداً بالطبع،
ولكنه عمل طيب على اية حال، لا مجرد تزجية وقت ».
وارتجف صوت غانيجيف على نحو غريب. وظن
فولوديا انه سمع نشجة فيه.

وقال غانيجيف بهدوء شديد:

- لقد قتلت رافدة محترقة صديقي سكريبنيوك.
يا للعجب ان المثقف الروسي القديم كانت له عادة وضع
طابع السخرية على مختلف الحرف. ان طافي الحريق،
كقاعدة، يزور طبخة. وان صاحبي كان في الغالب يزور
الطباعات. نعم، كان حاذقاً مع النساء. ولكن كم كان
قلبه طيباً بحيث حفزني بعد ان شبيت وفسدت جداً،
لأن والدي كانا غنيين واطلقا لي العنان، على ان ابدأ
حياتي من جديد. وذلك لأنني كنت اذكر على الدوام
الفرق بين عمل شيء طيب، وبين مجرد تزجية الوقت.
وتلك حقيقة بسيطة، غير انني توصلت اليها عن طريق
التجربة.

- ها، انظرا - قال فولوديا في عبوس وبايماء
غامضة في صوته.

- ماذا انظرا؟ - سال غانيجيف بوعق.

- نعم، حول عمل شيء طيب ومجرد تزجية
الوقت. فانت لم تتذكره دائما في الظاهر...
فقال غانيجيف ضابطا غيظه:

- اصغ، يا اوستيمنكو! انت دائما تصدر الحكم
على. لماذا؟ وانت تطالبني بمطالب غير مألوفة تماما.
انت تحسب ان لك الحق في ذلك لانك تعرف اننى اودك؟
قبل كل شيء كان ستيبانوف يعرف موضوعه بصورة
مقبولة و...

فقاطعه فولوديا في حنان:

- انا لا احكم على اى شيء. بل انا افكر طوال
الوقت. وقد انتهت الى نتيجة وهى ان المرء يجب ان
يعيش مثل بوغوسلوفسكى ومثل بولونين في وجوه
عديدة، لا في الوجوه كلها. ولا يمكن ان تكون هناك
تدابير وسط، والا فالحلاك له. ارجو ان لا تغضب
على. فانا لست مسرورا عن ذلك ايضا. ولكن لماذا
قلت ان ستيبانوف يعرف موضوعه بصورة مقبولة؟ ما
هو موقفك من علمك، اذا كان مقبولا أيكفى لك؟

فصاح غانيجيف في غيظه:

- اتعرف ماذا؟ لقد اقرفتني! انا ارفض ان
يحاضرني صبي! طابت ليلتك!

انا تعب منك

نهض غانيجيف، وذهب. وذهب فولوديا يبحث عن
فاريا ليخبرها كم قد كره نفسه. وكانا نادراً ما يلتقيان
في هذه الايام. فالتوتر الذي يعيش فيه، وجهامة
صوته، وسخرياته الظالمة بدراستها للفن، ومداموزيل
ايسفر يفدوكيا مشجريا كوفاً - البروسية جعل ذلك كله
فاريا تنكمش عنه قليلاً. وبالتأكيد انها لم تستطع ان
تظل هكذا الى الابد تشعر بالذنب، لأن ابا فولوديا قد
مات ومع ذلك فان فولوديا بدا لها وكأنه يلومها لانها
ما زالت على قيد الحياة، وعلى انها تفرح وتضحك
وتشارك في المسرحيات، وتخرج للسباحة والتزحلق.

فما الذي يريده منها؟

ما الذي تطلبه منها نظرة عينيه العبوس العزيرة

عليها ابدأ؟

لماذا العمل وحده ينتزع الاحترام؟

وكانت في البيت عندما جاء فولوديا، غير أنها

كانت تستعد لحضور مسرحية.

وقال يفغيني:

- كيف الاحوال؟

فقال فولوديا:

- لقد تكلمت مع غانيجيف عنك توأ. وقد قضيت

ساعات احاول ان ابرهن له على أن اعطاءك درجة

«مقبول» في علم التشريح خطأ.

فهز يفغيني رأسه:

- بالطبع، خطأ. انا استحق درجة «ممتاز»، اذ اننى استوعبت المادة جيداً.

فقال فولوديا:

- انت لا تعرف علم التشريح. كان على غانيجيف ان يعطيك درجة «ردى» بدلاً من ان يدع جوفتياك والآخرين يؤثرون فيه.

فسأل يفغينى:

- هل جننت؟

وفى الشارع قالت فاريا لفولوديا انه اصبح شخصاً صعباً بصورة فظيعة، مثل واحد من افراد تلك الطوائف الذين يحرقون انفسهم احياء. وقالت ان يفغينى كان على حق، وان حديث فولوديا مع غانيجيف ليس بسلوك الرفيق.

ولم يشعر فولوديا بجرح، بل بدهشة. وقال فى جهامة:

- عم تتحدثين يا فاريا؟ أمن خطأ ان يكون الانسان صارماً على نفسه؟ وما علاقتى بتلك الطائفة وبمن يحرق نفسه حياً؟

- اذن فانت معذب.

- هذا رأى يفغينى.

- ليس رأى يفغينى فقط.

فقال فولوديا فى حقد:

- ذلك اسوأ لك. انتم جميعاً تنظرون الى الاشياء بنفس الطريقة الآن. اتذكرين كيف ان ماكافينكو السمين كان يشرح فحوى الحياة فى حفلة عيد ميلاد امك؟ لقد

عبر عن وجهة نظر تشاطرونه فيها جميعاً. وينبغي ان يؤمل بان اتحاداً مؤثراً سيشكل في مضمار الزمن - يفغيني وانت ودوديك السمسار المبهم، وصديقتهم السيدة التي تجيد التدليك الذاتى. فانتم جميعاً تنتمون الى نفس الزمرة.

فصاحت فاريا:

- ماذا، هل تفكر فيما تقول؟

فاجاب فولوديا بخشونة:

- نعم. ان جميع الشر في هذا العالم يبدأ من مساومات ضئيلة. ثم بعد ذلك تسلكين خطأ صاعداً او هابطاً حسب ما يلائمك اكثر انت، ثم يفغيني، وغانيجيف، وماماك و دوديك...

ولم يعد يعنى ما يقول. وقد انجرف. لقد جاء الى فاريا ليجد المساعدة منها، ولكنها تقف الى جانب الآخرين، الى جانب اعدائه.

وقالت فاريا اخيراً:

- اصغ. انا تعبئة منك، تعبئة جداً، كما تعبت من فظاظتك، ومن وعظك ايضاً. لقد كنت في المدرسة المتوسطة وانا اعرف ان الفولغا يصب في بحر قزوين. اما انت، يا فولودكا، فانظف من اللازم. فسر في طريقك، ضيء للآخرين واحرق نفسك. وسادلف انا في طريقى الصغيرة. وليسعدك الحظ.

وشهقت في اشفاق عليها، واشفاق على فولوديا، وكان ببساطة لا يبدو قد فهم عم كانت تتحدث. وهى نفسها لم تتحقق من مشاعرها. ومع ذلك فكل ما كانت

تعرفه انها قد جرحت، وان عليه ان يلتمس غفرانها
بدلاً من ان يقف رموشه الكثيفة الحمقاء ترف ولا يقول
شيئاً. غير انه صمت على طريقته الخاصة ثم دار وذهب
باتجاه المكتبة دون ان يلقي نظرة وراءه.
وفكرت فاريا في تصميم: «حسناً ستعود الى
زاحفا».

وكانت الريح الثلجية تؤذى وجهها غير انها انتظرت
امن الممكن ان لا يلتفت؟ وما الامر كله على اية
حال؟ هل كان يحبها ام لا؟ ام هل نسي بالفعل رسالته
الحمقاء من مستشفى جورني يار؟ انه ينظر اليها الآن
بعيني غريب، وهو لم يسألها عن اى شيء. وعندما تاتي
هي الى بيته تجده اما يدرس مع بيتشر، او غائباً، او
نائماً والكتاب في يده. فماذا يعنى ذلك كله؟
«لئن يلتفت - نسعد» - ضمرت في سرها هذا الفال
تستشعر ياساً «ولئن لا يلتفت؟ ماذا سيكون نصيبنا؟»
ولم يلتفت.

فقد مشى صاعداً الى المكتبة، وكانت الريح تعصف
بمعطفه البالى. وكانت تتدلى من قبعته الفرائية اذنية
محلولة.

ان الشخص الذى احبته اعظم الحب صديقها الاعز
يتركها بسبب عراك من المساومات. واية مساومات؟
هل تناديه؟

تركض خلفه؟

يجب ان توقفه مهما تكن التكاليف، وتشرح له ما
يعجز كثير من الناس عن فهمه: ينبغى ان لا تحدث

شجارات لاسباب تافهة حين يكون الحب موجوداً بالفعل. ولا يستبد غضب، او جهامة. وان الناس يفقد احدهم الآخر بسبب توافه، ثم تجتمع هذه التوافه فتصير سيلا يعجز امامه الانسان الزائل.

يجب ان توقفه في الحال، في هذه اللحظة بالذات! يجب ان تدعوه!

ولكنها لم تستطع ان تفعل ذلك.
- فولوديا، لا تجسر على الذهاب!
قالت ذلك بصوت لا يكاد يسمع.

فلم يسمعها.

ثم نفضت كتفيها بفخر وعدم اكتراث، ومضت الى مدرسة الفن لتقوم ببروفة دورها العادى دور جاسوسة. وفي المدة الاخيرة كانت ادوارها تقتصر على دور جاسوسة - امرأة عجوز شريزة لاهثة الانفاس. وعندما تعترض فاريا على انها لا تستطيع اداء هذا الدور تتكلم ميشجرياكوفا - البروسية بطريقتها الرتيبة، والتعبه دائماً مبددة كل اعتراضاتها:

- اوه، يا عزيزتى، ليس من الممكن ان لا تفهمى ان تطوير مواهب شخص يأتى عن طريق التمرين والتمرين والتمرين مرة اخرى...

«حسناً، الى التمرين» - فكرت فاريا بذلك بعدم اكتراث. وخرجت من خلف دعامة كانت بمثابة شجرة صفصاف باكية. وقالت ما عليها ان تقول:

«حسناً، ايها الرفيق بلاتونوف، او بالاحرى السيد بلاتونوف. ان تفضحنى يقض على حياتك. اما اذا

وافقت على نسف التوربين فستحصل على كل ما تريد من
فلوس. وحياة ليلية في مونمارتر، وروليت في مونت
كارلو، واجازة ممتازة في جبال الألب، وحب...

وسالت ميشجرياكوفا - البروسية:

- يا ستيبانوفا ما معنى دموعك هذه؟

فاجابت فاريا:

- لا معنى، مثلما لا معنى لاسمك الثاني - البروسية.

لماذا البروسية؟ وليس البلجيكية او الفرنسية او
الامريكية؟ لماذا البروسية؟ لا اعبا. خذيه لك. انا
خارجة، ليذهب كل شيء الى الجحيم.

وقفزت فاريا من ارضية المسرح الصغيرة والواطئة،
ومشت الى الباب رافعة رأسها بشموخ غير متعجلة.
وكادت تبلغه حين استفاقت ميشجرياكوفا - البروسية
من صدمتها وصاحت بصوت بائعة سمك:

- اخرجي، ايتها السليطة! انا اطرذك! اخرجي الى

الأبد!

وتكلم بوريس غوبين:

- لماذا تصرخين هكذا؟ ماذا تحسبين هذه شركة
خاصة رأسمالية؟ انها مدرسة مسرحية متحدة للطلاب،
ولن نسمح لاحد...

واندفع نحو فاريا وقال:

- لا بأس. ستفكر الآن بطريقتها طريقة السوط
والحلوى. ونحن لسنا اطفالاً والحمد لله. وكفى.

ولم تقل فاريا شيئاً.

وسأل بوريس:

- هل انت في ضيق ام ماذا؟

ولم تجب فاريا بشيء. ومشى بوريس الى جانبها خطوات في صمت ثم ودعها، ولكنه لم يتحول الى شارع. فقد كان منذ زمن بعيد يكن لفاريا حباً يائساً، حتى منذ ذلك اليوم الذي رأوا فيه الراعى المقطوع الساق على خط السكك الحديدية حين شد فولوديا المشد على فخذه. وكان بوريس يدرك دائماً ان فولوديا ابرز واحسن منه، ولم يحاول ان يعترض طريقه. ولكنه الآن احس بشجاعة وسأل:

- هل تشاجرت مع فولوديا؟

فقالت فاريا:

- وانت، سأعرفك بان هذا ليس من شأنك! لقد ودعتني وانتهى، فاقل الى بيتك. لست في حاجة الى حارس...

وكانت تقول احط الاشياء في بعض الاحيان « اقل الى بيتك! » لماذا؟



الفصل الحادى عشر

صوت النفير

اجتمعوا فى المطبخ على مائدة العشاء. وقد نشر على
المائدة خوان وردى ذو حواش، احتفالاً بمجىء روديون
الى البيت. وكانت هناك فوط اكل قد نشيت فاصبحت
صلبة كالقصدير. وتناقشوا فى هذه الفوط فاعترف الجد
بزفرة مشقة بالحزن بانه ببساطة لا يتقن تنشية
الاشياء، لانه يكثر من وضع نوع من النشا ويقلل من
وضع نوع آخر.
وقال روديون:

- خلّ عنك ذلك يا أبى، فما حاجتنا بفوط اكل منشاة؟

فقال الجد وهو يرفع سبابته المعقدة فى عظة:
- علينا ان نكون فى مستوى الآخرين. ان زوجتك السابقة تأكل على فوط منشاة. وعليك ان لا تهبط الى دون ذلك. والا فستحرك لسانها بأن زوجها السابق المسكين مهمل. فلماذا تريد ذلك؟

وكان العجوز قد تناول كأساً او كأسين من الفودكا منذ الصباح. والآن يضيف قطرة قطرة الى «الخميرة القديمة». وكان الطرب يستخفه كما عبرت فاريا، مرة او مرتين فى العام. وكان يلبس بدلة من ثلاث قطع اشتراها له روديون من لينينغراد، ويميل نحو المائدة كثيرا وهو يأكل، وعنقه مشرب الى امام. وكان لا يجازف فى شىء خوفا من أن يفلت الطعام من فمه، ويتلف البدلة الجديدة.

وجاء يفغينى وهو يدخل المطبخ:

- تمتعون انفسكم؟

فاجاب روديون:

- نريح انفسنا. لماذا لا تدعو اريادا وتنضمنا

الىنا؟

- لا يمكن يا أبى. لقد دعينا الى بيت لا يمكن

ان نتأخر عنه.

وتفحص يفغينى زوج امه خلصة وهو يدير كأس الفودكا الفارغة فى اصابعه غارقا فى افكاره. وكان روديون قد شرب كثيرا فى ذلك اليوم غير انه كان صاحيا تماما،

ولكنه كان يزفر في بعض الاحيان، او يصفر فجأة بلحن
عسكري او ما الى ذلك. وكانت غريبة رؤيته في البيت
في صدريته البحرية المخططة. لقد كان في وسعه بالتأكيد،
وهو في اول ليلة له في البيت، ان يرتدى بدلته العسكرية
المحلة بنيشانين حديدين لامعين! ولكن، لا، لقد كان
جالسا هكذا يدير الكاس.

وسال فجأة:

— كيف حال امك؟

فاجاب يفغيني:

— ولكن، ماذا أقول لك؟ انها الآن الخياطة

الرئيسية في المدينة. والحقيقة ان محسوبة دوديك
ساعدتها وهي الآن تعمل في المسرح. وقد درست تاريخ
التفصيل، وهي الآن مشغولة في تفصيل البدل للويسات
والفرديناندات، ومن لف لفهم.

— ما هذا؟ مشروع خاص؟

وخنق يفغيني تشاؤبه:

— لماذا خاص؟ لقد قلت لك انها تعمل في المسرح

وكل الناس يعلون مقامها هناك. ودوديك ليس مجنوناً،
انت تعرف. فلو كان مشروعاً خاصاً لحصلت المتاعب
في الحال حول الاجازة والضرائب وكل شيء.

— واضح جداً،— هز روديون رأسه. وكان دائماً

يهز رأسه ويقول «واضح جداً» حين يغمض عليه شيء
كثيراً،— حسناً. وكيف حالك انت؟

فاجاب يفغيني باسترخاء انه يوشك ان يصبح

طبيباً وليس له شكوى من زواجه باريادا، وان الحياة

كلها تسير سيرها الطبيعي، وان ابا اريادا تعهد له تقريبا
بانه سيظل في المعهد.

- اذن فقد ازدهرت كعالم؟

- ربما ليس كعالم تماما. ولكن كانت عندنا حلقة
طلابية علمية. وقد بحثنا في مواضيع معينة. وقد نشرت
احدى هذه الدراسات في نشرتنا العلمية.

- نشرة لمن؟

- لنا، اعضاء الحلقة.

- كم عددكم؟

- ستة عشر شخصا.

فقال روديون:

- يعنى الجماعة بعبارة اخرى. واضح جدا. ومن
قبل كان هناك تسنغر، او كيسليف او منديلييف، والآن
انتم ستة عشر. هل فولوديا يكدح معكم ايضا؟
وخفض يفعينى عينيه يخفى الغيظ فيهما. فماذا
يريد هذا القاضى المتعب منه؟ لماذا يتشبت به؟
حسنا، لقد عاد من اسبانيا، لقد حارب هناك وفقد
اصدقاءه. فماذا فى ذلك؟ هذا عمله، واجبه. فلو كانوا
قد ارسلوا يفعينى لذهب هو ايضا. وكذلك كل طالب
من الطلاب. فهم سوفييتيون، أليس كذلك؟

- فى اختصار، هل كل شىء فى انتظام؟

- فى انتظام تماما، - اجاب يفعينى فى نوع من
المكابرة.

- اوه، ما اروع ذلك؟

- اعتقد ذلك ايضا. لقد اخترت اختصاصى.

وسانصرف الى الادارة. فقد كان بيروغوف يقول ان الجراح في زمن الحرب يجب ان يكون اداريا جيدا اولاً، وقبل كل شيء. ففى هذا الحقل، يا ابنى، ليس عندنا كل شيء على ما يرام.

- تقصد حقل الاداريين؟ نحن فى فيض فائض منهم على ما اعتقد. عندنا نقص فى العمال، اما الاداريون فالآن...

وتناول يفغينى شريحة من الجبنة من المائدة، واخذ يمضغها. وقال فى تنهيدة:

- ليس الامر بمثل هذه السهولة. ومن حسن الحظ ان جرس التلفون رن. واستطاع ان يخرج. وبقي روديون وابوه وحيدين. وقال يفغينى لا يريادا فى الممشى:

- ان ذلك الرفيق سيجتنى. هو ما يزال يعيش فى سنة ١٩٢٠. ولكن الزمن قد تغير. الزمان مختلف، والاغاني مختلفة وبصورة عامة.... ولوح بيده.

فقات ايريادا:

- هو ما يزال يبدو مخوف المزاج. ينبغى ان نهى 'مشاورة. ولندع ابنى والبروفيسور جوفتياك... وفجأة احتاجت حين رأت شاريك خارجاً من المطبخ:
- أوه، يا للسماء! انا بصراحة لا اعرف ماذا افعل بهذا الكلب! انه امر مضحك - طفل فى البيت، وهناك هذا الهجين يلهث فى البيت دائماً... فقاطعها يفغينى:

- حسنا، البسى، والا فسنتاخر. وصفى شعرك جيداً. ان هذه الفرشاة الشعثاء غير مناسبة أبداً. اود لو تلبسين قليلاً من الحلى، فلماذا كل هذه السلاسل؟ نحن طلاب سوفييتيون بسطاء. ولكن كلما نخرج الى الخارج تصرين على ان تكونى كريهة المنظر...
- كفى مناكدة، - ولولت ارياداً.

وسمع الشخصان اللذان فى المطبخ اصطفاق الباب. ان المربية المثقفة، باولين غوغوفا فون هرتز التى دعيت لأن أسمها كان فون هرتز، كانت تغنى تتويمة اطفال المانية لحفيد روديون ستيبانوف الصغير فى غرفة الطفل. وكانت المربية تهدد بأنها ستترك لهذا الطفل الرضيع العزيز كل تركتها العجيبة التى كان قسماً منها فقط مودعا فى صندوق مقفل بالقفل والمفتاح عائد لها موضوع فى الممشى.

وسأل روديون وهو يتناول قطعة من فطيرة:
- كيف حالك معها يا أبى؟

فاجاب الاب:

- كيف اعيش معها؟ انها تسمينى الريفى الغرير، والكلب العجوز، وهكذا دواليك. فأرد عليها بالحيزبون القدرة، أو، قل، ما نرد على الكلاب به فى القرية...
- هكذا كليا؟

- بالتأكيد، فلماذا اصبر على شىء منها؟

- اذن فلا تستوحش؟

وفكر العجوز لحظة، واجاب اجابة تامة:

- لماذا استوحش؟ على ان أهيب لفاريا طعامها،

وانظف البيت، واطبخ، واتسوق، واناكد من وجود وقود
كثير. وكل ما تفعله هذه المرأة هو الثرثرة ثم الثرثرة.
ولن تحصل من بين يديها على عمل. ثم هناك يفغيني
واربادا. وهما يأتيان الى البيت جائعين. فمن يقدم لهما
حساء حارا طيبا اذا لم يكن لهما جدا؟ هل سنشرب كاسا
اخرى؟

- لنشرب.

وصب روديون الفودكا المبردة. وتناول العجوز
كاسه في شوق ولطفها بيده الجاسية لحظة وسال فجأة
بصوت رق بصورة غريبة:

- ما الذى يجعلها حلوة المذاق؟ اغدقها

ياميفوديفتش.

والآن دعا ابنه باسم ابيه، فقد فكر بان ذلك ملائم
أكثر. وتالقت عيناه بمرح. وشرب كفايته، واكل وجبة
دسمة. والآن جلس مرتخيا راضيا عن نفسه
فخوراً بالطعام الذى قدمه لابنه. ونظر الى الفطائر
المخبوزة وفق وصفة اغلايا، والى شرائح اللحم البقرى
المشوية، والسجق ينز فى المقلاة. والخيار المخلل لا
يمكن ان يكون أحسن من ذلك. وكذلك الكرنب المخمر
يبدو جميلاً ايضاً بين الاطباق الاخرى. وكل شئ كان
«على أحسن ما يرام» كما كان يلذ للعجوز ان يقول بعد
كؤوس قليلة.

وقال وهو يمسح شاربه ولحيته:

- لقد عدت الى البيت ومعك وسامان كما ارى،

مع مداليات حكومية، مع نياشين شرف فتهانى اليك

بالطبع. ولكن قل لي اين كنت يا ولدى العزيز الحبيب؟
- لم اعد في المكان الذى كنت فيه.
- انت تجرحنى يا ميفوديفتش. يمكننى ان احتفظ
كل شىء فى السر.

- تحتفظ بالسر، ولكن نسخة من هذا السر
موجودة دائماً فى السوق، وتصبح اسرارك معروفة فى
الشارع كله.

وبقليل من الارتباك اسرع العجوز الى الفرن وكأنه
يجلب طبق بولونى يدعى «بيغوس»، قائلاً انه قد بقى
فى الفرن أكثر من اللازم. وأخرج القدر من الفرن وسال
من موضعه ذلك:

- أقول، يا ميفوديفتش، علينا، أنا وأنت، ان
نجلس ونتحاسب. فهناك فلوس غير قليلة لك قد بقيت
من التسويق، متى تريد ان تأخذها؟

وقال روديون ابدأ. وحدث فى الجدار الذى يواجهه،
وكبر قطعة صغيرة من الفطائر وأكلها وهو ينظر ساهياً.
- ابدأ! ما هذا النوع من الكلام؟ - قال العجوز
مجروحاً. فقد وفر الفلوس طويلاً وبعناية، مساوماً فى
السوق، مشترى الحطب من أرخص اماكنه، مفضلاً أن يغسل
اغشية الفرش والفوط بنفسه على أن يدفع لها فى مكان
العسيل بل حتى كان يمسح البيت حين تكون فارياً مشغولة
جداً. وكل ما حصل عليه من شكر هو هذه «الابدأ».
وقال بغضب:

- أوه، لا، يا ميفوديفتش، هذا لا ينفع. أنا لا
استنزف فلوسك الموضوعة للصرف على البيت. أنا

احاول جهد مستطاعى من اجلك. وانا اجمل فاريا
تسجل قائمة مكتوبة لك فى كل يوم يمر، وانت تقول:
«ابدأ».

فقال روديون:

— كعقاب على حساباتك المتعبة، خذ ما تبقى من
الفلوس واشتر لنفسك معطفاً شتائياً جديداً. وسنذهب
للتسويق غداً، ونشترى معطفاً له حاشية فرائية، وقبعة
فراء.

— لا يمكن، — رد العجوز بذلك وقد فكر فى الامر،
— ستشنق غوغوفنا نفسها من الحسد.
— اذا تشنق نفسها، ندفنها.

فاصر العجوز قائلاً:

— لا، لا يمكن. اذا كان الامر هكذا فلنشتر معطفاً
فرائياً لفاريا بدلاً من ذلك. فقد رأيت معطفاً فرائياً
مهيّب الشكل فى المخزن هناك.

— سنشتره لفاريا من غير فلوسك. ولكن سنشترى
معطفك على اية حال.

— انا لا اهتم بمعطف جديد. ان فاريا هى التى
بحاجة حقاً الى بعض الاشياء الجديدة. لقد اصبحت
الصبية فى تفتحها التام وهى فى سن الزواج. وعلينا أن
نستعد لذلك وان تشترى وسائد، وألحفة، وكل ما هو
ضرورى...

وتبسل وجه روديون. وكان التفكير بان فاريا
ستتزوج فى يوم من الايام دائماً منغصاً له.
وقال:

- حسنا، كفى من ذلك. ولنشرب على ذكرى افاناسى الفقييد...

وقرع جرس الباب قرعة طويلة. وكانت غوغوفنا اقرب الى الباب، ولكنها لم تذهب لتفتحه، ورفع روديون مزلاج القفل، ونظر نظرة واحدة الى فولوديا، وحضنه هناك فى المكان الذى رآه فيه. وكان خلف فولوديا اغلايا وفاريا.

وقالت فاريا:

- لقد اخرجته من المختبر يا أبى. فلا تدهش من رائحته الغريبة.

وقبل روديون اغلايا ايضا.

وانشغل الجد فى وضع صحون وكؤوس نظيفة على الطاولة، مائلا الدوارق بانواع من الفودكا - نوع مطعم بالسعد، وآخر بالزبيب الاحمر، وثالث بالفلفل الاحمر. وقال روديون:

- دعونا نشرب نخب ذكرى افاناسى اولاً ثم اقول لكم كل شىء.

ورفع كأس فودكا فى يده كاشفاً عن وشم فى ساعده، ورفع الكأس عالياً لحظة، وقال بصوت خفيض:

- دعونا نشرب نخب ذكرى شيوخى، اوكرائينى، نخب ابيك يا فولوديا، ونخب اخيك يا اغلايا، ونخب أعز صديق لى - نخب افاناسى اوستيمنكو الذى مات ميتة بطل منافعاً عن حرية الشعب الاسبانى. فليرقد فى سلام فى تربة مدريد...

ورسم الجد علامة الصليب على نفسه. وشرب الجميع

في صمت. وتناول فولوديا فطيرة، خائفاً دموعه. وفي
غرفة الطفل عادت غوغوفنا تغني تنويمتها ثانية. واشعل
روديون سيكارة، وبدت نظرتة مكفهرة وقاسية.
وقال:

- سأقول لكم باختصار. كانت هناك سبع طائرات
من نوع «اليونكرز» تقترب من مدريد بتشكيلة رقم
«٧» لقد رأيت ذلك بنفسى. اما بقية القصة فلم
اشهدها، بل سمعتها من الآخرين. و «اليونكرز» طائرة
ثقيلة ذات ثلاث محركات، وكان طياروها المان، نازيين.
ودخل افاناسى المعركة وحده. ولا بد من أنه مر بوقت
عصيب جداً حتى استطاعت الطائرات الاخرى أن تطلع
من الارض وقد حصل لها بعض العطب. ولم تلق
«اليونكرزات» اية قنبلة على مدريد في تلك المرة. وقد
اسقط افاناسى اثنتين منها. وكلتاها تحطمت، ثم...
واستنشق روديون نفساً عميقاً، واستمر يقول
بصوت خفيض واضح:

- ثم اصابت النار طائرته. وحاول أن يكافح
النيران ولكنها تغلبت عليه. واحترق فقيداً افاناسى
فوق مدريد. ودفنوه هناك في مدريد. وقد حضر التشييع
الوف من الناس، لا اعرف كم عددهم: امهات يحملن
أطفالهن بين اذرعهن، وطيaron، ورجال دبابات ومشاة،
كلهم حرسوه في رحلته الاخيرة. لقد كان روسياً. والجميع
فهموا ذلك. وحمل التابوت لا بالطريقة التى نحمله فيها
نحن، بل عمودياً، وقد رفع الغطاء عنه. حتى ليجعلك
تظن بان افاناسى نفسه كان يسير مع جميع اولئك

الاسبان. ولم تفسد النيران وجهه كثيراً، بل شعره فقط...
وغنوا النشيد الأممي، كما غنوا بعض الاناشيد، ونشيد
المعركة. واطلقوا ثلاث اطلاقات مدفع في المقبرة، ووضع
حجر ابيض على القبر.

وحدق فولوديا به شاخصاً، وكانت اغلايا تبكي
بهدهوء، وحولت فاريا وجهها نحو النافذة، وكانت تسمح
دموعها باصابعها.

والتفت الجد بتقطيبة حزينة.

واستمر روديون يقول:

- كانت عندي بعض التصاوير ولكن كان عليّ ان
اتلفها. وكانت هناك بعض المذكرات ورسالة كتبها
لك ابوك... وايشاراً للجانب المأمون لم ابق على شيء...
وساقول لك ما اعرف يا فولوديا. لقد كان افاناسي
غالباً ما يقول للاسبانيين: «اذا تعبتم - فهزوا
انفسكم، او ضعفاء فاشحذوا همتمكم، واذا كنتم ناسين
فتذكروا: ان الثورة لا تنتهي». وفي اوقات فراغنا كنا
نقرأ لورد جورج غوردون بايرون، فقد كان يعجبنا
على الاختص هناك لما قام به في سبيل اليونان. وغالباً
ما كان افاناسي يكرر بعض ابياته، بضحكة وكان ذلك
مزاح. ولكن ذلك لم يكن مزاحاً على الإطلاق بالطبع. وانا
اتذكر قليلاً:

استيقظ الموتى - فكيف انا؟

والعالم في حرب مع الطفافة - وكيف اقعد؟

ونضج الزرع - فكيف اتوقف عن الحصاد؟

لا، لن اهجع: الشوكة في السرير...

وفي كل يوم يرن صوت النفير في الأذن
ويرن صدهاء في قلبي...

— ذلك ما تعود أن يقوله، يسألني: «اتسمع صوت
النفير يا روديون؟» فأقول أنا: «اسمعه بالتأكيد لا
سيما بعد ولائكم — من الزيتون الأخضر، والحبار بمرقه
الأسود، أو من بعض الأطايب الأسبانية الأخرى التي
اكتشفتها». هذا كل ما في الأمر، وليس عندي شيء
آخر أقوله لكم.

وأشعل روديون سيكارة أخرى بعناية، وغرق في
صمت طويل مألوف عنه متجاهلاً ضيوفه كلياً. فلعله
كان يفكر بالقبور التي تركها هناك وبالأحياء الذين ظلوا
خلف الأسلاك الشائكة في معسكرات الاعتقال الفرنسية،
أو ربما كان يتذكر أولئك النساء اللواتي في ثياب
سوداء صماء راقصات في ساحة رومبلا المتربة، القرية
الصغيرة في مقاطعة كوردوفا، يحتضن أطفالهن الميتين
على صدورهن. ولقد رأى مع أفاناسي زوجات المعادين
للفاشيين أولئك يحصن بالحجارة حتى الموت. واذ ذاك
تبادل هو وأفاناسي النظرات، وفهما بأن شيئاً جديداً،
شيئاً لا مثيل له في القساوة يهبط على ذلك العالم الراقص
مرحاً. شيئاً غامضاً معتماً، وكأنه يختفي خلف اكثف
ضباب، شيئاً ينبغي التمرد عليه مهما تكن التكاليف،
والأفان العالم الذي يعيش في الحاضر فقط طائشاً يغني
الآغانى، ويضحك على جميع النكات المضحكة الصغيرة عن
الرؤساء والوزراء، العالم الصارخ مطالباً بـ«خبزه
ومباهجه» — سيتحول عما قريب، قريب جداً إلى

خرائب داخنة تزمجر فوقها قاذفات قنابل هائلة عليها علامة «السواستيكا» يستخفها النصر. واذا ذاك قال روديون:

— لقد جاءت البداية.

فوافق افاناسى قائلاً:

— نعم، — بكل شدتها.

وقال روديون وهو يحدق بفولوديا بعينه الحادتين الباردتين:

— وهناك حادث آخر أريد ان احدثك عنه. ذات يوم كنت انا وابوك نسير خلال قرية رومبلا. وفي تلك القرية جىء بكل زوجات المعادين للفاشيين الى ساحة القرية ومعهن اولادهن، وحتى اطفالهن الرضع. وفي وضح النهار حصبن حتى الموت. وقد وقفن متزاحمات، تلف احداهن ذراعها حول الاخرى والاحجار الكبيرة تتساقط عليهن مداراً...

وسأل:

— أحقاً ليس من الممكن التغلب على ذلك بنصف القوة؟ وحتى افاناسى وانا، والله يعلم أننا لسنا رجلى دولة، قد ادركنا ان ذلك لا يمكن ان تطوى صفحته، وانه قد بدأ، بكل شدة وان الوجهة التى اتخذها هى هذه. انهم لا يريدون عالمين أو نظامين بعد الآن، بل يريدون نظاماً واحداً، وهم يحسبون انهم يحصلون على ذلك بالغزو. وقد اقاموا هناك تجربة ليروا كيف يواجههم العالم القديم، هل سيقف الى جانبهم أو ضدهم. واذا كان العالم لم يتوصل الى اتفاق فسيستعدون،

ويبدأون في جدية لأن العالم اذا لم يتوصل هناك الى اتفاق في هذا الشأن، فلن يتوصل بعد الى اى اتفاق في اى مكان. وكل ما يريده هتلر هو أن لا يتوصل أحد الى اتفاق في اى مكان فيستطيع أن يصرع الجميع واحداً واحداً، هل تفهم؟

اجاب فولوديا:

- نعم.

- اشرب كاساً. ان يوم مجيئى الى البيت يوم لولبى. فانا اشرب الفودكا منذ ان وصلت. وهذا شيء عجيب، واقول الصدق اننى منذ ان خرجت من هناك لم استطع ان اظفر بنوم كاف.

والقى على ما حوله نظرة قلقة، وكلهم لاحظوا كم كان مسحوقاً ذلك الرجل الاسحر الصلب، المالك زمام نفسه، الذى يتقبل كل ما هو آت بابتسامة، البحار الاصيل الذى شبعته بالملح نسمات البحر الاجاج، «مجد البلطيق» كما يسمى نفسه وهو يضحك مسترجعاً في ذاكرته الابيات الفجة التى نظمت خلال الحرب الأهلية. وسالته فاريا برقة جميلة:

- انت لا تستشعر البرد يا ابنى؟

فحضنها بذراع واحدة، وضمها اليه وقال بمرارة:

- انا بخير يا بنيتى، بخير تام. ولكننى تعب فقط.

والافكار التى تشغلنى ليست أفكاراً مريحة جداً. فمثلاً نحن نتصور جميعاً ان الفاشية ستنقشع عنا مثلما تنقشع سحابة مطر. ولكنها لا تنقشع. منذ زمن بعيد وانا افكر واراقب الحوادث، حتى قبل اسبانيا. خذى مثلاً:

لماذا يصل غوغو ايكنر، رجل الطيران الالماني الى الولايات المتحدة في طائرته: «فريدريكز هافن د - ٣»؟ لبضفط على الامريكيين ضفطاً معنوياً - انظروا كم تتجمع علينا من قوة. ولماذا فازت الباخرة الالمانية «بريمين» بالوشاح الازرق في طريققتها الى نيويورك وليس في طريققتها الى ميناء الماني؟ مرة أخرى للارعاب. خذ طياريههم، وملاكهمهم، وافلامهم - ان القوة الالمانية تعرض في كل مكان، النصر الالماني، التفوق الالماني، القبضة الالمانية. واولئك المجانين الملعونون في اوربا وعبر المحيط يرقصون ويرقصون. وتايلمان في السجن. ما الذي يعنى ذلك؟ «امبراطورية الالف عام». وما الذى يعنى ذلك؟ الوفد الالماني يترك جنيف - لماذا؟ والآن أسسوا «جمعية انكليزية - المانية» في لندن، وهم ينشرون أفكار هتler بين الشعب الانكليزي. وقد أصبح اللورد مونت تمبل رئيساً لها، وهو من اقطاب الصناعة الكيمياوية البريطانية... وشمبرلين شخص عاجز، وهو اما مأجور لهم، أو أحمق تماماً. لهذا فان كوكبنا الطيب القديم، بالشكل الذى ارى فيه الامور، ليس له ما يعتمد عليه الا نحن.

فسالت فاريا:

- يعنى ذلك ان ستنشب حرب؟

فقال روديون وتوجه نحو اغلايا:

- شىء عظيم يوشك ان يحدث. ومهمتنا في هذه اللحظة ان نجعل شعبنا ولا سيما شباننا، مستعدين لأن يلبوا النداء حالما يستصرخون. وانت يا اغلايا مديرة

من مدراء التعليم، فخذى نصيحتي. ان دوائر التجنيد والتعبئة العسكرية لا يمكن ان تضطلع في الأمر الا اذا جعلنا نحن بانفسنا شباننا متينين وذوى منعة ايدولوجيا. وما زلنا حتى الآن متساهلين ومتراخين في هذا الأمر. والآن قد شعرت وتشممت بأن في انتظارنا عملاً ليس بسيطاً. وربما يجدر بنا ان نشرب نخب هذا، نخب النصر النهائي على ما رأيته وما لم تعرفوه انتم حتى الآن لحسن الحظ.

فسال الجد ورموشه تخفق مسرعة:

— النصر على ماذا؟

قال روديون مجيباً:

— على العدو يا ابي!

فقال العجوز:

— حسناً، اذا تشرب نخبه، اشرب انا ايضاً،—

وكان وجود فاريا يربكه دائماً حين يكون في خفة طربه. والتفت نحو اغلايا وقال لها:— هل تضيفين الى شايك ورد النسرين؟ انها فكرة طيبة، وهو يجعل الشاي ارخص، وله رائحة الدريس النقى.

فتدخل روديون في الموضوع قائلاً:

— ينبغي ان لا تكون للشاي رائحة الدريس

يا ابي. واذا كنت حريصاً جداً على الاقتصاد فخمر الدريس الصافي وينتهى الامر.

فقال العجوز مقلداً ابنه:

— دريس، خمر الدريس، ستصبح اسراري معروفة

في الشارع كله. انا الآخر عندي نباهة. لقد كنت في

اسبانيا يا ميفوديفتش. فهناك بلاد تدعى اسبانيا. فهم
يتحدثون دائماً عنها في الراديو. بل وهناك شعر عنها.
وفاريا دائماً تدندن به. هذا حق اليس كذلك؟
وأجال في الحضور عيناً مظفرة، وفجأة غنى بصوت
ممل نسائي:

كنت صبية
ولم اعرف قط
كيف سأزوج
غير سعيدة...

وكان يعتقد بان الناس اذا كانوا جالسين على
مائدته يأكلون ويشربون، فمن شأنه، وهو المضيف، أن
يطلق المرح، ويكون أول البادين بالغناء. وعلى أية
حال قرعت المربية المثقفة الجدار بقبضتها العظيمة،
والغناء ينبغى ان ينتهى.
وقالت فاريا:

- ان طفلهم عصبى بشكل مرعب. والبروفيسور
برسيانينوف يعتنى به. وهو ببساطة لا يقدر أن يعرف
لماذا هو عصبى على هذا النحو؟
فقال الجد:

- ويسمون أنفسهم بروفيسورية أيضاً! انه يأتى
ويقبل الطفل من عجيزته بالضبط. آه، أنت طفل
جميل! وآه، أنت ولد صغير بحبوح! ويأخذ ثمن ذلك
خمسين روبلاً بالتمام. فى وسعى أنا ان أفعل أكثر من
ذلك بنصف مائة من الروبلات...
قالت فاريا:

— كيف تستطيع يا جدى! ان بروفيسور
برسيانينوف اخصائى كبير، وهو يحاضر فى معهدكم
يا فولوديا اليس كذلك؟

فرد فولوديا:

— كان من قبل. اما الآن فلا. وهو ليس اخصائياً
كبيراً مطلقاً، ولكنه معروف عند الامهات لانه يقول
لكل واحدة منهن ان طفلها فريد فى نوعه.

وسال روديون:

— يعنى ان الطفل من نوعية عالية؟

فلاحظت فاريا فى حزن:

— ولكنه وجيه، وصاحب نكتة دائماً، ومرح...
وبدا فولوديا وكأنه لم يسمع. فقد كان غارقاً فى
افكاره. فكل ذلك المساء الطويل وغير السهل ظل ينسى
اين هو، ثم عاد الى الحقيقة، وسال فى ارتباك:

— ماذا؟ هل كنت تتحدثين معى؟

ومشى روديون موصلاً فولوديا واغلايا الى البيت.
وتخلفت فاريا لتغسل الصحون مع الجد. وقد نظر
ابوها اليها باستفهام ثم الى فولوديا. ولكنه لم يقل
شيئاً. وفى الدرج التقيا ببوريس غوبين وهو يصعد
الدرج. وكان فتى ضخماً جميلاً يرتدى معطفاً انيقاً غير
مزرر، وقبعة لباد.

— هالو، هل فاريا فى البيت؟ — سال بوريس

فولوديا لسبب غير معروف.

— فى البيت، — اجاب فولوديا بعدم اكتراث، ونظر

اليه روديون ثانية وسال:

— من هذا الفتى؟

— هو بوريس غوبين. أحقاً لم تعرفه؟ وهو الآن شخصية معروفة عندنا في المدينة. وهو يكتب الشعر والتعليقات عن الكتب في الجرائد. وحين تمشى معه في الشارع غالباً ما تسمع الناس يقولون: «انظر، هذا غوبين» وهو ذكى جداً. وفارياً تزجى له الاطراء الكثير. وهى تقول انه رجل سهل، وليس معذباً مثل بعض من تعرف.

— معذب، ينبغى ان أفهم أهذا انت؟

— اظن ذلك،— اجاب فولوديا بغموض.

ومشى في طريقه غارقاً في التفكير وعابساً، ويداه محشورتان عميقاً في جيبى معطفه. وكانت اغلايا وروديون في الخلف يتحدثان بصوت مهموس.

بعض التغيرات

منذ ذلك المساء كان روديون يذهب لرؤية فولوديا كل يوم تقريباً— هذا ما ظنه فولوديا في البدء، ولكنه فهم فيما بعد بحزن وبدهشة أن روديون لم يكن يأتى لرؤيته، بل لرؤية العمة اغلايا. وكان يقضى ساعات طويلة معها يحدثها وحدها، وتصفى ورأسها الجميل مستند على راحتي يديها محدقة في نقطة واحدة— في المصباح القديم ذى الظليلة القطنية المطرزة. وكان روديون يبدو جميلاً في بدلته البحرية ذات الشرائط الذهبية، وكان وجهه أحمر داكناً يوازن صدغيه الاشيبين،

وحاجبيه الاسودين الكثيفين. وكان يذرع غرفة العمه
اغلايا متحدثاً، ضاحكاً دون ان يسألها أى سؤال. وكان
فولوديا يعرف كم كان التحدث اليها سهلاً ومسرراً.
وذات ليلة، ولأول مرة فى حياته سمع عمته تغنى
لشخص ما، لرجل. ولا بد من ان اصطفاق الباب حين
دخل البيت لم يكن مسموعاً لهما. وجلس فولوديا على
حافة حوض الحمام، وأصفى مسحوراً، يمسك بقبضتي
يديه فوطه. وغنت اغلايا بصوت خفيض، ولكن ببساطة
وقلب مفتوح وكأنها تبوح باعمق مشاعرها لصديق؛
غنت كما تغنى النساء الروسيات وحدهن:

آه، ايها الليل لماذا أنت كئيب؟

يا ليل الخريف المعتم

لماذا أنت متجهم مكفهر

وليس فيك نجمة تطل؟..

وحين انتهت الاغنية فتح فولوديا الحنفية بقوة،
وأندفع الماء الى الحوض فى ضوضاء. ولكنه تأخر عن
اغلاق الباب من دونه فدخلت عليه العمه اغلايا. وكانت
مرتدية ثوباً جديداً انيقاً، وكانت عيناها تشعان سعادة.
وسالت:

— هل جئت منذ زمن؟

فاجابها بوعق:

— لقد سمعتك تغنين.

وتوسلت اليه:

— لا تحكم على، لا تحكم على، يا عزيزى...

ونظر اليها فولوديا فى استغراب. وهو لم يرها بهذا

الشكل من قبل قط. وكان الناس يقولون إن عمته جميلة، وقد لاحظ ذلك ايضاً، ولكنه لم يتصور قط انها تستطيع ان تكون على هذا الحد الكبير من الجمال، والبهاء، والرشاقة والشباب.

وسرعان ما أمتلأ الحوض المزرق بالماء المترقق بضوضاء. ووقف فولوديا الى جانبه بمايوه، فتى نحيلاً بارز الترقوتين بينما كانت عمته تمسك ذراعه بيدها الدافئة، وتهمس له بسرعة ورقة:

- لقد كنت أحبه منذ سنين، سنين كثيرة وكثيرة جداً. ولكن ذلك كان صعباً عليه وعلى آذاك. اما الآن فانا سعيدة، يا عزيزى، انا سعيدة للغاية. ففكر - إن غريشا قتل عام ١٩٢١، وانت ستتركنى إن آجلاً او عاجلاً. وهو الآن وحيد. فلماذا يضيع احدنا الآخر الآن؟ إنى أرى فى عينيك إدانة لى. ولكن لماذا؟

فقال فولوديا وهو ينظر فى عيني عمته البراقتين:
- أنا لا أدينك... إنه مجرد... إنكم تهجرونى جميعاً... فاريا وانت وبيتش. فلا تهجرينى، انت على الأقل، كيف أكون وحيداً؟ ان الوحدة شىء موجه... وطفح الماء على حافة الحوض وأنزلق فولوديا على الارض المبلطة حين خرج روديون من غرفة اغلايا، وقال بحزن:

- هجرونى جميعاً. فما اسوأ ذلك!

ف قالت اغلايا لفولوديا:

- انظر، ما العمل؟

وعند العشاء حقق فولوديا معهما، واعترفا له بكل شيء بسرور.

فسألها فولوديا:

- إذن، كان احدكما يكتب للآخر ايضاً؟

أجابت العمة اغلايا:

- بالطبع. انظر لا يمكنك ان تدهن خبزك بهذه،

هذه جبنة. هاك الزبدة.

- وهل رأيته حين ذهبت الى لينينغراد؟

أجاب روديون:

- نعم، التقينا. وقد ذهبنا الى الارميتاج والى

المتحف الروسى، وصعدنا الى قبة كاتدرائية اسحاق.

- وفى هذا العمر؟

قالت اغلايا:

- هذه وقاحة!

- وهل كنت تعرفين عن اسبانيا؟

قالت العمة اغلايا وهى تصب شاياً لستيبانوف:

- لم أكن أعرف، ولكننى خمنت. وليس من الحكمة

ان يخفى روديون ذلك عنى.

- لم أكن اريد أن ازيد قلقك.

فسال فولوديا:

- ماذا سيحصل الآن؟ أنا شخصياً اصوت ضد

انتقالكما...

وسأل روديون:

- ما الذى جرى بينك وبين فاريا؟

- لم يجر شيء. ولكن أظن اننى شخص صعب حقاً.

هذا كل ما فى الأمر. وإذا اعتقدت بأن شيئاً ما حماقة، وبلا أهمية للحياة، قلت ذلك بصراحة. وذلك يجعلنى مستبدأ، وهى فى الواقع تسمينى طاغية. على أية حال هى اصغر سناً منى. وتصوراتها مختلفة بالطبع عن تصوراتى. وأنا لا أدينها. بل ببساطة لا أستطيع أن آخذ الأمور بالطريقة التى تأخذها بها.

قال روديون:

— هذا كذب، بل انت تدينها. وينبغى عليك ان لا تفعل ذلك. ولو تفقدها لن تجد أخرى مثلها. وأنا لست وسيط زواج بينك وبينها.. أنا... كيف أقول... أنا احترمك، أو ما الى ذلك. وهذا هو السبب فى اننى اريد ان اقول لك شيئاً: طالب الانسان بالشئ الكثير، ولكن بحدود القدرة الانسانية.

قال فولوديا وقد امتقع لونه فجأة:

— أنا اطالب كل شخص مثلما اطالب أبى الفقيد. وأنا اطالب بذلك نفسى أولاً، ومن كل شخص أيضاً. ولا شئ غير ذلك يرضينى.

ونظر روديون الى اغلايا، ثم تحول الى فولوديا

ثانية:

— هل ذهب عقلك؟

— لا، لم يذهب يا روديون ميفوديفتش، لا ابدأ.

ولكننى اعتبر، — قال فولوديا ذلك وقد سمح نفسه فجأة يتحدث كبولونين بالضبط، — عندى الجرأة على أن اعتبر ان غرض الوجود الإنسانى يكمن فى ارفع المطالب التى يضعها الانسان لنفسه، تماماً مثلما فعل أبى حين طار

وحده واقفاً ضد سبع طائرات «اليونكرز» ولم يكن مغرماً بالتضحية بنفسه، ها؟ كما لم يكن يؤدى واجبه فقط، صحيح؟ وفي تلك اللحظات كان يحمل كل مسؤولية عن مصير الثورة العالمية...
قالت اغلايا:

- هدىء نفسك يا فولوديا ولا تهيج اعصابك.
ان لونك ممتقع بشكل مخيف...
- انا غير متهيج الاعصاب. وانا افكر دائماً بان الجميع لو كانوا مثل أبى، لما كانت هناك حروب قط، ولعالجنا السرطان بالسهولة التى نعالج بها الاصابة بالبرد وسوء الهضم، ولنسينا ان السل كان موجوداً. لأن معظم الناس الآن يفكرون برفاهيتهم الشخصية وحدها، ويرفضون ان يفهموا ان رفاهية المجتمع هى التى ستجلب لهم رفاهيتهم، وعلى نطاق أوسع من كل ما تخيلوه اولئك الافراد فى احلامهم.

وشرب كل ما بقى فى قدحه من شاي بارد بجرعة واحدة وسأل:

- أرجو ان تعذرانى. ولكن أجد ذلك عسيراً على جداً. إن خنزيراً سماني اليوم خائناً لاننى رفضت أن أسأل غانيجيف بان يسمح لفتى بأن يؤدى امتحانه ثانية.. إنه امر جارح... لقد رفضت لأننى أعرف حق المعرفة ان هذا الفتى النجيب سيظل فى المدينة قطعاً وينهى ويأمر وانه سيتسلل ايضاً الى القيادة وسيصدر الاوامر رغم قلة معرفته وعقله الواهن، وافكاره الصغيرة المعوجة...

فسال روديون:
- هل هو يفغيني؟
قال فولوديا متجاهلاً السؤال:
- أنا ذاهب الى النوم. فانا في المدة الاخيرة احس
بالتعب.
وأغلق الباب خلفه بقوة، وتلفن الى بيتش في القسم
الداخلي. وكان صوت بيتش يبدو مهتاجاً.
سأل فولوديا:
- هل حسن ان يكون الانسان متزوجاً؟
فرد بيتش:
- اذهب الى الجحيم!
- فكر بهذا، أيها العريس السعيد: إذا لم تات
غداً مرة أخرى لندرس، فإن ما بيننا سينقطع الى
الأبد. لقد لمح لي اوغورتسوف بأنه يود ان يحتل
مكانك.
- هذا امر راجع لك.
- هل ستأتى غداً؟
- نعم، - قال بيتش ذلك. وأضاف بعد صمت
قصير: - أنت رجل صعب حقاً يا فولوديا!
فاجاب فولوديا في مزاح:
- هذا موقفنا!
وبينما كان فولوديا يتحدث بالهاتفون تحدث
روديون مع اغلايا بشانه وهو يدرع الغرفة والسيكارة
بين إصبعيه، ان فولوديا على حق بالطبع، ولكنه يبالغ
في ذلك.

وقالت اغلايا في قنوط:
- هو من الناس الذين يطلقون الرصاص على
أنفسهم.
- امثاله لا يفعلون ذلك ابدأ، - اجاب روديون
بهدوء.

وحين غادر، خلعت ثوبها الجديد، - ولبست ثوبا
ادفا، وأصغت لحظة إلى تنفس فولوديا المتساق. وانسلت من البيت. وكانت الباصات ما زالت تسير. وركبت
الباص واستغرقت في ذكرياتها حتى الميدان قرب محطة
القطار.

... في تلك الايام كانت العربات تصطف هناك وتفوح
منها رائحة الجلد القديم والقطران. وهناك، خلف حديقة
الزهور، كان ثمة مكان تعقد فيه سوق يبيعون فيها الكرشة
المشوية، والسماك، والسجق المصنوع بيتياً، والخيار
المخلل. وها هو ذا الميدان، والبيت الصخري الذى كان
العمدة كنيازيف يسكنه في الايام الخوالى والبيت الخشبى
الصغير ذو الشرفة، والجناح الصغير ومصاريع النوافذ،
وشجرة البتولا الى جانب الباب. واصبحت الشجرة عالية
جداً وجميلة، وكانت براعم الاوراق ممتلئة رغم الربيع
المتاخر البارد. أليس جميلاً ان تظل الشجرة هناك
حتى الآن!

وفجأة شعرت اغلايا بالدموع تتجمع في مآقيها.
فهناك الى جانب البتولا، امام البيت الصغير ذى الشرفة،
قال لها غريشا كوندراتييف، رئيس لجنة الأمن الداخلى
في المنطقة، انه ذاهب الى موسكو لبضعة ايام، وعندما

يعود سيكون هناك « عرس هادى » سواء ارادت ام لم ترد. وبدت كلمتا « عرس هادى » غريبتين. وقد شرح لها ذلك:

— اقصد انك ستنتقلين الى الابد. ولا اريد ان استدعى الناس، اذ انهم سيشربون ويصيحون... وانت زوجتى وليس لأحد شأن فى ذلك. هل ستنتقلين؟ وهزت رأسها موافقة.

— ستنتقلين! ستنتقلين وسنبدا الحياة. وستكون حياة مبنية على الاخلاق الشيوعية الجديدة. لاحظى ذلك. ولا شيء من اوهام الماضى المتفسخة. إن الزواج هو الحب. ولا زواج من غير حب. إنه كذب، نفاق برجوازى لا غير، شيء مثل بيوت الدعارة.

وسألت اغلايا الفتاة الشابة أنذاك:

— وما هى؟

فاجاب بصرامة:

— ذلك ما سأشرحه لك عندما اعود. وعندى مزيد من القول اريد ان أقوله. اصغى الى. اذا كففت عن حبى فلا تخافى. إبدئى الحياة من جديد مع رفيق آخر. صحيح أن لا يكون ذلك مفرحاً لى، ولكن مجتمعنا لا يطبق التضادات فى الحب. ولن يطبق الاشفاق فى الزواج ايضا. وهذا ما أراه أنا، وهذا ما قاله ايضا الرفيق خولوديلين المحاضر من منظمة التثقيف السياسى. هل سمعته؟

قالت اغلايا:

— لا، كنا نتدرب على الرشاشة فى تلك الليلة.

— ما إن أرجع حتى أحاسب معلمك العسكرى. فهو دائماً يدمر مشاريع التشقيف السياسى. والآن لنذهب أبعد...

ووقفنا الى جانب شجرة البتولا زمناً طويلاً، طويلاً جداً. وكان هو يحمل على ذراعه سترة جلدية، وعلى جنبه مسدس «موزر» ذا غلاف خشبى أصفر. وكانت هى فى فسطان من القماش الرخيص. وكان ذلك احسن ثيابها وأجملها. وقد صبغت القماش بلون ازرق براق، ونشته، وصنعت له ياقة بيضاء صغيرة. وكان يبدو رائعاً، وكان فى الواقع يجعلها تشعر بأنها متأنقة فى هندامها. فلا بد من أنه كان احسن ما فى البلدة، وقد حرق غريشا بها مصعوقاً وسعيداً.

وقال وهو يهز رأسه باستغراب:

— حسناً، حسناً من أى قماش مصنوع؟

وغادر قطاره. وفى اليوم المعين لعودته سبحت اغلايا طويلاً فى نهر اونجا الداى، وفكرت: «لقد أنتهت ايام صبوتك يا اغلايا، وقد كان لك مراح فيها ومغدى. والآن ستكونين زوجة حتى آخر ايامك. مواطنة لك حقوقك بالطبع، ولكنك زوجة».

وفى ذلك المساء — المساء الساكن الهواء الذى تتجمع فى سمائه عاصفة — جمعت اغلايا اشيائها وجاءت الى البيت الصغير هنا. وكان غريشا بانتظارها وهو فى قميصه العسكرى المنطق. كان بانتظارها فى وسط الغرفة. وكانت غرفة نظيفة ومرتبة. وكان كارل ماركس يحرق من الحائط، وكانت هناك بعض الكتب

قد رصت باناقة فوق المنضدة الى جانب سرير ضيق.
وكانت ثمة شمعة على طاولة صغيرة مطعمة. وكانت
عينا غريشا مفتوحتين على وسعهما. وطوال حياتهما
المشتركة القصيرة كان ينظر الى اغلايا مفتوح العينين
على وسعهما وكأنه ينظر الى معجزة. وعندما مات لم
تر جثته. كانت مصابة بالتيفوس انذاك. ولهذا
كانت على الدوام تتذكره على هذه الصورة - رقيقاً
وخجولاً واقفاً ينظر اليها، بينما كان الرعد يقصف، ويهدر
في السماء، مستجمعاً قواه ليهجم، فيخيب في مسعاه.

- والآن أصغى. اريد ان اقول شيئاً عن حياتنا
المقبلة سوية - قال محولاً وجهه قليلاً حتى لا يدهله
وجه اغلايا الطفولي الساذج، - أنا اقوم بعمل قاس.
وصنوف من الاشخاص يحاولون ارشائي ليحطموا
قانوننا ونظامنا الثوريين. ولن تقبلي شيئاً من احد قط،
لن تقبلي اية هدية، تذكرى ذلك. وهناك شيء آخر: إن
لدائرتنا عربية ذات حصانين تستخدم في الاعمال الرسمية
فقط، الحصانان لا بأس بهما، فنحن نطعمهما جيداً
ونجعلهما يظهران بمظهر محتشم. ونحن لا نستعمل
العربة في الاحتياجات الشخصية، بل للأمور الملحة كلياً.
فاذا رأيتك مرة في تلك العربة فسأعيرك على ملأ من
الناس، اينما كان ذلك.

وسأل دون ان يتوقف:

- اليس معك شيء من الطعام؟

وفي ليلة «عرسهم الهادى» أكلا خبز اغلايا الجاف،
وشربا بعض الحليب. وبعد زهاء ستة اشهر، ركب

غريشا عربة الدائرة وذهب مع زملائه للقبض على البارون السابق تاده، وهو مجرم خطير، ارتكب بعض جرائم السلب والقتل والاغتصاب. ولم يعد غريشا. ففى آخر تصادم القى مساعد تاده قنبلة يدوية تحت قدميه وفجر نفسه وغريشا.

وحين شفيت اغلايا من التيفوس رأت نفسها ارملة. وقد أعطى لها مسدس غريشا المنقوش لتذكره به، وارسلت الى موسكو للدراسة. وغادرت البيت الذى تقف شجرة البتولا عند بابه، ولم تزره منذ ذلك الحين. - كيف يجب ان اعيش؟ - همست وهى تستند بكتفها الى الشجرة.

ورأت وجهين - وجه غريشا ووجه روديون - والاول ينبسط على الآخر على نحو ما. فهل هى مذنبه ازاء غريشا؟ من يستطيع ان يقول لها؟

وتلفنت الى روديون من محطة القطار. وبدا وكأنه كان يتوقع النداء فقد رد عليها فى الحال: - ستيبانوف يتكلم، - وكان صوته أجش قليلاً. فقالت بصوت منخفض:

- سنغادر متى تشاء. وفى وسعنى أن آخذ اجازتى إبتداء من السبت اذا اردت.

- حسناً. سأجرى كل الترتيبات، - قال برصانة ودون ملل.

ووضع سماعة التلفون، وذهب الى غرفة الطعام حيث كانت فاريا تطالع موادها الدراسية وعلى وجهها تقطية غاضبة. واشعل سيكارة، وذرع الغرفة، ثم اعلن:

— سأسافر، يا فاريّا.
— حسناً، — تمتت فاريّا.
— سوف لا اذهب وحدى.
— تذهب مع اغلايا بتروفنا؟ — سالت دون أن
ترفع بصرها عن كتابها.
— نعم، معها.

واغلقت فاريّا كتابها، وجاءت الى ابيها وطوقت
عنقه بيديها، وقبلته ثلاث قبل قوية على خده. ويوم
السبت جاءوا جميعاً — فاريّا، وفولوديا ويفغينى وايريادا
وبوريس غوبين — لتوديع روديون واغلايا فى سفرهما
الى سوجى. وكان الربيع فى الهواء تلك الليلة، والجو
دافئاً ورطباً، والدنيا مظلمة. ورفعت اغلايا عارضة
النافذة فى مقصورتهما فى عربة القطار «الدولية». وقد
وضعت بعض زهور «الميموزا» الصفراء البهيجة فى قدح
زجاجى على طاولة صغيرة غطيت بفوطة منشاة.
وقال يفغينى وهو ينظر من النافذة الى الداخل
بفضول متلهف:

— الطريقة الوحيدة فى السفر، اذا سافرتم، هى فى
عربات القطار «الدولية». انظروا ايها الرفاق كيف دبر
كل شىء فى المقصورة بشكل معقول ومريح. نعم، ان
البرجوازيين كانوا يعرفون كيف يستمتعون بالحياة.
وكان روديون، المهندس فى لباسه البحرى الازرق
المفصل جيداً ذى الشرائط الذهبية على كفيه، وفى كفه
اليسرى قفاز انيق، واقفاً مع الآخرين على الرصيف.
وكانت اغلايا تصدر اوامرها الأخيرة من نافذة المقصورة:

- يجب ان تاكل وجبة طعام حارة في كل يوم.
اتسمع يا فولوديا؟ اجهد نفسك في ذلك. ينبغي ان تفهم
انك محتاج اليها حقاً. فانت نحيف جداً، ولا تنام نوماً
كافياً. وانت قلق ومتوتر الاعصاب. وامتحانات التخرج
على الابواب. اصغ. إن الدرس الكثير مضر طبعاً، وفضلاً
عن ذلك انت دائماً تعلم احد الناس. وعليك ان تتناول
حساء. اتسمعني؟ ويستسوق جيراننا لك، ويطبخون
لك، ولا تنس وجبة الطعام الحارة. ولا تحش نفسك
بالخبز. اتسمعني؟

وهمس روديون:

- فاريا، أود أن ترعيه!

وقال بوريس غوبين بلطف:

- بوسعك يا فولوديا ان تأتى وتتناول الغداء

معنا بانتظام. إن أمى ربة بيت ممتازة!

وعرض يفغيني بشهامة، قائلاً:

- أوه، هو في وسعه ان يأتى وياكل عندنا.

وسيدفع حصته، وهذا كل ما فى الأمر!

وظلت فاريا تعض شفتيها دون أن تقول شيئاً.

إنها تأتى فى جدول هذا الفتى بالمرتبة الثالثة، أو لا،

بل الخامسة. العلم فى المرتبة الاولى، ثم المعهد، ثم

افكاره، وفكره، وكتبه ثم لا تعرف ماذا، واذ ذاك فقط،

حين يكون له وقت فراغ - تأتى نوبتها. فى اوقات

فراغه فقط، حين لا يكون عنده اى شىء أفضل يفعله،

أو حين لا يكون هناك من ينصت الى احاديثه.

وتناول بوريس غوبين ذراعها، ولم تسحبها هى -

فلير فولوديا، ولكن حتى ذلك فات عنه. ومرة أخرى
عزل نفسه عما يحيط به. وبماذا يمكن ان يفكر الآن؟
بالامعاء، بالخراجات، بماذا؟

وهمس بوريس:

— ما زال وقت السينما لم يفتنا.

فهزت رأسها:

— حسنا.

قال روديون بصوت مجهود:

— حسناً، حان وقت الوداع. وسأذهب الى البلطيق

من هناك رأساً!

وتحرك القطار ببطء في رحلته الطويلة، واتجه

فولوديا إلى باب الخروج دون ان ينتظر الآخرين.

وقالت فاريا:

— لا اريد ان اذهب الى السينما!

— فاين نذهب اذن؟ — سأل بوريس بعناية.

— لا أذهب لأى مكان! أنا تعب.

— ربما فى وسعنا ان نذهب الى بيتك ونتناول

الشاي؟

— ولن نتناول الشاي ايضاً! لقد قلت لك: انا تعب!

وخلال ذلك كان يفغينى يقول لا يرياداً:

— إذا كان المرء ذكياً فى الجمع بين الذاتى

والاجتماعى، وليس سمكة مسكينة ذات مبادئ رفيعة

ساذجة، واذا قدر المرء على ان يقدر الموقف بسرعة،

ولا يضيع فرصة واحدة، فانه يستطيع ان يجعل السفر

فى السيارات الفاخرة، والقطار الدولى الممتاز، والتردد

على جميع شواطئ النخيل تلك والبحر الدافئ شيئاً
مالوفاً مثل عصيدتنا عند الفطور. الالتفقين معي يا حبيبة
قلبي؟ وبهذه المناسبة الا تظنين بانك قد فقدت
شيئاً من براعتك؟ قبل كل شيء في وسعك ان تبتسمي
عندما يكون ذلك ضرورياً، وأن تكوني أكثر مرحاً، كما
إن ملابسك يمكن ان تكون أكثر اناقة. اذهبي لزيارة
ماما، وتملقيها قليلاً، وستكون مسرورة في تحويل
معطفك الصيفي الى سترة طويلة، على الموضة الحالية.
قالت ايريادا:

— عندي صداع.

— انت دائماً تشكين الماء،— وكان صوته رغم
لطافته وانخفاضه محملاً بالكراهية،— ولكنك في الواقع
معافة، وتأكلين جيداً وكل شيء طبيعي فيك. فقط ان
تملكي زمام نفسك.

... وزاد القطار من سرعته. وكان روديون واقفاً
في الممر فخلع قبعته، وذلك جبهته قوياً بمنديله. وكانت
ملازمة القطار تهى الفراش وسمع روديون صوتها
تقول لاغلايا:

— هل تريدان تغيير المقصورة يارفيقة؟ فهناك
مادام أخرى في المقصورة المجاورة.

فقال ستيبانوف بصوت حازم دون ان يبتسم:

— لا، إن الرفيقة ستبقى هنا مع زوجها. وتستطيع
المادام في المقصورة المجاورة أن تسافر وحدها. وفضلاً
عن ذلك فان المادامات والرفيقات لسن نوعاً واحداً من
النساء. ألا تتفقين معي؟

وتطلعت اليه، ورات عينيه الساخرتين، والأوسمة
على صدره، والذهب في كميته، ولاحت خائبة.

وسأل روديون بلطف: - هلا جلبت لنا شيئاً من
الشاي، أيتها المضيضة العزيزة؟

وكانت اغلايا جالسة على كرسى في ركن المقصورة
وقد أسندت وجهها المبتسم والشاحب جداً إلى راحة
يدها، وهي الطريقة التي تجلس فيها دائماً. وهبت ريح
دافئة رطبة على النافذة وقد جاءت من الحقول جالبة
معها رائحة الربيع المبكر، ودخان القاطرة المر، وكانت
الزهور تهتز على الطاولة.

وصاح صوت جدى من الممر:

- سندويتشات، فطائر، مشروبات روحية وغير

روحية!

- هكذا، - قال روديون ذلك وهو يجلس على

حافة الأريكة محدقاً بعمق ووداد واحترام في عيني اغلايا

القائمتين. سألت:

- أهذا كل ما تقوله؟

ولزم الصمت.

وقالت تغايظه:

- هكذا؛ إقنع عن الخجل من نفسك. ولا تخف

من الكلمات. هناك كلمة - هي الحب. وانت تحبني وأنا

اعرف ذلك. ونحن قد تخطينا الشباب، ونعرف قيمة

الكلمات. قل لى انك تحبني.

- انك تحبني - كرر روديون مذهولاً بصوته

الاجش.

- قل: أنا احبك.

- أنا احبك يا اغلايا، وأنا لا اعرف حتى الآن ما هذا. ولكن حتى عندما كنت في اسبانيا، كنت احدث عنك دائما كلما رايت افاناسي. وقد فطن الى ذلك، وقال لي: تزوجها يا روديون، فانت لن تتزوج بواحدة اخرى غيرها.

- وهل تزوجتني؟ - سألت اغلايا بضحكة صغيرة.

- ماذا تعنين؟

- أقلت ولو مرة أنك تريد ان تتزوجني؟

- وهل لم اقل؟

- ساقول لك يا روديون ماذا قلت بالضبط.

قلت: «اغلايا، أنا ذاهب إلى سوجي، فلنذهب سوية. إيه؟» وعندما قلت لملازمة القطار إنك زوجي سمعت أنا عن ذلك لأول مرة.

ونهضت خفيفة، وجلست الى جانبه، ووضعت يدها تحت ذراعه، وضغطت بوجهها على كتفه.

- أنت غير حاذق في الكلمات.

قال:

- غير حاذق مطلقا يا اغلايا، ولا تفضبي علي. وليس هذا يعني انني اخاف من الناس الذين يحذقون الكلمات ولكن من المتعب أن اكون معهم. وكان هناك شيء آخر طيب عند افاناسي: وهو أنه كان يعرف كيف يصمت. وذلك شيء عظيم، هو هذه القدرة على أن يتجنب الانسان كثيراً من الكلمات التي لا يحتاج الى

التفوه بها في لحظات غير مناسبة. وانت لك هذه المقدرة
ايضا.

- هل سنعيش حياتنا كلها صامتين؟
- لا، بل سنعيش حياتنا حسب ما يجب بالطريقة
التي يعيش بها الناس. وسترين، - قال ذلك بحزم هادى،
ولكن صوته كان لطيفا.

وضغطت اغلايا على ذراعه اكثر.

وسأل فجأة:

- عم تفكرين؟

فاجابت بخضوع:

- أنا سعيدة، ولكن الأمر مخيف بعض الشيء.
فستخرج الى البحر، وأنا...

- وانت ستنتقلين الى كرونشتادت أو
اورانينباو؟

- لن انتقل، بل ينبغي ان أبقى هنا. فعلى هناك
ان افتش عن عمل جديد. وهذا لا ينفع يا روديون.
ولكننى سأظل هنا بانتظارك أبداً. وهل تعرف ما معنى
أن يكون أحد بانتظارك أبداً؟

- لا، لا اعرف.

- الآن ستعرف.

وغرقت في افكارها. وسألها عم تفكر.

قالت:

- عن فولوديا. كيف سيدبر أمره وحيداً؟

انتم ناس عجيبون!

ولكن فولوديا لم يكن وحيداً. فقد كان معه بيتش، واوغورتسوف، وكلاهما مكتئب وحزين. وقبل ساعة رأوا الدكتور ميكشين يقضى نحبه، وهو الطبيب الذي خرج فولوديا معه في عربة اسعاف يجرها حصان لتلبية نداء للاسعاف الاولى. وكان بيتش واوغورتسوف في نوبتهما في المستشفى حين جىء به. وكان ما يزال مالكا وعيه، وقد عرف الطالبين وتمازح معهما عن حالته. وعندما استقر في الفراش ساءت حالته، وأصبح كثير الاضطراب، واخذ فكره يتيه، وعند الغروب مات الطبيب العجوز الطيب القلب. وكان بيتش واوغورتسوف قد عملا مع ميكشين ايضا. ولم يستطيعا ان يستوعبا الأمر - لقد مات بسرعة، وكان ذلك حماقة وأمرأ غير حقيقى. قال فولوديا:

- علينا أن نعلن نعيه في الجريدة، فإن المدينة كلها تعرفه. فقد ساعد كثيرين. أليس كذلك يا بيتش؟ وكان اعلان النعى في الجريدة أقل بساطة مما ظنوا. فاولاً كان الوقت متأخراً، والقسم المكلف باعلانات النعى قد أنتهى من عمله لهذا اليوم. وقال سكرتير هيئة تحرير «عامل اونجا» - وهو رجل فى بلوزة طويلة وفى يده المقص، مرخ بشكل غريب - قال للطلاب إن الصحيفة المنطقية لا يمكن ان تعلن عن جميع الوفيات، كما لا يسعها ان تفرح قلوب قرائها بانباء

مجيء كل المواطنين الصغار الى العالم. وقد قال ذلك وهو يضحك.

قال بيتش بتجهم:

— هلا كففت عن مزاحك! نحن لم نأت هناك لنسمع ضحكة.

اجاب الرجل:

— لقد ولدت متفائلاً. وبالإضافة الى ذلك نعرف أننا جميعاً صائرون الى الموت. حسناً، ايها الرفاق الاعزاء، لا يمكنني ان افعل لكم شيئاً.

وتوجب عليهم انتظار المحرر. وتجاذب السكرتير اطراف الحديث بالتلفون، ودخل الغرفة وخرج منها، وقرأ البروفات المبللة، وشرب الشاي، وأكل السندويتش. وبيتش واوغورتسوف وفولوديا جالسون على أريكة صغيرة قاسية، ولم يتفوهوا بكلمة. وبعد وقت طويل وصل المحرر — نفس الشخص الذي يرى فولوديا إسمه في الجريدة يومياً: «كوشيليف رئيس التحرير».

وأصطف الطلاب الثلاثة امام مكتب كوشيليف الواسع وأخذوا يشرحون قضيتهم.

وقال كوشيليف وهو يهز رأسه الاشعث:

— ليس هناك ما أستطيع فعله لكم. وأنا متأسف جداً. ولكنني لا اعرف الدكتور ميكشين المتوفى. وفي الحقيقة لم اعرفه قط.

قال فولوديا بانفعال:

— لقد أنقذ ميكشين مئات، وربما حياة الوف الناس. والمدينة كلها تعرف ميكشين. ومؤسف جداً

انك، محرر صحيفتنا، لا تعرفه. ولكن هذا امر يخصك.
وما نريده هو ان يظهر خبر وفاته.

- لا خبر وفاة، - اجاب كوشيليف، وحول كل
انتباهه الى قراءة البروفات التي بدت مثل تلك التي كان
يقرأها سكرتير التحرير، - وارجوكم ايها الرفاق ان
تعطوني فرصة لارکز فكري ان اطالع مواد رسمية...
وذهبوا الى بيت العميد، ثم الى العيادة لرؤية
بوستنيكوف، وبعد ذلك كانوا يتنقلون من شقة استاذ
الى شقة آخر ليجمعوا التواقيع على خبر الوفاة.

وأخيراً جاءوا الى بيت جوفتياك. وكان البروفيسور
جالساً وحده في غرفة طعامه الواسعة يتناول شيئاً
شهى الرائحة من صحن المانى فضى، شارباً الماء المعدنى،
قارئاً في مجلة تحت عنوان: «البورسلين والخزف».
وعلى المائدة، بعيداً عن الطعام تقف بعض الخزائف
المتربة: ابريق صغير مثلث، إناء غير متقن الشكل،
وقدح وبعض التماثيل الصغيرة. وكانت في الظاهر غير
محزومة.

وصاح جوفتياك:

- آه، يا خلفاءنا! انا مسرور جداً، مسرور حقاً.
مرحباً بالرفاق الشبان، اجلسوا، ياضيوفى الاعزاء،
اجلسوا!

وغطى الصحن بغطاء لامع، وسحب فوطته من
حلقتها، ومسح شفتيه.

وقال بصوت عالى النبرة مفرور بكرمه:

— لقد لقيتموني في ساعة فراغ نادرة. وأنا استاذكم، كغيري ضحية بعض الهوايات الصغيرة. وكان هذا يوماً ميموناً لي. فقد عثرت على شيء نفيس، وجئت به إلى حظيرتي. أنا أجمع بعض الخزفيات والفخاريات.

فسأل بيتش:

— ماذا تفعل؟ — وكان غير حاذق في مثل هذه الأمور.
— ما يفعله كل هواة الجمع، أيها الزميل. وأنا هاوي جمع بسيط. هناك بعض الناس يهوون جمع الطوابع أو لصائق علب الثقاب، والبعض الآخر يهوى الرسوم، والبرونزيات، والنقود...

— تقصد الذين يقتنون؟ — قال بيتش ثانية.
— أوه، يا عزيزي الشاب. إنها هواية بريئة للغاية، نبيلة وفلاطونية. إن الناس لا يجمعون الفلوس، بل الوحدات النقدية. والآن أنا أجمع الخزفيات والفخاريات لأنني أهوى الفن، وبراعة الاساتذة القدامى وجمال الشكل ورشاقتهم. خذ هذه القطعة مثلاً...

وتناول جوفتيك باصابعه الممتلئة تمثالاً صغيراً مضى عليه زمن طويل دون أن يغسل، ونفخ عليه ومتع عينيه به. وقال:

— خزف مايسن من منتصف القرن الثامن عشر، هل ترى؟ كوبيدان يمسكان شمعداناً. وأحد الكوبيدين قد ثلمت يده. ولكن هذا لا يهم. حقاً لا يهم. ولكن أي أشكال رائعة؟ أية براعة! اترى البراعة فيه؟
فاجاب اوغورتسوف بجهد:

- ارى البراعة.
- والآن الق نظرة الى زجاجة العطر الصغيرة هذه.
أنظر تصميم زهرة « اذكرنى أبدأ » انه فريد فى نوعه...
ولو لم يمد بيتش خبر النعى اليه، لمضى فى التشدق
بنفائسه ساعات. وتعكر مزاجه فى الحال فراح يمزغ
شفتيه فى ارتياب.

وسال:

- لماذا بهذه البلاغة الطنانة فى الحقيقة؟ أليس
النعى البسيط احسن؟ ميكشين... لأر ميكشين...-
وحاول عبثا ان يتذكر من هو ميكشين، - اين تريدوننى
ان اوقع؟ هل تريدوننى ان اوقع فى الآخر؟ بعد الاساتذة
المساعدين؟

فقال بيتش بتجهم:

- يمكنك ان تكون الاول إذا اشئت. هنا، يوجد
محل كاف لتوقيعك فوق توقيع العميد. ولكن أجعله
صغيراً. ولا يهم ذلك فى الطباعة. فكل التواقيع ستكون
فى حجم واحد.

- حقاً، - وافق جوفتيك على ذلك وحشر توقيع
فى أول القائمة. كما كتب كلمة « بروفيسور » ايضاً
وبعد ذلك قرأ النعى ثانية وبعناية، ووجد فيه بعض
الاشياء « غير المتواضعة ».

وبينما كان جوفتيك مشغولاً فى القراءة والكتابة
أدار فولوديا وبيتش واغورتسوف ابصارهم فى غرفة
الطعام ببرنزها، وبلورها بخزاناتها الزجاجية الكبيرة
والصغيرة التى تعرضت فيها أشياء « هواية جوفتيك

البريئة»: الصحون، وطُقم الطعام، والرعاة والراعيات،
والمزهريات القديمة من الخزف الأزرق، والاطباق،
والكاسات والاقداح المذهبة، والوردية، والزرقاء. وكانت
الكراسي والارائك موضوعة بين الخزانات، ومغطاة
بالقطع الحريرية المطرزة القديمة. وكانت الرسوم
الزيتية معلقة على الجدران في اطرار مذهبية - نساء
عاريات سمينات، وراهب أحمر الوجه، وملائكة يمرقون
في سماء زرقاء...

وقال جوفتياك:

- حسناً. لقد شطبت على كلمة «لا تعوض» إن
كلمة «خسارة» فقط ستكون أكثر ملاءمة.

وهز بيتش رأسه. ولكنه انفجر حين خرجوا الى
الشارع، فقد قال في غضب:

- لا بأس بهوايته الصغيرة البريئة. إن اشيائه
العتيقة تساوي آلاف الروبلات! انى أتذكر عندما
انتزعوا ملكية كولاك. وكان يملك ست عشرة بقرة، وقد
حاولت زوجته ان تخبرني بأنه مفتون بجمع الابقار في
الحظائر لا غير، وهذا يسمى نفسه طبيباً ايضاً!

قال اوغورتسوف:

- أنت على خطأ بين، يا بيتش. إنه يعمل في
الحياة عملاً غير عمله. لقد رأيت مخزناً في موسكو
مخزن تحف نادرة. حسناً، هناك يجب ان يعمل، فان
ذلك يناسبه بالتمام.

فسأل بيتش:

- لمصلحة الدولة، ربما؟ اوه. انت ساذج،

هكذا. إن هوايته هذه هي لتزييش عشه على الأكثر.
صدقنى. وهو يقتصد ليوم «اسود»، لأنه يحس بعدم
الاطمئنان. والمكان الذى يستولى عليه غير عائد له. لهذا
فهو قلق بالطبع.

والتواقيع ذات التأثير جعلت خبر النعى مقبولا عند
محرر الصحيفة.

وجرى التشييع فى صباح دافئ مثل صباح صيف.
وحضر المآتم ثلاثون أو أربعون شخصا. ولكن حين
وصل الموكب الى المقبرة تضاعف العدد الى اقل من
عشرة. وحضر شيرفود وسفتلانا وآلا ونيوسيا الجزء
الاول من المآتم. وقطع يفغينى نصف الطريق الى المقبرة،
ثم ركب الترام وعاد الى المدينة. وكانت ثمة نسمة
رقيقة مستمرة، وطقطقت عربة النعش البيضاء برتابة.
وكانت الخيول ايضا طاعنة فى السن، وتكاد تعرج.
ومشى سنيمشيكوف، سائق عربة الاسعاف ذو اللحية،
الى جانب فولوديا.

وقال لفولوديا:

— أنا الآن أعمل فى النقل بالعربات. وقد نقل
اسعافنا الاولى إلى السيارات كليا. فهى تسير سريعا
بالطبع. ولكنها كثيرا ما تنغرز فى الطين. وأتصور
أن راحلنا العزيز لوظل ملازما العربة لعاش عمرا
مديدا. فان الهواء مسمم داخل السيارات. وذلك هو
السبب فى ان الرفيق ميكشين سكت سكوته الأخير.
وكان فولوديا غير مصغ. كان ينظر الى ارملة
ميكشين وهى امرأة نحيلة لها شعر اشيب قصير كانت

تتبع عربة النعش دون ان تبكى. كانت مستقيمة القامة ومتجهمة. وعند القبر زايلتها قواها فجأة، وارتخت ساقاها، وسقطت على كومة التراب الرطبة منكبة على وجهها صامتة دون أى تأود. واندفع الطلاب لمساعدتها غير أن بوستنيكوف صدهم وقال بحدة:
- لا تفعلوا! دعوها تخلو الى نفسها.

وحول اوغورتسوف بصره، وتنفس بصعوبة، وكان من الممكن سماع اصوات حفارى القبور يتبادلون الملاحظات وهم يجمعون ارفاشهم وحبالهم. لقد انتهى عملهم.

وقال واحد منهم:

- اعطنا قليلاً من الزيادة ايها الرفيق المواطن.
فان هذه الارض صلبة.

وساد الصمت مرة أخرى. ولم يكن هناك إلا زقزقة عصفور مرحة فى أعلى شجرة البتولا مختفياً فى الاوراق المتفتحة حديثاً. وكان بيتش يدخن سيكارة، ويجىء ويروح وحده.

وقال سنيماشجكوف:

- حسناً. ارجو لكم اطيب الأمانى - اليوم خمير وغداً امر، كما يقولون. ولكن ثمة عمل ينتظرني. وسأذهب وأشرب كأساً على ذكرى المتوفى، وأخرج للعمل.

وفيما بعد، حين وافقت الأرملة على أن تتركب عربة. تمشى بوستنيكوف وفولوديا وبيتش واوغورتسوف فى المقبرة. كان على قبر بولونين ينتصب

حجر غرانيت ثقيل، وعند قدمه شجرة حور طويلة نحيلة.
وكانت هناك مسطبة جلس عليها الطلاب الثلاثة متعبين
عاطفياً وجسمانياً. وذهب بوستنيكوف الى قبر زوجته.
وقال بيتش وهو يحدق بلوحة الغرانيت:
- لم يكتب عليها انه كان بروفيسوراً. تذكر
يا اوستيمنكو كيف انه ضحك على ان في المانيا درجة
مستشار طبي سري؟

قال فولوديا:

- أتذكر. نعم أتذكر كل شيء عنه. أتذكره وقد
تأثر مرة وقال: قد يكون المرء بروفيسوراً احياناً،
ولكن لن يكون طبيباً مع ذلك...
فسأل اوغورتسوف بخشونة مفاجئة:
- اسمعوا، فما هو الموت على اية حال؟ هل يمكن

ان يكون...

قال بيتش وفي صوته نهشة:

- بالضبط، يمكن ان يكون.

وبعد زمن عاد بوستنيكوف حزينا صامتاً. ومسح
جبينه وشاربه بمنديل، وجلس الى جانب فولوديا.
وسأل فولوديا:

- ما السبب؟ لماذا لم يأت احد الى التشييع. فنحن
جميعاً نعرف اى طبيب رائع كان هو، وكم كان عمله
نافعاً.

ووضع بوستنيكوف سيكارة في مسافة سكاثر من
الكهرمان وشعل السيكارة قبل ان يجيب، وتكلم ببطء
وتفكير:

- في الحالات التي تأتي عربة «الاسعاف الاولى» الى عائلة، من النادر أن يعرف اسم الطبيب إلا إذا ارادوا تقديم شكوى ضده. وذلك يحدث أحياناً في كوكبنا هذا. ولكن إذا كانت الامور جارية على نحو طيب، إذا كان كل شيء بخير، فلماذا، أخبروني من فضلكم، يعرفون اسم الرجل الذي «حقنهم» بشيء ما أو اعطاهم بعض القطرات أو حتى «قطع شيئاً»؟ وكل إنسان يعرف جنكيز خان، مثلاً، الدكتور جيليوتين الذي اخترع آلة الجيليوتين معروف أيضاً، وكذلك الدكتور انتوان لويس الذي كان يجري تجاربه على الجثث ليكتشف أحسن طريقة لقطع رؤوس الناس المحكوم عليهم بالموت. والناس يعرفون تاليران، أعظم محتال في كل العصور والأمم، ويعرفون فوشيه، وراسبوتين، وهم يتشدقون بروتشيلد واضرابه هذا العالم، وملوكه وامرائه، والخ... أما ميكشين... فمن هو ميكشين؟.. آه كان هناك انسان يسمى بهذا الاسم، وكان يلبس نظارة، ولكنه الآن مات... ونظر بعبوس الى عيني فولوديا و اضاف متنهداً: - هكذا، يا اوستيمنكو.

وتكلم بيتش فجأة بصوت قاس:

- ليس هكذا. انا لا اتفق معك. لقد كان على هذا النحو، طبعاً، في الزمن الماضي. ولكنه لا يمكن أن يكون هكذا بعد الآن. اننا لم نأخذ السلطة بايدينا من اجل هذا. وليس من اجل هذا خلقت تلك الكلمات الرائعة عن دكتاتورية البروليتاريا وليس من اجل هذا نوجه، نحن البلاشفة، الصحافة كيما ندع كل هذه الانباز تسمم

عقول الناس. وقد تؤمن أو لا تؤمن، ولكنني اعطيك
كلمتي بأن الزمن آن، عن قريب جداً، بل قد جاء، إنه
هنا الآن وفيه سيكون اناس مثل ميكشين ابطالا وطنيين.
ومع ذلك فليس كل الناس يفهمون ذلك، ولكنهم
سيفهمون، وسنجعلهم يفهمون. لهذا فلا تدع ذلك
يقلقك.

وصمت فجأة مثلما بدأ فجأة، وسعل سعة
اوسعلتين في ارتباك مفاجئ. وبقي فولوديا
واوغورتسوف صامتين.

قال بوستينكوف وكان لصوته رنين طروب غير
مالوف:

— آه، انتم البلاشفة، انتم البلاشفة. انتم ناس
عجيبون! وبالتأكيد ستحققون كل الاشياء النافعة.
وقال بيتش بعبوس:

— نحن نحققها. وقد حققنا الشيء الكثير. وأمامنا
شيء مذهل يفوق اوسع خيال.
قال بوستينكوف:

— انه عمل صعب!

— نحن لا نشكو. ومع ذلك فسيكون الأمر أسهل
حين يطرد المثقفون من صفوفهم اساتذة مثل جوفتيك
مثلاً. سيكون الأمر أسهل بكثير.

وجذب بيتش رقبة حذائه الاسود من القدم ونظر
الى بوستينكوف من طرف عينيه.

— هل أنت غاضب؟ لقد قلت ذلك بحسن نية.



الفصل الثاني عشر

اليمين

وانتهت حفلة التخرج نهاية غريبة جداً: فقد استدعى رئيس المعهد فأودع واجباته كرئيس الجلسة الى العميد، واذ ذاك اعتلى جوفتيك منصة الخطابة. فتكلم باطناب ومبالغة عاقداً مقارنته المفضلة بين عام ١٩١١ والوقت الحاضر، ثم عدد جميع «خريجي المعهد» الذين اصبحوا علماء بارزين، ذاكراً جميع اعضاء هيئة التدريس، ناسياً اسم بولونين.

وصاح أحدهم من بين المستمعين:

— والبروفيسور بولونين؟

- اذكر بولونين!

- لنقف لذكراه!

فقال جوفتياك:

- انا اسمى الاحياء فقط. اما عن بولونين، فانا

مسرور بان اقترح ان نقف حداداً على ذكراه.

وبدت كلمة «مسرور» مبهمه. وقد اثارت الضجة

الباهتة بين المستمعين وظل جوفتياك واقفاً في الدقائق

المطلوبة، واكسب لوجهه ملامح تناسب الحال.

- اجلسوا من فضلكم، - قال ذلك بصوت حزين

مناسب حين انتهت المدة.

وجلسوا. واستأنف جوفتياك خطبته المقطوعة لعشر

دقائق آخر او ما اليها، وترك المنصة وسط تصفيق

خفيف. وتمتم العميد - أبو ايريادا - بشيء ليقول ان

الوقت قد حان لانهاء المسألة. وحتى ذلك الحين لم يظهر

رئيس المعهد. وكان رجلاً ذا ذكاء، ولو كان هنا لما

حصل شيء من هذا القبيل طبعاً. وافسد العميد حتى

حفلة توزيع الشهادات مظهراً عجالة غير لائقة، وخلط

بين الاسماء، وفاد ببعض النكات، رغم أن ذلك كان في

لحظة من لحظات الحياة التي لا مجال للتنكيت فيها. وحتى

يفغيني وجد هذا المزاح كريهاً. غير انه كانت له حساباته

الخاصة مع بابا ايريادا.

قال العميد وهو يدغم بعض مقاطع كلماته:

- اسمحوا لي بأن اعلن انتهاء الحفلة. والآن انتم

تخرجون الى الحياة، ايها الشبان!

قال اوغورتسوف وهو يحك قفاه في تفكير:

— حسناً، حسناً. ان بطرس الاول كان على الحق
تماماً حين قال: اخدم دون تلعثم، فاذا تتلعثم فلا
تخدم. حسناً. أهذا كل ما فى الأمر؟

واجاب فولوديا فى عبوس:

— لا، هذه هى البداية فقط.

وفرغت قاعة الاجتماع. وبدأت المكلفة بالتنظيف
تنظف الارض، منحية الكراسى بكركة. وجلس بيتش
على طوار النافذة يقلب صفحات كراسة قديمة مجعد
الشنايا.

قال:

— ها هو ذا! لما اختاروا هذه الطريقة الركيكة
لمعاملتنا؟ سنؤدى يميننا بانفسنا.
وارتعبت نيوسيا فى الحال. وكانت فتاة حذرة لها
كراهية للكلمات غير المألوفة، والبيانات الصريحة،
والافعال التلقائية.

فسألت وهى تقوس حاجبيها:

— يا لها من فكرة! أية يمين؟

فنظر اليها بيتش مفكراً ثم زفر وسأل:

— أيرعبك هذا أيضاً يا نيوسيا؟ أتعقدن أنا

ماسونيون؟

والتزاما لجانب السلامة لوحت نيوسيا بيدها
ودارت لتغادر القاعة. وطقطق كعباها العاليان برشاقة،
وهى تسير نحو الباب تاركة خلفها أثراً من عطر ثمين.
وانسحبت نيوسيا مزهوة بنفسها على ذكائها.

وقال بيتش:

— لقد استنسخته منذ زمن طويل. فلنقم به بانفسنا، ما دام موجهونا لم يخطر عليهم ببال. وهو من ناحية قديم. ولكن فيه شيئاً لما يزل.
وقفز من طوار النافذة، ووقف في هيئة انتباه، وقال بصرامة قائد يأمر جنوده:

— «كرروا بعدى! ان ذلك يا زملائي الاعزاء هو «يمين الكلية» الذى صادق عليه، كما يقولون، ابو الطب هيبقراطوس نفسه. فكرروا بعدى: «أقبل بامتنان عميق حقوق الطبيب التى وهبها الى العلم وادرك تمام الادراك اهمية الالتزامات التى يفرضها على هذا اللقب...»
وردد الاطباء الستة الشبان بصوت رنان: «هذا اللقب»:

— «... وأتعهد باننى ما دمت حياً لن اجلب العار باية طريقة كانت على مهنتى التى اشرع فيها اليوم...»
ان بيتش، بيتش «العجوز»، بيتش الرجل الاكثر صلابة فى صفه، خنقته العبرة، وارسل زعيقاً خافتاً. وأعطى الكراسى الى اوغورتسوف وهو يمسح دموعه. وخلال ذلك كانت المرأة المكلفة بالتنظيف التى كانت معروفة بكراهيتها للطلاب ووصلت الى مكانهم من القاعة.

وقالت متممة بغضب، وهى تدفع بالمكنسة تحت اقدامهم:

— اخرجوا! امن اللازم ان أعيد الطلب مرتين؟
فزجر بيتش عليها بوحشية:
— اصمتى!

وتعكر مزاجهم. ولم يشعر احد منهم بميل الى قراءة
اليمين الآن.

وقال بيتش:

- حسناً، انتهى. لنحسب الحادث قد انتهى.
وعندما تتقدم بى السن سأجعلهم جميعاً يتذكرون الحفلة
المثيرة المؤثرة، حفلة تخرجنا. لو كان بولونين حياً
ليريههم.

ثم دمدم:

- وفضلاً عن ذلك، تضرب بالمكنسة على اقدامنا
ايضاً. لست انا ذيل كلب، انا طبيب احمل شهادة.
هل تريدون رؤيتها؟

وعندما وصلوا الى السلم بدا لهم الامر كله
مضحكاً.

وخرج فولوديا الى الحديقة وحده. وليس ذلك
لأنه اراد توديع البنائات، فلم يكن عاطفياً قط: بل
كان يريد ان يجد مسطبة ويسترخى عليها. لقد كانت
الاسابيع الماضية مضية حقاً. بيد انه حين تحول الى
ممشى من اشجار الاسفندان، عثر على غانيجيف. وكان
فولوديا غير مبال في تلك اللحظة الى الحديث على
الاخص وهو يعرف تماماً عم سيتحدث البروفيسور ولكن
لات وقت فرار.

- هل حصلت على شهادتك؟

- نعم.

- هل كانت الحفلة جميلة؟

قال فولوديا فى حزن:

- كأنما في أسطورة.
- هم شاطرون في ذلك. ان يبصقون في روح شاب في أبهج يوم في حياته — هم خبراء في ذلك.
- وسال فولوديا بخشونة:
- وأنت؟
- ماذا أنا؟
- لماذا لم تحضر؟ هم يخافون منك ويحترمونك، وما من أحد سيبصق في ارواح الشبان لو كنت حاضراً.
- فلماذا انت هنا، جالساً على مسطبة في الحديقة؟
- صاح غانيجيف بشراسة:
- اصغ الى يا اوستيمنكو! أتدرك ما تقوله؟
- أنا رجل عجوز ومتعب. والجو هناك خانق...
- فقاطعه فولوديا قائلاً:
- لو كان بولونين حياً لكان هناك بالتأكيد رغم ضعف قلبه. أنا آسف، ولكنني ارى هذا الحديث عن كبر السن والتعب غير مسر. فتذكر ان بولونين قال ان الد عدو للعلم، والتقدم، والحضارة، ومهنة الطب هو الخمول. والآن، انت، صديق بولونين، تعظ بذلك الخمول بالضبط. أوه، ما الفائدة...
- قال غانيجيف ولهجته مجروحة ومعتذرة:
- حسناً. لقد ربحت. الشبان لا يعرفون الشفقة...
- هل تريد الشفقة؟ أليس ذلك مبكراً جداً بالنسبة لك؟
- والتقت نظراتهما:
- لا اظن أن سرديوك، رجل المطافي العجوز الذي

قصصت على قصته المؤثرة، كان بحاجة الى الشفقة، - ثم تابع فولوديا مكروباً، - أوه، لا اقصد ذلك بالطبع، صدقني، بل أقصد شيء آخر. وارجوك ان لا تغضب. فلماذا هناك جمهرة كبيرة من الناس يفضلون ان يبدو ادانتهم وامتعاضهم في سرية وهم جالسون على مسطبة في حديقة بدلاً من ان ينهضوا ويكافحوا الاشياء التي يدينونها ويمتعضون منها؟ هل تشرح لي ذلك؟ ورفت رموش غانيجييف، ونكس عينيه أمام نظرة فولوديا الجدية المفعمة بالكآبة.

قال غانيجييف بخفوت:

- أنت على صواب في آخر الأمر. ولكن ليس في كل شيء بالطبع، بل في بعض النقاط. وعلى أية حال انني لم أوقفك لانني اريد ان اعرف رأيك في شخصيتي. بل على ان اعرف ردك الاخير: هل ستبقى وتعمل معي ام لا؟

- بالطبع، لا!

- رائع. والآن افرض أن بولونين كان حياً، هل ستبقى معه؟

فاجاب فولوديا بعد لحظة من التفكير:

- لا، لن ابقى معه ايضاً. بل ربما اعود اليه بعد حوالي خمس سنوات.

- تتلطف عليه في ذلك؟

- نعم.

- ولكن لماذا لا تبقى؟

- ذلك لأن كليكما - انت وبولونين - علمتمونا
اشياء أخرى.

فصاح غانيجيف:

- علمتمونا! يعنى انتم بالمعنى الواسع لا انت
شخصياً.

قال فولوديا غاضباً، وهو يضغط على الكلمات:
- لقد كان سباسوكوكوتسكى طبيباً ريفياً في
زمانه. وانت نفسك حدثتنا عنه. وانت نفسك كنت
تقول مؤكداً أن الجذر العملية العميقة لبحائه
ترجع حتى الآن الى الايام التى كان فيها طبيباً ريفياً.
وانت الذى اخبرتنا عن مجال اهتمامات سباسوكوكوتسكى
العلمية، وعن قدرته على النفاذ الى صميم المشكلة. اوه،
ولكن اى نفع فى أن اكرر كلماتك ذاتها؟

- العلم، - طفق غانيجيف يتحدث فى ملل غير أن
فولوديا لم يصغ. فهو يفهم أن غانيجيف رغم انه يريد
له الخير الا انه يريد ايضاً أن يكون له تلميذ ولكن
فولوديا لم يرد أن يكون تلميذاً لأحد، بل كان يريد أن
ينزل الى ميدان العمل الحقيقى.

ولم يصغ، بل جعل غانيجيف يقول ما يريد، بينما
استمتع هو بالصمت، وبتحرره من أن يهرع لى مكان،
وبالجمال الذى يكاد يكون معطراً، جمال أشعة
الشمس البراقة، بمراقبة عصفور مرح اصلع الرأس
مشاكس يهاجم سرباً كاملاً من أشقائه بقفزات
جانبية.

وسال فولوديا حين انتهى غانيجيف من كلامه:

- وكل ذلك لكى اطلب منك موضوع اطروحتي
فيما بعد؟

- ولكن لن تطلبه، بل ستجد موضوعاً بنفسك.
انا متأكد من ذلك.

- لماذا أجثم نفسى عناء ذلك اذا لم تكن فى نفسى
أية رغبة داخلية فيه؟ وقد بنى سبا سكو كوتسكى
بيديه جهازاً لمعالجة الهيكل العظمى كلاً بما من براغ
مأخوذة من زوج أحذية للترحلق، ومن بعض اسلاك
بيانو قديم. وانا لا اعرف هل ستدعو ذلك عملاً علمياً،
ولكن الحياة هى التى طلبت منه ذلك، لا مجرد الرغبة
فى الحصول على شهادة. وكذلك غسل يديه بالامونيا أو
تلك المشدات المحزوزة للعمليات على المعدة، وبعد كل
شئ، مشاكل نقل الدم. وكل الأعمال التى أجريت
بتوجيه منه املتها دائماً الحاجات الحيوية للعيادة،
والعيادة عنده مرتبطة دائماً بشبابه، بمستشفى ريفى.
هل أنا لست على حق؟ أو خذ بيروغوف ثانية. وكل
امرى يعرف كما كان متشدداً مع الاطروحات التى لم
يكن فيها شئ جديداً تقوله، ومع العلماء ذوى العقول
الهزيلة. وانا شخصياً أتفق مع بيروغوف. فلا معنى فى
تربية علماء معوضين. فان ذلك يكلف غالياً، وهو مضر
بالعلم، ولا فائدة منه فى العمل. ذلك ما اعتقد به
شخصياً، وافكر به.

- ومن أنت لتعتقد أو لا تعتقد؟ لتفكر أو لا
تفكر؟ - سأل غانيجيف وقد غضب واحتاج كلياً: - قل
من أنت؟

- طبيب يحمل شهادة.

- ذلك غرور يا اوستيمنكو.

- لماذا اتواضع في احسن شيء في عملي الخاص؟

في امكاني أن ارى نفسي، وقد وصلت الى مكان بعيد، الى اقاصى البلاد. وبسبب هذا التواضع الكبير تبدأ طائرات الاسعاف تطير طلباً للمشورة في كل حالة من الحالات. أهذا يلائمك؟

وتمطى غانيجيف وتشاءب، وتأود:

- أوه يا ربى.

فسأل فولوديا في جزع:

- هل اتعبتك؟

- لا، انا غير تعبان. ولكن كل ذلك حماقة لا

تصدق. أنت رجل موهوب كما تعرف.

صاح فولوديا:

- اعرف ذلك! ولم اشك فيه لحظة. والا لترك

دراستي منذ زمن بعيد. لانك وبولونين وبوستنيكوف كنتم تقولون لنا دائماً ان الطبيب يجب ان يكون رجلاً موهوباً، لا مجرد رجل ذى معرفة. وانا اريد ان اكون طبيباً.

قال غانيجيف:

- حسناً، فلنترك الموضوع. ولكننى على اية حال

ساضغط عليك عن طريق الكومسومول.

وضغط بالفعل.

العمل الاول

وبعد نضال عنود دام اياماً حصل فولوديا في آخر الامر على عمل في زاتيروخى. وهى قرية تبعد مائتين كيلومتر عن اقرب خط حديدى.

وتفرس غانيجييف به قائلاً:

— وعليك ان تعبر النهر في معدية ايضا.

اجاب فولوديا:

— لا بأس، سأجتازه!

وقد سره في الواقع ان تحصل في المعهد ضجة بسببه. فقد حصل بيتش ايضا على عمل في قرية نائية. وغادر اوغورتسوف الى كامنكا. ولكن كثيراً من المتخرجين ظلوا هنا متصيدين الاعمال اليسيرة، مضايقين ادارة المعهد، او سافروا الى موسكو حاملين معهم رسائل توصية.

ولم يجد فولوديا زاتيروخى على خريطة المنطقة. وكان من المقرر ان يسافر اليها خلال اسبوع. ولم تبد العمة اغلايا اى حماس حين رسم لها فولوديا صورة لحياته المقبلة.

وسالت:

— وانت مصمم على الذهاب؟

— نعم.

— ولكن، ليس هناك مستشفى.

— هناك مستوصف، وسأبنى مستشفى.

— بنفسك؟

- بنفسى.
- هل علموك كيف تبني؟
- وهل علموك، ايتها الغسالة السابقة، كيف
تديرين الدولة؟
- ولكننى لا ادير الدولة.
- حسناً، ولا انا سابنى المستشفى بىدى. ساوجه
العمل واصدر التعليمات.
وتأففت اغلايا. وكانت فى عينى فولوديا نظرة
قاسية، وكانت تعرف ان لا سبيل لمعارضته.
وفكرت: « احب تلك الاحاديث التى تقول ان شبابنا
يختلف عما كنا عليه نحن » - وتأوهت، وخرجت لتشتري
لفولوديا معطفاً من فروة الخروف، وقبعة فراء وزوجين
من الاحذية الثقيلة احدهما من اللباد والآخر من الجلد.
وفجأة خطرت ببال فولوديا فكرة رزينة « وماذا
عن فاريا؟ ماذا افعل دونها؟ وهذا فى الحين الذى أحتاج
فيه الى ان اتحدث اليها كل دقيقة من دقائق اليوم،
وحين تبدأ الحياة من جديد تماماً! ماذا سأفعل؟ »
واحس بضياع وتعاسة حتى لم يستطع ان يستقر فى اى
مكان فى بيته.

وهرع الى بيت ستيبانوف.
قال يفغينى وقد فتح له الباب:
- ادخل ايها الهر البروفيسور. عندى بعض الاخبار
الحسنة للغاية اريد ان احدثك عنها...
وكان النهار حاراً. وكان يفغينى يرتدى بهذه
المناسبة بنطلوناً قصيراً صنعت له امه من قماش خاص.

وكان شعره، كالعادة، موضوعاً تحت شبكة. وغدا يدخن غليوناً، هدية من دوديك. فبعد سلسلة الشجارات الكبيرة، قامت بينهما صداقة. ولكن أحدهما، على أية حال، كان ينصب شركاً للآخر.

وكانت فاريا في البيت أيضاً. كانت تقرأ شعراً وهي مستلقية على الأريكة. وكانت كلمة «مجموعة شعرية» منقوشة بحروف ذهبية على الغلاف. وكان الجد في المطبخ يطبخ حساء كفاس.

وقال في ابهام:

— في وقت الغداء كالعادة. ستتناول بعض حساء

الكفاس...

وسال فولوديا فاريا:

— لماذا تبدين مضطربة جداً؟

— وماذا تفكر انت؟ — قالت في لذع، وخرجت من

الغرفة.

— هكذا، يا صديقي! سيجن عقلى لو لم تتركنى

زوجتى الغالية، وتذهب الى الريف من اجل الطفل، — قال

يفغيني ذلك وهو يضرب فخذه الممتلئ.

وقال فولوديا يردد:

— حسناً، دعنا نسمع اخبارك.

— هذه اخبارنا، — انا وانت ايها الهر الطبيب...

وكان شكله ينضح بالرضى عن النفس في بنطلونه

القصير الجديد، وفخذه الممتلئين، وعضلاته، رغم ترهلها

فهي عضلات على أية حال، وصحته الممتازة، وآفاق

مستقبله وحساء الكفاس الذى سيستمتع به قريباً.

- يعنى اننا لا نذهب الى زاتيروخى!

- كيف ذلك؟

- هكذا! ان مديرية الصحة فى هذه المدينة ارسلت
تطلب اثنين من الشبان الاختصاصيين. لا مجرد اى
اخصائى، بل انا وانت. انت ستصبح طبيباً مقيماً فى
مستشفى المدينة الاول وانا باعتبارى مفتشاً صحياً
سانضم الى موظفى مديرية الصحة. لا بأس، ايه؟
وبقى فولوديا صامتاً فى تجهيم.

وفتح الباب فارسل صريراً. وظهرت فاريا تلبس
ثوباً آخر هو ثوبها الابيض.

وقال يفغينى مستشهداً «بالشيطان» للبرمنتوف:

- «وما من ظل لعاطفة تعكر صفو جبينه العالى».

وحتى لبدو انك غير راض، ايها الطبيب المقيم المقبل!
او ربما تظن ان من الصواب ان يذهب ابن بطل ضحى
بحياته فى سبيل حرية اسبانيا الى زاتيروخى، وينال
اناس من مثل نيوسيا وسفتلانا وآلا، وداهيتنا ميشا
شيرفود كل الاعمال الخفيفة فى المدينة؟

وجلس فولوديا مطاطاً الرأس غير ناظر الى يفغينى

الذى تهيج، واخذ يهتف فى الواقع:

- انا لا احب على وجه الخصوص ان اناقش هذا

الموضوع فى حضور فاريا. وفى الحقيقة انه غير لائق
جداً. ولكنه لا يلائم اناساً من امثالك. فكر فى الامر، ايها
الساذج المسكين او اسوأ من ذلك، فى هذه الحال. فكر
فقط ان ليس فى زاتيروخى ولا ناد. اليس كذلك؟
فوافق فولوديا:

- غير موجود.

- ولا دار للثقافة بالطبع، ولا حلقة تمثيل، ولا حفلات عرض. أهنأك شيء من هذا، أو ان مستوصفك هو كل ما هو موجود؟

صاحت فاريا:

- لا اظنه يجشم نفسه عناء البحث عن ذلك. فكيف يمكن ان يهتم الانسان العظيم بهذه السفاسف؟ فقال يفغيني وهو يضع يده على كتف فاريا:

- انظر ما انت فاعل لها. الق نظرة اهتمام. لا، ما من شيء يحرك قلبك الحديدى، انت لا تكترث لذلك، تهتم بنفسك فقط، «بعالمك الداخلى» كما تحب فاريا ان تبرر فى الدفاع عنك. ولكنك لا يمكن ان تخدعنى! فاذا كان لك عمل تفعله فى هذه الارض، ونداء اليه، فان لها ايضاً عملاً ونداء. ان الانانية شيء مقدس، وهى كذلك الا حين يبدأ الانانى فى المشى على جثث الموتى. وانت، حسب معرفتى، لست من البساطة بالدرجة التى تريد ان تجعلنا نؤمن بها. فلربما انت اذكى من فى الصف، ولكنك فى المظهر تبدو مثل حمل وديع. واصرارك السامى فى المبدأ على الذهاب الى زاتيروخى ليس الا بحثاً وراء مستقبلك الشخصى. نعم، هو كذلك فلا تحدى بى. انه ليس الا بداية لمستقبلك العظيم ك«طبيب ريفى». وانت تريد ان تبدأ من القاع، دون ان تضيع وقتاً فى العيش فى المدينة. ستقضى سنتين هناك، ولكنك ستعود بعد ذلك وستبدأ بالتسلىق سريعاً. ولكن سنتين فى قرية ستدمران فاريا معك...

فتوسلت اليه فاريا:

- كفى ذلك!

صاح يفغيني بعاطفة:

- ستموت موهبتها. ومن سيكون المسؤول عن ذلك؟ انت؟ او ربما بوشكين؟ ألا ترى اى جريمة انت بسبيل ارتكابها من اجل طموحك الانانى المحسوب سلفاً، وهل...

قاطعها فولوديا:

- حسناً، كفى، - ونهض واقفاً وحدث بفاريا بابتسامة هازلة جادة معوجة، - لقد اكدت لك منذ زمن بعيد انكم جميعاً من عائلة واحدة - امك، ودوديك، ويفغيني وانت. وشيء آخر يجعل يفغينيك النذل نذلاً، هو انه يعتبر كل انسان نذلاً خفياً. انه يسميني الباحث عن مستقبل الشخصى. وانا اترك ذلك لضميره. ولكنك انت يا فاريا، لماذا لم تقولى شيئاً؟ وارتجفت شفتاه مثل شفتى طفل، ولكنه تمالك على نفسه فى الحال، وتابع كلامه بصوت اخفت وهادى بصورة غريبة:

- وسأقول لك - لماذا لم تردى على اخيك العزيز: لسبب بسيط، هو فى اعماقك القصى تفكرين بنفس الاشياء. ولكن اذا كان الامر كذلك، لماذا تريدنى؟ انا النذل الباحث وراء مستقبل الشخصى لقد خططت لنفسى مستقبلى كله انطلاقاً من الحسابات الوصلية؟ أتريدى ان تشاركىنى فى نصيبى كذلك؟ أتريدى ان تتقاسمى معى عذابات النذالة؟ ولكنى لست

كذلك يا فاريا. وانت لا تستطيعين ان لا تفهمين ذلك.
وانت تفهمين ذلك، ولكن يفغيني اقوى منك، وامك اقوى
منك. ورغم انك تؤمنين بى وتفهميننى الآن - وفى وسعى
ان ارى ذلك - فانهما عما قليل سيشرحان الامر لك
من وجهة نظرهما، وسيبدو كل شىء فى الظاهر كحقيقة،
ولكن ذلك لن يكون عنى، ولا عن آخرين من امثالى.
بل عن يفغينى. ولكن، يبدو انكم جميعا تفكرون بان
العالم يسكنه امثال يفغينى. وليس ذلك صحيحاً يا فاريا.
لا تبكى. فلا معنى للبكاء بعد الآن. وانا لا اقول ذلك
لاجرحك. بل انا اقول لك ما افكر به لا غير. وهذا
حديثى الاخير. وانتما الاثنان يجب ان تعرفا ما افكر
به بالطبع. ولكن ربما لا ضرورة لذلك. وفى الحقيقة
اننى متأكد من عدم ضرورته. والتحدث عن النفس او
شرح شىء ما او محاولة البرهنة عليه يحوى بصورة
عامة على كثير من الهذر. وثمة شىء واحد واضح
يا فاريا، شىء واحد اكرر ذلك وهو: ما دمت قد اتفقت
معه، ولم تقولى شيئاً...

قالت فاريا:

- انا لم اتفق معه، فقط فى...

فقاطعها فولوديا:

- وحتى «فقط فى» هذا هو شىء كثير على. لقد
فقدت اهتمامك بالجيولوجيا. وانت تدرسين شكلياً لا
غير. وبعبارة اخرى تاركة حياتك تنزلق، مصدقة ما
يقوله لك اولئك البلهاء عن موهبتك المزعومة. ولكن
لا موهبة لك يا فاريا. بل لك بعض القابليات التقليدية.

ولكنها ليست الشيء الاصيل - انها لتزجية امسية بيتية،
وليست للعمل الحقيقي، ليس للمسؤولية...

قال يفغيني وهو يشعل غليونه:

- لا استطيع ان افهمك يا فاريا، ما حاجتك الى

ان تصفى الى هذا الهذر؟ انه اهانة في الحق!

- انه شيء مرير جداً في كليته، - قال فولوديا

وهو يقترب من فاريا موطناً صوته الى ما يشبه الهمس، -

انه مرير جداً بكليته. ولا اظن اننى عرفت يوماً في

حياتى اعفن من هذا اليوم. ولكن لا محيص عن ذلك. مع

السلامة يا فاريا!

قالت:

- مع السلامة! - وهى تتطلع الى وجهه. وابى

فولوديا ان يلتقى بصره ببصرها. لان من الموجه له ان

يرى الاسى فى عينى فاريا اللتين ما زالتا بريئتين طفليتين.

وصاح الجد من المطبخ طالباً ان يهيئوا المائدة.

ونادى يفغيني خلف فولوديا:

- اوه، حسناً، فى الامان!

فهست فاريا على اخيها باسنان مطبقة:

- خنزير!

ولحقت بفولوديا حين كان يركب الترام. وكان لا

يبدو مندهشاً من سماع صوتها. وسار الترام مهتزاً

عند كل نقطة ومنعطف. ومال فولوديا الى اذن فاريا

الصغيرة ذات القرط الازرق:

- ستذهبين الى موسكو او الى مدينة اخرى كبيرة،

وربما ستدخلين فى مدرسة للتمثيل. ثم تضاء اضواء

المسرح، وستكون هناك زهور، وسائر الاشياء. وسأكون على خطأ والفرحة تعم الجميع. ولكن اذا كان الامر كذلك، وعلى الاخص كذلك، فما تهمك زاتيروخي اذ ذاك؟ فالشيء الذى يهم هو ان كلينا، انا وانت، ننظر الى الحياة نظرة مختلفة. وقد مرت اوقات بدا لي فيها انك تفهمينني. ولكن الحقيقة انك لم تفهميني قط. وانت بعيدة عن ذلك، بل كنت مثل طفلة تلعب في الفهم. اليس كذلك؟

— اوه، يا فولوديا!

— وداعاً يا فاريما، وداعاً. اذا كان عندك وقت فراغ فاكثبي. وسأرد عليك. ولا معنى لتطويل هذا الجناز...

وقفز من الترام وهو يسير وركض بجانبه قليلاً. ثم تحول عنه فجأة. انه على هذا النحو - يتحول ولو كان في خطأ.

وفكر فولوديا وهو يرى اعلاناً عن البيرة: «الظاهر، وانا في هذا الموضوع، على ان ابدأ بالشرب حتى اسكر، او ابدأ بالتدخين». غير ان هذه الافكار قد تلاشت عنه قبل ان ينفرج عنه اساه المضجر.

وداعاً، يا فاريما!

ولم يخرج لاي مكان عدة ايام، بل ظل مستلقياً في مغارته مفكراً. وفي الليل لم يكن قادراً على النوم. ومرتين رفع سماعة التلفون ليتصل بفاريما. ولكنه اعاد السماعة

ثانية في كلتا المرتين. وذات يوم خالق عند الظهر سلمه
ساعى البريد مغلفاً ثقيلاً مختوماً. وكان من موسكو
من مفوضية الشعب للصحة العامة. وكان على فولوديا
ان يوقع في مكانين في الحبر لا في القلم الرصاص.

وكان المغلف يحتوى على ورقة كبيرة قيل فيها
ان على فلاديمير افاناسيفتش اوستيمنكو ان يسافر الى
موسكو في الحال، ويحضر امام الرفيق اوسولتسيف
احد مسؤولي مفوضية الشعب للصحة العامة. وكان في
داخل المغلف مذكرة من بوغوسلوفسكى كتب فيها:
«بناء على التفاهم الذى تم بيننا» يقدم فولوديا
الى الرفيق اوسولتسيف مرشحاً اياه لذلك العمل الطريف
ذى المسؤولية والاهمية الذى تحدث هو وفولوديا عنه
عند مرفأ جورنى يار.

وبعد الظهر جاء بوستنيكوف وغانيجيف لرؤية
فولوديا. وكانت العمة اغلايا مشغولة في حزم حقيبته
بينما كان فولوديا يقلب في كتبه.

وسأل غانيجيف وفي عينيه نظرة مأكرة:

— الى اين هو مسافر؟

فقال فولوديا وهو يريهما المغلف:

— لقد تلقيت هذا الشئ بالبريد. وقد حيرنى كلياً.

قال بوستنيكوف:

— هذا واضح. يعنى السفر الى الخارج.

صاحت العمة اغلايا:

— ما هذا الذى اسمعه عن السفر الى الخارج؟ هو

ما يزال صبياء، وليست له اية تجربة.

قال بوستنيكوف وهو يمسد شاربه:

- قد يكون بلا تجربة. ولكن عنده عقل. وهو موثوق به ايضاً. لهذا اوصى به ثلاثة رجال: بوغوسلوفسكى الذى يعمل هناك الآن، والبروفيسور غانيجيف الذى اراد ان يجعل منه اخصائياً فى علم التشريح وانا نفسى الذى ارى فى ابن اخيك بعد مرور زمن مناسب، طبعاً، جراحاً عملياً لائقاً. واوسولتسييف الذى وقع هذه الرسالة كان فى حينه تلميذاً من تلامذتنا، وبهذه المناسبة هو ما يزال يطلب نصحننا احياناً. أكل شئ واضح على ما ارجو؟

فسأل فولوديا:

- اين فى الخارج؟

اجاب غانيجيف:

- ليس فى باريس على اية حال. اتصور فى آسيا، وآسيا صعبة. أيلائكم هذا؟

وشربوا الشمبانيا. وكان فولوديا حزيناً وذاهلاً، ولم يتكلم بوستنيكوف قط. وعند الفراق قال غانيجيف لفولوديا، وهو يصافحه:

- ارجو لك ايمن الحظ! اكتب لنا حين تصل الى هناك. وصدقنى يا فتى اننى آسف. اننى آسف لانك لم تبق معى.

وذهبت العمة اغلايا الى مقصورة القطار مع فولوديا. وقالت برقة:

- نم قدر ما تستطيع فى القطار. فانت يا عزيزى

المتعب والمنهوك اكثر شبها بوجه من وجوه الضحايا في
ايقونات منك بالرجل الحى.

ونام فولوديا اكثر من ٢٤ ساعة. ثم استيقظ
واكل جميع السندويتشات التى اعدتها له العمة اغلايا
والكعكة والبيضات الاربع المسلوقة الصلبة. وبعد ذلك
عاد الى النوم. وكان يعوض كل ما فاتته من نوم: ولم
تزعجه اية احلام، ولكنه لم يشعر باى فرح حين استيقظ
آخر الامر. لقد انتهى شىء ثمين جداً، شىء مهم بشكل
فظيع، شىء كبير فى حياته انتهى الى الابد.

وفى محطة موسكو حلق وجهه وشعره، ومسح
حذاءه، واشترى علبة سكاثر بهذه المناسبة. واستقبله
الرفيق اوسولتسييف فى الحال. وكان هذا التلميذ السابق
لغانيجيف رجلاً قوى البنيان فى نحو الخامسة والثلاثين.
له وجه جندى بسيط شاحب وشعر مخلوق. وكان
يرتدى قميصاً من الخام غير المقصور.

قال اوسولتسييف وهو يرمق وجه فولوديا بنظرة
عجلى ليست فيها بشاشة:

- نحن نفكر بارسالك الى الخارج الى جمهورية
«س». ونحن نامل انك ستبرر الثقة التى وضعناها فيك
وتبذل كل مستطاعك لتجلب لنفسك حسن الاحدوثة
هناك فيما بعد. وأنا اعنى بذلك انت شخصياً، وبالتبعية
بلادك التى علمتك، والتى صاغت خلقك كمواطن.

وكان اوسولتسييف يتحدث بلغة رسمية. ولكن
صوته لم يكن له رنين رسمى. وفجأة تلألأت عيناه.
وسال:

– هل عندك سيكارة؟

وتذكر فولوديا انه اشترى علبة سكائر. ولكنه قال انه لا يدخن. لانه لا يجب ان يظن بعض الناس انه اشترى السكائر ليسر رؤساءه.

– ان «الخارج» الذى ستذهب اليه هو ليس كما تتصوره. فلن تجد هناك بارات للكوكتيل، واشك فى انك ستجد سينما. ولكنك ستجد كثيراً من الاطباء السحرة، وكل ضروب النفايات الدولية. والعيش هناك سيكون صعباً جداً، والعمل ليس سهلاً مطلقاً. ولن تجد هناك ولا مساعداً طبياً واحداً حتى تبرهن على ان علاجك احسن من الاطباء السحرة. وبعد ذلك فقط سيقدم السكان المحليون هناك المساعدة لك، عندما يتعلمون منك.

ونظر الى فولوديا بامعان وانتظار.
وسال:

– هل اتخذت قرارك؟

– نعم.

– وماذا هو؟

– انا ذاهب.

– ألا تستوحش؟ ألا تكتب الى ماما او بابا لياتيا وياخذاك؟ فكر جيداً. انت شاب فى مقتبل العمر كما تعرف.

اجاب فولوديا ببرود:

– ليس عندى ماما وبابا. وربما انا شاب ولكنى دكتور. وهذا كل ما فى الامر.

- حسناً، املأ القسيمة اذن. انها تعهد لمدة ثلاث سنوات.

واستغرقت الشكليات زمناً طويلاً. ولكن اعداد نفسه بشكل لائق استغرق وقتاً اطول، وطاقة اكثر. وعندما فرغ في آخر الامر من جمع كل ما يحتاج من الادوات الجراحية، والادوية، والكتب، والملابس كانت غرفته الصغيرة في فندق «موسكو» الجديد مزدحمة بالحزم حتى كاد يعسر عليه التحرك فيها.

وجاءت العمة اغلايا لتوديعه ووصل روديون من كرونشتاد بشكل غير متوقع وكأنه مصادفة غريبة. وقد رقى الى كابتن من الدرجة الاولى وتشكى في مرح من انه ظل مشغولاً ليل نهار. وتوسل الى فولوديا ان يتحدث الى عمته العنود لتنتقل الى لينينغراد الجميلة او الى اورانينبوم، اذا كان العيش في جزيرة يخيفها. وضحكت اغلايا بفرح ورآها فولوديا وهي تقبل زوجها خلصة من صدغه الاشيب. وجاء روديون بهدية لفولوديا - جهاز راديو ومعه بعض البطاريات الجافة الاحتياطية في حالة عدم وجود كهرباء في المحل الذي سيسافر اليه.

قال روديون وهو يرى فولوديا كيف يستعمل الراديو:

- ستحتاجه هناك بالتأكيد. وسيكون كثير الاستعمال حين تكون بعيداً عن كل شيء.

وشعر فولوديا بقليل من الحزن، وبشيء من الرثاء لنفسه. ولكن حزنه ورثاءه لنفسه ضاعا في شعور كبير

فريد، في المسؤولية استحوذ عليه حين رأى نفسه يعبر الحدود، ويبدأ العمل في الخارج - شيء غامض ومضرب ولكنه بالتأكيد صعب جداً. وحتى شعر بالرعب من التفكير بوحده هناك في الخارج. ولكنه نفى عنه جميع هذه المخاوف - فقبل كل شيء لقد وثق به بوغوسلوفسكى، فلماذا لا يشق بنفسه؟

- لماذا لا تخرجان لتتمشيا؟ - اقترح فولوديا ذلك على العمة اغلايا وروديون في لهجة رجل مسن، - لماذا تجلسان مكتئبين هنا معي؟

ولكنهما لم يخرججا. وشرب روديون زجاجة من الماء المعدني، وخلع بدلته العسكرية الجميلة ذات الشرائط الذهبية العريضة، وفحص امتعة فولوديا، وبدأ يحزم بعد ان صنف اولاً كل شيء بمقدرة مدهشة. (كان يخجل من ان يعرض ذراعيه الموشومتين بافاعيهما وصورها الزرقاء وسلاسلها المهشمة وشعاراتهما). وكان ما ان يركب قطعة من الحزم - من صندوق محزوم، او حقيبة، او رزمة - حتى تأخذها العمة اغلايا وتخطيها في كيس. وغنى الزوج والزوجة وهما يعملان اغنية ممتعة لم يسمعا فولوديا من قبل قط، وقد ادرك، بحسب هذه الاغنية الجديدة، بان لهما عالمهما الخاص وهو فيه غريب. وغنى روديون المثاني بصوت عال صاف:

في خارج القرية شيء نادر
رن صوت النفير فجأة من وراء الغابة

وانضمت العمة اغلايا الى التنغيم:

ورأسها ملقى الى الخلف وعيناها المتلاثلتان صاحكتان،
وكان في الطريقة التي انهت فيها التنغيم شيء استفهامي
حلو، غير ان روديون كان يغنى عاليا، مثلما يفعل الجد
عندما « يستخفه الطرب »:

وارتفعت قرقعة
وجاء الفرسان راكبين
لطافاً ذوى شوارب
وامامهم حملة الابواق

وقطعت العمة اغلايا الخيط باسنانها الحادة الصغيرة
واشتركت معه

وغنى روديون المقطع التالى:
واعطيت البيوت للضباط
والزرائب للجنود
والجران التي لا نور فيها
اعطيت لحملة الابواق
واصفى فولوديا مبتسما.

وسأل روديون:

— حسناً؟

— اين تعلمتما هذا؟

اجابت العمة اغلايا متوردة:

— حيث توجد حرية، وصحة، ونصيب متساو. لا،

لقد تعلمناها بانفسنا.

ونزلوا الى المطعم الكبير الجديد للغداء. ورغم ان

النادل لم يكن له غير زبائن قليلين الا انه ابطأ كثيراً قبل

ان يسالهم ما يطلبون حتى اخذ روديون يُستشاط
غيظاً. وجاء رئيس الندل - وهو رجل ذو وجه متجبر
بشكل غريب له لغد عديدة تبرز من فوق الياقة المنشاة
- ليخبرهم بان جماعة كبيرة من السواح الاجانب قد
وصلوا في ذلك اليوم واولاً - وهنا طوى ابهاماً ممتلئة في
يده اليسرى - كان على عاتق المطبخ عمل كثير يقوم به،
وثانياً - هنا طوى سبابته الممتلئة مثل اختها - ان
السواح الاجانب هم في الصف الاول في هذا المطعم. وهنا
انحنى رأسه يسلم على سيد ضخم الجسم يرتدى سترة من
صوف.

وقال روديون:

- لماذا لا تعلقون اعلانا تقولون فيه ان المواطنين
السوفييتيين هم في الصف الثاني هنا؟
وغطت اغلايا كفه السمرء بكفها؛ فزال غضبه
وسرى عنه في الحال.

وسال روديون زوجته:

- ألم تفكرى قط بالندل الروحى؟ - وطفقا
يتحدثان وكان فولوديا لم يكن موجوداً على الاطلاق.
وشرب فولوديا حساءه، وفكر بفاريا، وكيف لو انهما
كليهما كانا جالسين هنا يتحدثان بمودة عن مختلف
الاشياء، ثم يذهبان سوياً الى ذلك العمل الصعب الغامض
الذى ينتظره.

وصعد الى مسرح صغير بعض الموسيقيين الحزيني
المنظر، وحركوا كراسيهم في ضوضاء، ومخط رئيسهم
بصوت صاخب جدى استاذى.

وقال الاجنبى ذو السترة الصوفية.

— براندى آخر من فضلك!

وسمع فولوديا صوت عمته وكأنه من بعيد:

— لست على حق، ياروديون. ثم انك غير منصف

تماماً وانت غاضب...

وانتهى فولوديا من طعامه، وتشاءب متعمداً وقال:

— بهذه المناسبة، انا ايضا جالس هنا. لقد جئتما

كلاكما من مدينتين مختلفتين لتوديعى وفجأة نسيتما كل شيء عنى اطلاقاً. ليس هذا جميلاً.

وبقيا معه حتى تحرك القطار. وكانت العمة اغلايا

ترتدى معطف مطر ابيض. وكان منديل رأسها الحريرى

قد سقط على كتفيها، فلاح مشط غريب لامع بصورة

جميلة، مغروز فى شعرها الاسود. كانت فى بعض الاحيان

تحب مثل هذه الاشياء الفجرية. وكان روديون واقفاً

منتصب القامة وعندما تحرك القطار رفع يده بتحية

عسكرية رسمية. وهرولت اغلايا بجانب القطار دافعة

الناس، ملوحة بيدها وشعت أضواء رصيف القطار

الواهجة فى وجهها الاسمر المترفع وعينيها المتلألئة فى

دموعها...

ثم ضاعت عن بصره بين زحام الناس، وكانت

الريح تهب على القطار، وتدفع الستائر الى الوراء. وكانت

أضواء موسكو تركض مولية. ثم اختفت موسكو—

المدينة التى ارسلت فولوديا، فلاديمير افاناسيفتش

اوستيمنكو، الدكتور اوستيمنكو، للعمل فى الخارج.

فولوديا فى الخارج

وفى نهاية الرحلة التى استغرقت ستة ايام كانت لفولوديا لحية خشنة. وقد جعلها تنمو لغاية فى نفسه رغم انه كانت له اداة حلاقة ورغم ان زميله فى السفر، وهو ضابط مسن فى رأسه رقعة صلع مستديرة، عرض اداة حلاقته وموسى. فقد فكر فولوديا: «الافضل ان ابدو اكبر من سنى فى الخارج».

ولكن هنا، عند الحدود، لم يجذب مظهر فولوديا اهتمام اى انسان. وفحص حرس الحدود اوراقه، ونظر رجال الكمرك فى حزمه وحقائبه. وكانت ليلة شديدة القر، شديدة الريح. وفى مكان غير بعيد كان ثمة جدول جبلى يهدر وينحب. وبينما كان فولوديا فى الانتظار شرب شاياً قوياً من قدح زجاجى سميك. وكان القطار واقفاً لما يزل، ونوافذه الصفراء اللامعة تشع اضواء دافئة وكان يتمشى فى قاعة المطعم يابانى قصير القامة، ذكى الوجه، له نظارة ذات اطار عظمى، وبعض الانكليز ومعهم امرأة جميلة كثيرة المساحيق.

ودق الجرس مرتين. ثم دق للمرة الثالثة وعند ذلك صفر رئيس مراقبى القطار صفيراً طويلاً. واهتزت الارض حين تحرك القطار الثقيل واندفع فى الليل الحالك المطير نحو القوس الذى يفصل البلدين. وفرغ فولوديا من شايه، ودفع بآخر ما عنده من عملة سوفيتية. وبعد قليل دخل اربعة رجال، وانحنوا لفولوديا ووضعوا امتعة فى سيارة لورى. وكانوا يتكلمون بلغة غير

روسية. فهما من «الخارج» فعلاً. وحين حمل كل شيء
وغطى بالمشمع، وربط بالحبال، صافح ضابط حرس
الحدود السوفييتي فولوديا وقال بلغة روسية وبلهجته
الرازانية:

— حسناً، سفر ميمون يا دكتور!
— وتمنياتى الطيبة لك، — اجاب فولوديا كما يقول
روديون فى بعض الاحيان.

وسار اللورى ببطء ووقف بعد خمس عشرة
دقيقة. وفحص اوراق فولوديا بعناية مرتابة رجال
يحملون مصابيح الكاز ويرتدون مشمعات وقبعات
عالية. وكانوا حرس حدود الجانب الآخر. ونقب حرس
الحدود فى امتعة فولوديا قالبين كل شيء سافله عاليه.
وجلس فولوديا تداعب جفنيه سنة من نوم. وكان
الجدول الجبلى يبدو هادراً فوق الرأس تماماً. ومضى
وقت قبل ان يحى ضابط الحدود فولوديا باصبعين،
وهى تحية تختلف عن تلك التى يؤديها اى ضابط
سوفييتى، وتمعن بفضول فى وجه الطبيب السوفييتى
كاشفاً عن اسنان متباعدة صفر من اثر التدخين وهز
المصباح مرتين. واشعل السائق مصباحى السيارة.
وارتفعت مانعة المرور تصر صريراً فى الليل الرطب.
وتسلك اللورى القديم الارض المرتفعة بتردد يقعق كل
مفصل من مفاصله شاقا طريقة فى الظلمة الباردة. وطلع
النهار فى برودة، ولكن الجو اصبح ادفاً عند المساء. ونام
رفاق فولوديا فى السفر فى مؤخرة اللورى، وعندما
استيقظوا اخذوا يلعبون لعبة لم يسمع بها فولوديا من

قبل، واكلوا في الوقفات لحم ضان نصف نىء يمزقونه
باسنانهم. وفي اليوم التالى رأى فولوديا نسراً وكان
يبدو بحجم الطائرة تقريباً، محلقاً بابهة في السماء فوق
الطريق الملتوى. وفي منتصف الليل دب اللورى عبر
مجرى نهر جاف وانغرس في الوحل. ودفع فولوديا مع
الآخرين واضعاً الألواح، حافراً في الوحل، وتعلم ان يردد
مع المسافرين ما يقولونه عند دفع شىء ثقيل:
- ايخه - خوب، خوب، خوب جه!

وعند طلوع النهار مروا بعدد كبير من مضارب
البدو. وكان الدخان يتصاعد متلوياً من الخيم اللبادية.
وعدت امام اللورى خيول لها عيون متقدة واعرافها
الغزيرة وذيلوها الطويلة تتطاير في الريح. وظلت تعدو
مسافة طويلة. وفي المضرب الاخر اكل فولوديا مرقعة
غريبة مالحة الا انها لذيذة جداً تطوف فيها بعض قطع
الشحم. وفي المضرب الثالث سرب الشاى ومضيفوه
العراض الوجوه تفرسوا به في عناية، بل ان بعضهم
اشار باصبعه الى حذائه الروسى القوى وامتدحه. ولم
يبتسم فولوديا لاحد، ولم ينحن، او يربت على رؤوس
الاطفال او يقول بعض الكلمات التى تعلمها. فليس هناك
اكثر ضعة، كما فكر هو، من ان يحاول المرء ان يترك
انطباعاً لطيفاً بالانحناء. وكان على طبعه المعتاد، بل كان
اكثر جهامة قليلاً. وكان يصغى ويراقب بامعان حافظاً في
ذاكرته الطريقة التى يأكل فيها الشخص هنا ويشرب
ويسلم، ويشكر. وكان يريد ان يكتشف بنفسه خلق
الناس وملامحهم الفارقة، والخصائص التى تجعل هذه البلاد

وشعبها يستحقان الاحترام. وكان ذلك صعباً له ان لم يكن مستحيلاً في بداية الامر. ولكن شيئاً واحداً قد وضع له بالفعل. ان كل ذلك الحديث الذي يروجه المبشرون المثقفون، كل ذلك الحديث عن كون هذا الشعب «اطفالاً كباراً» ليس الا كذباً. ان هؤلاء الناس المتحفظين الجهمين المضيافين ينبغي ان يعاملوا على قدم المساواة، ويجب ان يكون الانسان معهم مكرماً جدياً محترماً.

وفي مساء اليوم الثالث لسفرهم عندما كان فولوديا يستريح على بساط من لباد خارج الخيمة رأى الشامانات. * وكانوا واقفين عن كذب يتفحصون الطبيب الروسى ويتحدثون فيما بينهم. وهبت ريح المساء من السهوب ولعبت بادواتهم السحرية المعلقة من احزمتهم: جلود نقار الخشب، وجذور جافة، ومخالب دب واذفار النسور. وكان احد الاجراس فى دف اكبر الشامانات سناً، وهو دف قدر مشحم، يرن بايقاع وحلاوة طوال الوقت.

وقال فولوديا لنفسه: «اعدائى. هؤلاء الذين ساحاربهم».

وفجأة قال اصغر الشامانات لفولوديا:

— بي—را—مي—دون،—وانحنى له.

— ما هذا؟— قال فولوديا، وقد رنت الكلمة

بغرابة فى هذا السهب البدوى.

* الشامان: الحكيم الساحر فى القبائل المنغولية وغيرها من

قبائل شمال آسيا. (ملاحظة من التحرير).

- بي - را - مي - دون، - عاد الشامان بتكشيرة
الم، وضع راحته على رأسه، - بي - را - مي - دون.
وهز فولوديا رأسه وذهب الى اللورى. وكان ايجاد
الدواء وفتح الصندوق المغطى بالزنك الموجودة فيه
الاقراص عملاً مضمناً حقاً. ووضع بعض الاقراص في
مغلف صيدلى ووقف في الريح التى تحمل نباحاً حزيناً
لكلب هجين، وكتب باللاتينية: "Piramidoni 0,3". وانحنى
الشامان انحناءة واطئة، ووضع قرصين في فمه
وتحول الى سائق وشرح له شيئاً باسهاب طويل. وقد
قال السائق لفولوديا فيما بعد ان الشامان نصحه بان لا
يجلس على بسط لبادية لأن الشامانات الصغار هم
وحدهم الذين يجلسون على بساط لبادى بينما الشامان
الكبير، الشيخ لا يمكن ان يجلس الا على جلد فرس
بيضاء. فان الذى يجلس على جلد ابيض يحصل على
فلوس اكثر مما يحصل عليه القابع على بساط لبادى.
وقد قدم الشامان هذه النصيحة ليرد لفولوديا ثمن
البراميدون.

وتوقفوا في السهب ليبيتوا ليلة على ضفة نهر
كزيرلا - ها. وحين طلع النهار رأى فولوديا قطعان الغنم
الهائلة، ودخان نيران الرعاة، ومن بعيد معالم باهتة
لسلسلة جبلية ملفعة بالضباب.

وبعد قليل تحولوا الى طريق استثنائى مرصوف
بحجارة مسطحة مشققة. والى جانب الطريق قزم حجرى
رمادى منعزل له اذنان طويلتان وبلا شفيتين، وعينان
غائرتان منحرفتان تبدوان غافيتين.

وقال السائق:

- جنكيز خان!

وبالاشارات والايماءات شرح بان الطريق ايضا قد
بناه رجال جنكيز خان منذ امد بعيد، بعيد للغاية.
وهز فولوديا راسه، وفجأة تذكر بوستنيكوف
وهو يقول: كم يتذكر الناس امثال جنكيز خان طويلاً.
وجاءت طُنْفُ جبلية طويلة مهيبة عمودية هارعة
نحوهم. والغيوم تطوف قممها المكللة بالثلج. وعلم
فولوديا انهم سيعبرون الجبال في هذا النهار ويصلون الى
العاصمة.



الفصل الثالث عشر

الطريق الى كخارا

وقضى الليلة في فندق. وكان لغرفته حمام خاص،
ونافذة واسعة، ومروحة سقفية. وعندما استيقظ لم
يعرف في الحال اين هو، في أية مدينة هو؟ او لماذا هو
هنا؟

وفي دائرة الصحة العامة استقبله موظف واهن
المظهر يرتدى نظارة ذهبية الاطار. وكانت نظرة عينيه
الصغيرتين السوداوين كحبتى مسبحة واعية ذكية غير
مسرة. وتكلم الموظف متدفق العبارة، وترجم المترجم -

وهو رجل بدين يرتدى القفطان البلدى فوق الملابس
الاوربية - بطريقة مقتضبة مقطوعة:

- موظف الدائرة متأسف. ان الطبيب الروسى
سيقطع رحلة شاقة، ويتسلم عملاً شاقاً، شاقاً جداً،
شاقاً كبيراً. شاقاً كثيراً وجداً. وأسفنا لا حدود له.
اربعمائة كيلومتر على صهوة حصان. او انتظار حتى ينزل
الثلج فتسافر على النهر فى زلاجة. وكذلك ثلج كثير. شىء
سىء. وفى الصيف يمكن ان تتركب خلال التايغا وممر
الصيادين.

وانحنى الموظف. وكانت اصابعه النحيلة العريضة
المفاصل تسبح بخفة فى حبات مسبحة بيضاء.
وقال المترجم:

- ولا سفر فى الربيع والخريف. الانهار تفيض،
والمستنقعات لا يمكن المرور بها. نعم، لا؟ وممر الصيادين
الذهاب لا يمكن. كخارا مكان بعيد. نعم؟ كخارا لم يكن
لها دكتور قط. عمل كثير للطبيب.

ومرة أخرى بدأ الموظف يتحدث حديثه المتدفق
الخافت محركاً شفتيه المسفوحتين بسرعة، ولكن المترجم
لم تسنح له الفرصة لترجمة الحديث. ودفع الباب بطريقة
عاتية، ودخل الغرفة رجل يناهز الثلاثين يرتدى صدرية
صوفية واسعة وحذاء جلدياً عالياً. وكانت ملامح وجهه
المتغضن العبوس قاسية.

ونفض رماد سيكارتته على الارض، وتجاهل كلياً
انحناءات الموظف والمترجم المتدللة، وجلس وخاطب
فولوديا بصوت خفيض أجش بشكل مريح:

- أنا مسرور بلقياك ايها الرفيق. احسب انهما حاولا تخويفك ايه؟ لا تخف يا رفيق. لقد درست في موسكو العظيمة واعرف ان ذلك ليس مخيفاً لك ايها الرفيق...

وكان يعيد كلمة «الرفيق» بسرور ظاهر، وبين حين وآخر يمس ذراع فولوديا برقة:

- صعب؟ نعم، معقد؟ نعم. ولكنه غير مخيف. بل ربما مخيف قليلاً، ولكن ليس للناس الذى قاموا بثورة عظيمة مثل ثورتكم.

وسئل المترجم فى غير لياقة، وتحول اليه القادم الجديد بغضب مفاجئ:

- اذهب، انا لست بحاجة اليك. والمفتش سيجلس هنا وينظر فقط. ولا حاجة لأن تعود.

وأنحنى المترجم انحناءة شديدة لاما يديه الى صدره ولم يخرج. وظل الموظف الواهن المنظر واقفاً. ونفذت الشمس بحزمة ضوء وهاجة من خلال النافذة المفتوحة على مصراعيها وكان يأتى من الشارع فى الخارج وقع خفاف الجمال، وهرج السواقين فى كلامهم، وجلجلة اجراس الجمال المنغمة. وحدق الرجل ذو الصدرية الصوفية فى حزمة الاشعة الوهاجة وقد قطب حاجبيه الكثيفين:

- فى البداية كان لنا طبيب واحد فى عاصمتنا، طبيب واحد فقط للبلاد كلها. وفيما بعد اشترينا خدمة مساعد طبيب. وكان من قبل فى الفرقة الأجنبية، وهو

شخصية مبهمة بالطبع، جاسوس ونذل. نعم ايها الرفيق.
وكان يركب الفرس ومعه خدمه وحرسه المسلحون
بالبنادق. ويبيع الادوية مقابل جلود السمور والسنجاب.
وكان التلقيح ضد الجدري يكلف جلد سمور. وكان رجاله
ينهبون ويسرقون كل ما تقع عليه نظراتهم وكانوا، ايها
الرفيق، يسمون ذلك بأجرة. وفي موسكو اخبرونا عن
طب الشامانات وطب اللامات، ولكنهم لم يعرفوا في روسيا
شيئاً عن هذا النوع من الطب ايها الرفيق. ومع ذلك فان
شعبنا قد عرفه. كان ذلك الرجل، واسمه موريسون،
يطوف لبيع الافيون والمورفين ايضاً، بينما اولاده
ينادون بأن رجل الطب العظيم هذا يبيع الاحلام السعيدة.
وكان الحلم السعيد الواحد يكلف ثلاثة جلود سمور. نعم،
ايها الرفيق، كان ذلك، واذا اردت حلمين سعيدين تدفع
خمسة جلود سمور. لقد كان موريسون افزع من شامان،
واشنع من أشنع لاما. وكان يقول انه مداو ولكنه كان
قاتل شعبنا، هذا هو ايها الرفيق، حتى جعل شعبنا الآن
يذهب الى الشامانات واللامات للعلاج، وللاطباء الروس
للاحلام السعيدة. ولكن الاطباء الروس رفضوا أن يعطوا
اي حلم سعيد، وذلك شيء حسن أليس كذلك؟ انهم لم
ياخذوا جلود السمور ولا السنجاب. ان جارنا الجبار
نزيه وشعبه نزيه ايضاً، وهو يعلمنا النزاهة. وكل من
ياتى الى هنا منكم يعلمنا كيف نبني المستقبل، أليس
كذلك ايها الرفيق؟ ان جارنا العظيم يساعدنا لمحاربة
الجهل والخرافة والمرض ايها الرفيق، ونحن...

واشعل سيكارة أخرى، وصمت بعد أن قطع حبل أفكاره كما بدأ. ثم أستأنف القول:

— نحن انفسنا نخلق صعوبات لنا، انت تفهم؟ —
قال ذلك وقد غضب حتى تبقع جلده الأصفر ببقع حمرة:
— نحن هنا لا نفكر جميعاً تفكيراً واحداً. وأظن ايها الرفيق ان ذلك واضح في النظرة الأولى. وليس الكل ينظرون الى حيث ينبغي ان ينظروا. بعضهم ينظرون في الاتجاه الذى اتخذه ذلك النذل من الفرقة الاجنبية، أى جمع الفلوس. ولكن، ايها الرفيق، كلما رأى شعبنا المزيد من النفع الذى تجلبه لنا حوّل نظره صوب بلادكم أكثر. حسناً، لقد قلت لك الشيء القليل، ولكنك فهمتني ايها الرفيق. ألم تفهمني؟

اجاب فولوديا:
— لقد فهمتك.

— وهناك شيء آخر: ان طب اللامات وسحر الشامانات ليس من السهل اليسير التغلب عليه، ولكنه ليس بالصعب الميئوس منه ايضاً ايها الرفيق. وربما يستغرق منك وقتاً طويلاً، طويلاً جداً. ويكون خطراً عليك احياناً ولكن ينبغي أن لا تدع الخوف يتسرب الى نفسك ايها الرفيق. لانك اذا خفت فرح اللامات والشامانات والآخرين فرحاً شديداً. ألا ترى ايها الرفيق؟ هل فهمت ذلك ايضاً؟

اجاب فولوديا بحزم:

— نعم. أين يمكن أن أرى الدكتور بوغوسلوفسكى؟

- أوه، الدكتور بوغوسلوفسكى؟ - أعاد الرجل الاسم وابتسم لأول مرة ابتسامة كبيرة سعيدة، - ان الدكتور بوغوسلوفسكى معروف في بلادنا كلها. انه معروف في كل خيمة، ولكل رجل. ولكنه لم يات الى هذه الدائرة قط. لا. انه يعمل دائماً وهو دائم التنقل من مكان الى اخر مؤدياً عمله. وهو يزور جميع الاطباء، ويساعد الجميع، يساعدهم مساعدة طيبة. وسيأتى ويراك ايضاً. ولكن ليس في وقت قريب جداً. ولكننا سنأتى. نعم؟

- نعم فهمت. و شىء آخر: من يجب ان يستلم منى الادوية؟

- يستلمها موظف من دائرة الصحة. واذا تحتاج الى شىء، أكتب لى الى هذه العنوان. اسمى تود - جين. أكتب بالروسية عن كل شىء تحتاجه. اسمى تود - جين أتذكر؟

وقدم لفولوديا كفه القوية النحيفة، الجافة جداً والحارة. وانحنى الموظف ثلاثاً، وأوطأ من اللازم. وتراجع المترجم الى الباب، وفتح له لفولوديا.

وتم تسليم الادوية في وقت متأخر من الليل. وابقظوه عند طلوع النهار. وكان الادلاء يحملون خيولهم القصيرة القوية في باحة الفندق وهم يتشائمون ويتخاصمون باصوات عالية. وكان يقف في وسط الباحة بعير هجين يسير رواله بغير اكثرات، وكان ثمة بعض الرجال الوسخين الحليقى الرؤوس يقرفصون في حلقة يلقون الزهر. وهمس رجل عجوز في أذن فولوديا عارضاً

عليه ان يشتري سبائك ذهبية. لقد كان كل شيء غريباً
وكانه حلم...

وكانت القافلة مستعدة للانطلاق حين ظهر تود -
جين فجأة. وكان يرتدى سترة جلدية قديمة، ويحمل
فوق ردفه مسدساً. واذا راه الادلاء صمتوا باحترام.
وكانت الشمس الباردة قد نهضت من توها، وكان الهواء
شفافاً ونقياً. وفي الصمت القى تود - جين خطاباً قصيراً
على الادلاء مشيراً الى فولوديا بهزة من رأسه غالباً. فكان
الادلاء في كل مرة ينظرون الى فولوديا.

- حسناً، الى اللقاء، ايها الرفيق، - قال تود - جين
ذلك حين امتطى فولوديا السرج.

وتطلع الى عيني فولوديا بنظرة قاسية براقية كانت
منعشة مثل شرب ماء ينبوع. وتحركت القافلة ببطء
مارة بتود - جين. ولسبب لا يدرىه تذكر فولوديا
العرض العسكري في أول ايار.

وقطعوا الاربعمئة كيلومتر في ستة ايام. وفي اليوم
الثاني كان فولوديا يجلس على السرج منحرفاً، وفي اليوم
الثالث كان مستلقياً على بطنه. وتذكر كلمات تود -
جين: «صعب نعم، ولكن غير مخيف». وضحك الادلاء
من حالته دون ضغينة، ناصحين اياه نصيحة لم يستطع
فهمها، وواقفين للاستراحة أكثر من اللازم. وفوق كل
شيء كان البعوض الملعون يخرجهم عن اطواره. ورفض
ان يلف وجهه في الشبكة الواقية من البعوض لأنها كانت
تخنقه، واختار الجلوس في الجانب المغلوط من النار في
الليل، لأنه لم يطلق تحمل دخان الاغصان الرطبة بالنتيجة

ورم وجهه بشكل مربع من جراء اللسعات التي لا حصر لها. وكان يبعث الغثيان في نفسه أكل اللحم نصف النيء، فظل يشرب الماء من زمزميته ويلعن في سره. وعند عبور الممر الجبلى زلت قدم احد الخيول فسقط في الهوة. وادرك فولوديا في رعب أن غلاية التعقيم قد فقدت، ولم يبق لديه ما يعقم ادواته فيه. كما ذهبت معها عدة قناني من سائل الأمونيا، وطاولة عمليات مطوية رائعة.

الطبيب العظيم

وفي نهاية اليوم السادس ابصر فولوديا خيام وبيوت دسكرة كخارا، حيث كان عليه ان يفتح المستوصف والمستشفى. وفجأة استولت عليه حيرة غريبة و غير مفهومة. هل في وسعه ان يدير الأمر؟ انه اول طبيب هنا! وبشعور غامض بالفزع نظر الى الاكواخ الواطئة المتباعدة القابعة بعيداً تحت الغيوم الممطرة الثقيلة، وسمع النباح الشرس للكلاب الضارية، ونظر الى الناس الذين حدقوا هم الآخرون في دهشة وتبجيل بالقافلة وبالطبيب الروسى الذى أعلن عن مقدمه بصوت عال الادلاء الذين كانوا يسرون في المقدمة:

— ها انتم ترون أمامكم أعظم رجل طب! — صرخوا باصوات مختلفة النبرات، وكانت اصواتهم متعبة ولكن مرحة.

— افرحوا وانظروا اليه!

- انظروا كم جلب معه من الادوية! وسيعطى كل
 هذه الأدوية للمتعذبين ولا ينسى أحداً!
 - تعالوا، ايها المرضى جميعاً الى الطبيب العظيم!
 - جميع الكسحاء!
 - جميع الصم!
 - جميع العميان!
 - ما من مرض لا يستطيع الطبيب الشفاء منه!
 ولم يعرف فولوديا الذى كان لا يكاد قادراً على
 الجلوس على سرجه من الأذى، ما كان الادلاء يصيحون به
 أوه، يا ربى، لو كان يعرف! ولكن كيف يستطيع ان
 يعرف؟ انه لم يعرف ان اولئك الرجال أخذوا يميلون
 اليه لطيبة قلبه وبساطة وشجاعته بعد ان شاطروه
 الطعام والنوم والكدح والصمت ستة أيام، كما لم يكن
 يعرف أن تود - جين أمر بالاعلان عن قدومه بشكل
 لائق. وكان الادلاء بالطبع يبذلون قصاراهم لأن تود -
 جين لم يكن من الناس الذين تنفذ أوامره بنصف قلب.
 أعلنوا بصورة جيدة اذا اردتم الاعلان! وهكذا أعلن
 الادلاء عن فولوديا بكل الأبهة التى يستحقها لاما
 عظيم...

وكانت الدنيا تمطر، وتعلم.
 ووصلت القافلة الى الساحة شاقة طريقها بين جمع
 غفير مستطلع.

ووقفوا فى الساحة. وعض حصان فولوديا بمداعبة
 كاهل فرس كبير الادلاء. وكان الناس واقفين حولهم بلا
 حراك تحت المطر البارد. وحدث الناس بفولوديا

وبمعطفه المبطن، وبحدائه، والبندقية، والسرّج والعنان
والحصان وحدقوا بكل شيء حائرين.

- مرحباً بك في كخارا، - قال رجل ذو لحية له
سيماء غجري، وشعر كث مجعد، يلبس معطفاً من تلك
المعاطف التي كان يلبسها التجار الروس القدمى، مثل
شخصية في إحدى مسرحيات اوستروفسكى، وهو يشق
طريقه بين الحشد بكتف عريضة قوية، وينظر الى
فولوديا بعينين فيهما ألق مرح:

- اتبعنى يا دوكتور، وذق خبزنا وملحنا،
ياضيئنا العزيز على الرحب والسعة. لا تنظر بارتياب،
اسمى ماركيلوف، ونحن على المذهب القديم. ونحن لم
نترك البلاد الى هنا بسببكم، بل بسبب القيصر، نسل
الشیطان.

وهمز فولوديا جانبى الحصان المبللين وتحركت
القافلة وراءه.

ورحبت بفولوديا في بيت ماركيلوف فتاة شابة
جميلة المحيا رشيقة القوام لها عينان واسعتان حالمتان.
وبانحناءة واطئة سلمته طبقاً مغطى بفوطة مطرزة وضع
عليها رغيف خبز مدور عليه مملحة. وكانت رموشه لا
تنى ترمش في ارتباك. وكان يبتسم ولا ينفك عن الدمدمة:
- اوه، لماذا؟ لماذا هذا حقاً؟

وكان ماركيلوف واقفا الى جانبه يحثه قائلاً:

- خذ هذا. لا ترفض، خذه وقبل ابنتى.

وقبل فولوديا بلاغيا ماركيلوفا على خدها الصلب،
وبعبارة «لا تكلفوا أنفسكم» موجهها اياها للمضيف

تحول ليرى اين ادلاؤه. لقد كانوا على سروجهم لما
يزالوا متعبين ولكن مبتسمين.

— لست وحدى يا رفيق ماركيلوف. معى اصدقاء.
قال ماركيلوف:

— لا بأس. هناك طعام يكفى لكل واحد. لا تسىء
فهمنا يا سيدى العزيز. ولكنهم كفار، وابناء بلد،
فينبغى عدم ادخالهم الى البيت.

وقد أربكه أنهم أعانوه فى خلع معطفه أمام الصالة
الأمامية للمنزل الضخم الفاخر، وأربكته الانحناءات
والرسميات، وكبت فى نفسه حاجته الى الجلوس فى وقار
بعد ستة ايام قضاها على صهوة حصان. واستطاع فى
الآخر أن يجلس على حافة كرسى عند مائدة صفت عليها
المخللات، والمشهيات، والمقليات، والفطائر. وانواع
الفودكا والكونياك. ولكن ذلك لم يفهم فولوديا فى بادى
الامر ماذا كان ماركيلوف يعنى بكلمة «كفار». وشرب
الكأس الاولى من ويسكى من ماركة «وايت هورس»
وأحترق حلقومه. وهناك فقط لاحظ باستغراب ان
الجالسين الى المائدة لم يتجاوزوا ماركيلوف وزوجته
البدينة وابنته وكاتب أو «ماذا» له وجه منهوك.

وقال ماركيلوف برقة وهو يقرأ نظرة فولوديا
المستفسرة:

— نحن سنطعمهم فلا تقلق. نحن نفهم. وأنت
يا امامه انظرى الى الجار الطيب الذى ارسله الله لنا. ان
قلبه يحن على الادلاء ايضا، رغم انهم ابناء البلد.
وكان مصباح الكاز الأنيق المصنوع فى بطرسبورج

(وقد رأى فولوديا كلمة «س. بطرسبورج» على قاعدة المصباح الفضية) يشع في وسط المائدة في ألق وحرارة وسط اطباق الطعام. وكان الطعام دهينا دسيما ومع ذلك فقد تناول الجميع الزبدة، وصبوا الشحم المقلى والسلاء على كل شيء ووضعوا فوق ذلك كله ملاعق مليئة بالقشدة المخثرة. وكان على النوافذ ستائر حريرية أو ديباجية، لم يعرف فولوديا ايهما. وكان على الجدران أبسطة، وتصاوير العائلة. وفي وسط أحسن الأبسطة وأكثرها زخرفة علقت نسخة ملونة تلويناً سمجاً لصورة ليفيتان «أرحاب الفولغا» لها اطار مذهب.

وقال المضيف وهو يتصبب عرقاً من فرط ما أكل وأعمل فكيه القويين، مرة يتشهى فطيرة، ومرة يتشهى سمكة مقلية، ومرة يتشهى حلواء ممثلة وردية:

— نحن لا نشكو من أمرنا. واجدادنا واباؤنا لم يكونوا يشكون أيضاً. ونحن نحن قليلاً الى الوطن بالطبع ولكننا ألفنا العيش مع المتوحشين هنا، ونحن ابناء طبيون لهم، وهم يعاملوننا باحترام بنوى. ومن الأثم ان نشكو. وهذا مكان صغير ولكن حتى في العاصمة يعرفنا الجميع، فنحن أصحاب الفضل عليهم، وهم يستفيدون كثيراً منا ومن طبقتنا ومن رأسمالنا ونحن ندفع ضرائبنا دون تحايل، لأن العيش في تحايل اثم بالطبع.

وأكل فولوديا في صمت وعيناه واذناه مفتوحة. ولم يخطر بباله قط أن هناك مثل هذه البيوت بكل هذه الستائر والأبسطة والفرامفون الاثرى، والبنادق القديمة

معلقة على الجدران. ورأى آلة تصوير « زاييس » على آخر طراز ملقاة على منضدة صغيرة مغطاة بقماش مشبك؛ وإلى جانب البنادق القديمة علقّت بندقية من نوع « زاور » جديدة رائعة. وكانت فوق الأريكة بندقيتان أوتوماتيكيتان وفوقها تماماً علقّت صورة ذات إطار نفيس لرجل عجوز محترم تشبه سحنته الشهوانية سحنة راسبوتين.

وسأل فولوديا في آخر الامر:

— في اى شغل تشتغلون؟

— نحن؟ نحن نشتغل في التجارة يا ضيفى العزيز، في تجارة الفراء. وبيتنا التجارى المسمى فى السابق «ماركيلوف واولاده» معروف فى كل مكان، وحتى عبر المحيط فى الولايات المتحدة الأمريكية. ونحن نتاجر مع بريطانيا العظمى أيضاً، ومع تجار الفراء اليابانيين. كل ذلك باستقامة وعلانية، وقد قمنا بأعمال كبيرة. وقبل أيام كان عندنا عميل البيت التجارى القديم «اخوان غوريتسو» ونزل عندنا. وخرجنا الى الصيد مرة او مرتين وغسلنا فى حمامى البخارى، وعاد ومعه حزمة بديعة من جلود السمور.

وجلست بلاغيا تنظر الى فولوديا بلا انقطاع وتشد حاشية شالها الاثرى. ولم تأكل شيئاً، بل شربت جرعات من الكفاس البارد ذى الرغوة، واضعة اسنانها على حافة القدح.

وبعد العشاء تلا ماركيلوف صلاة قصيرة، ومسح وجهه بفوطة. وتناول طاقيته من مسمار، واشعل

مصباحاً. وصحب فولوديا ليرى اين سيقام المستشفى
والمستوصف. وتبعه فولوديا بوداعة وقد حيرته تماماً
غرابية «الحياة في الخارج». وفي باحة بيت ماركيلوف
المظلمة الرطبة تجمع الادلاء حولهما، وذهبوا معهما شاقين
طريقهم خلال الوحل المصوّت الى سقيفة خفيفة من
القصب وتارجح الباب يرسل صريراً يمزق القلب.
وتراكضت الفران السمينّة زاعقة لائدة بالظلماء. ورفع
ماركيلوف المصباح عالياً:

— هنا! وانه يليق باولئك المتوحشين على اية
حال. وهم لا يستأهلون العناء ولا العمل. وحين يبرد
الطقس ساعطيك موقداً حديدياً عندي. وستمكث معنا
وتأكل معنا ايضاً. وستسمن على طعامنا. لقد رايت
بنفسك. انه طعام روسي جيد لا يقارن بما ياكله هؤلاء
الشحاذون.

وكان الادلاء يتحدثون عن شيء، ويتكلمون بسرعة
وجسارة. وتقدم انحفهم — وكان فولوديا يسميه «يوري»
في سره — وتكلم بتأثر وهو يشد ماركيلوف من كم معطفه
ويخاطب فولوديا ايضاً. والواضح انه يحاول شرح شيء
ذى أهمية لهم جميعاً.

— خل عنى ايها القرد، — قال ماركيلوف وهو ينفذ
يده، وعلى فمه ابتسامة حسبها فولوديا عصبية.

سال فولوديا:

— ماذا يقول؟

اجاب ماركيلوف ليصرف النظر عن الموضوع:

- هراء أو شيء من هذا القبيل، لا راس له ولا ذيل.

ولكن الادلاء اخذوا يتكلمون جميعاً على الفور بصوت عال وعن غضب. وأمسك الرجل الذى سماه فولوديا «يوى» تخميناً، بكم معطفه المبطن وجره الى الباب، الى الظلمة القائمة. وكانت الريح تهب فى دفعات، والمطر ينزل بزمجرة مولولة. وحاول ماركيلوف اسكات الادلاء بصيحة جشاء، ولكنهم استمروا فى كلامهم وسمع فولوديا اسم تود-جين يتكرر مرة بعد أخرى. والظاهر أنهم عرفوا شيئاً له علاقة بتود-جين يجهله فولوديا تماماً، ويرفض ماركيلوف الاقرار به لسبب من الاسباب.

وتبع فولوديا «يورى» عن طواعية مضيئاً طريقه بمصباح يدوى، وغير مكترث بصراخ ماركيلوف المنذر. ولحقهما الادلاء فى جماعة. وجاء ماركيلوف خلفهم يطرش فى الوحل غاضباً.

وفجأة وضح كل شيء لفولوديا. ان الادلاء جاءوا به الى بناية صالحة تماماً لتكون مستشفى صغيراً ومستوصفاً وكانت بيتاً طويلاً قوى البناء له نوافذ واسعة، وباب أمامى وخلفى، وجناح للمطبخ، ومخزنان للغلة.

- تود-جين، - قال «يورى» ذلك ونظر الى ماركيلوف وفولوديا نظرة عابسة منتصرة، - تود-جين! وقال ماركيلوف محاولاً ان يحتفظ بلطافته:
- انهم يتكلمون هراء، يا فلاديمير افاناسيفتش.

انهم متوحشون وقرود في الحقيقة. يا للاب في السماء،
ان من الائم الانصات اليهم. ومن البلاهة ان تحول محطة
تجارية الى مستشفى. ولمن؟

سال فولوديا:

- اهذه محطة تجارية؟

- كانت كذلك. وهى تعود الى تاجر فراء آخر.
ولكننى كتمت انفاسه،- وكان اسلوب ماركيلوف خالياً
من اللطف الآن. فتكلم سريعاً وفي عينيه الفجريتتين
الواسعتين نظرة شيطانية،- وكان هو واحداً منهم، يحشر
نفسه فيما لا يطلب منه، ويعلو ويفخر كثيراً جداً حتى
بنى لنفسه هذه البناية. والآن عاد لياكل قيئه كما يفعل
الكلب. عاد الى كوخه المصنوع من قشر الشجر.

فسال فولوديا في عبوس:

- ولمن تعود هذه المحطة التجارية الآن؟

أجاب ماركيلوف بتحد:

- لا لأحد حتى الآن. ولكنها ستكون لى. لقد
خططتها لنفسى. ونحن آل ماركيلوف نأخذ ما نخطه
لنا. وربما دفعت لها سلفة، من يدري؟

- ولكن تود-جين قال إن المستشفى سيكون في
هذه البناية. ألم يقل؟

- ليتملكها إذا كانت له وثيقة استملاك عليها.

- وماذا سأفعل إذن؟

- افعل ما انصحك به، يا ضيفى العزيز، وأقم
مستشفاك في تلك السقيفة. وقد قلت لك أننى سأساعدك.
والمحطة التجارية خارجة عن الصدد تماماً يا سيدى

العزيز. وليس في وسعى التخلي عنها. إن الملكية الخاصة لم تلغ هنا. والحمد لله.

قال فولوديا مقطباً حاجبيه:

— لا اعرف، لا اعرف. ان حق الملكية الخاصة لا شأن له معي. ولكنني اظن ان دائرة الصحة العامة سترد لك السلفة إذا كنت قد دفعتها حقاً. وعلى أية حال فان الأمر عائد لك في تسوية المشكلة مع من يهمله الأمر. وما انا إلا طبيب، لا شيء غير طبيب. ومن اجل هذا جئت الى هنا. إذن فسنفرغ هنا الآن. والبقية شأن خاص بك.

— بعبارة أخرى إنك تقف ضدى حال وصولك.

— أنا لا احتاج اليك. بل احتاج الى بناية مستشفى.

— مستشفى؟ وهل يتم هنا، ايها السيد الشاب، ولو

شيء واحد بصورة لائقة بلا ماركيلوف؟ أوه، ربما أعطى لك المحطة التجارية كلها كهدية إذا كنت قد سالتني بلطف. وأنا رجل كريم. ربما كنت اريد أن اقوم بعمل خيرى منذ وقت طويل؟ أو ربما تحصل على راتب منى أيضاً لتطبيب عائلتي.

— أتعرف ماذا؟ اتركنى وشأنى أيها السيد

ماركيلوف. أنا غير مهتم بخيرياتك أو راتبك الأحمق. ابتعد عني ارجوك. وشكراً لك على الطعام. ومع ذلك كم على لك؟

وحشر فولوديا في جيب بنطلونه المبقع ببقع الوحل

الجاف وسحب محفظة النقود التي اشتراها من موسكو.

— كم أنا مدين لك؟

قال ماركيلوف بضحكة خافتة:

- في الحق أنت نار. نار حقيقية ما إن تمس حتى
تلتهب. ولكنني احب هذا النوع من الناس استقر في
محطتي التجارية، استعملها. ربما سيأتي ماركيلوف
اليك ذات يوم ليعالج نفسه. لا تياس!
وضرب كتف فولوديا بقوة، وجذب انف «يورى»
ورفس أحد الادلاء بركبته. وذهب في مزاج طيب.
وران الصمت على البيت.
الصمت والظلام.

واشعل فولوديا مصباحه اليدوى ثانية، وتلفت
حوله وأصغى الى المطر يهبط على السطح، وأخبر للادلاء
بالاشارة ان يدخلوا الرزم في بناية المحطة التجارية.
وبعد يومين كان النجار مشغولين في سد السقف، مصلحين
الروافد، باسطين ارضية جديدة. وكان أحد الرجال يبني
موقداً من الحجارة، وصانع آخر يدق مفاصل الباب
والأقفال، والفرن في المطبخ. وخزن الحطب بالمخزنين
بكمية كبيرة لأن الشتاء بارد وقاس هنا، ينزل فيه ثلج
كثير. وكان فولوديا الذى لطخ الطلاء وجهه وملابسه
يرسم صوراً صغيرة على صفيحة من الحديد بطريقة طفل
ركيكة. وكان ذلك ليمثل مرضى ذاهبين الى المستشفى:
واحداً يستند على عصا، وآخر ذراعه مجبرة وثالثاً
محمولاً على أيل. ورسم فولوديا نفسه في الصورة ايضاً.
وكان واقفاً في المدخل مبتسماً وقد ارتدى مريوله
الابيض. وكان لا يعرف كيف يجعل الابتسامة تبدو
طبيعية. فكانت النتيجة ان رسم فماً هلالياً يمتد من اذن
الى اذن. وبينما كان يرسم لم يعمل أحد، بل ظلوا

يحملقون معجبين. ومع ذلك لم يخاطر في وضع اللوحة فوق الباب الامامى لمستوصفه ومستشفاه.

ومرة أو مرتين ظهر ماركيلوف ومعه كلب أشعث هائل. وكان يقف في الطريق وينظر، ويرفع طاقيته إذا رأى فولوديا، ويمشى في طريقه صافراً.

وتحت توجيه فولوديا تم إصلاح واعداد أول مستشفى حقيقى له وأول مستوصف قبل السابع من نوفمبر تماماً. وكانت فيه غرفة عمليات وغرفة صغيرة، ومطبخ، ومخزن مؤنة، وغير ذلك من المرافق. وله الآن مترجم - رجل من اهل البلدة سريع الحركة ذو دهاء، له مزاج مرح موزون، واسمه مادي - دانزى. كما أصبحت له طبخة - امرأة صينية عجوز جداً خفرة للغاية، جاءت بها ظروف غير معروفة الى هذه الانحاء في القرن الماضى وكان دانزى يسميها بكل رصانة: «المدام الطبخة». كما كان له ممرض - هو دانزى نفسه.

وعشية مساء ذكرى ثورة أكتوبر دعا فولوديا «موظفيه» جميعاً الى المطبخ المدفأ جيداً، وفتح زجاجة نبيذ من نوع «ماساندرا» وأخبر الطبخة بأن تهىء المائدة بصورة جميلة، وصب النبيذ في الاقداح. وكانت ساعة الحائط التى جاء بها من موسكو تدق بصوت مرتفع.

وقال فولوديا:

- في هذا الوقت قبل سنوات عديدة اسقط العمال والفلاحون في بلادنا بقيادة لينين حكم الراسماليين

وملاكى الاراضى الى الابد. فلنشرب نخب الشفيلة التى
فعلت ذلك!

وترجم دانزى. وفجأة تدفقت الدموع من عيني
«المدام الطباخة».

— ماذا بها؟ — سأل فولوديا برقة وتناول يد
العجوز المتفضنة. وبكت «المدام الطباخة» بصوت أعلى.
قال دانزى:

— كيف نعرف لماذا تبكى؟ ربما تذكرت شيئاً ما،
نعم؟ لقد كانت شابة ايضاً فى سالف الزمان. وكان لها
زوج وأطفال. لا؟ والآن هى وحيدة. وإذا كنت لم تصغ
الى ولا تستاجرها لماتت. نعم، لا؟ إنها تريد حكم العمال
والفلاحين. هذا هو السبب.

— وأنت هل تريد؟ — سأل فولوديا وشعر فجأة
بالقلق لأن سؤاله قد يعتبر دعاية ودعوة.

واستمرت العجوز فى بكائها. وقد قال تود — جين:
«هنا ليس الأمر مخيفاً بل معقداً». ففكر فولوديا: «إذن
هذا ما يعنيه بالمعقد» وادار كأسه الموضوع امامه
على المائدة. لا بأس! سيريهم قيمة رجل أرسلته بلاد
العمال والفلاحين. وسيرون. سيري الشعب — كل صيادى
التايغا الشجعان المتحفظين أولئك. وكل أولئك البدو
ذوى الوجوه الملوحة، وصيادى السمك ذوى الايدى التى
أضربها الصقيع. سيرون جميعاً. وإذ ذاك سيفهمون من
هو ماركيلوف وأضرابه ومن لف لفهم. سيفهمون إذا لم
يفهموا ذلك حتى الآن.

وقال فولوديا وهو ينهض:

— طابت ليلتكم.

وفي الصباح جاء دانزى لغرفته وقال له إن هناك
لاما جالسا في المدخل، وسيبقى هناك طوال اليوم كيما
يمنع المرضى من أن يأتوا الى المستشفى.
وتساقط الثلج طوال اليوم في ندف كبيرة، ولكن
اللاما بقى في المدخل لا يريم. وعند الغداء أعطته «المدام
الطباخة» — وهى امرأة شفيقة القلب — بعض الطعام
الحار. وغضب فولوديا وصرخ فى «موظفته». وكان
اللاما جالسا هناك يأكل مرق المستشفى ويتحدث الى
ماركيلوف الذى وقف على بعد خطوات وعيناه الغجريتان
الدنستان ترمقان بناية المحطة التجارية السابقة. لقد
كان عملاُ جهنميا لو فكرت به.

وعند الغروب أخبر دانزى فولوديا بشيء من الخجل
ان اللاما يريد أن يدخل ويجرى حديثا مؤدبا، واللاما
رجل طيب ومريض ايضا. ولعن فولوديا فى سره. وأذن
للاما بالدخول إلى ما يسمى بـ «ردهة قبول المرضى».
وانحنى دانزى للاما انحناءة واطئة جداً فتجاهله اللاما
وانحنى لفولوديا. وكان ثمة قنديل يضىء على طاولة
صغيرة مغطاة بمشمع أبيض. وكانت الخزانات الخشبية
غير المصبوغة تحتوى على ادوية. وإذ خمن اللاما ذلك
حدق بالابواب المقفلة بعين شرهة، وتشمم القطن المجفف
الموضوع فى دورق زجاجى متلمسا المغارف الخشبية
باصابعه، زافراً زفرة طويلة حسودة.

وسال فولوديا:

— حسناً؟

وحك دانزى بساقه العارية الساق الأخرى، وتكلم
بسرعة فائقة سائلاً اللاما أسئلة يجيب عليها بسرعة
وبصوت له صرير. وكانت قضية اللاما قصيرة وصريحة:
لو يدفع له فولوديا مرتباً شهرياً فلن يحرض اللاما
المرضى على عدم الذهاب الى مستشفى فولوديا. والمرتب
غير كبير، ولكن يجب ان يدفع بانتظام. والاكثر من ذلك
فان اللاما راغب في أن يترك لفولوديا كل مرضاه ومرضى
اللامات الآخرين ممن لا يستطيع اللامات شفاءهم.

وأصغى فولوديا بعبوس وفكر بما قاله
بوغوسلوفسكى له ذات مرة عن عدد المنتحرين بين
اطباء الريف. ورفع عينيه ونظر الى وجه اللاما النسائي
والابله والجدى تماماً. ومضى دانزى يتكلم مدة اطول
قليلاً. وفجأة بدا الأمر مضحكاً لفولوديا.

— حسناً، دعه يذهب، — قال فولوديا ذلك. وصفق
الباب بقوة حين خرج، وصفق الباب الثانية، وقفل على
نفسه باب غرفته الصغيرة بسريرها الضيق عند الجدار
والطاولة الصغيرة امام الباب، وصور فاريا وابيه وعمته
اغلاياً...

وعلى هذا النحو بدأ شتاء أحمر قلق.

الأمور تسوء عند الطبيب العظيم

في تلك الليلة انخفضت درجة الحرارة الى ٣٠ درجة
تحت الصفر. وظهر الصقيع الفضى في زوايا الغرف؛
وطقطقت عوارض المحطة التجارية القديمة في الثلج،
واظهر الترمومتر الخارجى انخفاضاً أكثر.

وأوقد دانزى على مفضل جميع مواقد المستشفى
الهائلة.

وقد استغرق فى ذلك وقتاً طويلاً. فقد كانت فى
المستشفى سبعة مواقد. وكان دانزى تعباً؛ وفى الغرف
المظلمة لاحت الأسرة وفرشها الناصعة البيضاء والفوط
والبسط، فى بياض كامد كئيب.

وسأل دانزى:

— لا حاجة الى مزيد من التدفئة ها؟

— لا، تحتاج.

— لا تحتاج!

قال فولوديا بشدة:

— افعل ما أقول لك يا مادي— دانزى وإلا

فسأتخلص منك. لست أنا أضحكة لأى شخص. تذكر
ذلك.

سأل دانزى:

— هل سيأتى المرضى غداً، كثير منهم؟ لهم

أشعل كل المواقد. نعم؟

«وهب اللسان للإنسان ليخفى أفكاره» — تذكر

فولوديا حكمة أحد الناس. وعاد الى غرفته.

وفى اليوم التالى انخفضت الحرارة الى ٣٣ تحت

الصفر.

وسأل دانزى:

— نشعل المواقد مرة أخرى؟

— نعم، مرة أخرى.

— جميع المواقد؟.

— نعم، جميعاً.

— هل سيأتى المرضى؟

ولم يجب فولوديا.

وقد بلغت «المدام الطباخة» بأن تطهى كل يوم ما يكفى لثلاثة مرضى. ولكن لم يأت حتى ثلاثة. فما من أحد جاء الى المستشفى المجهز تجهيزاً حسناً، الدافئ، النظيف. وفى الصباح كان فولوديا يرتدى مريوله الابيض ويمشى فى ردهة القبول جيئةً وذهاباً زهاء ساعتين وهو ينتظر. وكان ينبغى ان يأتوا.

ولكن لا، لم يأت أحد منهم.

كانوا يمرضون فى خيامهم، أو فى أكواخهم الطينية أو المصنوعة من قشر الشجر. وكانوا يموتون هناك برفقة عواء الشامانات، وخشخشة ورنين دفوفهم، ودمدمة اللامات الحمقى، ونحيب ازواجهم واطفالهم. كانوا يموتون من أمراض كان فى وسع فولوديا ان يشفيها بسهولة. بينما هو — الشاب المتحمس القوى — كان يذرع غرفته. لماذا؟

وأخبره مادی — دانزى الاخبار المحلية بابتسامة

تفوق:

— يوم أمس لم يأت الينا ساغان — أول. ها؟ لقد قلت: «انا ذاهب لاحضر لك الطبيب الروسى، فان الطبيب الروسى يشفيك فى الحال». وساغان — أول لا يستطيع الكلام. وقد اجاب عنه الشامان سارما: «لتطلع روح طبيبك!» ومات ساغان — أول اليوم. وذهبت لرؤيته. كان سارما جالساً الى جانب الميت، وقد وضع بجانبه قدحاً

من الزبدة، ووضع تبغاً ودخناً، وكذلك قدحاً من فودكا الحليب وأمر: «ايها الميت! خذ هذه الاشياء واذهب!». إن هؤلاء الناس هؤلاء الناس البلداء، لا يفهمون شيئاً. ها، نعم؟

واصفى فولوديا في تقطيب. إنهم لم يرفضوا استدعاءه فقط. بل لن يدعوه يدخل إذا مضى اليهم بنفسه. فمن وراء ذلك كله؟ وما الغرض من ذلك؟ ولكن الناس يموتون، يموتون!

ومضى مادي - دانزى في قصته بصورة مرحة سافرة:

- وجاءوا بالتابوت - عبارة عن قطعة خشب وشدوا اليها ساغان - أول بحبل جيد، متين مصنوع من شعر الحصان. فالميت يجب أن يشد جيداً. ورفعوا حاشية الخيمة الخلفية وأخرجوا الميت منها، لا من الباب. لا، الباب لا يمكن. فالميت يجب ان لا يعرف اين الباب، وإلا فسيعود، وذلك شيء سيئ. وحملوه على ظهر الحصان الى الجبال، ليس في خط مستقيم، ولكن هكذا، وهكذا.

وأشار الى الطريق المتعرج بيده. وبين باشارة كيف تركوه هناك، وعادوا بحذر كيما لا يقتفى الميت اثرهم. وقال دانزى:

- عادوا دون ان يسلكوا طريقاً. فلو سلكوا طريقاً لعاد ساغان - أول، وذلك شيء سيئ. وهكذا يفعلون. وانت جالس هنا يا دكتور فولوديا... ربما ذلك خطاك - لماذا تحدثت مع اللاما بغضب شديد؟ وعن

قريب جداً سيطردوننا جميعنا، انت والمدام الطباخة وأنا.
وتموت المدام الطباخة مثل الكلب، هي عجوز جداً. وانت
تذهب بعيداً وتحصل على اكل كثير. وأنا؟ لا عمل هنا،
ولا راتب فماذا آكل؟

وشعر دانزى برثاء كبير لنفسه. بل حتى بدا
بالبكاء.

كان فولوديا يقوم بالتمارين الرياضية في الصباح،
لمدة عشر دقائق في البدء، ثم اضاف خمساً أخرى. وكان
قبل الفطور يخرج الى الباحة في صدريته الصوفية القديمة
وقفازيه ويكسر الحطب. وكان الحطب المثليج ينشق في
قرقعة. ثم ياتى لياكل فطوره. وعندما ينتهى من الفطور،
يجلس الى المائدة زمناً طويلاً. ويقرقع الحطب السميك
في بطن الموقد الشره، وكان فولوديا يحدق في الفحم
الاحمر المتقدم، ويقوم في ذهنه بعملية أثر اخرى مدهشة
في تكتيكها وجسورة مهما تكن الاحوال، تماماً كما
كان يفعل بوغوسلوفسكى وبوستنيكوف.

وفي ذلك الوقت قرأ قراءات هائلة. ولربما كان من
الناحية النظرية يعرف كل شيء ويقدر عليه. ولكن ما
من مريض جاء. وبقي المستشفى فارغاً. وبمضى الايام
وجد فولوديا الحياة في هذا الكسل المفروض فرضاً أكثر
ارعاباً، وحده مع أفكاره يعمل دون طائل، ويجرى
العمليات في مخيلته ويعالج في الأحلام.

«إنه ليس جراحاً ولكنه راكب مخاوف» - قرأ
فولوديا ذلك ذات مرة عن جراح ولوع جداً باستعمال
مشرطه. أوه، كم كان فولوديا حذراً، ودائم التفكير

ومتبصراً بالعواقب، لو يأتى ذلك المريض المنتظر طويلاً! واية عناية سيوليها لذلك الرجل الذى ائتمنه على حياته! لا، لن يكون راكب مخاوف فى غرفة العمليات. لن يكونه.

وزاد الطين بلة أن الجميع كتبوا له - بوستنيكوف، غانيجيف، بيتش، اوغورتسوف.

وقد سرد بوستنيكوف بعض الحوادث المسلية من ذكريات تجربته كطبيب ريفى. وتباهى بيتش بأنه بدأ العمل. وكتب اوغورتسوف كثيراً يتشكك فى قابلياته؛ وحذر غانيجيف فولوديا من تعميم تجربته قبل الاوان. وكتب: «وقد أصبح ذلك الآن ولعاً خطراً عند الكثيرين. فبعضهم يكتب كتاباً ليقول للعالم أنه قام باكتشاف، وبعضهم الآخر يسعى وراء تثبيت اوليته، والثالث يذكر البشرية بأن الرجل الساكن فى المدينة الفلانية هو أول من يستشار فى هذا الموضوع. والرابع - وهذا الصنف من الناس كثير العدد - يكتب لكيما يكتسب «مدة العمل العلمى». وكانت اجابات فولوديا قصيرة وجافة وغامضة. وليظنوا به ما يظنون!

ودعاه ماركيلوف الى عشاء عيد الميلاد. غير ان فولوديا رفض الدعوة، متحججاً بعذر سخييف هو أنه مشغول جداً. وجاء ماركيلوف يحضره بنفسه. وكان يرتدى قميصاً منشى، وكان شعره لامعاً ويفوح عطراً. وقد مزج المرح بالسخرية، وحتى بطيبة المزاج. وقال ماركيلوف وهو ينظر فى الغرفة الفارغة: - انت بالتأكيد رجل مشغول يا فتاى. الجموع

تتراحم عليك طالبة العلاج! انت رجل كدودا والمكان
بديع ودافى، والأسرة مهيأة. والطعام يطهى فى المطبخ.
ومع ذلك فان اصحابنا المتوحشين يرفضون المجيء..
ولا تتصور أنهم سيأتون يا دكتور، ولا تتوقع منهم ان
يأتوا. فلن يأتوا أبداً أيها الساذج المسكين. فان لهم
طلبهم الخاص، وهو يلائمهم تماماً.

وجلس وكأنه صاحب المكان، ومد ساقيه الطويلتين
أمامه، وقال بنكد:

— هكذا تذهب فلوس ضرائبنا، الفلوس التي
كسبناها بعرق الجبين، كسبناها بشهامة ووفرناها،
نصرفها عليك أنت يا من لا يصلح لشيء. ونحن نكدح
ونجوب البرارى والتايغا وكل الأماكن الأخرى التي نساها
الله. ونحن نجلب التجارة والحضارة هنا. وماذا نحصل
من ذلك؟ قلامة ظفر! ولكن المتبطلين والطفيلين
والمتوحشين الآخرين فهي لهم غرف مستشفى دافئة
بديعة. أليس ذلك صحيحاً؟ لا، ليس كذلك...

وجلس ماركيلوف يتحدث زمناً طويلاً، ثم تصفح
كتب فولوديا، وضرب فراشه بجمع يده وقال:
— فراش خشن. هل أعطيك فراش ريش يا دكتور،
ماذا تقول؟

وكان مادي — دانزى واقفاً عند المدخل يضحك فى
فرح خلصة، ويفرك يديه وينحنى.
وسأل ماركيلوف:

— إذن، فانت لا تاتى؟ حسناً لتكن لك طريقتك
الخاصة. أنا ذو روح مفتوحة. وأنت كما تعلم.

وبقى فولوديا وحده فجلس يكتب الى
بوغوسلوفسكى. وكتب يكرز على اسنانه حتى الساعة
الواحدة بعد منتصف الليل، شارباً الكوز بعد الكوز من
الماء البارد فى جرعات طويلة. وصب فى تلك الرسالة كل
حنقه وكبريائه الجريح، وغمه وخيبة مسعاه. لماذا
أرسل بوغوسلوفسكى فى طلبه؟ أبسبب حسن علاقتهما؟
وهو لم يكن بحاجة الى حسن العلاقة مع أحد. إنه رجل له
كيانه الخاص، وهو رجل لا يريد أن تضيع فلوس الشعب
فى الابقاء على موظفيه وفى الوقود والطعام. أيمكن أن
يكون ذلك تخريباً من جانب تلك العناصر اليمينية، أو
أقرباء البكوات الذين ما زالت لهم كلمتهم فى الحكومة؟
أو ربما أحتيج اليه، هنا لمجرد الاحصاء كيما يستطيع
البيروقراطيون أن يذكروا أن مستشفى قد فتح فى
كخارا، وأن مستوصفاً يعمل هناك على قدم وساق؟
وبالمصادفة إن التقارير الشهرية التى كان يرسلها بانتظام
عن ما يسمى «عمله» لم يهتم بها أحد، لا أحد مطلقاً.
ومجمل القول انه لا يريد أن يأكل الخبز دون أن يفعل
شيئاً، أنه لا يريد أن يجلس ضائعاً هنا. إنه يطلب
استدعاءه. وإذا كانت هذه الرسالة مفتقرة الى
الدبلوماسية واللباقة فقد توسل أن يغفر له ذلك، وظل
المخلص لبوغوسلوفسكى...

وكانت الرسالة فى أربع صفحات فقرّر أن لا يقرأها
ثانية. وليكن ما يكون. فلا يمكن أن تستمر الأمور على
هذا النحو بعد الآن.

وفى شباط تسلم بطاقة رأس السنة من الرجل

الطبيب يفغيني ستيببانوف. وكانت المعايدة خفيفة الروح
مرحة مكتوبة برغبة حادة ظاهرة على نمط « ليس عندي
أعداء في العالم ». فقد كتب يفغيني يقول: « لقد برهنت
على أنك أكثرنا ذكاء، انت ايها الطبيب الريفى الذى يخدم
مثلاً عليا. فقد تحولت « زاتيروخى » الى عمل فى الخارج.
ولا تكثرث، إنه صوت الحسد: فكل تلك الخانات والمآذن،
والتوابل الشرقية، والجمال المحجب، وما اليه
تجربه. وهذه الاشياء، قبل كل شىء، لها سحرها
الاجنبى وقل ما تشاء. وأظن ما إن يهبط الظلام حتى
تلبس الفراك وتتجه الى واحد من تلك النوادى الليلية،
ايها الماكر؟ »

فماذا بوسع فولوديا ان يجيب على ذلك؟
وعلى أية حال لم يكن يفغيني قوياً فى الجغرافية فى
يوم من الأيام.

وكره ان يفكر بان فاريا ايضاً تعتقد بأنه « أكثرهم
ذكاء »، وأنه يخرج الى ناد ليلي فى الفراك كل ليلة.
ونادراً ما كان فولوديا ينصت الى الراديو. وقد
شعر على نحو غريب بخجل من نفسه حين سمع صوت
المذيع الهادى قادمًا من الوف الكيلومترات يعلن « هنا
موسكو ». وكان ذلك وكان موسكو تسأله: ماذا تعمل
هنا، ايها الصديق العزيز؟ هل أنت مرتاح ودافى،
ولا تزعجك ريح؟ لقد ارسلناك للعمل. فماذا تقول
لنفسك؟ عندك صفوبات؟ صعوبات موضوعية ايها
الرفيق الطبيب؟



الفصل الرابع عشر

كيف حال قطعانك؟

كان يقضى الامسيات فى القراءة.
والاشياء التى قراها تركته محيراً أكثر منه غاضباً.
وقد كان غريباً وحتى غير مريح ان يقرأ عن رجل قضى
وقتاً طويلاً، على طول الصفحات الكثيرة، فى البدء فى
مشتى فى جبال الألب، ثم فى بتروغراد خلال الثورة، وفى
الدون، وفى جيش كالدين وأخيراً فى موسكو، غير قادر على
أن يقرر هل السلطة السوفييتية تناسبه أم لا تناسبه.
وسقط الرجل فى الحب ثم أقلع عن الحب وتامل اثناء
المطر والطقس الجميل (كل انواع الطقس والروائح قد

وصفت وصفاً مفصلاً أميناً: إن العشب في الطقس الرطب له هذه الرائحة تماماً، والشمس خلال مطر الربيع القصير تشع هكذا تماماً. وقد استخدم بندقيته وهرب، واختفى، وركب القطارات، وأبحر على البواخر، وأخيراً - ومرة أخرى شم مختلف الروائح حوله بحاسة الشم البديعة ممزاً الظلال العديدة للالوان في السماء، ومستمتعاً بالمناظر الطبيعية التي أدهشته كالعادة - وقبل السلطة السوفييتية، ولكن بحدود.

- حسناً! - قال فولوديا مستغرباً وأطيق المجلد الفخم ذا الكلمات ذات المغزى في الصفحة الأخيرة التي هي نهاية الجزء الثاني لا غير. ومؤلف الرواية الثانية التي قرأها فضل التلميح الى الأشياء. لقد كان البطل يؤيد السلطة السوفييتية، ولكنه، هو الآخر، قضى معظم وقته في مراقبة وملاحظة وحماة الرأس مالية في الشعب. وقد تكلم عن ذلك بمهارة وبطريقة لا تخلو من لواذع، ولكنه لم يفعل شيئاً مطلقاً، ولا حتى أبطال لا شعور لهم مثل بير بيزوخوف الذي بقى في موسكو التي يحتلها الفرنسيون، تحدوه في ذلك فكرته. لا، بل إن ذلك البطل الخاص لم يفعل شيئاً إلا المراقبة، والوصول بين آونة وأخرى الى استنتاج هو أن الأمور في هذه الحياة «ليست بسيطة كلها». ولقد كان كل شيء في الحق غير بسيط حتى أن فولوديا ألق من محاولة فهم الرواية التي اشتراها في موسكو بتسعة روبلات وعشرين كوبيكاً في غلاف مقوى محيوك، ووضعها جانباً لفترة من الزمن. وكانت الرواية الثالثة - وهي آخر الأعمال - حكاية دقيقة عن لص

معروف في بتروغراد ما قبل الثورة حكيت باطناب. وكان اللص يسلب الناس ويناقش نقاشاً لا نهاية له. بل كل الشخصيات تتحدث ببلاهة وإطناب مفرط: وفي النهاية يشنق اللص نفسه، ولكن ليس كلياً. وعند ذلك توقف فولوديا عن قراءة الروايات جملة، وتناول الكتاب الذي لم ينته منه، عن «الاطباء والاطهار اثناء القيام بالعمليات الجراحية».

وفي الحقيقة أنه كان يقرأ هذا الكتاب حين وقع ذلك الشيء الذي غير حياته في كخارا جذريا. لقد أندفع مادي - دانزي الى غرفته وعيناه بارزتان ونعلاه يخفقان ورباط لباسه الداخلى متدل. (وقد فطن فولوديا في الحال الى أن البنطلون يعود الى المستشفى من درزه) وكان بالأحرى يصرخ اكثر مما هو يصيح:

- مرضى! إثنان، اسرع! نعم، لا؟!

وعد فولوديا الى العشرة ليهدأ اضطرابه وقلقه، ثم لبس مريوله وطاقيته، وخرج الى الممشى. وكان هناك شخصان غريبان يرتديان معطفين فرائيين قد تجمد عليهما الثلج، وحذائين فرائيين مغطيين بالثلج. وكان مصباح الكاز الذي يرتجف في يد دانزي يرسل ضوءاً بائساً. وطلب فولوديا من المريضين ان يخلعا معطفيهما، ويأتيا الى ردهة القبول. ولكنه سمع في الجواب ضحكا مكبوتا. وقد ذكره الضحك بشخص ما، غير أنه عاد فنسى وجه الشبه.

قال فولوديا:

- اسمحا لي...

- ما الفرق بين أن اسمح لك وبين أن لا اسمح.
وكان الصوت البهيح المرح الريفى هو صوت
بوغوسلوفسكى. وقد عرفه في الحال دون ظل لشك. لقد
كان بوغوسلوفسكى يخرج من ملابسه الفرائية التي علق
بها الثلج، ويخلع قبعته الفرائية السميكة.

- ما الفرق بين أن اسمح لك وبين أن لا اسمح، -
قال ثانية وهو يهز يد فولوديا، ثم تراجع خطوة او
خطوتين، ونظر اليه بصرامة وحب، - الافضل ان تحاول
وتعرف الرفيق تود - جين، فقد رأيتك قبل زمن غير
بعيد جداً ولم تنسه، على ما أظن. اعطنا شيئاً من الفودكا
يا فولوديا. لقد وقعنا على بقعة غير مجمدة. أوه، أى
طفر حواجز عبر الثلج والماء، والشيطان يعرف ماذا بعد،
ثم ازعاج اولئك الخبراء في إكتشاف السبل...

وكانت كلماته تأتي متعثرة بسرعة كبيرة جداً،
وتخيل فولوديا انه قد عاد الى جورنى يار، وأنه لم
يفادرها قط، وأن كل شيء سيكون بخير الآن. وكان
بوغوسلوفسكى قد بدأ ينظر في الغرف الفارغة، ويهز
رأسه ويفرك يديه بشدة، ويعلق بمرارة على الفراغ
مخاطباً تود - جين.

وطلعت «المدام الطباخة» من المطبخ ولوحت
بذراعيها في دهشة، وركضت منطلقة بخطواتها القصيرة
لتعد وليمة عشاء في الحال. وفي خلال ذلك جلب دانزى
للضيفين ملابس نظيفة - روبين من الفانلة، وملابس
داخلية، وجوارب، ونعالا وانحنى امام فولوديا مرة بعد

أخرى لأن الطريقة التي حيا بها تود - جين الدكتور فولوديا كانت كافية لتخبر دانزى بأن المستشفى لن يغلق، وأنه لن يطرد، وأنه سيستمر في تسليم راتبه.

وسأل بوغوسلوفسكى:

- آمل أن يكون عندك بعض الفودكا؟

فأجاب فولوديا معذراً:

- عندي كحول لا فودكا.

- هذا أحسن. أهذه المرأة الصينية تطبخ لك؟.

بديع. يجب أن يُشرب الكحول صرفاً، والماء له مزة.

ماذا؟ قوى جداً؟ بالطبع قوى، ولكنك شريب رائع ذو

تجربة، وفي وسعك أن تشرب أية كمية دون أن تسكر.

أتذكر عشاء البلمينى فى بيت بوستنيكوف؟

- نعم أتذكر، - قال فولوديا وعيناه تطرفان

بغبطة، - نعم، أتذكر كل شيء. يعنى أنك تسلمت رسالتى؟

- سنتكلم عن الرسالة والشغل غداً. واليوم نحن

ضيفاك لا غير، ضيفاك اللذان، فضلاً عن ذلك، قد تبللا

وأصابهما قارس البرد، وهما تعبان جداً. فارجوك أن

توعز بتهيئة فراشيننا، وأدخل انت فى سريرك ايضاً:

فسنبداً العمل غداً منذ الصباح.

- ولكنك هل لم تتأثر منى للرسالة التى كتبتها؟

- لم أتأثر لنفسى، ولكننى متأثر لك. لقد كانت

رسالة نسائية قليلاً يافتاى العزيز، هستيرية قليلاً.

وعلى اية حال غداً...

- لماذا نسائية؟

وحرك بوغوسلوفسكى قدح الشاي، وفكر في رده.
وقال:

- حسناً جداً، سأقول بعض الكلمات هذه الليلة.
أتعرف يا فتى العزيز، انه كان في حزبنا، حزبنا البلشفي،
اطباء كثيرون نسبياً حتى في ايام ما قبل الثورة؟ ألم تفكر
قط: ما الذي جعل الاطباء ينضمون الى الحزب في تلك
الايام الصعبة؟ ألم تفكر؟ أنا شخصياً أظن أن في انضمام
الاطباء الى الحزب شعوراً باللامعقولية التامة لعمل
الطبيب في روسيا ما لم يكن هناك انفجار ثوري، وتغيير
النظام، والغاء حكم الرأسماليين واصحاب الاراضى
والكولاك الغاء تاماً. وكل طبيب مفكر أدرك أن جهوده
الشخصية، وجهود مئات من الناس الشرفاء رجالاً ونساء
تضيع تحت نظام الامبراطورية الملكى القائم. وقد
اعتقدنا جميعاً، ومنذ وقت طويل، ان مستقبل الطب
يعود إلى الطب الوقائى. ولكن أية فرصة كانت لوجود
الطب الوقائى في تلك الأيام حين لم يستطع حتى شخص
مثل بيروغوف العبقرى بقابلياته التنظيمية التى لا تسبق
أن يفعل شيئاً تقريباً؟ اذن فالخطأ هو خطأ النظام. والآن
تجد نفسك في بلد تختلف احواله تماماً عن احوال الدولة
السوفييتية للعمال والفلاحين - فتصاب بالارتباك وأنت
القادم من عائلتنا المحكمة العرى التى وحدها الحزب.
أقول أنك من صغر السن بحيث لم تلاحظ ان التقدم قد
بدأ هنا بالفعل، وأنك بسبب من كبريائك لم تكتب راساً
الى الرفيق تود - جين...

قال تود - جين بجفاف:

- نعم، كان عليك أن تكتب الى فوراً. فافهم وآتى...
- وانت كتبت لى فقط حين تائرت أعصابك، حين
فقدت الشعور بالموقف، وظروف المكان، البلاد التى انت
فيها، و البناء الاجتماعى لمجتمع، فيه الطبيب ظاهرة غير
معروفة.

فصحح تود - جين بقوله:

- معروفة قليلاً، مثلاً ذلك الدكتور الذى جاء
الىنا لا من الاتحاد السوفييتى بل من...

- على أية حال إن الموقف غير بسيط فحتى فى
دائرة الصحة العامة قوى مختلفة. ولكن تصورت ان
الطريقة ستكون مثل طريقتنا فى الاتحاد السوفييتى: ان
تذهب إلى سكرتير الحزب فى المنطقة أو الى المفتش
الصحى إذا حدث أقل خلل، وإذا لم يجد ذلك تذهب الى
سلطات المقاطعة. أهذا ما توقعته؟ خليك بك أن تعرف
يافتاى العزيز أن هذه الاساليب لا تمارس إلا فى بلادنا
حيث الدولة لا تساعد الصحة العامة فقط، بل هى
مسؤولة ايضاً عن حياة وصحة كل مواطن من مواطنيها
لأن دولتنا هى دولة الشغيلة، لا دولة المستثمرين لعمل
الآخرين لأغراضهم الخاصة كما هو الحال فى دولة
رأسمالية. وعلى اية حال لنذهب الى النوم، وينبغى ان
تحصل على قسط من النوم لأن عطلتك تنتهى يوم غد
والى الأبد.

وذهب فولوديا الى غرفته، وجلس على السرير

وخلع حذاءه. وبإيجاز، إن بوغوسلوفسكى قد انحنى عليه باللائمة فهل كان يستحقها حقاً؟

قال تود - جين في ذلك الحين:

- إنه رجل طيب. صاف. هكذا، هاه؟

- كالزجاج؟

- لا، أحسن، من نوع...

- البلور تقصد؟

- نعم، البلور. لقد كان الأمر قاسياً عليه ايها

الرفيق بوغوسلوفسكى. كان على أن آتى أبكر...

قال بوغوسلوفسكى في تفكير:

- إنه فتى طيب. ولكنه ما يزال غلاماً كما تعرف.

ولم يتصلب في معركة بعد، وهو لا يعرف ما معنى كلمة «معركة الحياة». هيا لنلق نظرة على مستشفاه.

وحمل مادي - دانزى فانوساً وسار في المقدمة،

وسارت «المدام الطباخة» في المؤخرة.

قال بوغوسلوفسكى:

- سد الشقوق بين الاخشاب بالطين. هذا ذكاء

منه. ملأ الشقوق بالصوف ثم لطحها بالطين - انظر. لن

يقدر برد ان ينفذ من خلالها. وقد استخدم دماغه في

ترتيب الاسرة ايضاً. المناضد الى جانب الاسرة مثل ما

كان عندنا في جورني يار تماماً، لها رف. إن تذكر ذلك

يحتاج الى عين دقيقة الملاحظة. لا بد من انه قد رسم

مخططاً له. والآن لنلق نظرة على غرفة العمليات... آوه،

من فكر بذلك قط؟ انظر إلى البدعة التي حلت محل غلاية

التعقيم؟ دلاء حديدية اعتيادية مجلفنة، ذات غطاءين

حديدين. هكذا. كل شيء معقول تماماً وبارع للغاية.
انظر الى فتحة الغطاء الداخلى، إنها لا تقابل الفتحة
الخارجية. حسناً، كل شيء واضح. توضع على الموقد،
ثم تبرد خلال ست ساعات. انت فاهم؟

قال تود - جين:

- ليس بالتمام.

فتطوع دانزى بالاخبار:

- ست ساعات من الزمن. ست ساعات هو الزمن
الذى تولد فيه الجراثيم من الخلايا التى لم تقتل فى اول
غليان. نعم، لا؟

سأل بوغوسلوفسكى دانزى بجهامة:

- هل علمك هو ذلك؟

- نعم، كل يوم ساعتين، - اجاب دانزى بعجالة، -
يجب ان تغلى نصف ساعة مع اضافة ثانى اوكسيد
الكاربون بنسبة واحد صفر الى واحد ثلاثة صفر من
الماء. تمام؟ ولكن لم يأت مريض ابداً، - قال ذلك بصوت
كثيب، - واستطيع ان اقول أكثر...

قال بوغوسلوفسكى:

- لا بأس، يافتي، انك رائع!

وسأل تود - جين:

- حسن إذن؟.

قال بوغوسلوفسكى مقرراً:

- لنذهب الى الفراش!

وحين استيقظ فولوديا كان تود - جين قد ذهب.
وكان بوغوسلوفسكى يشرب الشاي الى طاولة صغيرة فى

الممشى الواسع. وكان مادي - دانزي واقفا الى جانب الحائط محدقا ببوغوسلوفسكى بتائر - وهو يحدق على هذا النحو دائما بمن يعتقد انهم في السلطة.

وسال بوغوسلوفسكى:

- اظلت طويلا غير قادر على النوم ليلة أمس؟

وكان حدسه صائبا تماما.

- نعم طويلا.

- هل انت غاضب معي؟

- لا، ولكن...

- انظر، تبدأ بـ «لكن» مباشرة. وانت لم تفعل

شيئا لتجعل الناس يأتون اليك. ينبغى عليك في هذا

العمل ايها الزميل ان تكون زعيما اجتماعيا، محاربا،

جنديا، وليس من نمط بمشيئة القدر، منتظرا البركات أن

تأتى اليك وانت مسترخ وتتساقط في حضنك. خذ مثلاً

الحال في مونغوش: لا خلاص من المرضى رغم سيطرة

اللامات والشامانات هناك. وفي بادان نشيد جناحاً ثانياً

للمستشفى لأن ميلنيكوف هناك أدرك في الحال الاهمية

السياسية لعمله، لا انسانية العمل فقط كما نحن

ولوعون بقوله. فإن عمل الخير ليس كل ما في هذا

العمل. بل عليك ان تجعل الناس يؤمنون بالطبيب. وهذا

شيء كبير، وجسيم...

وشرب جرعة من الشاي واشعل سيكارة.

- إن ضرراً كبيراً قد لحق بالمهنة في هذه البلاد

من قبل الاندال الدوليين. هل تعرف ذلك؟

- اعرف قليلاً.

- تجار البيع بالجملة، وتجار القطاعي، والمتاجرون
 بالمسروقات، والانذال من كل لون وصنف، وقطاع
 الطرق كلهم شمووا بانوفهم الملعونة أن مربى الأيائل هنا،
 ورعاة المواشي، وصيادی الاسماك، والمزارعين،
 والكادحين الآخرين قد وثقوا باللحاق ضد الجدرى. وذلك
 منذ زمن طويل ولسبب من الأسباب. إن تاريخه يعود
 الى زمن بعيد جداً، ولربما كان ذلك بسبب الأوبئة
 الوافدة التي قتلت الالوف من قومهم، او لربما لسبب
 آخر لا يمكن استقصاؤه. ولكن، على اية حال، انهم
 وثقوا به. حسناً، ثم ان هذه الزمرة من الانذال الدوليين
 عزموا على ان يستغلوا ذلك الايمان، فجاءوا باللحاق،
 وتقاضوا على كل وخزة «ثمناً سماوياً» - شاة لكل
 زرقاة، لا اقل ولا أكثر. وكان التجار ومعاونوهم يلحقونهم
 بالذات. ولكنه لم يكن احد يهتم بشيء بسيط: هل
 اللقاح طازج أم فائت بعد أن يصل الى هنا قادماً
 من مدن اوربا الكبيرة. وبهذا الرواج في التجارة كانت
 بضاعتهم من اللقاح رغم عدم نفعها سرعان ما كانت تنفذ.
 فكانوا يمزجونها بالكليسرين أو يستخدمون الكليسرين
 صرفاً. وكان عمل يوم واحد، وزجاجة أو زجاجتين من
 الكليسرين تجعل أحد هؤلاء المساترة والمسيووات أو
 مَنْ اليهم غنياً له زهاء ثلثمائة رأس من الغنم. ولكن
 الشيء الأكثر طرافة أن المشرط الذي يحز به الجلد لا
 يعقم قط، فكر بـ «قط» هذه! وبالنتيجة انتشر
 السفلس بشكل هائل بواسطة هذا التلقيح الاحتيالى
 وبنطاق كان من الصعب حسابه.

فسال فولوديا في استياء:

- أهذا صحيح حقاً؟

- صحيح، وهذا هو المزيج في الأمر. إن أولئك
الخنازير الاستعماريين لا يهتمون بغير ربهم المعبود -
سواء كانوا كاثوليكين أو بروتستانتين أو بوديين -
وربهم المعبود هنا هو المال. وابناء البلد ما هم إلا كفار
ومتوحشون موجودون لاغنائهم لا غير. وما نفعله أنا
وأنت هنا، على رغم غرابته كما تبدو، هو تصفية هذه
الهرجلة الاجرامية التي قام بها فرسان المال الافاقون،
وجعل الناس هنا يعترفون بنا على حقيقتنا أمر يعود
اليانا. إن مهمتنا، مهمتك ومهمتي، صعبة بالطبع، ولكنها
نبيلة. إن السوفييتي - رجل مستقيم، السوفييتي - طيب،
السوفييتي - عطوف، السوفييتي - عادل، السوفييتي -
نزيه. وكل هذه الصفات يجب ان تكون مرادفات
للسوفييتي من خلال عملك هنا. هل تفهمني يا فلاديمير
افاناسيفتش؟

ولم ير فولوديا بوغوسلوفسكى قط شديد التأثير
على هذه النحوة، يتنزى غيظاً على نحو غريب ورائع. مرة
أخرى، كما كان وهو في جورني يار، امتلأت نفسه حسداً
لبوغوسلوفسكى، لقد حسد جوهره الخلقى الداخلى، وسعة
ودقة تفكيره، والطريقة التي عاش فيها - باسم قضيته،
ولقضيته، وبقضيته دون شعور بالتضحية النفسية في
ذلك، بل هو تكريس سعيد بهيج لنفسه كلها لعمله.
فلماذا وهو الجراح الرائع دون ان يقوم بعملية تقريبا؟
لماذا؟ لأنه مشغول بعمل أكثر ضرورة، ذلك العمل

للمجتمع هو في الحقيقة المكافاة التي ينالها عن الخسارة المؤقتة للجراحة التي يهواها.

وكانا ما يزالان يتناولان الشاي حين عاد تود - جين. كان منشرح الصدر، وكانت في عينيه نظرة ماكرة. خلع معطفه الفرائي الذي أبيض مما علق به من قطع الثلج، وجلس مواجهاً النافذة حتى شعت الشمس في وجهه، وغرق في أفكاره، ونسى قدح الشاي الذي يمسك به حتى برد.

«أعرف الآن، - وأفزعت الفكرة فولوديا، - أعرف. أن له عيني العقاب. إنه ينظر الى الشمس عيناً في عين!»
وسأله بوغوسلوفسكى:
- حسناً؟

فأجاب تود - جين:

- سنذهب الآن في هذه الدقيقة. وليأت مادي - دانزى ايضاً. ان كثيراً منهم يخافون أن يخرم عمرهم في هذا المستشفى، وهذه تسميتهم للموت، واللامات والشامانات يخوفونهم من ذلك، ولكننا سنبرهن أننا لن نخرم اعمارهم، بل سنشفيهم من العلل هنا. أليس كذلك؟ وليبدأ الرفيق الشاب، - وتحول الى فولوديا، - عمله.

وعاد تود - جين الى أفكاره محدقاً بالشمس الباردة البيضاء المتألثة. وفي ذلك الصباح لم يخرج فولوديا ويكسر الخشب، ويقوم بتمارينه الرياضية، أو يذرع ردهة القبول. ففي ذلك الصباح البارد ذى الرياح ذهب الى البلدة غير مدعو ليقنع المرضى بالمجيء اليه

للمعالجة. وكان معه بوغوسلوفسكى وتود - جين وثلاثة من معارف تود - جين من أهل البلدة. وكان الثلج ينز تحت اقدامهم، وضربت الريح اللاذعة وجه فولوديا وفي الخيام التي زاروها كانت الريح تجرف دخان الشعلة الحاد البارد فوق الارضيات الطينية... اختفى اعداء فولوديا، اللامات والشامانات، جاهدين ان يظلوا بعيدين عن بصر تود - جين. وكانت كلاب القرية الشرسة والجائعة تنبح وتعوى. وكان الظلام قد هبط حين لمعت امامهم عينا ماركيلوف الوهاجتان كعيني الذئب. وقد جاء هابطاً الشارع متجهاً نحوهم ملتفاً بمعطف فرائى هائل، ومستنداً على عصا. وحيا الطبيبين و تود - جين بلطف وقال بصوت اجش بأنه سيكون سعيداً لو استضيفهم في بيته. وتوقف تود - جين ليتبادل معه بعض الكلمات المؤدبة كما تقتضى العادة. وسأل:

- كيف حالك وحال قطعانك؟ هل هى فى صحة جيدة؟ - وتلك عبارة استهلال مقبولة لكل حديث هنا. أجاب ماركيلوف:

- قطعائى بخير، وهل قطعانك بخير؟

قال تود - جين:

- قطعانى بخير، شكراً لك. نعم. هل أنت والعائلة وانتهت بخير؟ المراسيم. وصدق تود - جين بعينيه الشبيهتين بعيني عقاب فى عيني ماركيلوف الدنستين الشبيهتين بعيني ذئب، وقال بوضوح:

- لن تحصل على بناية المحطة التجارية. فان المستشفى قد اقام فيها. وهى ليست لك، أنت، مع

المعذرة، لص. نعم، انت كذلك، لقد اردت سرقتها، ولكنك لا تملك وثيقة شرائها...

- نحن ندفع ضرائب، وننشر الحضارة... - جار ماركيلوف بذلك غير ان تود - جين قاطعه قائلاً:
- كل شيء سيكون كما قلت بالضبط. وسيأتيك ذلك مكتوباً. والآن أتمنى لقطعانك شتاء طيباً، ومرعى خصباً...

- ولقطعانك ايضاً، - جعر ماركيلوف محولاً ظهره لتود - جين.

ولم يتمالك فولوديا من الضحك. ورمقه تود - جين بنظرة صارمة.

ودخلوا الى الخيمة التالية بالانحناءات والرسميات المطلوبة. واصاب الدخان عيونهم. وبدأوا بالسؤال عن صحة القطعان، ثم عن صحة أصحاب البيت. وكان السؤال الأخير زائداً. فإن أضواء مصابيحهم اليدوية المتوهجة كشفت عن قرحة سفلية فظيعة تنتشر فوق الشفة السفلى لصاحب البيت وذقنه. وكان رجلاً قصيراً عريض المنكبين، وقوياً جداً كما يبدو.

وسأل تود - جين:

- سفلس عائل، ها؟

أجاب بوغوسلوفسكى:

- أظن ذلك.

وخاطب تود - جين صاحب البيت بلغته. وجلست زوجة الرجل ببطء على الارض المفروشة باللباد تعصر يديها وتبكي بصوت عال. ولم يلتفت تود - جين اليها.

ونظر الرجل الى تود - جين متمعنا، بينما زحفت زوجته الى فولوديا على ركبتيهما وضغطت يده على وجهها، منتحبة بصوت أعلى. واستمر تود - جين فى كلامه مشيراً الى فولوديا وبوغوسلوفسكى بين اونة واخرى بهزة من ذقنه.

وقال تود - جين مخاطباً فولوديا:

- سيأتى الرفيق كول - زال والمرأة الى المستشفى. وستشفيهما. نعم؟
وهز فولوديا رأسه. وكان يعرف كيف يعالج السفلس وهو فى هذه الحالة.

وسأل تود - جين:

- متى؟

- عن قريب.

- متى، عن قريب؟

- فى شهرين، مضمونا.

- ولا تبقى قروح؟

- لا تبقى. ولكن عليهما أن يستمرا فى العلاج زمناً طويلاً بعد ذلك.

- اذا أختفت القروح فلن تكون لك دعاية أحسن منها ايها الرفيق.

وتحدث تود - جين الى الرجل والمرأة مرة أخرى. وقد كفت المرأة عن البكاء الآن وألقت السمع. وبصوت خفيض ترجم دانزى الحديث لفولوديا. لقد كان قلقين على مواشيتهما. ولكن تود - جين وعد بأن سيطلب من الجيران ان يعتنوا بها لهما.

وكان صاحب الخيمة التالية التي ذهبوا اليها يعرف
مادى - دانزى. كان سين بيليك رجلاً عجوزاً له عينان
غائرتان، ووجه رمادى معذب. وقد كان مريضاً لا
يستطيع الحركة زمناً طويلاً. وقد أفلسته الأجرة التي
كان يتقاضاها اللاما أويا - وهو أغلى مداً هنا - افلاساً
كاملاً. وقد عالجه الشامانات أيضاً، ولكن كان ذلك فى
السر لأن اللاما أويا سريع التأثر. وحسب كلام سين
بيليك لقد عالجه معالجة طيبة، على الأخص أويا. وكان
يشرب مرارة الدب المقدسة كل يوم، ويحصل على
خلاصة النمل للمكمدات. ولو لا مهارة اللاما أويا الذى هو
أحكم الحكماء لاخترم عمره من زمان بالتأكد.

واشعل تود - جين مصباحه الكهربائى القوى
وجلس بوغوسلوفسكى الى جانب المريض، واكتشفت
يداه الخفيفتان ما سماه اللاما «اذى الشيطان» وتراكم
«زبد شرير».

قال بوغوسلوفسكى بلهجة جادة:
- إنه الفتق الأرغى. يجب اجراء عملية.

وسأل تود - جين:

- و لا يموت؟

- آمل لا.

ووضع سين بيليك فى نقالة وحمل الى المستشفى
مصحوباً بعويل العائلة كلها. وقد هرول دانزى فى
المقدمة ليعد حماماً حاراً، وليبلغ «المدام الطباخة»
أيضاً بأن المستشفى سينقلب الى مستشفى حقيقى، ولكى
لا تخاف. والحقيقة ان دانزى نفسه كان قد خاف بعض

الشيء من الحوادث التي انصبت عليه. فإن تشميل
المواقف ليس مثل علاج المرضى، ثم ان هناك كلمة
«عملية» ايضاً.

وكانت عينا تود-جين مستغلفتين حين كان يأمر
هذا او ذاك من القرويين بالذهاب إلى المستشفى للعلاج.
وأطاعه الناس. ولم يخالفه أحد. وكان لا يتحمل اى جدل.
كانت نظرة عينيه جهماء ومباشرة.

وفي احدى الخيام وجدوا رجلاً عجوزاً قد تملكه
رعب شديد، وكان أصم كالجمجمة. وقد أبتسم
بوغوسلوفسكى في مكر ووعد بان يعيد له سمعه في يوم
غد أو بعد غد. وحزر فولوديا في الحال علة أباتاى
العجوز. غير أنه لزم لصمت. وكان في مرح، في مرح
بالضبط كذلك الذى كان يحدث في الطفولة. والحقيقة أن
الحيل التي قاموا بها في هذا اليوم- بوغوسلوفسكى
وتود-جين- لم تكن بصورة عامة ذات اعتبار كبير،
ولكنها بداية، بداية مذهشة، وكان النجاح مؤكداً حقاً.
وارتدى أباتاى العجوز معطفه الفرائى، وذهب الى
المستشفى. وقد قال تود-جين لهما وهو يبتسم أن كنة
أباتاى كانت لا تسمح له بدعوة حتى أرخص شامان،
والآن قطع له عهد بالشفاء في يوم أو يومين دون مقابل.

هذه طريقة العمل اذن!

في تلك الليلة قام فولوديا بجولته الأولى لعيادة
المرضى في المستشفى. وقد استحم المرضى، والآن

يستلقون في سرر نظيفة خائفين وجهمين. ووضعت
«المدام الطباخة» لكل واحد منهم صحن فنجان من
الحليب المكثف الحلو. ولكن لم يذقه اى واحد منهم. لقد
كان اللاما اويا الماكر قد اعترض اباتاى العجوز في
الطريق، وصاح بأذنه أنه قد غلم اليقين أنهم سيسمونهم
في المستشفى في نفس الليلة بسم زعاف يسمى «مغنو».
وحين ساله اباتاى العجوز لماذا، صرخ اللاما دون اى
إكثراث:

- لأنهم يحتاجون الى بعض اللحم البشرى الطازج.
فهم يشفون جراحهم بوضع بعض اللحم البشرى الجيد
عليها. كما أنهم يقددون اللحم البشرى أيضاً!
وتحول اباتاى العجوز ليعود الى خيمته. ولكن من
سوء حظه أنه التقى بتود - جين والطبيين. وطبيعى ان
العجوز اعترافاً بالصدقة شاطر «حكمة اللاما» مع
المرضى الآخرين. والآن احسوا بعدم ارتياح تام.
ولكنهم من جهة اخرى شهدوا معجزة تتحقق. ومن
في كخارا لا يعرف اوباي العجوز؟ وهل هناك احد من
الناس لا يعرف ان حياتها معرضة لأن «تخرم» في اى
يوم لأنها لم تكن تستطيع ان تتنفس؟ وكان وجهها يزرق
فتنبش الارض باصابعها، وتجحظ عيناها. وكان اللاما
اويا يتجنبها لأنه قد أخذ من العجوز خيولها الاربعة ولم
يقدم لها اية مساعدة في بلواها. وهم هنا قد ساعدوها
حالا. فقد وخزوها بابرّة وانتهت النوبة. وكاد عمرها
«يخترم» حين نقلوها الى الممشى. ولكن الطبيب الشاب
ومعه شيء من زجاج تبرز منه ابرة وخز بها اوباي

العجوز الطيبة. وزعقت للتأكيد، ثم ابتسمت. واتسعت
ابتسامتها واتسعت واعربت عن اكثر ما تستطيع من
فرح بابتسامتها واستنشقت قدراً تحتاج اليه من
الهواء، والقت كلمة بالمناسبة لم يفهم بوغوسلوفسكى
ولا فولوديا اية حرف منها. ولكن شيئاً واحداً كان
واضحاً لهما - فمن الآن فصاعداً سيكون كل شيء
مختلفاً في المستشفى.

وقال فولوديا لبوغوسلوفسكى:

- رغم كل شيء فان الأمر شبيه بالشحوذة. انا
اعرف انه ربو القصبات. وان الادرنالين مفيد جداً في
هذه الحالة، ولكن ما يزال...

قال بوغوسلوفسكى:

- الزم الصمت!

وكان يقع شيء غريب. لقد نهضت العجوز على
قدميها وهي تتحدث دون انقطاع وخطفت صحن فنجان
الحليب المكثف العائد الى اباتاي. وكان وجهها غاضباً
جداً. وراقبها المرضى مرتعبين، واخذت تلعق الصحن
حتى اتت عليه، ونظرت اليهم نظرة انتصار وخرجت من
المستشفى. وجاءت «المدام الطباخة» بصحن فنجان
آخر لاباتاي مملوء الى حافته بالحليب المكثف، لانه
يكاد يبكى حين عنفه تود - جين على نشره الخوف من
السم واللحم البشرى.

وقال بوغوسلوفسكى وهو يضحك في سره عن

رضي:

- سنقوم ببعض المعجزات الاخرى يوم غد. ولكن

بعد ذلك ستمارس عملك دون معجزات يا عزيزي
فلاديمير افاناسيفتش. وسيكون عندك كثير من العمل.
انا اضمن لك ذلك...

— وكان تود-جين واقفاً يدخل الى جانب نافذة
في الممشى سوداء مغطاة بالجليد. والتفت فجأة وقال
لبوغوسلوفسكى بصوت حاد مجهود اجش:

— اريد ان اشكرك يا رفيق. نعم اشكرك على
جلبك الفرحة. وعلى فرحك انت. والشكر هذا ليس منى
شخصياً بل من شعبنا. نعم، انه يشكرك رغم انه لم يفهم
المسألة بعد، ولكن سيفهمها. وانت ايها الرفيق ايضاً،—
وتحول الى فولوديا الذى ادهشه واثّر به منظر الدموع
تترقق في عيني العقاب،— وانت ايضاً لانك تفهم، ولانك
ستفعل اكثر...

وتحول، ومشى الى النهاية القصوى للممشى تاركاً
فولوديا وبوغوسلوفسكى لصمت طويل.
وقال بوغوسلوفسكى فى آخر الامر:

— حسناً. لنر ما يأتى به الصباح. قل لصاحبك
«سانجو بانزا» ان يحضر المعقم للغد. فسنبدأ باجراء
العمليات فى الصباح الباكر.

— من سيكون الاول؟

— اظن اننا سنجرى عملية الفتق اولاً.

— وماذا ترى لو بدأت النهار باستئصال الكبريت
الذى يسد اذنى اباتاي العجوز قبل القيام بالعمليات؟
فسيسمع فى الحال. وذلك يشجع المرضى.
قال بوغوسلوفسكى بتجهم:

- جرب ذلك.

وفي الساعة السابعة صباحاً دعا فولوديا اباتاي الى ردهة القبول وكان بوغوسلوفسكى ما يزال نائماً. وكان دانزى الممتقع الوجه بعد ليلة قضاها في تعقيم الادوات، يقف مهيباً في مريوله الابيض وطاقيته - مثل جراح آخر بالضبط. وكان على منضدة صغيرة مصباحان لهما ذبالتان زرقاوان. وكان اباتاي لا يكاد يجسر على رفع بصره الى فولوديا - فان الطبيب الروسى كان مهيباً جداً في مريوله وطاقيته، وقد ثبت في رأسه مرآة مدورة لامعة جميلة على نحو لا يصدق - تكريماً لاباتاي العجوز، على ما يبدو. فلو رآته كنته الآن لغيرت لهجتها معه!

- كيف حال قطعانك؟ - هكذا فتح اباتاي العجوز

الحديث بأدب.

ورفع دانزى عقيرته مترجماً جواب فولوديا بان

قطعانه بخير، فكيف حال قطعان اباتاي؟

ولم يعرف اباتاي ماذا يقول فمن المخطر ان يقول

ان قطعانه بخير ايضاً، لأن الطبيب الروسى قد يحتال

عليه ويطلب منه أجرة مثل اى لاما او شامان. ولكن

بأى شىء يدفع؟ ومن جهة اخرى من المخيف جداً ان

يعترف على مسمع من الناس انه لا يملك قطعاناً. ومن هنا

اجاب بسعلة صغيرة مؤدبة. فهو لا يريد ان يقع في الفخ.

ولا احد يستطيع ان يقول الآن ان اباتاي يملك ماشية!

قال فولوديا:

- حسناً، لنبدأ.

وجلس اباتاي على مقعد وربطت حول عنقه فوطة.

وبكلايتيه التقط الطبيب الروسى العظيم بمهارة كبيرة
انبوبة عجيبة الصنع من صحن لامع. وفى الحال احس
اباتاى بان اذنه جيدة جداً، ودافئة من الداخل، حتى ان
العجوز اغلق عينيه. ثم ان اذنه الاخرى تحسنت هى
الاخرى، ودفؤت من الداخل ايضاً. وكان المصباح الكحولى
ماضياً فى اشتعاله، وكان ذلك مثل نار الفداء ولكنها اكثر
جمالاً. وظل اعظم اعظم الشامانات الروس يلاى مرآته
ويلاى. ولربما ليطرد الارواح الشريرة « اذى » و « كاي
- بن - كو » من اباتاى.

والشئ الوحيد الذى يعذب الشيخ هو ما من احد
هنا ليرى الطبيب الروسى كيف يضع عليه الرقى. وما من
لما ولا شامان قادر على ان يفعل ذلك بهذه المهارة!
ولو ان الطبيب الروسى قفز وضرب الارض بقدمه
وخشخش بالدف فعسى ولعل المرضى الآخرين
يستيقظون ويأتون ليروا ذلك.

وسال اباتاى دانزى:

- والدف؟

قال دانزى متجهماً:

- اسكت، يا بابا، اسكت!

وتوسل اباتاى مولولاً:

- ألا يمكن ان يخشخش بالدف قليلاً؟ قليلاً

جداً. وساصيد سنجاباً. اعدكم.

- انت تزعج الطبيب!

- سأتى بسمور.

- اقول لك لا ترغ!

وفجأة ادرك اباتاى ان سمعه احسن بكثير، وكان
دانزى لا يصيح، بل كان يتكلم بصوت اعتيادى، وليس
عالياً جداً ايضاً. ومع ذلك فقد كان يسمع كل كلمة.
صاح:

— هاى! استطيع ان اسمع!
وكان فولوديا يفعل شيئاً لاذنه الاخرى ببطء
وحذر. وحين رفع القطن وتكلم سمعه اباتاى بوضوح.
وترجم دانزى كلمات فولوديا بابهة عظيمة. وكانت
خلاصتها كما يلى:

— فى غد، بعد ان يعطيك الرفيق الروسى وانا بعض
العلاج ثانية سيكون سمعك جيداً مثل سمع طفل معافى
فاذهب الآن. واسترح.

وخلع فولوديا مرآته الجميلة، وعظمت كبرياء
اباتاى العجوز: اذن فقد لبس هذه المرأة خصيصاً له
حقاً! وكان دانزى يطفى المصباحين الكحوليين. اذن فقد
كانا مشتعلين لاباتاى ايضاً. اوه، اوه! وطبيعى ان علاجاً
رائعاً مثل هذا لا يمكن ان يكون مجاناً، وشعر اباتاى
بانه ملزم على ان يعلن لهما عن فقره فقال:
— انا فقير!

وقال دانزى الصارم:

— لا نريد منك شيئاً.

— ولكن لا استطيع ان ارد جميلكم...

— بوسعك ان تنحنى للطبيب. هذا كل ما فى الامر!

وانحنى اباتاى انحناءة كبيرة وهو يدندن، ثم اخذ
ينحنى اسرع فاسرع، واوطا فاوطا حتى دارت الغرفة

حوله - فلا ضير عليه لو يقوم بالامر بصورة لا ثقة. وظل
ينحنى حتى امسك فولوديا بكتفه وصاح انه لا يطيق
ذلك. وزفر العجوز ناظراً في وجه فولوديا الاحمر
الغاضب: ربما سيطلب حصاناً منه، وعدة ايائل صغار او
شاة كأجرة. ولربما سيطرده ايضاً. لا، انهم لم يطرده.
والاكثر من ذلك قدموا له طبقاً من العصيدة الرائعة،
وبعض الكعك وقد صبت عليه بعض الحلوى اللزجة،
وقدحاً من الشاي مع الحليب. والآن استيقظ المرضى
الآخرون، وانهالوا عليه بالاسئلة باصوات خفيفة.
وتمهل في الرد. فلا فائدة من التفوه به في الحال. فقد
ابقاهم على جمر الغضا قليلاً.

وفي الساعة التاسعة بدأ بوغوسلوفسكى بغسل يديه.
ولبس ثلاثتهم - بوغوسلوفسكى، وفولوديا ودانزى -
معاطف طويلة من الشمع من ابتكار فولوديا، وصنع
«المدام الطباخة»، وفوقها مريولات رطبة. فان طريقة
فولوديا في التعقيم جعلت كل المريولات وكل ما يحتاج
في العمليات رطبة كريهة.

قال بوغوسلوفسكى:

- ستقوم انت بالعملية. وسأكون مساعدك
والممرضة التي تناولك الادوات.

وكان سين - بيليك مضطجعا على طاولة العمليات
يرمع منخاراه مثل ارنب خائف يتضجر ويشكو الى
دانزى:

- لماذا لم يثبت الطبيب المراة حول رأسه؟ لماذا
لم تشعل النار الخضراء لى؟ هل انا احط من اباتاى حقاً؟

اباتاي العجوز فقير مدقع، شحاذ في الواقع. وانا استطيع
ان اعطى لهذين الطبيبين عدة اغنام اذا اردت. فليضعا
المرآة على رأسيهما، قل لهما!

وكان فتقاً هائلاً من الجانبين. ووقف فولوديا يفكر،
بينما كان بوغوسلوفسكى يخدر المريض موضعياً.

— ما حلمك في ذلك؟

— طريقة سباسوكوكوتسكى.

قال بوغوسلوفسكى في ابتسامة:

— بلا جدال. فلا الله الا الله محمد رسول الله...

فرد فولوديا بتحد:

— وماذا في الامر؟ انا اعتبر سباسوكوكوتسكى

معجزة كطبيب، وكجراح، وكطبيب ممارس ايضاً...

وتناول المشرط الذى يمسك به بوغوسلوفسكى

وشق شقاً طوله نصف انش فوق طية المنطقة المغبنية.

وظهرت العضلة الخارجية للبطن. ولدى منظر الدم اضطرب

نفس دانزى، واخذ يتراجع نحو الباب.

وامره بوغوسلوفسكى قائلاً:

— عد الى مكانك! اُتسمعنى؟

وقطع فولوديا النسيج تحت الجلد. وساعده

بوغوسلوفسكى في صمت، وهو يراقب بانتباه دون ان

يصدر تعليمات. ونظف الدم بسرعة وبمهارة فائقة. وكان

سين — بيليك يثن بين اونة واخرى، او يتحدث، ولكنه

سرعان ما ينسى عم كان يتحدث.

وقال بوغوسلوفسكى:

— ما ازال اذكر جملة من كتاب مدرسى عن هذا.

هى: « يضعون حافة شريحة النسيج على الاخرى مثل حافة السترة على الاخرى ويخيطون... »

- ويخيطون، - اعاد فولوديا الكلمة وهو يجذب الرباط بعناية. وشعر بان العملية قد اجربت بصورة جيدة، فكان بادى التأثير من الفرح.

ولكن، رغم ذلك، كان عليه ان « يضبط نفسه » كما تعودت ان تقول فاريا. وفي حضور جراح كيوغوسلوفسكى من المضحك ان تصور نفسك استاذاً فى عملك.

وعلى اية حال قال بوغوسلوفسكى:

- دبرت الامر جيداً يا فتى!

فاجاب فولوديا بصدق:

- معك لا اخاف!

فجار بوغوسلوفسكى قائلاً:

ليست المسألة مسألة خوف.

وكان مريضهما الثانى امرأة ليست كبيرة فى السن كثيراً جداً، اسمها كوك - بوستا، وكان بطنها منتفخاً جداً، وقد مضى عليه زمن طويل وهى عاجزة عن المشى. وقد اخبرها اويا ان عمرها « سيخترم » قريباً جداً. وظن بوغوسلوفسكى ان لها ورم حليمى جبار. وقطع فولوديا البريتون الى الارتفاق العانى وبمبزل سميك خرم جدار الورم الامامى. وفى الحال اخذ السائل ينصب فى الدلو المطلى بالميناء الموضوع هناك لهذه الغاية. وكان السائل يقدر بالآلتار. ورغم كل التدابير التحوطية كادت كوك - بوستا تموت من الصدمة. وقام بوغوسلوفسكى كل ما

يجب في مثل هذه الحالات، وانسل دانزى من الغرفة،
وقال للجميع ان كوك - بوستا قد «اخترم عمرها» .
وخلال ذلك الوقت كشف فولوديا الورم من خلال
الشق في الجدار البطنى واخرجه. وناولته بوغوسلوفسكى
ابرة فخاط فولوديا الجرح بخيط وترى. واصبح تنفس
كوك - بوستا عميقاً، وهادئاً.
وقال بوغوسلوفسكى:

- رائع!

فأجاب فولوديا:

- لقد علمتني انت.

وسوية حملا كوك - بوستا الى الردهة ووضعها في
الفراش. وكان عليهما ان يشغلا كالممرضين في ايام
الكدح والانتصار هذه.

وكان المرضى يتحدثون بانفعال في الممشى: لقد
كذب دانزى عليهم. فها هي كوك - بوستا بخير مستلقية
تتنفس وبطنها لم يعد بادی الانتفاخ. لا. ان الطبيين
الروسيين العظيمين، لم «يخرما» لها عمرها.

وحين كانا ينظفان ايديهما مفكرين بان عمل يومهما
قد انتهى اشعل بوغوسلوفسكى سيكارة وقال:

- يصر احد الاطباء وهو ابعد ما يكون عن حماقة
على ان النساء اشجع من الرجال. ان الرجال شجعان في
حقل القتال بالطبع. ولكن ليس كل رصاصة تقع الى
الجبين بل بعضها يمر بك. ولكن لا مفر من حد السكين
في غرفة العمليات. ذلك لا محيى عنه...
ودخل دانزى يحمل الشاى.

قال بوغوسلوفسكى وهو يبتسم:
- وهذا شجاع آخر. انه رجل تستطيع ان تعتمد
عليه كليا أليس كذلك، يا فلاديمير افاناسيفتش؟
وابتسم دانزى وانحنى. قال بوغوسلوفسكى عن
تعهد وبصوت عال:

- اذا حدث ذلك ثانية فاطرده. من المقرف ان
ترى رجلاً معافى ينقلب الى جبان، ينسل من غرفة
العمليات ويقول لكل الناس ان كوك - بوستا قد ماتت...
فاعترض دانزى بشيء من التبرير:
- كانت ميتة!

- والآن هي حية، - قال بوغوسلوفسكى وهو يمص
سيكارته التى انطفأت، - على اية حال يجب ان لا تسلك
مثل هذا السلوك مرة اخرى!

وقبل ان يستطيع انهاء سكارته بسلام ظهر تود -
جين وفى وجهه مسحة اعتذار. فقد جاء بمريضتين أخريين:
توش، وهى ارملة شابة حبلى فى شهرها السادس، تشكو
التهاب الزائدة الدودية الحاد، وامرأة اخرى تشكو من
التهاب الشدى. وكانت حالة توش خطيرة جداً. ونظر
بوغوسلوفسكى الى فولوديا بمؤخرة عينه واجرى
العملية بنفسه. وكانت توش فى حالة هذيان. وكانت
نفسها اكبر من طفلة بشيء قليل، ارملة فى السادسة
عشرة من العمر. وكان بوغوسلوفسكى يكافح لانقاذ
حياتين فى هذه الحالة. وكانت المعركة ضروفاً.
وكانت الزائدة مدفونة خلف وصائل كثيفة، وحين عرف
مكانها وجد انها مثقبة. وحتى انه هز رأسه، وتحسر.

وكان حدوث اجهاض شيئاً لا بد منه، فكل شيء يشير اليه. وكانت قدرة المقاومة ضعيفة عند هذه الأم الصغيرة. وليست لديها قوة لمقاومة التهاب البريتون. وتركا للغد المرأة المصابة بالتهاب الشدى ومريضا آخر. وقال بوغوسلوفسكى حين كان هو وفولوديا يفسلان ايديهما:

— هل سنفقد هذه الفتاة توش؟ انه شيء مؤسف للغاية. ولكن ماذا نستطيع ان نفعل؟ ماذا؟
و وضعها في غرفة لوحدها، وطلبنا من دانزى ان يعتنى بها، وتناصفا نوبة الليل بينهما.

وعندما كانا يتناولان الغداء مع تود - جين في غرفة فولوديا دخل اباتاى العجوز، وقال شيئاً وهو ينظر الى تود - جين. ان العجوز يعرض خدماته عوضاً عن دفع الاجور. وسيأخذ على عاتقه العناية في المواعد. فمادى - دانزى رجل كبير الآن، طبيب (وابتسم تود - جين ابتسامة باهتة) وهو مشغول طوال الوقت. ولكن المواعد يجب ان تجد من يشعلها على اية حال، اليس كذلك؟ ثم ألا يجب ان يكنس المكان؟ صحيح ان اباتاى العجوز لم يكنس ارضاً في حياته، ولكنه سيتقن الفن حتماً لما وهب من ذكاء وبراعة ويدين شاطرتين. كما انه يستطيع ان يساعدهم في المطبخ فليس هناك عامل مثله في كخارا كلها، هكذا أكد لهم هذا الرجل العجوز المتواضع للغاية. انهم لا يعرفون كم هو شاطر، ولا يهم اذا لم يكن شاباً جداً. وهو يعرف كثيراً من القصص الرائعة يسلى بها المرضى. فمثلاً هو يعرف قصة عن

الطائر الذكى شيشكيش الذى خدع الثعلب، وقصة اخرى
عن تيجيكي العجوز الذى وجد كيس فلوس بحجم رقبة
البعير، او القصة الاخرى عن الدب الماكر السافل الذى...

قال تود - جين:

- حسناً، سأحدث فى ذلك مع الدكتور، انتظر.
قال فولوديا حين اعاد تود - جين الحديث اليه:
- سنفعل ما تراه افضل. ولكننى سأحتاج الى ناس
اكثر كما تعلم.

وتحول تود - جين الى اباتاي.

وسأل العجوز:

- هل سأتبقى؟

- نعم، ستبقى.

- وماذا سأكون؟

- ستكون رجلاً كبيراً، وسيكون لك كثير من
الواجبات الصعبة المحترمة، - قال تود - جين بمهابة.

وسأل اباتاي:

- هل سأكون موظفاً؟ - وكان لا شيء يدهشه مطلقاً

بعد تجربة ذلك اليوم.

- لا، ستكون كناساً.

- آمل ان هذا لا يقل احتراماً عن ذلك؟

اجاب تود - جين دون ان يبتسم:

- لا، ان هذا اكثر احتراماً من منصب موظف.

وانصرف اباتاي بعد ان تمنى صحة جيدة لقطعان
وعوائل الذين كانوا طيبين معه. وعاد الى ردهته واستلقى
على سريره، وقال لكل الحاضرين وهو يحك بطنه الغائص

انه، اباتاي العجوز، سيسمن قريباً حتى لينظر اليه الجميع في اعجاب ودهشة. فقد استعطفه الروسيان وتود - جين نفسه بان يبقى ويعمل في المستشفى وان العمل الذى اعطوه له هو اصعب بكثير من عمل اى موظف. فقال سين بيليك فى انين:

- حدثنا بحكاية اخرى. من يريد شحاذين مساكين من امثالك؟ واذا كان هناك احد يصلح لمنصب الموظف فهو انا.

وفى منتصف الليل جهضت توش. ودعا فولوديا بوغوسلوفسكى، وبدأت المعركة من اجل حياتها. وقال تود-جين: « انها وحيدة فى العالم. فلو تستطيعان انقاذاها فسيكون ذلك شيئاً رائعاً. هى فى السادسة عشرة فقط... » ولكن توش لم تكن لها قوة على تحمل العذاب. ومع ذلك فقد عاشت. لقد كانت ليلة صعبة لفولوديا، صعبة على نحو خيالى. وكان اليوم التالى صعباً جداً ايضاً فيه عمليتان اخريان خطيرتان للغاية. وبعد ذلك كانت هناك ليلة اخرى لم يذق فيها النوم الا غراراً. وغفا غفوات اختلسهن اختلاسا. وفى فجر اليوم الثالث فقط، وهو فجر يوم شديد البرد، تحسنت حالتها بعض الشيء. فان ماء الملح، وقطرات محلول الكولوكوز، والبزل، وزجاجات الماء الحار قد اعادتها من العالم الآخر الذى عبرت عتبته بالفعل. كما ساعدت على انقاذاها من الموت الرقة التى استعملها هو وبوغوسلوفسكى معها حين اجلساها فى موضع مائل. وفى اليوم الرابع كانت

عندها قوة على ان تبكى بشدة على ابنها الميت، وبعدها شربت بعض الحليب ونامت. ووقف فولوديا الى جانبها وراقب تنفسها، كما وقف تود - جين يراقب ايضاً. ونظر اليها نظرتة القاسية غير الخائفة وغير المتحركة بعيني العقاب اللتين لا تطرف في وجه الشمس. وقال:

- ستعمل عندك في المستشفى ايها الرفيق. انها ذكية وخفيفة القدمين. نعم. انا اعرف زوجها. كان زوجاً طيباً. وقد مات لانك لم تكن هنا ايها الرفيق. لقد حملوه على ظهر جواد طويل فمات. ولكن التشريح اظهر ان معالجته كانت سهلة للغاية. وكان عضو حزبنا هنا. اول عضو.

وعندما استيقظت توش رأت تود - جين جالساً الى جانب سريرها، ونظرت اليه في دهشة. وقال تود - جين بصوت خفيف:

- لقد انقذوا حياتك في هذا المستشفى يا توش. وانت الآن وحيدة. ولكن اذا بقيت هنا لن تكوني وحيدة. يجب ان يقدم الانسان عملاً صالحاً. وستقومين به هنا. وفيما بعد حين تبرهنين على جدارتك لهذا الشرف العظيم سنرسلك الى موسكو، الى مدينة المدائن لتدرسي هناك. فانت في مستقبل العمر، وقد تصبحين جراحة، شخصاً يهب للناس اعمارهم. وقد كان زوجك يأمل ان يذهب معك للدراسة. فعليك ان تحققى امنيته.

قالت توش:

- نعم.

- هل فهمت كل شيء؟
- نعم.
- اذن، لماذا تبكين؟
- انا ابكى لأن زوجى وطفلى البكر قد ماتا يا تود - جين.
- لا تبكى يا توش! لقد ماتا لاننا ما نزال نعيش حياة متوحشة جاهلة. وقد كنت مصابة بالتهاب الزائدة الدودية. وقد بدأ المرض منذ زمن طويل، منذ الشتاء الماضى الذى جئت فيه الى هنا. ولو كان فى كخارا جراح لما فقدت زوجك، ولا طفلك. هل فهمتنى؟
- نعم.
- الى اللقاء يا توش.
- الى اللقاء يا تود - جين.
- وفى ذلك اليوم غادر بوغوسلوفسكى وتود - جين. قال بوغوسلوفسكى وهو يشد على يد فولوديا:
- الى اللقاء يا فلاديمير افاناسيفتش. لقد سعدت برؤيتك. وانا اتوقع ان نلتقى ثانية. وعلى اية حال سأجرك معى اينما اذهب، اذا لم يكن عندك اعتراض...
- وفكر لحظة ثم اضاف بجهامة:
- اظن انك شخص يمكن الاعتماد عليه.
- واحمر وجه فولوديا. لا يمكن ان يكن طبيباً سيئاً حين يقول بوغوسلوفسكى عنه هذا القول.
- وقال تود - جين:
- ثق بتوش، ثق بها كلياً. فستساعدك مساعدة حسنة. وتلك المرأة العجوز اوبأى يمكن ان تفيدك ايضاً.

وهناك كثير من الناس يمكن ان يساعدوا اذا عرفت كيف
تفتش عن السبيل الى قلوبهم أليس كذلك؟
فقال فولوديا موافقا:

- نعم.

وذهبا. وترك فولوديا وحده مع مستشفاه ومرضاه.
ومع بداية شهرته ايضاً.
وما اشد ما شعر بالخوف في تلك الليلة!

وحده مرة اخرى

كان سمع اباتاي العجوز بالفعل قوياً كما كان في
صباه. ولم تكف بلدة كخارا عن الاعجاب بهذه المعجزة
الصغيرة. وتدفق جميع الصم على فولوديا قادمين من
مضارب بعيدة بله البلدة نفسها. ورفض الذين لا يمكن
شفائهم ان يصدقوا بانهم كذلك، وعرضوا عليه ايائل،
واغناماً او خيولاً كأجرة له. وجاء اليه ارمل قديم.
واجزل له بالعطاء فوعد فولوديا ببيعير «جيد للغاية»
اذا شفاه. وكان يفكر في الزواج. والزواج بصماء كالحجارة
مخجل بعض الشيء. اما اباتاي الذي كان ايمانه بمقدرة
فولوديا على الشفاء لا يززع فقد قال للارمل:

- اوه، هذا توصل قليل، وخليق بك ان تتوصل
بصورة جيدة، وان تبكى طويلاً وتنحنى الى الارض. انه
شامان عظيم.

ولم يوفق فولوديا مع الصم.

ثم كانت هناك كوك - بوستا التي سحب منها هو
وبوغوسلوفسكى ثلاثة جرادل من السائل، واوباي

الطبيبة السمينة، وتوش الخفيفة القدمين، فقد كن جميعا يمدحن الطبيب الروسى فولوديا، ويمدحن المستشفى الروسى والروس الجدد الذى ليسوا على النمط ذاك. وهن يعنين بالنمط ذاك نمط ماركيلوف. فقد كان ابناء البلدة يكرهون ماركيلوف ويخافونه. ولكن فولوديا لم يكن يعرف السبب بالضبط.

وكان غالباً ما يلتقى بماركيلوف حين يخرج لزيارة المرضى فى الطرف الآخر للبلدة. وكان ماركيلوف ينظر اليه بتمعن، ويرحب به بأدب، ثم يتبعه طويلاً بعينيه الغجريتتين الدنستين. وذات مرة بدا لفولوديا ان هناك شيئاً يريد ان يقوله الرجل له، فتوقف ليسمعه. ولكن ماركيلوف ابتعد وهو يتكى على عصاه الثقيلة، ويجرجر ساقه.

وصعب كثيراً على اللاما اويا والشامان اوغو ان الناس اخذوا يزورون فولوديا. حتى ان اللاما الماكر غادر كخارا حين ساءت الامور. وبقي اوغو فى البلدة. وكان يسير فى البلدة بجميع ملابسه وادواته الشامانية اذ كان يعتقد انه يبدو بها اكثر مهابة وارعاباً. وقد بدت الامور سيئة حقاً للشامان حين اذاع اباتاى العجوز كذبة فحواها ان الطبيبين الروسيين المبجلين اكتشفا ان اوغو نشر الامراض فى كثير من الناس عن سوء قصد، وعلى الاخص فى كوك - بوستا لانها انقصت من اجرتة شاة واحدة. وكف الناس عن ان يعتبروا اوغو «مداوياً» بل عرافاً قادراً على اتيان السوء. ولم تكن للناس فائدة فى مثل هذا النوع من العرافين الا اذا ارادوا بث المرض

في شخص ما، ولكن ذلك لم يأت بما يشبع عصفوراً،
واوغو يهوى الخمرة، ولا يقدر ان يأكل غداء بلا لحم.

وكان اباتاي يقول مرسلًا زفرة زنديقية:

— تبدو امور اوغو الملعون سيئة للغاية!

وحق الاطفال كانوا يقذفون الشامان بالوان الفحش
حين يمر امام خيامهم متثاقلاً في مشيه ضارباً بدفه.
وكان يرتدى طربوشاً طويلاً طرز عليه بالوتر وجه
انسان بشع، يحمل عصاه الطويلة عليها الشرائط
الملونة، وقد علقت منها ثلاثة اكياس صغيرة — وضع في
كيس «الحجر السماوي» وفي آخر «الحجر الارضي» وفي
الثالث طعام لتلك الاحجار «الحية».

وصاح غلام صغير:

— ارجع لنا شاتنا، ايها الكلب!

وهتف آخر:

— لا تجسر على المرور امام خيامنا ثانية!

وصرخ ثالث:

— نحن لا نخاف منك! — كذب مفضوح. فقد كان

جميعاً يخافون منه، على اية حال.

ويكفى للشامان اوغو ان يدير وجهه العظمى اليهم،
ويكشر تكشيرة فظيعة، ويهز عصاه الملونة، لكي يتفرق
الشجعان صارخين صريخاً عالياً، ويختفون في خيامهم
مرتعشين من الخوف متفوهين بالشتائم على عين شامان
الشريرة لأنه — اذا شاء — يجعل بطنك تنتفخ بثلاثة
جرادل من الماء مثل بطن كوك — بوستا، فتضطر الى
فتحها، وبزلها وذلك، اوه، مؤلم!

وكان فولوديا كثير من العمل، وزايله الشعور بالخجل من نفسه حين كان يصفى الى راديو موسكو، لأنه كان يقوم بعمله وهو، حسب ظنه، عمل طيب. وكان ارساله الى هنا فكرة طيبة. ولربما استطاع بيتش واوغورتسوف القيام بذلك ايضا. اما سفيتلانا او نيوسيا فهو غير متأكد منهما.

وذات يوم بعد ان استمع الى الانباء تذاع من راديو ضبط الراديو على فينا لسمع بعض الموسيقى، واستلقى واغلق عينيه ليستمتع بها. وبعد لحظة نهض من ضجعته مهتزا. فبدلاً من ان يسمع موسيقى سمع صوت شوشنيك مستشار النمسا. وكان عائداً في ساعته من مقر هتلر في برخسغادن.

وكان البث جيداً على نحو غير اعتيادى وقد فهم فولوديا كل كلمة. وفي منتصف الليل اعلن سايس اينقوارت أنه خليفة المستشار السابق، وأنه قد طلب الى هتلر ان يرسل قوات الى النمسا. ولم يعزف فالز، وبدلاً من «السمفونية الناقصة» لشوبرت التي كان غالباً ما يستمع اليها فولوديا من فينا في الماضي، عزف جوق عسكري نحاسي لحناً عسكرياً، وجارت اصوات منكرة بالاغنية النازية عن هورست فيسل. اذن فقد بدأ ذلك الشيء الذي حذر ابوه منه حين قال ان الحروب تعيق العلم، الشيء الذي تكلم عنه ابو فاريما ايضا.

وادار فولوديا اكرة الراديو ابعده.

كانت كل المحطات تذيع موسيقى راقصة. وفكر فولوديا في مرارة: «انهم يرقصون! باريس ترقص»

ولندن ترقص، وروما ايضاً. وكم اود لو استطيع
التحدث الى العمة اغلايا الآن. لساعة واحدة فقط، بل
حتى لنصف ساعة...»

واستلقى لينام حين طرقت «المدام الطباخة» عليه
الباب وقالت له انهم جاءوا من المناجم بغلام محروق
حرقاً سيئاً...

والآن تمر عليه الليالي الساهرة تباعاً.

واختفى الشامان اوغو من كخارا عندما هبت الرياح
الدافئة الاولى. وقد قال الناس انه قبل ان يغادر الى
التايغا ظل زمناً طويلاً امام المستشفى يعمل سحره،
وكانوا جميعاً يخافون من ان تنشق الارض وتبتلع بناية
المستشفى، او ان الدكتور فولوديا يموت، او تشب
نار عظيمة. ولكن الوقت مر ولم يحدث شيئاً.

وزالت قروح كول زال القبيحة تقريباً. ولما رأى
القرويون انه شفى تأثروا كثيراً واضحى لفولوديا عدد
كبير من المرضى اكثر مما تستطيع عيادته. وليست
حالات سفلس فقط. ووضع الاسرة في الممشى، وفي القاعة
الكبيرة، وفي الممر الصغير المؤدى الى مطبخ «المدام
الطباخة». والوفاتان اللتان حصلتا لم تخيفا الناس
وتبعدهم. ولم يأل فولوديا جهداً في جعل مرضاه يفهمون
ان الشخصين المنكودين جاءا بعد فوات الآوان. ولا علم
في العالم قادر على مساعدتهما.

وقال لهم فولوديا:

- يجب ان تأتوا الى في حينه. وحينذاك لا يخرم

من احد عمره.

ولكن سوابها ما يقولون من ان الجراح يموت مع كل مريض من مرضاه. وقد مر فولوديا بذلك حين أجرى فحوص تشريح الجثة بنفسه. وهو ليس ملوماً على هاتين الميتين ولكنه عمل كل شيء لينقذ ذلك الراعى الشاب الذى جيبى به مصاباً إصابة شديدة بالتهاب البريتون، وذلك الصياد العجوز الذى جرحه دب. «وقد مات الاثنان بعد العملية ولهذا كان موتهما نتيجة عملية». والحق ان الصياد ظل راقداً فى خيمته احد عشر يوماً قبل ان تفكر عائلته بجلبه الى المستشفى. ومرة اخرى ان كلمة «بعد» تعنى «نتيجة ل...»

وحسب مألوف العادة حملوا الميتين على حصانين وذهبوا بهما الى الجبال. ولم يستطع فولوديا ان يواجه العائلتين المنكوبتين. وفكر فى زملائه الطلاب - سفيتلانا، ويفغينى، وميشا شيرفود: «ايها الاطباء المقيمون، ياكواكب المستقبل العلمية، ايها الطفيليون المتطفلون على موائد الغير. كيف الحياة معكم يا ترى؟ لا بأس سنلتقى، وحينذاك سأقول لكم رأى فيكم، يا خنازير». وكان يعمل فى اجهاد شديد، وقد شعر فى آخر النهار بانه تعب جداً، فلم يستطع ان ينام. وكان يستقبل المرضى فى المستشفى ويصف العلاج، ويقبل الزيارات الخارجية. فهل فى وسعه ان يرفض حين يدعى الى مريض؟ وبالإضافة الى ذلك كان له كل اسبوع يومان مخصصان للعمليات دون مساعدين، وبلا ممرضات مدربات، ولا اية مساعدة. وكان دانزى جبان القلب لا فائدة منه بل اكثر. وكانت العمليات تعذيباً محضاً اقسى

عمل صعب. وكانت تنال من فولوديا الشيء الكثير جداً. وقد علمته ألعاب السحر حتى لفى وسعه ان ينخرط في احسن شرك. كما علمته ضبط النفس، والاتزان، وكيف يهدى اعصابه الهائجة. وقد اكتشف الآن انه يملك هذه الاعصاب...

وكتبت العمة اغلايا له: «لقد اجهدت نفسك يا ولدى فاطلب اجازة، ولنذهب الى البحر الاسود». وابتسم فولوديا لذلك بحزن: أيمن ان يفهم الناس في الاتحاد السوفييتي اى حياة هنا حقاً؟ وحتى شخص ذكى مثل العمة اغلايا وروديون. فلمن يودع المستشفى؟ وكل ما خلق بآلام ومصاعب سينهار، اذا اترك المستشفى الآن، ستبذر بذور الريبة ثانية، وسيخسر كل المركز الذى كسبه. وقد فهم روديون ذلك لأنه كتب يقول: «ان اباك، لو كان على قيد الحياة، لكان فخوراً بك. صدقنى عندما اقول لك ذلك. وحين تتروى في الأمر تجد انك تقوم بما تركه ابوك وانك تعمل في الطريقة التى عمل فيها عندما كنا هناك. ومع ذلك فاعتن بنفسك. واغلايا على حق في ذلك».

وبالتدريج درب فولوديا توش تلك الارملة الشابة الحلوة لتكون ممرضة تناوله الادوات. وواجبات ممرضة من هذا النوع ليس من السهل اتقانها. ولكن توش حاولت بجهد، وكانت متلهفة الى التعلم. وكانت تبكى في حرقه عندما يعنفها فولوديا، وتنظر بجد في عينيه لتقرأ افكاره، وتتكهن برغباته حتى لم تعد اخطاؤها تزعجه، بل كان يخفف من روعها بدلاً من ذلك:

- على مهلك يا توش، وكل شيء سيسير سيرا رائعا.

وكانت توش سريعة البديهة جداً. كانت تتحرك بخفة ونشاط. وكانت يداها الشاطرتان تطيعانها بشغف واقتدار اذا ما احتج الى عمل شيء للمرضى او للعملية، او للعمل الذى تعلمته من توها وكان المرضى يدعون اليهم «توش» دائماً. واصبحت لازمة. وكانت تبدأ وتفرغ من عمل اصعب الاعمال واقدرها وكأنه ليس بعمل على الاطلاق بل شيئاً من الحظ غير المتوقع. وعلمت فولوديا لغة شعبها. وقد فعلت ذلك ايضاً بسرور ومرح وفي عينيها الداكنتين ذات الحواف الذهبية نور اللهفة، وعلى شفتيها الورديتين الصغيرتين ابتسامة خفر.

وفي الربيع كان فولوديا يستطيع في صعوبة على الاقل، ان يفهم الصيادين ورعاة الاغنام، والمزارعين ويسمون «سقاة الارض» لانهم يحفرون جداول السقى، وليس ذلك فقط بل كان يستطيع التكلم قليلاً على الاقل. وعرف الاشياء الضرورية التى يصعب عليه تدبير امره بدونها. وطبيعياً انه تعلم ان لا يبتسم حين يقول «ان قطعانى بخير» حين يرد التحية المعتادة، وحين يلقى هو نفس هذا السؤال الذى سنه عرف قديم. وكانت توش تغض طرفها تواضعاً حين تصحح له خطأ وقع فيه. وكرهه دانزى توش، ولكنه كان يكتم كرهه لها ظاناً ان فولوديا يريد هذه المرأة لانها شابة جميلة وفولوديا نفسه شاب وجميل. وقد رأى تدلها في عيني

توش حين تنظر الى فولوديا، ولاحظ ايضا ان فولوديا يحمر في حضورها بدون سبب على الاطلاق: والشئ الوحيد الذى ادهش دانزى هو لماذا لا تنام توش مع الطبيب في فراش واحد طول هذه المدة؟ ولكن ذلك، على اية حال، لم يفهمه كثيراً جداً بل الذى غمه هو ان توش اصبحت شخصاً أكثر اهمية منه بكثير، والآن حتى اباتاي العجوز يحاول ان يلقي اليه الاوامر ايضا. وهما - اى اباتاي، وتوش - يحشران انفسهما بينه وبين الدكتور على اية حال معترضين طريق طموحه في ان يكون اهم شخص في كخارا، ويد الطبيب اليمنى. ولكن لم يكن في وسعه التغلب عليهما على اية حال.

وكانت «المدام الطباخة» مغرمة بتوش وكان اباتاي العجوز الى جانبها ايضا. ولم يكن في وسع دانزى ان يغلب الثلاثة وهو وحيد. فكان عليه ان يتعذب في صمت مترقباً عودة شخص من العاصمة. واذ ذاك يقول له ان الثلاثة بلاشفة، هذا بالتأكيد ما يقوله له: «بلاشفة». وسيطرد الثلاثة. ذلك ابعد ما توصل اليه فكر دانزى.

وفي الليل حين يرين الصمت على المستشفى كان فولوديا يغرق في تفكر طويل حلو ومر بفاريا. ويخفق الدم في صدغيه ويلتهب وجهه، ويريد ان يصيح «فاريا» فتد في الحال وتقترب على الفور، وتسأله كما تعودت ان تسأله:

— فولوديا، ماذا بك؟

ولم يقترب احد. ويكز فولوديا على اسنانه، ويحاول

ان يقرأ. ولكن خيال فاريا يابى ان يزول. واذ ذاك يهز فولوديا رأسه، ويلعن نفسه، ويرغمها على ان تظن بفاريا اسوأ الظن. ولتفعل ما تشاء. فله حياته الخاصة ولها حياتها ايضاً. وكل انسان يختار طريقه. عندها الانوار والزهور، والرقص، والقبل، ثم ذلك الذى يسميه يفغينى «فسلجة». ويرشح جبين فولوديا عرقاً، وترتجف يداه، ويشعر بالاختناق. وهناك يفتح النافذة الصغيرة، ويجلس الى منضدته ثانية، مرغماً نفسه على ان يفكر بما قرأه، اذ أنه كان ملزماً على قراءته.

وكان تود - جين قد اشترك بالمجلات، واوصى على كتب فى لغات مختلفة لكل اطبائه. وقد ساعد ذلك فولوديا كثيراً. فلم يكن فى وسعه ان يزور العيادات او يشهد المؤتمرات العلمية. بل كان كل فى وسعه ان يفعل هو ان يقرأ - يقرأ ويعمل ويفكر.

ويكتب الرسائل ايضاً.

وكان غالباً ما يكتب لبوغوسلوفسكى الآن، يلذ له ذلك. وفى معظم رسائله كان يطلب النصيحة وفى بعض الاحيان كان يكتب ما يوحى القلم فى ساعته او يكتب البرامج او المواضيع الطويلة. وقد اخبر بوغوسلوفسكى فى احدى هذه الرسائل كيف ان من الخطأ قبول الصبايا والصبيان فى المعاهد العليا بعد خروجهم من المدرسة مباشرة. وكتب «خذ مثلاً صاحبتنا نيوسيا وسفيتلانا، فلو تعملان ممرضتين لحفظ الصحة او فى المستشفى ثلاث سنوات او اربعاً او خمساً، فاذا ذاك تعرف هاتان السيدتان المتانقتان فيما اذا كانتا تريدان حقاً الدخول

الى حرقه الطب، او انهما تريدان شهادة جامعة على حساب الدولة. انا على حق ام لا؟»

وكان بوغوسلوفسكى يرد على كل رسالة من رسائله مجادلاً احياناً في نقطة من النقاط، ولكن لم يعظ قط. فهو لم يتفق مع فولوديا على «صاحبتنا نيوسيا او سفتلانا»: «راداً ان لكل حالة لبوسها، فخذ نفسك مثلاً، فان لك فضائلك الظاهرة فلا معنى اذن في ان تضيع احسن سنيك تعمل كملازم في مستشفى ولى الجراحة على ان اقول ان ليس لى حاجة الى ان اكون ممرضاً....»

وجاءته رسالة فاريا وهو غارق في تفكر مضجر في عمله، في حالة اعياء وانفعال مفرط، جاءته بينما كان يفكر في اشمئزاز «بعالقي البصاق والامعات» بصورة عامة. واعتبر الرسالة اهانة له بلهجة فاريا فيها، وبورقها الثمين المعطر قليلاً، وبغلافها السميك وبنكات فاريا الصغيرة. وقد كتبت فاريا تقول انها انتهت مدرسة الجيولوجيا «الشنيعية» بالأمرين، وبزهقان نفس، وانها حرة طليقة اليدين الآن، فانها وطدت عزمها على ان تكون ممثلة، رغم ان اباها لم يوافق تماماً. وفي هذا الخريف ان لم يكن اقرب، ستنتقل الى موسكو لتسجل في استوديو تابع لمسرح لم يستطع فولوديا ان يفهمه. كما قالت بانهما ربما يلتقيان ثانية عندما يطعنان في السن ويشيبان، عندما يصبح فولوديا نوراً وهاجاً في عيادة في موسكو، ذلك لأنه لا يستطيع ان يقضى حياته كلها متجولاً في الخارج، وان جميع الاساتذة البارزين في آخر الأمر يعودون الى اوطانهم. وهكذا حين يعود تأمل هي ان

يبحث عنها - ممثلة صغيرة من الدرجة الثالثة - في احد
مسارح موسكو - وعند ذاك سيتحدثان عن ايام صباهما
الحمقاء، اذا لم يترفع عن ذلك بالطبع...

وقرا فولوديا الرسالة مرتين. وجلس ليكتب ردا.
انه لم يكتب في حياته رسالة بمثل هذا الطول،
وبمثل هذه القسوة والغلظة. وكان قاسياً على رغم منه.
وكان وصف حياته تعنيفاً لها، ولكل الذين على شاكلتها.
نعم، لقد قال - انتم جميعاً - انتم اليفغينييين والسفيتلانات
والنيوسييات، والفاريات تتصورون اننى ارتدى
الفراك كل ليلة. هيه؟ حسناً، سأقول لكم كيف اعيش
حقاً. وقد كان ذلك قسوة كبريائية، فلم يغالط، بل
طالب كل شخص بولاء مماثل لعمله وصب جام غضبه
على المرتدين، واستهزأ بهم داعياً اياهم باقبح النعوت.
كما اخبر فاريا عن توش، ممرضته المقبلة التى ستناوله
الادوات، وقال ان فاريا وسائر الزمرة لا تساوى قيمتهم
جميعهم اصبعها الصغير. وكتب عن العمليات التى كان عليه
ان يجريها كلها لوحده، وعن العواصف الثلجية، وعن
الشامانات وعن الثلوج الشديدة التى تنخفض فيها درجة
الحرارة الى ٥٠ تحت الصفر. وكتب عن تود - جين، وعن
وحدته، وقنوطه حين لم يات اليه مريض فى اول الامر،
كما قال انه سعيد تماماً وللغاية، رغم انها خاتته.

« لقد خائنتنى. ولست خائفاً من ان استعمل هذه
الكلمة. وكان بوسعك ان تجيئى الى هنا معى وتساعدينى فى
عملى غير الفاتن، ربما، بل المهم. بوسعك ان تكونى المكلفة
بالتخدير، ومساعدتى، ان تكونى زوجتى ورفيقة حياتى

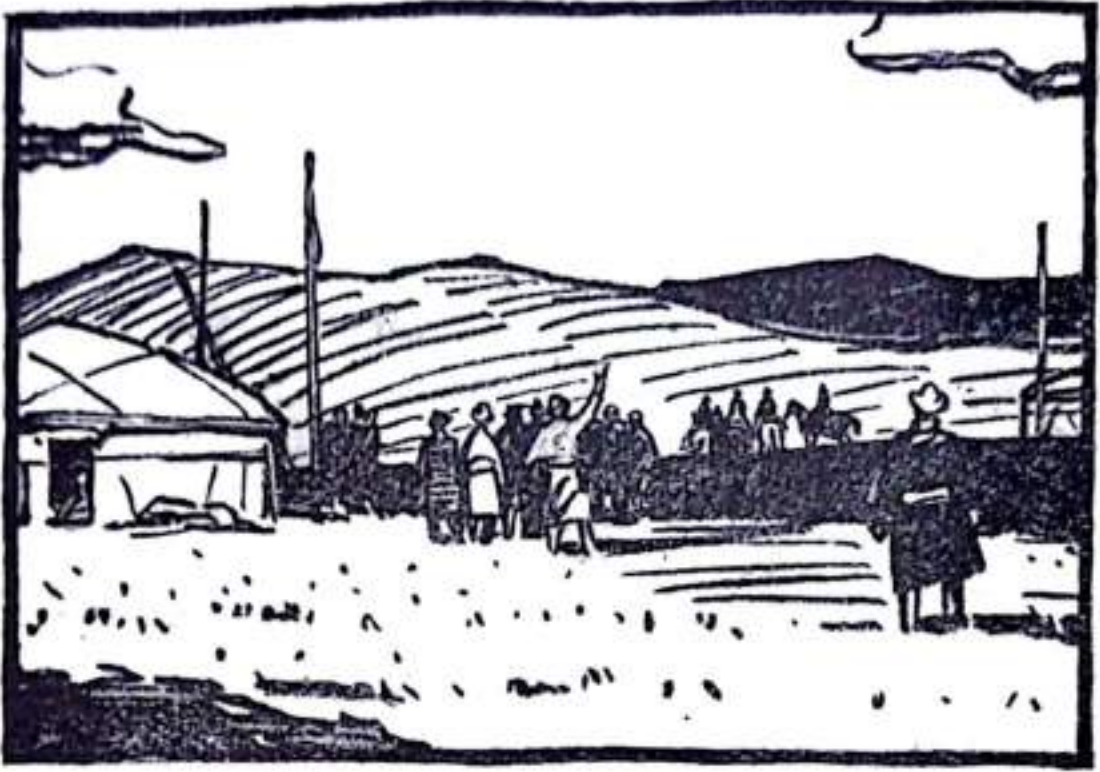
ولكنك فضلت حلمك الابله عن انوار المسرح والزهور.
وهو حلم فارغ كلياً، صدقيني. وهناك شيء واحد مقنع في
عمل الانسان. هو الشعور بانه قد ادى واجبه. من انت
الآن؟ جيولوجية؟ لا، لست جيولوجية. ممثلة؟ لا،
فالتمثيل عنك ابعد. فكيف تستطيعين ان تعيشي وفكرك
هادي، وتمزحي في ذلك وانت عضو في الكومسومول؟
استقيلي من الكومسومول اذن اذا كنت على هذه
الشاكلة!»

وكانت رسالة فظيعة، وهو يعرف ذلك، ولكنه لم
يعد قراءتها. وكانت حياته وعمله ليسا سهلاً رغم
كلماته عن السعادة الحققة. وكانت ليالى الأرق قبل ايام
العمليات طويلة جداً، وكانت المسؤولية التي يحملها ازاء
الارواح البشرية التي وضعت في يديه عظيمة، وتكاد لا
تطاق. وكانت صعوبة تأملاته في واجبه، وفي ارادته الحرة،
وفي رسالته في الدنيا، وفي حقه في «الالتجاء» هنا في حين
كان الجيش الاحمر يقتحم «خط مانرهايم».

وكتب الى بوغوسلوفسكى مرتين يطلب منه ان
يرسل الى الجيش في ميدان القتال، وفي كلتا المرات
اجاب بوغوسلوفسكى في جفاف رسمي بانه يقدر مشاعر
فولوديا غير انه ليس لديه امكانية لاغلاق المستشفى في
كخارا.

وكانت الامسيات في الربيع تعذب فولوديا باثارة
حنينه الى الوطن. وكان يحس برغبة قوية في الذهاب الى
المسرح، الى مسرح كبير وجميل واحتفالي ومع فاريا
بالتاكيد. وكان يريد سماع حديثها، هراءها الغالي،

ويكون قادراً على ان يقول: «كفى عن هرائك». وكان يريد ان لا يشم روائح المستشفى، بل كان يريد ان يتمشى في شارع عريض غسله المطر وانعكست المصابيح الغباش على الحجارة المرصوفة. كان يريد ان لا يقفز في الليل حين تدق توش عليه الباب وتقول: «حالة سيئة جداً. سينخرم عمره الآن. لا؟ نعم؟» ولكن فولوديا تغلب على ذلك. كانت المعركة غير سهلة، ولكنه تغلب. وامر نفسه بان لا يفكر باشياء يجدر به ان لا يفكر بها.



الفصل الخامس عشر

الساحر

في مارس، حين ولت اسوأ ايام الشتاء، حين
اصبحت الايام مشمسة اكثر، والبرد اقل قسوة، وصل
طبيب شاب من لينينغراد ليساعد فولوديا. وكان شاباً
ممتلئ الشفتين، بديعاً جداً، يسمى فاسيا بيلوف.
وقد وقع، مثلما وقع بوغوسلوفسكى وتود - جين قبله
في ثغرة جليد النهر وجاء الى المستشفى مبلاً، ومغطى
بقطع الثلج. كما رأى جماعة من الذئاب الجائعة في الطريق
الى كخارا. وجاء ببندقية جيدة، «لأبى، انت تعرف؟»
مع كمية كبيرة من الخراطيش، والبارود، وادوات صيد،

وصنائير، وكتب مختصرة عن الطب. وكانت معه زمزية من البراندى، وصورة «صديقة لا غير، او بالاحرى، صديقة طفولة» وجليون يدخن فيه «للتسلية، كما تعلم». وكان ينظر الى فولوديا نظرة الطالب الى الاستاذ، ويعامل المرضى باحترام، ويقول عن توش انه يرى فيها «العزة الوطنية المستيقظة لملايين من الناس». و تحدث فولوديا معه بلهجة استرخاء لعجوز قد ذاق كل شيء فى حياته. ولم يكن فى وسعه ان يعامل الطبيب الممتلى الشفتى خلاف ذلك.

وظل فاسيا يمطر فولوديا بالاسئلة:

— قل لى، يا فلاديمير افاناسيفتش، هل يوجد هنا انمار؟

— انا شخصياً لم يكن لى شرف الالتقاء بواحد قط.
— والظرابين؟

— لماذا لا تسال اباتاى العجوز عن ذلك؟

— وهل هناك حيات سامة؟ واذا كانت توجد فاحب

ان اعرف بالضبط من اى نوع هى. وقل لى ماذا تستعمل فى لسعات الحية؟

— لم اسمع باى شيء عن الحيات ايضاً يا فاسيا،—

قال فولوديا. ولكنه تذكر بوغوسلوفسكى فصلح نفسه،— ارجو المعذرة يا فاسيلى؟..

قال فاسيا محمراً:

— ايفانوفتش...

— اذن يا فاسيلى ايفانوفتش. لا، انا لا اعرف

اتوجد حيات هنا، ولم اعالج لسعة حية حتى الآن.

— مؤسف. لقد جلبت خصيصاً كتاباً بعنوان: «الحيات السامة».

— ليس هناك ما استطيع ان اساعد به.
— لا بأس. قل لى هل جاءتك حالات استثنائية؟
— كل شىء استثنائى هنا يا فاسيلى ايفانوفتش.
— انا لا اقصد هذا المعنى. انظر، انا احمل بطاقة صحفية من صحيفة الشباب عندنا. واحب ان اكتب من حين لآخر بعض الاشياء اذا لم يكن عندك اعتراض، مقالات، او قصصاً قصيرة، لمجرد القاء بعض الضوء على حياتنا هنا.

— هيا. والى كل الضوء الذى تريده. وعليك فقط ان تلاحظ ان ذلك لا يعرقل واجباتك المباشرة. فان هناك كثيراً من الأعمال الشاقة يجب القيام بها.
وعاشا فى غرفة واحدة. وكان فاسيا يقضى امسياته اما فى تأليف مقاله الاول والوحيد بعنوان «الحياة اليومية فى مستشفى «س» او فى كتابة الرسائل الطويلة. وذات يوم رأى فولوديا عن طريق المصادفة ورقة قرأ فيها: «... شخصية رائعة وهائلة. لست مخطأ فى رأى، يا حبى النائى، اذا اخذت ف. أ. اوستيمنكو بارادته الحديدية، وبعد نظرة العلمى، وانقطاعه الى العلم، واستقامته، نموذجاً لطابع أحتذيه...»

ولم يستمر فولوديا فى القراءة. وفجأة شعر بالخجل، وكأنما هو يفش فاسيا. وهو بالتأكيد لا ينوى ذلك.

وقوى فاسيا عرى الصداقة مع ابائى ايضاً. والآن

اصبح الرجل العجوز قادراً على ان يتكلم الروسية قليلاً.
وكانت توش تترجم لكليها. وكان فاسيا يصفى طويلاً
الى حكايات اباتاي الساذجة المضحكة جداً بل حتى انه
سجل بعضها ليضعه في « مؤلفه » المقبل عن المستشفى
في كخارا.

وكان العمل كثيراً كالعادة، ولكن القيام به كان
اسهل بكثير بعد مجيء فاسيا. وكان فولوديا يقول ذلك
كل يوم تقريبا. وكان فاسيا يحتج ويحمر ويحك ذقنه
بشكل مضحك جداً قائلاً:

— اوه، لا، بصراحة... لقد بالغت في اطرائى كليا
يا فلاديمير افاناسيفتش، لو لا انت...

ويعمل بعناء اكثر، واعظم حيوية من قبل. وكان
في المدح يعمل اكثر، بينما كان العذل، حتى ولو كان
رقيقاً جداً، يجعله مكتئب النفس، عبوساً، خائفاً النور
في عينيه المرحتين في العادة.

والآن اصبح في وسع فولوديا ان يترك المستشفى
ولو لوقت قصير، وقد ذهب على صهوة حصان الى مناجم
اورتشون، وفحص الجميع هناك، المرضى منهم والاصحاء.
وكان عملاً طويلاً ومضنياً، ولكنه ضرورى. كما زار صيادى
السماك على نهر اوستيو - به، وزار كثيراً من مضارب
البدو في منطقة جيشى. وذهب دانزى معه كالمعتاد. وأخذ
معهما ادوية كثيرة، وبعض الادوات الجراحية، وخيمة،
وزكيتى نوم. وكان جميلاً ان يركب حصانه الموثوق
به خلال طريق لا يكاد يرى في التايغا او على حافة مهواة
بالقرب من التا - خاو حيث يزمجر الشلال تحته،

والشمس تسقط على وجهه بدفء ربيعي لطيف. وكان جميلاً ان يرى مضرب خيام بكامله يضطرب وينفعل لمقدمه، ويندفع الاطفال للقياء، يتبعهم اباؤهم واجدادهم الوجهاء برزانة، والنساء ينحنين له محتفيات به. وكان جميلاً ان يدعو كل صاحب الخيمة الى الغداء والعشاء، او الى مجاذبة اطراف الحديث لا غير، ان يسأل السؤال التقليدي عن صحة القطعان، ويسمع نفس السؤال عند الرد؛ وفي عيون مضيفيه القى دعابى لأن الطبيب الروسى كان معروفاً بأنه لا يملك قطيعاً ولكن باى شيء آخر يمكن بدء الحديث؟

وفي تلك الخيام، وفي اكواخ عمال المناجم ومضارب صيادى الاسماك واجه التراخوما والسفلس والقمل. وكانت بعض المناظر صوراً مرعبة، اثارت الاشمئزاز فيه رغم كل تجربته. ومع ذلك كان يشمر عن ساعديه، ويفسل يديه، ويفعل كل ما فى وسعه فى المكان نفسه، وبعد ذلك يرسل المريض الى مستشفى فى نقالة مربوطة على حصانين على الجانبين بعد ان يكتب معه مذكرة الى فاسيا. وكان المستشفى مكتظاً على الدوام. ولكنه كان مستشفى يخرج منه المرضى كقاعدة أصحاء تماماً، وانتشر الحديث عن وجود طبيب مدهش رائع فى كخارا من مضرب خيام الى آخر. واخذ ايمان الناس يقل شيئاً فشيئاً بمقدرة اللامات والشامانات على الشفاء فانسل اولئك خفية الى مجاهل التايغا والتوندر، وهناك كان حنقهم على فولوديا ومستشفاه والطبيب الجديد فاسيا، وتوش التى تعمل مع هذين الروسيين وحتى على اباتاي

يتسع ويشتد. وعلى أية حال لم يفتم فولوديا من ذلك ولم يفرح. ان اللامات والشامانات لم يعيقوه ايضاً فنسى امرهم كلياً كما نسي امر ماركيلوف. وكان في شغل شاغل كان يعمل بعناء شديد، وبانصراف الى العمل كلياً فلم يفكر باى شخص لم يكن الآن على مدى بصره.

وكان الفصل خريفاً. وايقظوه في فجر يوم من ايام ايلول. وكل ما فهمه من القصة المتفككة للصبى الذى جاء اليه هو ان شيئاً فاجعاً قد وقع، وان عليه ان يذهب ويساعد اناساً بعيدين جداً عن كخارا. ولم يستطع الصبى المنهوك ان يشرح على اى بعدهم.

واسرج دانزى الخيول، وهيا الحقائق. وكان صباحاً قارس البرد. وارتجف فولوديا وتشاءب، ولم يستطع ان ينفذ النوم عن جفنيه كلياً. وعندما حل الظهر كان ما يزال امامهما اكثر من مائة كيلومتر يجب ان يقطعها، ولكن كم بالضبط؟ ان الصبى لم يكن يعرف: كما اعترف بان هناك ثلاث جرحى لا جريحاً. واحدهم، حسب ما يظن الصبى، لا بد من ان عمره «قد اخترم» الآن. اما الآخران فلربما سيظلان على قيد الحياة الى حين وصولهم. وكان الطريق وعراً. وفي البدء ساروا بمحاذاة النهر، وكان فولوديا يعرف الطريق، ثم ساروا في طريق مختزلة خلال التايغا. وكانت الاغصان تضرب وجوههم، وتمزق ثيابهم. ولهثت انفاس الخيول، وارتعصت خواصرها المتعبة. وفي ممر بين الاحراش بالقرب من قرية «جيم تشو» الذى كان فيها فولوديا من قبل، التقوا بكوكبة من عشرة فرسان او نحوها. وقد فهم فولوديا حين رأى

اعراف الخيول وذيولها المزينة بالشرائط الملونة ان الجرحى قد داواهم الشامان بالفعل. وقد تحدث دانزى بانفعال مع رجل عجوز كان ينظر الى فولوديا فى ضغينة. وقد ظهر ان الجرحى وقعوا تحت طائلة الشامان اوغو الذى فر من كخارا. ولم يطلب احد من الصبى ان يذهب لاستدعاء الطبيب، فكان ذلك من وحى نفسه. والآن يتوعد العجوز بالعقاب الشديد على ذلك.

وفى غبش المساء وصل فولوديا ودانزى والصبى لامزى الى مرتفع عال تكتظ فيه اشجار الشربين، ويهدر النهر تآ - خاو على مقربة منه. وكانت ستة نيران تشتعل فى الجانب المحجوب عن الريح من المرتفع: وكانت اشباح الرجال الداكنة المتحركة تبدو هائلة ازاء السنة اللهب الداخنة. وسد طريق فولوديا زهاء خمسين راكبا كانوا جالسين على صهوات خيولهم دون حراك منتظرين ان يأتى وكانوا جميعا مسلحين بالبنادق، حتى اصغروهم سنا، الصبيان لا غير. وظن دانزى ان الفرسان سكارى، فاقترح العودة، ما دام لم يحدث شيئا فظيعا.

قال دانزى:

- سكارى جداً. نعم. سكارى جداً، سيكون الامر سيئا للغاية.

ونزل فولوديا من فرسه واعطى اللجام الى دانزى. ومشى الى الفرسان بخطى مصممة. ولم يتحرك اى حركة ليدعوه يمر. واتجهت مواسير بنادقهم نحو فولوديا محدقة فوهاتها فى وجهه. وتقدم خائفا ولكنه عارف ان امامه طريقا واحدا لا غير، دفع جانبا بوز احد

الخيول، دفع رباط احدهم بكتفه، ولعن، ومشى ساعدا المرتفع. وخلفه جاء لامزى يرتعص من الخوف مقتربا من الطبيب بقدر امكانه - لقد كان ابن الرجل الذي ربما اخترم عمره الآن.

وكان اثنان من الجرحى مستلقين على الارض بين النيران الداخنة وكان الآخر جالسا وتحت ابطيه دعامتان تشدان، وكانت في عينيه نظرة مكروبة بعيدة. والظاهر انه لم يعد يبصر لأنه لم يستطع ان يميز ابنه. وكان اوغو جالسا القرفصاء الى جانبه - وفي اللحظة التي فهم فولوديا ما يجرى هنا زايله خوفه.

كان بالقرب من المحتضر كل ما يحتاجه اليه المرء في الحياة البعيدة، في الحياة المقبلة كما يحب دانزى ان يسميها. كان هناك تبغ، وكانت هناك علبة ثقاب، وزجاجة فودكا الحليب، وشرائح من اللحم الضاني المقدد. لقد ودع الرجل وداعه الاخير رغم انه ما يزال حيا. وقد خرق فولوديا بمجيئه وتدخله قانون الموت الذي اعلن عنه الشامان اوغو بالفعل. وكان الفرسان واقفين هناك حسب تعليمات الشامان ليتثبتوا من ان القانون لا يخرق. فلو تخلص والد لامزى من برائن الموت، فسيموت اوغو نفسه لا محالة، وتنتهى مهنته كشامان.

- كل شيء معد لك، كل شيء مهيا. ولم يغفل عن شيء. فأرحل، أرحل، ولا تمهل... - قال الشامان اوغو ذلك. وقد حال نشيش الاغصان المحروقة وقرقعتها دون سماعه لوقع اقدام فولوديا وهو يقترب.
فصاح فولوديا:

— اذهب من هنا، ايها الساحر القذرا

والتقت اوغو ببطء ورأى حذاء فولوديا فنهض على قدميه. ولم يكن ذلك «الأوغو» الذى كان يتملص من فولوديا فى كخارا، بل كان شخصاً آخر. لقد كان سيد غاب التايغا والمتجبر فى ذلك. وكان سكران، وكان يمسك بيده سكيناً كبيراً قطع فيه شرائح اللحم للمحتضر فى رحلته الطويلة. والآن ارتفع طرف السكين، وتهيا للضرب، لقتل الطبيب الروسى الكروه بطعنة فى بطنه، طعنة واحدة مع لية فى آخرها. وكان اوغو يعرف كيف يقتل الناس، رغم أنه لا يعرف كيف يعالجه.

ووقفا هكذا يحدق احدهما بالآخر، وضوء النيران يسطع على وجهيهما. ورنّت اجراس الدف بخفة وهى فى يد الشامان. وكان يرتدى طربوشه الطويل المطرز عليه بالوتر وجه انسان بشع. وكان الشامان اوغو هنا لينفذ قانون الموت، وكان يدافع عن الموت. وقد جاء فولوديا ليعيد رجلاً الى الحياة، وكان يدافع عن الحياة. وسها عن نفسه فجأة، وأندفع نحو الشامان فامسكه من اليد التى تحمل السكين، وشدها بقوة حتى سقط السكين، فقفز الشامان لاثداً فى الظلمة خلف النيران، يرتعش، ويضرب بدفه.

— وانحنى فولوديا على أبى لامزى.

— وكان الموت قاب قوسين او أدنى. ولكن ما زال يمكن نزاله.

وخلع فولوديا سترته المبطنة، وجلس للعمل، بينما كان الصيادان الآخران يقصان عليه ما حدث، مخللين

سرودهما للقصة بانات. وكان فولوديا يصفى لهما بنصف
أذن، ولكن نتفاً من القصة كانت تبلغ سمعه على أية حال.
لقد كان الصيد جيداً، ولكن الخراطيش قد انطلقت ثم
أن الزومبر والكور العدوين اللدوين للصيادين لا بد من
أنهما التقيا بابى لامزى فى طريقه، وهو احسن الصيادين.
وانفجرت خرطوشة حين كان يعبىء الخراطيش. وكانت
الخراطيش كلها قريبة منه تماماً، غير أن ابا لامزى
أنحنى عليها، فأنطلقت كلها، وضربته فى صدره.

وفجأة ندت صرخة من لامزى، وفى اللحظة التالية
سمع فولوديا صوتاً حاداً خلفه. والتفت.

كان الشامان أوغو يقف على بعد حوالى عشر خطوات
ممتقع الوجه كالأموات، ماسكاً ببندقية ذات مأسورتين
وسحب الزنادين، ولكن البندقية التى كانت تعود الى أبى
لامزى لم تكن محشوة، «فاحتفظ فولوديا بحياته» وإلا
لأصاب أوغو هدفه لأن اهل التايغا يجيدون الرماية.
وتقدم فولوديا خطوة الى الأمام، والقى أوغو
البندقية من يده، وسقط على يديه ورجليه، وجاء يزحف
نحو فولوديا، يزحف وينحنى، ويمرغ وجهه بالتراب.
جاء يطلب الحماية من الرجل الذى اراد قتله. وفولوديا
وحده يستطيع الآن انقاذه، هو الذى خرق قانون الموت،
انقاذ أوغو الذى نوى ان يقتله غدراً، من خلف ظهره.
وحضن حذاء فولوديا الطويل، وضغط وجهه عليه
متضرعاً عاوياً صارخاً متأوها.

وقال اوستيمنكو:

— ارفعوا البندقية، أسمعون؟ ارفعوا البندقية،

وعبئوها، وقفوا ورائى لأن على أن أعمل الآن. خذها
يا لامزى فلربما أبوك لا يخرم عمره ولكنى لا أستطيع أن
أداويه وهناك مَنْ يطلق من ورائى النار. وليذهب
الشامان الى الشيطان!

وكان مهتاجاً. وتذكر - ياللفراية - سفيتلانا ونيوسيا
ثانية. وحشا الصبى لامزى البندقية ووقف وراء فولوديا
تماماً - وترجل الفرسان وجاءوا واحداً اثر الآخر لينظروا
الى الاجنبى عن كشب، الاجنبى الذى قال عنه أوغو أنه
قادر على ان يقتل فقط، غير قادر على ان يشفى. فقد
قتل رجلين فى مستشفىاه ودنس جثتيهما بالتقطيع ليسرق
قلبيهما الرائعين المعافين، قلبى صيادين ليستعملهما فى
اغراضه الخاصة.

ولم يرههم فولوديا. كان مشغولاً بفحص الجريح
الذى يفوح عفونة على اللهب الأحمر للنيران الموشكة
على الخمود. وكان الجرح فى الجانب الأيمن من عظم القص،
وقد أصبحت حوافيه متعفنة. ولم ير فولوديا فى ظهر
الرجل ثقباً مخرجاً للرصاص.

وسأل فولوديا:

- كم يوماً بقى هنا على هذه المشدات الملعونة؟

أجاب دانزى على الفور:

- خمسة ايام. نعم خمسة ايام. انهم لا يفهمون،

هم بله.

وطلب فولوديا الى دانزى ان يجلب الادوات وأن
يوقد النيران العالية، وان يجلب بعض الماء ليغسل
يديه.

وخلال ذلك استمر فولوديا في فحصه. كان الشامان
اوغو قد حشر قطعاً من فراء الثعلب في الجراح. وكان
المفروض أنها فراء شافية غمست بلعاب الذئب، وشحم
السنجاب المذاب. وكان عليه ان يجرى العملية في الحال.
ولكن الرجل لا يستطيع ان يتنفس إذا استلقى على ظهره،
وما من أحد يعطيه المخدر.

وصب فولوديا نصف قدح من الكحول الصافي وخلطه
بقليل من الماء، ورفعته الى شفتي الرجل المسفوعتين،
وصاح بصوت عال وبقوة:

- اشرب ايها الصديق! أنت على قيد الحياة. ان
عمرك لم يخترم. اشربه وستكون حالتك احسن. أسمعني
يا صديق؟ لا تستسلم للمرض بل قاومه، وسرعان ما
تعود الى الصيد ثانية!

وببطء فتح الرجل عينيه المكروبتين.

قال فولوديا:

- اشرب!

وشرب ابو لامزى، وحين تنفس مفرجاً عنه زرقه
فولوديا بزرقه مورفين.

والآن أخذ يفحص الجرح كله على ضوء النيران
الملتهبة. وكان الصيادون يقفون حوله في حلقة لا يريمون،
حاجبين اياه عن الشامان العاوي المنتحب. وتنفس ابو
لامزى بصوت اجش ونشج الصبي بالقرب من كتف
فولوديا. وكانت الريح تئن بين تيجان الشربين، ومياه
التا - خاو الجياشة تزمجر عن بعد تحتهم. وجلس
الصيادان الجريحان الآخران ناسين آلامهما مراقبين في

اهتمام يدي الطبيب الروسي الخفيفتين والادوات اللامعة،
ووجهه المتوتر الغاضب.

وكان عمق الجرح حوالى احد عشر سنتمتراً قاسه
فولوديا باصبعه فتحسس عدداً من قطع الفراء الشافية
وقطعة لباد في القعر. وقد أخرجها جميعاً فى امان.

وبعد لحظة من الراحة سد الجرح، وضمده تضميداً
رطباً. وكان تنفس الرجل أكثر انتظاماً، وكان النبض
ما يزال ضعيفاً، ولكنه أحسن بكثير من قبل.

وصرف ما لا يقل عن ساعة مع الصيادين الآخرين.
وكان عملاً مضمناً أن يزيل عمل الشامان الملعون عنهما.
وبالإضافة الى ذلك كانت عليهما بعض الحروق.

ونفض فولوديا على قدميه آخر الأمر: وكان قلبه
يخفق، وكان يحس وخزاً فى جنبه وخدرأ فى ساقيه.
وظلت النيران الهائلة تلتهب مرسلة دخاناً. ولم تضطرب
حلقة الفرسان الحسر الرؤوس، الداكنى البشرة، المرتدين
معاطف قصيرة من جلد الايائل. وأدار فولوديا نحوهم
فجأة فقال باللغة التى يفهمونها:

— حسناً. ماذا؟ لماذا تقابلوننى كعدو؟ أى ضرر
الحقته بكم؟ إن شامانكم اوغو أراد قتلى، وقد رأيت
ذلك، ولم يحرك احد منكم ساكناً.

اجاب احدهم بصوت أجش:

— لم نجرأ على ذلك. كنا نخاف من الشامان إذ
ذاك. فقد كان فى وسعه أن يلحق الأذى فى جميعنا...

قال فولوديا:

— لا يستطيع ان يفعل شيئاً. إنه احمق جبان!

وهو لا يعمل مثلما تعملون انتم. إنه يغشكم - ومع ذلك
فأنتم تخافونه.

قال رجل آخر:

- لن يكون ذلك بعد الآن. سنقتله الآن.

صاح فولوديا:

- لا، وهذا لن يكون أيضاً. لن تقتله اتسمعنى؟

انا امنعك من ذلك!

وعند الصباح حمل الجرحى الثلاثة الى النهر،
ووضعوا على رمث جاء من اقرب مضرب للخيام. وتذلل
الشامان اوغو على قدمي فولوديا حتى حصل على اذن
بالذهاب في الرمث معهم على شرط أن يرمى طربوشه
العالي ودفه وتعاويذه واحجاره «الحية» في النهر. وانتحب
اوغو نحيباً عالياً، وانفجر الفرسان ضاحكين. ووقف
فولوديا على الرمث وعلى وجهه الشاحب غير الحليق
تعبير لا يرحم، وشفتاه مطبقتان بشدة.

وصرخ اوغو:

- اغفر لي!

قال فولوديا:

- اركب بشروطي هذا، وإلا فلا. أتفهم يا اوغو؟

وإذ ذاك ألقى اوغو جميع ادوات الشامان في مياه
التآ - خاو الهادرة باكياً مرتعشاً. لقد كان يؤمن حقاً
بالقوى السحرية لطربوشه، ودفه واشيائه رغم غرابة
ذلك فيما يبدو.

- ماذا سافعل الآن؟ من سيطعمنى؟ - سأل الشامان

فولوديا.

– ستأتى وتكسر الخشب لى فى المستشفى. وستاكل
مقابل ذلك.

قال الشامان وقد جرحت كبرياؤه:

– ولكننى لا اعرف كيف اكسر الخشب!

فهر فولوديا كتفيه. ولم يتحدث لأحد طوال طريق
العودة الى كخارا، فقد شعر بمرارة شديدة واشمئزاز.
ولعدة سنوات آتية ظل يتذكر وخزة البندقية خلف
ظهره.

وكان أحد المستوطنين المحليين يقود الرمث وكان
الجرحى يتحدثون بكسل ويراقبون الوز والبط يطير أمام
الرمث الزاحف. وعند المساء سمعوا هديرأ موحشاً إنهم
يقتربون من الشلال. وتسلق الشامان المخلوع والصيادان
الآخران إلى نوع من السرير آخذين أبا لامزى معهم، ثم
تركوه هناك ونزلوا ليقدموا القربان للشلال – نقوداً،
وخبزاً وملحاً.

وصاح سائق الرمث:

– أمسكوا جميعاً!

وارتفعت مقدمة الرمث، ودارت مؤخرته مصطدمة
بالصخور، ثم رفعتهم موجة كبيرة مزبدة عالياً، ودار
الرمث يساراً، ثم يميناً، ثم كان الشلال خلفهم. وسأل ابو
لامزى بخضوع عما اذا كان قربانه – وهو علبة خراطيش
نحاسية قديمة – قد القيت فى النهر.

وتحول الى فولوديا وهو يتنفس بصعوبة:

– ستجعلنى بحالة جيدة. نعم يا دكتور؟

وابتسم فولوديا بزفرة استسلام: فلم الغضب مع
أناس قدموا القرابين الى الشلال؟
وفي تشرين الثاني أجرى فولوديا عملية لأبى لامزى
مستأصلاً قسماً من عظم القفص الصدرى الذى استقر
تحت رزمعدنى وطلقتان.

وفي اواخر الشهر نفسه جاءت ابنة ماركيلوف الى
المستشفى لتطلب الى فولوديا القدوم لعيادة والدها الذى
كان مريضاً جداً. سأل فولوديا:
— ماذا به؟

قال بلاغيا فى كآبة:
— أيقول لى حقاً؟ انه يكز على اسنانه فقط حين
اسأله ذلك. وهو يشرب بشكل مفزع ولم يبق على عظمه
اى لحم ولا ينام مطلقاً.
— هل هو الذى اراد ان اتى ام انت؟
قالت بلاغيا فى خجل:
— انا...

فيما اذن فحوى الحياة؟

فى ذلك المساء وضع فولوديا فى جيبه مصباحاً
يدوياً وسماعة صدر وبعض اللومينال وخرج ليرى
ماركيلوف. وعندما كان يقترب كانت كلاب الحراسة
الشرسة المربوطة الى سلاسل فى الفناء تعوى وتنبح. ثم
ظهر موظف ماركيلوف الرعيد امام المدخل، ودعا
فولوديا:

— تعال. نحن بانتظارك.

وكانت لهجته اسيفة:

— الانسة ماركيلوفا تنتظرك بفراغ صبر، ارجوك

ادخل.

وكانت في القاعة رائحة اغصان سرو وبخور
بشكل غريب وشيء آخر حلو بشكل مقرف. وكانت بلاغيا
ترتدى لسبب غريب ثوبها الحريري ذا الحفيف وقد
شدته عند حنجرتها ببروش ثمين، وكانت اصابعها تتالق
بالخواتم الالماسية. وقالت في همس:

— اذهب بنفسك. ها؟ ارجوك. افعل ذلك من اجلى.
ازعم بانك كنت ماراً في الطريق، وقد عرجت هنا لزيارة
قصيرة، او ازعم انك جئت للزيارة فقط، وللتحية. انه
يتوقع مجيئك منذ زمن طويل. وغالبا ما يحدث عنك، لا
كطبيب، بل هكذا انه يذكرك غالباً...

وهز فولوديا كتفيه، وطرق الباب ولم يسمع جواباً
فدخل دون استئذان. كانت الغرفة فسيحة واطنة
السقف ودافئة جداً. وكان ماركيلوف يرتدى سترة طويلة
سوداء، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، ويداه خلف ظهره،
ورأسه مائل الى صدره، ولحيته الشيباء تهتز مثل
عشرون العنز. وكان يتمتم شيئاً في سره ويزفر بصوت
مسموع. ولم ير فولوديا في الحال، ولكنه لم تظهر عليه
دهشة حين ابصر به.

— اوه، هذا انت؟ كيف كسبت شرف مجيئك ايها

السيد الرفيق الدكتور؟

وفكر فولوديا بان لهذا التبجح ريننا متكلفاً
صحيح ان عينييه الدنستين ما زالتا تحدقان به بنفس

الوقاحة الا انهما الآن خائفتان يلوح فيهما الحذر والخوف ايضاً.

- هل تريد شيئاً، ام هذه زيارة جار طيب؟ ما الذى تريده من ماركيلوف؟

- لقد كنت ماراً فى بيتك، ففكرت بان اعرج عليك، - قال فولوديا ببساطة محدقاً بماركيلوف بعين خبيرة، - نحن لم نلتق منذ اكثر من عام. ففكرت بان امر لزيارتك وأرى هل انت فى صحة جيدة؟

- اوه، انت تحب ان يكون ماركيلوف احد مرضاك؟ هذا شرف عظيم لرضيع مثلك. سيعيش ماركيلوف اكثر منكم جميعاً، نعم انتم جميعاً!

ولم يجب فولوديا، وحدق ماركيلوف قلقاً بوجه الفتى الملوح ذى الحنك الصلب الجموح، وحاول ان يحدق بعينيه.

- تقول: جئت لزيارتى بساطة؟ لا، يا دكتور. ذلك لا ينطلى على. ان بلاغيا هى التى اغوتك، ولا احد غيرها. ايه؟ لا شىء تقول. ايه؟ انا مسرور بمجيئك على اية حال. فسنتحدث ونشرب كأساً. عندى بعض المارسال - خمرة مذهشة. لا! مارسالا للسكارى الحلوين. وسنشرب كونياك. هل ستشرب معى؟

- سأشرب.

- وماذا عن كونى مستثمراً، وعدوك الطبقي؟ لم التحديق؟ انا اعرف، اعرف كل شىء يا اخى! فانا اقرا صحيفتين من صحفكم. انا مشترك فيهما.

وخطا عبر الغرفة، وسحب ستارة حريرية زرقاء

مشدودة بحلقات، وكشف عن مصلى فيه مقراة في ضوء
شاحب وكان هناك بعض كتب الصلوات القديمة مجلدة
بجلد العجل مكومة باهمال على الارض، والى جانبها
كومة اخرى من المجلات والصحف. ودخل ماركيلوف
واخذ يقلب الاوراق بغضب، ثم خرج ومعه عدة اعداد
من «البرافدا» و «الازفستيا» لوح بهما في وجه
فولوديا:

— هكذا، انا اقرأ. فماذا؟ تكتبون مزارع تعاونية،
ومشاريع السنوات الخمس، ومزارع للدولة، والكادحون
يمنحون الاوسمة لقاء منجزاتهم. وكيف اعيش انا؟
«مع نشيد الاممية ستنهض البشرية»؟ وانا اعرف ذلك
ايضاً. ولكن ماذا افعل انا؟ ان اعود الى مملكة الظلام
لجز الاغنام؟

— ولماذا تجز الاغنام؟

— هذا على سبيل الاستعارة، وقد اقتبسنا هذه
العبارة من اقطاب مذهبنا. ويعنى عصر ابن البلاد، واخرج
عصارتة. هم المعطون ونحن اصحاب الاحسان. هل
فهمت؟

وكان في عيني ماركيلوف حقد عذاب، وكان الفم الاحمر
فوق اللحية الشيباء معوجاً، وكان وجهه يرتجف وكانما
من ألم. ورمى الصحف جانباً، و مشى الى الباب وصاح على
بلاغيا، ونظر الى ابنته بامعان.

— انظر الى هذه البقرة السمينة انها لم تكن قط
انيقة الهندام في يوم من الايام. ولكنها اليوم ترفل في
الحريير والجواهر. لأجل من؟ للدكتور ربما؟ انه لن

يتزوجك فانت لا تشيرين اهتمامه لأن له في وطنه امرأة في
انتظاره، رفيقة، وليست من مخلفات الحياة الماضية.
وحولت بلاغيا وجهاً احمر ببطء، وخفضت رأسها
وأخذت تتلمس باصابعها حوافي شالها بعصبية.
- هاتى لنا زجاجة مارتيل، ففى المخزن شىء منها.
خذى المفاتيح. ولكن لا تنسى ان تقفلى بعد ذلك والا فان
امك العزيزة ستعلقه كله - وابتسم وتحول نحو فولوديا،
- هى من بقايا المدمنين على الكحول. وهى تعاقب الخمر
بادمان لتجعل الحياة ابهج. يا بلاغيا، هاتى صحننا من
الخيار الشبث المخلل، هناك من يشرب المارتيل مع
الليمون، ولكن نحن فى حماقتنا نشربه مع المخلل. هاتى
ادهن شرائح اللحم واطراها لضيفنا المثقف. انظرى كم
هو نحيف. تحركى. لقد سمت كثيرا من الطعام
الاستعماري، يا مستثمرة عمل الآخرين! - قال ذلك
وهو ينظر الى فولوديا من طرف عينيه المعذبتين، وصرخ
فى ابنته، - اذهبي!

وانحنت ابنته انحناءة خفيضة حسب العادة
القديمة وانسحبت بخفة. واخرج ماركيلوف زجاجة
مملوءة الى النصف من خلف الكرسي ذى المسندين المغطى
بسجادة بالية، وشرب جرعة عن ظمأ.

- كيف ساعيش؟ خبرنى. ان اسلافي جاءوا الى هنا
هاربين من طغيان ابينا القيصر. وعلموني مذهبهم: «خبرنى
اخى من يموت ولا يتفسخ؟» فاجبت بذلاقة لسان: «ام
الله فقط تموت ولا تتفسخ، اذ تؤخذ حية الى السماء».
ثم سالوني حكمة اخرى: «اى مخلوق لم يكن فى سفينة

نوح؟» فاجبت: «السمكة، لانها حتى في الماء تستطيع ان تعيش وتتنفس». لا باس، ها؟ كما علموني ان اضع نفسي فوق ابناء البلاد، فلرب قادم جديد من قومية اخرى قد يضع نفسه فوقى، ويستنزف ابناء البلد اكثر مما يستطيع انا. وعلمنى والدائ ان اشحد انيابى، لان الانسان ذئب للانسان كما قالامثل. ثم ان كنسية زائرة من المذهب القديم ظلت تدمدم عن الفضائل الالهية وعن الطاعة والتفاهم والتقشف، والاحسان، والاخوة، والوئام، وحب الجار. وماذا يفعل المرء؟ كيف يجمع تلك الانياب مع الاخوة مثلاً؟ كيف يجمع بين الاحسان، وتعلم صنع نوع من الخمرة لابناء البلد رخيصة عليك تجعله يدور ويدور؟ كيف يجمع بين الجار وبين موعظة الاب القائلة عن كيفية تسويد لون الفراء حتى يباع بثمان اعلى بثلاث مرات. لقد علمنا آباؤنا كيف نتقشف و في نفس الوقت علمونا كيف نقتل ابن البلد بصمت اذا كان عنودا. نعم كان ذلك حقاً. لقد علمونا ان كل شىء حلال لنا لأننا على المذهب القديم الصحيح، اننا لن نحترق بنار جهنم. وبعضهم ضم اصابعه الخمسة كالحافر ليرسم علامة الصليب، وبعضهم ضمها كالمقرصة. ونحن نعرف كل ذلك. لقد عمدنا اقطاب مذهبنا، لذلك سيغفر لنا، ولم يضع التعليم رغم اننى غير متزمت في كثير منه. وانا لم ارق دم ابن بلد بنفسى، فان ذلك يقرفنى. غير ان ابوى المتوفين كانا ملطخين بذلك الدم، بكثير منه، والآن هناك صراخ. وهذا هو السبب في ان عقلى مضطرب، وكل شىء رأس على عقب. هل هناك مرض على هذا الشكل؟

اجاب فولوديا:

- لم اسمع بذلك.

- ستسمع.

وجاءت بلاغيا ومعها صينية، وتناول منها الزجاجة
وازال سداداتها بان ضرب قعرها بكف يده اليسرى،
ورمق ابنته رمقة ولكنه بدلا من ان يطردها طلب اليها
ان تجلس وتصفى بوداعة.

- هكذا لأنك لابسة حريراً. والآن اصغ ايها الرفيق
الطبيب، لقد اشتدت حدة ذكائى وانا فى هذه الحالة من
الاضطراب وكل شىء رأس على عقب.

وصبت بلاغيا البراندى فى قدحين اخضرين سميكين،
وقدمت واحداً لفولوديا، رشفه. وشرب ماركيلوف قدحه
مرة واحدة. واخذ يقضم خياراً.

وكرر قائلاً:

- نعم، اشتدت حدة ذكائى. وهناك شىء واحد
صغير يضايقنى. ما الغرض من وجود الانسان؟
وجفل فولوديا: فهل ماركيلوف يقرعه ويسخر من
افكاره، بل من افكار فولوديا، كاشفا عنها فى العراء وهو
سكران؟.

- هل هو لكسب المال؟ لنفرض ذلك. قبل كل
شىء ان اسلافنا بدأوا فيه، ونحن نعمل له اجيالاً بعد
اجيال. فقط قل لى: المال لى شىء؟ لوريشتك؟ حسناً
لنفرض ذلك. ولكن ماذا اذا كانت حمقاء، ولا تهتم به؟
فماذا حينذاك؟ و الآن افرض اننى فقدت اتزانى، او، كما
تقولون فى صحفكم تلك فسدت. لماذا اقاوم اذا لم يكن

ای معنی فی ای شیء؟ حسنأ لاضع مزیدأ من الفلوس فی البنك، واحتال علی كافر آخر او اثنین، واحتال علی اولئك الكفار باتقان ویسر، بابتسامة ایضأ. ولكن لأی شیء هذا؟ انا اعرف اننی اتكلم بغير وضوح، بشكل فج. ولكن اجلس واصغ ما دمت هنا...

- انا مصغ.

- حسنأ. انت طیب، وجدیر بك ان تفهم ان هناك امراضأ لا هی فی البطن، ولا فی الصدر، ولكنها امراض اكثر شراً. فحاول ان تكتشف ذلك...

ومأ قدحه، وشربه ومسح شفتیه ومضى فی حدیثه بصوت حازم:

- لقد قضیت حیاتی فی الشر لأننی نشأت فی المجون والفجور والقدارة. ولیس لدی شیء اتشبث به. لقد ضللت طریقى وبدأت اعمى. أن زوجتی یا أخی حمقاء، لحم کثیر فی دهن، ولكنك لا ترى فیها انسانأ. والآن بلاغیا، انا ارثی لها. فان هذه الفتاة ستهلك...

فتوسلت الیه:

- لا، ارجوك یا بابا...

- حسنأ، لا.

وجلس مارکیلوف یفکر، ویشرب خمرته. وصمت فولودیا. وكان الضوء الواهی للمصباح العاری یؤثر فی عینیہ.

وقالت بلاغیا من الطرف القصی للغرفة:

- خذ شیئأ من فطائر اللحم.

واخذ فولودیا. قال مارکیلوف:

- لها، نعم انا ارثي لها، وابصق على الباقي. ولم يبق لي شيء، وعمري ليس بالقليل. والطريق الذي ضللت عنه لن اجده الآن. ان جذري هنا، في كخارا كما تعرف. ومقبرتي هنا، فعندنا قبور للعائلة وطابع عائلتنا صلب. كنا نريد ان يكون لنا مستراح هنا، فبنينا مقبرتنا العائلية من الآجر الروسى الذى جلبنا من آلاف الفراسخ. وعائلتنا المشهورة معروفة لدى الجميع ويخافها من اكبر كافر الى اصغر طفل يسيل مخاطه. لقد اصبحت لين الجانب، ولكنهم ما يزالون يخافوننى، انهم جميعا يخافون منى! وانت نفسك معروف الآن، ولكن لا احد يخافك. هم يعرفونك على بعد مئات الفراسخ فيما حولنا، ولكن ما من احد يخافك. وانت روسى وانا روسى. فلم ذلك؟ قل لي! وافرغ قدحا آخر، وارتجف وقال:

- انهم لا ياخذون الهدايا منى، يخافون ان ياخذوا هداياى، يظنون فيها خدعة. وهم لا يصدقون بطيبتى. ولكنه ربما صرت طيب القلب، وفي الحق، اوه؟ وتحول صوته الى همس مر ومستاء:

- لقد اراد الشامانات قتلك، انا اعرف، لقد سمعت بذلك. وانت احمق، لماذا تخاطر بحياتك هنا؟ انا اخاطر بها من اجل الذهب، هذا ليس سراً، وانت؟ اى راتب ضخيم تتقاضاه؟ واية جائزة ستحصل من عملك الشاق هنا؟ اى؟ انا، مثلاً، استطيع ان اذهب الى كاليفورنيا او روما فى اى يوم اشاء، اليوم او غداً. فذلك رهن مشيئتي. وانت؟ ليس لك حتى امرأة، ايها الاحمق المسكين. وانت لا تشرب. كم قضيت هنا؟ سنوات. لقد

رايت شيئاً بام عيني قبل ايام: لقد رايتك مقبلاً في الطريق، وهاجمك كلب، ثم خرجت تلك المرأة، زوجة سين بيليك الى الكلب ومعها عصا. ولكن انا؟ من يصد كلباً عني؟ خبرني، ساعدني، تكلم. متى يتدخل عقل الانسان؟ اجبني ايها الرفيق، انا عجوز، ولكنني اسالك ان تخبرني، لأي شيء يعيش الانسان في هذا العالم؟

— ليؤدي عمله، — اجاب فولوديا بعبوس، وبصوت لا يكاد يسمع.

— ماذا قلت؟

— ليؤدي عمله.

— ولأي شيء يؤدي عمله؟ ألم اؤد عملي حقاً؟ اقعدت اطلقق بابهامي؟ وماذا يعرف جرو مثلك عن الفراسخ التي قطعناها نجوب التايغا، المستنقعات الخطرة فيما حولنا، وعن الليالي التي حييناها، والذئاب التي انشالت على اعناقنا، وكيف رمى اهل البلد والدي وكأنه دب. وهل المضاربة ليست بعمل؟

— لا، ليست بعمل. لقد كنت تجمع الفلوس، ولم تكن تؤدي عملاً.

— من الجشع، تعني؟

— نعم.

— ولكن الا مهراب لي من تدخل العقل؟

— اتسألني بوصفي طبيباً؟

— لعنة عليك وعلى طبك. يضحكني ان اسمع منك

هذا، انا اسالك بوصفك روسياً.

قال فولوديا وهو يحدق بماركيلوف بقسوة:

- انا وانت روسيان، ولكن روسيتنا تختلف، فانا روسى سوفيتى، وانت روسى بالقومية، روسى سابق، روسى بالحجارة التى جلبتها لقبرك، وليس بالمقاييس الانسانية. ان الروسى اليوم لن يطلق الكادح عليه الرصاص. وهذا السبب فى انك تخاف. وانا لا اخاف. والظاهر ان ماركيلوف لم يكن يصفى.
قال باغتيال:

- حسناً. إنحن لمن يحمل مبخرة. اعرف ذلك فاخبرنى بشيء واحد: ربما اهب للمستشفيات كل ما املك؟ ربما يجعلنى ذلك طبيباً مثلك، ايها السيد الرفيق؟
- ما تملك ليس مالك الحلال، والانعام بالاشياء المسروقة حماقة.

ولم تبد الدهشة على ماركيلوف، بل اقترب من فولوديا وسأل:

- وهل الصفح عن الشامان اوغو ليس حماقة؟ لقد اراد قتلك، وانت الآن تطعمه. وكان الاولى بك ان تشنقه على فرع شجرة وان تشيط قدميه على النار، حتى يتذكرها طوال حياته.
قال فولوديا ببرود:

- لا لوم على اوغو. بل انت الملوم.
- أنا مرة اخرى، اسمعى يا بلاغيا! انا الملوم فى هذا ايضا! طبيب شاطر. كيف يقع على اللوم يا اعز صديق؟

- انت تعرف ذلك كما اعرفه انا: منذ مئات السنين...

- فقاطعه ماركيلوف قائلا:
- حسنا، كفى هراء. لقد بذلت قصارى جهدى من اجلك. لقد كتبت لكل من تقتضى الكتابة اليه، سيضعون شامانك خلف قضبان قوية.
 - لن ادعهم يفعلون
 - لن تدعهم؟ - قال ماركيلوف باستغراب.
 - بالتأكيد لن ادعهم.
 - خلق مسيحى؟
 - لا شأن للمسيحية فى ذلك.
 - فليتخطفك الشيطان اذن، سأسالك هذا السؤال الأخير، ما هو العمل الذى قلت ان الانسان يجب ان يعيش من اجله؟
 - اى عمل نافع لخير الناس وهذا كل ما فى الأمر،
 - اجاب فولوديا بذلك متجهما وغازبا ايضا.
 - الناس - انهم روث!
 - قال فولوديا وهو ينهض:
 - فى هذه الحالة لا اريد ان اضيع وقتى معك. اعتقد ان الشخص السيىء للغاية هو الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يقول ان الناس روث.
 - فاجاب ماركيلوف بسخرية:
 - ولكننى شخص سيىء للغاية.
 - ثم صاح خلف فولوديا:
 - تعال وثقفنى فى جهلى بين حين وآخر!
 - اجاب فولوديا:
 - لا، لن آتى. فالجلوس معك مضجر، وبلا جدوى.

ووقف لحظة ينظر احدهما الى الآخر، وكان
ماركيلوف مضطرباً، فولوديا هادئاً وحزيناً.

وكان الكاتب ينتظر فولوديا في مدخل البيت يرتجف
في الرذاذ البارد. وهمس:

— هل سيكون قريباً؟.

— كيف قريباً؟

— لقد نفذ كل ما في طاقتنا. انت تعرف. ان خلقه
غير اعتيادي. وهو لم يعد انساناً قط. وقد جاء اجله.
وليس في وسعي حتى وصف كل شيء لك يا دكتور...
واشعل فولوديا مصباحه اليدوي، ومشى عائداً الى
المستشفى. كان فاسيا متلقياً على فراش نظيف وهو نفسه
نظيف ومسترخ. وكان يقرأ في بهجة بعض الشعر الغزلي.
قال:

— لقد ولدت اوش في غيابك، منذ وقت قصير.
طفلاً صغيراً ممتازاً.

واغتسل فولوديا، ولبس مريوله وذهب لرؤية
اوش، وكانت ما تزال غافية، وكانت غرفة الولادة حسنة
الترتيب، وكان اباتاي العجوز يلعب الداما في الممشى مع
الصياد كورى وهما متربعين امام باب احد المواقد بخشبه
المتوهج جمراً. ومن الردهة الرابعة كانت تنبعث انات
كخيم، وهو صبي في العاشرة من العمر اجريت له عملية
في ذلك الصباح. وبقي فولوديا معه بضع دقائق جاساً
نبضه، متحسساً ساقه ليتأكد من دفئها. وكانت دافئة،
وكخيم لن يكون كسيحاً. وحين خرج فولوديا من الغرفة

راى توش الهيفاء المتالقة العينين الخفيفة الحركة تهرع نحوه.

- حسنا، ماذا عن موسكو، هل انت ذاهبة يا توش!
- لا، - اجابت فى مرح وعيناها تحدقان بوجهه.
- لماذا؟
قالت:

- انا ما ازال جاهلة جدا. وسيضحكون منى هناك.
ساذهب فيما بعد ساذهب حين تقول لى: اذهبى يا توش!
فقد حان وقت الذهاب. نعم هكذا؟
ولم يستطع ان ينظر الى عينيها لأنها كانتا براقتين،
والنور فيها رقيق ودافئ كليا.

الموت الاسود

فى ذلك الربيع وضعت أسس بناية ثانية للمستشفى.
وفى يوم الافتتاح وصلت من الوطن طيبة أخرى - وهى
امراة فى منتصف العمر قوية البنيان بطيئة الحركة تدعى
صوفيا افانوفنا سولداتنكوفا. واول شىء فعلته هو انها
طالبت بشكل قاطع ان يطرد اوغو من المستشفى. قائلة
فى حنق:

- يبدو غريباً جداً ان يكسر قيس سابق، او
شامان كما يسمونه هنا، الحطب لموقد المطبخ! لقد
رايته بنفسى يفعل ذلك. شىء عجيب حقاً! وهو يكسر
الحطب للردحات ايضا. غريب جداً جداً!
فاعترض عليها فولوديا متجهماً:
- ولكن لا يقوم بالسحر الاسود فى المستشفى.

كما ان ذلك الرجل لم يعد شاماناً. فليس عنده دفا، ولا عصا.

- غريب جداً. من كان قسيساً سابقاً، يظل قسيساً دائماً، بعضاً او بغير عصا. وبالإضافة الى ذلك سمعت انه قام بعمل رهبانى ضدك.
- اى عمل؟

- عمل ارهابى. وقد اظهرت طيبة وعطفاً فى غير محله حين رفضت ان تسلم النذل الى السلطات. ان جميع اعداء طبقتنا يجب ان يعاملوا دون رافة، ألا تفهم؟
فقال فولوديا بخشونة:

- هو ليس عدواً طبقياً. انه مضلل ومنكود الحظ. كما ليس من شأنك ان تعلمينى ما افعل. فانت قد جئت منذ ايام، وانا هنا منذ...
فقالت ساخرة:

- اوه، اذن هذا هو رد فعل النقد عندك. حسناً، لقد كنت متوقعة شيئاً فى هذا القبيل: اطمئنان النفس وركونا على مجدك، وثناء متبادلاً.
وكانت عجيبة تلك العبارات الجاهزة التى كانت تلك المرأة تتفوه بها فى كل مناسبة. انها تعيش ببساطة فى هذا العالم.

قال فولوديا وهو ينهض للذهاب.

- فصل الخطاب ان اوغو يعمل هنا، وسيستمر فى العمل هنا. فاذا كان هذا لا يوافقك فاكتبى الى تود-جين فهو يعرف القصة كلها. ومن تحسبين ايضاً عنصراً طبقياً غريباً؟

قالت في آهة:

- يجب التثبت من ذلك. ولا حاجة للقول ان منجزات معينة حصلت هنا ايضا، وان هناك اناسا مخلصين لنا، وليس ذلك شيء سيئ.
وقامت صوفيا ايفانوفنا بكثير من العمل ولكن بجفاف. وكان من رأيها ان تواريخ الحالات المرضية في المستشفى قد كتبت بصورة مختصرة، وان السجلات بصورة عامة قد وضعت بشكل بعيد عن الرضى للغاية.
وقامت بتغييرات « جذرية ». وكانت في الصباح والظهر والليل جالسة تكتب تقارير مفصلة طويلة، وكانت اصابعها وحتى خديها ملطخة بالحبر دائما، وجبهتها متغضنة من القلق.

وكانت تقول وهى تزفر زفرة الهم:

- نعم، ما تزال هنا اشياء كثيرة يجب اصلاحها، كثيرة جداً. غريب حقاً ان الامور قد تردت الى هذه الحال من الاهمال، غريب جداً. انا الآن اعين الاشياء فقط، ولكن حين يحين الوقت سنتحدث حديثاً صريحاً لا هوادة فيه، ودون مجاملات...

وفي ساعة متأخرة من ليلة حالكة جاءت بلاغيا ماركيلوفا لرؤية فولوديا. وكانت عيناها منتفختين من فرط البكاء، وظلت برهة طويلة غير قادرة على الكلام ثم قالت آخر الامر في جهد:

- دعنى اعمل هنا ايها السيد الدكتور. انا قادرة على عمل كل شيء ولن تأسف على ذلك.
- وما رأى ابيك في ذلك؟

قالت فى حنق:

- فلير ما يرى. فهل هو انسان الآن؟ إنه الآن غارق فى الائم، يشرب من الصباح حتى الليل، ويقرا دون فهم، ويلعن.

- لن يدعك تعملين، انت تعرفين ذلك.

- ساعيش هنا فى المستشفى، فى ركن صغير، فى اى مكان تسمح لى بالعيش فيه. وستكون هذه حياتى. ارجوك يا دكتور، والا فساشنق نفسى ساشنقها صدقا. وسيكون الذنب ذنبك، ارجوك.

وركعت على ركبتها.

وصاح فولوديا بها:

- كفى عن ذلك، كفى! اتسمعيننى؟ انهضى فى الحال!

ودخلت صوفيا ايفانوفنا الغرفة ومعها بيان ليوقعه فولوديا، وسألته عن معنى هذا المنظر الغريب. فاخبرها بجلية الأمر.

- آه، تقصد ماركيلوف؟ أليس كذلك؟ روكفلر المحلى... - قالت ذلك وهى تغضن جبينها فى تفكير قلق، - لقد سمعت عنه بالطبع.

وتحول فولوديا الى بلاغيا:

- ستبدئين العمل من صباح الغد. ولكنى احذرك من اننا نعمل كثيراً جداً، والعمل هنا صعب ونحن لا نريد مدللين...

وحين غادرت بلاغيا، قال لصوفيا ايفانوفنا:

- اعطنى البيان اوقع عليه.

وبعد ان بقى لوحده تنفس الصعداء، وذرع الغرفة مرة او مرتين، وتوقف ينظر الى السماء السوداء خلف النافذة العارية عن الستائر، ثم فتح راديوه. وكانت بطاريات الراديو موشكة على النفاد، وقد طلب بطاريات جديدة قبل شهر إلا أن وصولها تأخر. وكان في الجو وشوشة، وقد حاول ان يلتقط موسكو فلم يفلح؛ فادار الكرة فوق على محطة سلافية او ما اليها، وفجأة وقف جامداً، مصعوفاً بما سمع: لقد هاجم هتلر على الاتحاد السوفييتي. وهناك اندلعت الحرب، صراع هائل لا مثيل له في تاريخ البشرية.

وجاء فاسيا الى الغرفة، طاوياً اكمامه مغمماً بلحن. وطلب اليه فولوديا ان يصمت. وسمعت صوفيا ايفانوفنا صوتهما فجاءت مهرولة شاحبة مهتاجة. وكان وراءها دانزى وتوش واباتاي العجوز. وبالتدريج اخذ فولوديا يعي الامر: في ٢٢ حزيران، وفي الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل شن النازيون هجوماً على طول الجبهة الممتدة من البحر الاسود الى بحر البلطيق، ويتقدم الفيلدمارشال فون بوك، وغوديريان، وشتراوس وبوت نحو مدن الحدود، ولكن أية مدن هذه؟ لقد كان من المستحيل معرفتها. ثم جاءت انغام التانكو، وبعد ذلك لم يسمع من الراديو غير وشوشة وخليط اصوات. صاح فاسيا:

— مستحيل، هذا استفزاز، هراء!

وعند مطلع النهار ارسل فولوديا برقية الى تود — حين يطلب اليه ان يعين فاسيا طبيباً رئيسياً في محله.

وجاء الجواب خلال ساعتين وفهم فولوديا أن في وسعه السفر الى الاتحاد السوفييتي لا سيما وأن بوغوسلوفسكى قد طار عائداً الى موسكو. وجاءت توش لتقول لفولوديا بحزن أن قافلة ستغادر كخارا في اليوم التالي، وعرضت عليه أن تساعد في حزم حقائبه.

- ليس عندي ما احزمه. بل سأضع بعض الاشياء في حقيبة الظهر. وهذا كل ما في الأمر. فلا تضايقيني ياتوش فعندي كثير من الاشياء اريد عملها. خرجت توش.

وحاول فولوديا ان يلتقط بعض الاخبار الجديدة غير أن كل ما سمعه هو خطبة نابحة لفاشي من اتباع هتلر لم يفهم منها شيئاً. واغلق الراديو. «لا بأس، إن التأخير ليس بالأمر المرعب، فبعد شهر على الأكثر ساكون في جبهة القتال. وعلى فقط ان احتفظ برباطة جاشي».

وإذ ذاك فقط لاحظ دانزى الذى كان واقفاً في المدخل منذ زمن. وكان وجهه شاحباً، وذقنه يرتجف، وكانت في صوته بحة حين حاول ان يتكلم.

قال فولوديا في غضب وقد عيل صبره:

- تكلم، أنا لا استطيع إن افهم كلمة واحدة.

فقال دانزى في تمتمة:

- العلم الأسود فوق اليورتا. وسرعان ما سيأتى

مرض الفئران الجبلية الى كخارا. فقد وصل الموت

الاسود الى جافان - ايلير بالفعل. فاذهب يادكتور،

اذهب. ولم ادع الرجل العجوز يدخل فإنه جاء باخبار

مرعبة، وهو نفسه سرعان ما سيموت. وسيكون الأمر مثلما حدث قبل سنين عديدة. مات كل شخص في كخارا، والاطفال الصغار أيضاً، كل من لم يهرب مهرولاً في وقت مناسب مات.

ومرض الفئران الجبلية أو الموت الاسود يعني هنا الطاعون. وكان آخر وباء فظيع جداً له حدث عام ١٩١٦. وقد سمع فولوديا من السكان المحليين القدامى أكثر من مرة كيف فر حاكم المقاطعة، وكيف فقد الناس عقولهم من شدة الرعب، وكيف كان الموتى في الشوارع لا أحد يمسهم.

ووجد فولوديا رجلاً عجوزاً تعباً اصلع الرأس غائر الخدين، خالي الفم من الاسنان قابلاً أمام درجات المدخل يقص على ابائى واوغو وصوفيا ايفانوفنا وفاسيا عن مرض الفئران الجبلية. وكانت توش هناك ايضاً تترجم كلامه.

في ذلك الربيع وصلت اشاعة الى سمع صيادى الفئران الجبلية فحواها أن التجار في المراكز التجارية يشترون جلود الفار الجبلى بقيمة تزيد خمس مرات وستاً على القيمة السابقة له. وقد جلب هذه الاشاعة من وراء الحدود صيادون من بس - فا مقر حاكم بلاد الشمس. وقد قالوا إن جلود الفئران الجبلية الآن تصبغ وتهيا بمهارة رائعة حتى أن تجار الفراء الآن يكسبون منها مالاً وفيراً. وطبيعى ان الصيادين المحليين ارادوا الحصول على مال ايضاً، فأخذوا يصيدون جميع الفئران الجبلية التى تقع تحت ايديهم، وحتى تلك الفئران التى

لا ترسل صوتاً، رغم أن كل الناس يعرف أن الفار الجبلى الصامت مريض، ومحدور مسه. والفار الجبلى المعافى يتمم دائماً هكذا: «لا تخف، لا تخف» وكل الناس يعرفون ذلك أيضاً.

وشرب الرجل العجوز بعض الماء من قدح مطلى بالميناء البيضاء، واشعل غليونه.

قال فولوديا:

— ليقل لنا ماذا رأى هو بنفسه.

ولكن العجوز لم يكن على عجلة. وفضلاً عن أن الصيادين اصطادوا الفئران المريضة، فقد أكلوا لحومها أيضاً. وأول من أصابه المرض هو أصغر الاخوين مونغ - أو. وكان كلاهما الصغير والكبير - ماهرين في إلقاء الشرك على جحور الفئران الجبلية، كما كان يعتبران ماهرين في الرماية جداً. وقد أصاب المرض أصغر الاخوين وهو في السهب، ومات هناك. ودفن الكبير جثته. وقررت صوفيا ايفانوفنا:

— إنه طاعون دملى.

— دفن اخاه واستمر في صيده. وقد وآتاه الحظ. ولكن الناس رأوه بعد أيام راجعاً الى خيمته مترنحاً كالسكران. وإذا كان الانسان يترنح هكذا فإنه مصاب بمرض الفئران الجبلية لا محالة، وأن عمره سيخترم سريعاً.

وشرحت صوفيا ايفانوفنا:

— كان الأخ الأكبر مصاباً بالنوع الرئوى من المرض. وفي حالات مثل هذه يجب أن تنظم في الحال

محاضرات توضيحية للناس النشيطين اجتماعيا من بين السكان.

فتمتم فاسيا في غيظ:

- نشيط، وغير نشيط!

ومضى العجوز في حديثه ليقول ان مونغ - او الكبير لم يستطع حتى ان يدخل الى خيمته، وكل ما استطاع هو ان يصيح ليقول: «أرفعوا خرقة سوداء على صارية فوق خيمتي». وسكان السهب يعرفون ان العلم الأسود اذا رفرف فوق خيمة يعنى الموت. على الجميع ان يبتعدوا عنها.

- اسأل المواطن، هل كان على صلة مباشرة

بالمصابين؟

ولم تفهم توش السؤال.

فاوضح لها فاسيا السؤال قائلا:

- هل رأى العلم الأسود فقط، اما كان في داخل

الخيمة؟

ابتسم العجوز بخفوت. لا، لقد كان من الحكمة بحيث لم يقترب من مرض الفئران الجبلية في اى مكان. ففي المرة السابقة، قبل سنين عديدة تخطف هذا المرض جميع اقربائه، لهذا فهو يعرف جيداً اى نوع من المرض هو.

وفي الصباح التالى اخذ الاخ الأكبر مونغ - او يبصق دماً، وبعد بضعة ايام رفرفت اعلام سود فوق جميع الخيام في المضرب: لقد اجتاح المرض الاسود جافان -

ايلير. وإذ ذاك اسرج العجوز فرسه، وجاء الى هنا، الى الشامان السوفييتي العظيم. وقد حكيت قصص كثيرة عن علاجاته. فاذا كان الشامان الروسي مثل ما يتحدث الناس عنه حقاً فليقدم يد المساعدة. ولكن إذا لم يكن كذلك فليقل ذلك في الحال، ولن يضايق مرة أخرى.

— إذا كنت تحب ركوب الزلافة فعليك أن تحب جر الزلافة أيضاً،— قالت صوفيا ايفانوفنا لفولوديا ذلك وذهبت الى المستشفى.

وطلب فولوديا الى توش أن تخبر العجوز بأنه شخصياً لا يستطيع أن يقدم الآن أية مساعدة، ولكنه سيحاول ان يستدعى كثيراً من الأطباء لياتوا الى هنا، جيشاً كاملاً من الأطباء يستطيع بالطبع أن يقدم المساعدة. وأمر توش وفاسيا بأن يضعوا العجوز في الحجز الصحي، ومضى ليرى زدابا، حاكم مقاطعة كخارا. وقد استقبل الحاكم فولوديا ببرود. إن خط الحدود يقع على مرمى خजर وفي جانبه الآخر حاكم بلاد الشمس. فاذا التهم هتلر روسيا فان بلاد الشمس ستحتل كخارا وإذ ذاك سيحاسبه الحاكم على كل عطف قد يبديه نحو الطبيب السوفييتي. لهذا فلم يعرض على فولوديا حتى الجلوس على كرسي. ولكنه ما إن عرف بالطاعون الوافد حتى طراً على سلوكه تغير سريع. فصاح يطلب أن يحضر الشاي لفولوديا حالاً، وطلب من سكرتيره ان يتصل تلفونيا بدائرة الصحة العامة دون إبطاء. ولم يجب أحد من هناك. فاقترح فولوديا أن يتصل زدابا بتود—
جوز في بيته تلفونيا.

ومن حسن الحظ، من حسن الحظ العظيم ان
تود-جين اجاب بنفسه، واخبره فولوديا عن الوباء في
جافان-ايلير. وكانت على الخط التلفوني ضوضاء
خارجية.

قال فولوديا:

- اطلب المساعدة من دائرة الوقاية من الاوبئة
في موسكو. فستقدم المساعدة.

قال تود-جين:

- ولكن الحرب قائمة.

قال فولوديا مجادلاً:

- سيقدمون المساعدة على اية حال. أنا أضمن
لك ايها الرفيق تود-جين. فان لاولئك الناس عقولاً،
وسيدركون أية كارثة ستلم بجمهوريتكم، إنهم سيقدمون
المساعدة بالتأكيد.

- حسناً جداً،- قال تود-جين في تفكير وببطء
ثم قال إنه يريد ان يتحدث الى الحاكم.

وبعد ربع ساعة تلقى آمر الحامية-وهو ملازم
اول وخط الشيب شعره-الأوامر بفرض طوق من
الحصار على منطقة جافان-ايلير، ومنع الدخول والخروج
منها. وقد استمع الضابط الى الأوامر بصمت مجيباً
عليها ضارباً كعبي حذائه، رافعاً يد بالتحية الى القمة
العالية لقبعته البيضاء ذات الشرائط الفضية. وخلال
ذلك كانت أمتعة الحاكم البيتية تحمل على الجمال
والخيول والعربات في باحة البيت بصخب، بينما بكت
سيدات البيت-زوجة الحاكم وبناته وكنته- في فزع

من الذهاب الى الجبال وترك القصر بغرفه الست ناهيك
عن الخيمتين الشتويتين في الفناء...
ووصلت برقية الى فولوديا في منتصف الليل اخبره
فيها تود-جين بأن موسكو قد قدمت المساعدة، وأن
الطائرات التي تحمل الادوية والمعدات والاطباء هي في
الطريق الى هنا بالفعل. وأن البعثة برئاسة البروفيسور
بارينوف، وأن تود-جين نفسه سيطير الى كخارا في
اليوم التالي مع سكرتير اللجنة المركزية لحزب العمال.
وقد جاءت بعد ذلك تعليمات بارينوف واقتراحاته
مرسلة بالراديو من الطائرة. وقد قرأ فولوديا البرقية
واعاد القراءة.

ومن الغرفة الثانية سمع صوفيا ايفانوفنا تعلم
توش كيف تلبس الملابس الواقية من الطاعون.
كانت صوفيا ايفانوفنا تقول بصوتها البطيء:
- نعم، اعرف أنك ضجرة. ولكن الوقاية الشخصية
على اية حال تلعب دوراً كبيراً في عملنا. فليس مجداً أن
يصاب المرء بالطاعون ويموت لمجرد غفلة فقط.
البسي اولاً ثوب العمال. هكذا أترين؟ يجب ان تصان
الساقان جيداً من الاسفل بشدها بهذه الاسلاك...
- ضد البراغيث؟ - سألت توش بصوت خفيض.
- ان براغيث الفئران بعد أن يموت اسيادها
تخرج من جشهم، ومن اعشاشهم، - تحدثت صوفيا
ايفانوفنا وكأنما تقرأ في كتاب، - وما تسمى بالبراغيث
الطليقة تنتقل الى الانسان بسرعة... والآن انظري
يارفيقة توش. يجب أن يزم الطرف الاسفل تحت ثوب

العمل، وأخيراً وليس آخراً نأتى الى الكمامة. يجب املاء الفراغ الموجود في كلا جانبي الانف بالقطن المشبع، قطع صغيرة من القطن...

وخرج فولوديا الى الممشى، ودق باب صوفيا ايفانوفنا دقاً خفيفاً. كانت صوفيا ايفانوفنا وتوش واقفتين في وسط الغرفة في كامل ملابس مكافحة الطاعون.

وسأل فولوديا:

— ما الذى يجرى هنا؟

قالت صوفيا ايفانوفنا:

— أنا مختصة بمكافحة الأوبئة كما تعلم. لهذا فقد رأيت أن من الصائب أن نذهب أنا وتوش الى هناك، نقوم بالتشريح وندرس الوضع في مكانه. وسنقدم المعونة الطبية حيثما نستطيع. ونحن نملك بدلتين واقيتين، وهناك ميكروسكوب وليزول وحامض الكاربوليك وكل ما هو ضرورى. وأنت الطبيب الرئيسى بالطبع، ولكننى أتصور...

قال فولوديا:

— أنا موافق، اذهبا.

— اظن اننا نحتاج الى اوراق تفويض، وموافقة رسمية منك.

— لا، يا صوفيا ايفانوفنا، لا حاجة الى ذلك، فليس هناك أحد تقدمينها اليه.

فهزت كتفيها بإباء:

— هذا محال! إنه كالقرون الوسطى! كنت انوى ان

لقى المحاضرة للنشيطين في العمل الصالح من السكان، وفي
ذهني سلسلة من المشاريع...

وادخل فاسيا رأسه النعسان من الباب وسال:

- ربما ساذهب معكما؟

ف قالت صوفيا ايفانوفنا:

- ولماذا؟ نحن الاثنتان كافيتان لدفن الجثة

المشرحة وبالإضافة الى ذلك ليس عندنا غير بدلتين

وقائيتين. وليس لنا الحق في ترك المستشفى بلا اطباء،

وذلك غير لائق بصورة عامة. وعلى المرء ان يفعل ما هو

لائق على الدوام، ولا يعمل ما هو غير لائق. وأنا لن اعود

بالطبع حتى ينتهى كل شيء. ولربما ستبحث عنا في

منطقة مونغ - أو...

وحين استعدا للذهاب أعطت صوفيا ايفانوفنا

رسالة وقالت:

- إذا حصل شيء لي أريد منك أن ترسل هذه

الرسالة لابنتي. فهي كل ما أملك. وقد تركنا ابوها،

والآن عنده عائلة جديدة. ولكن ذلك لا بأس منه، فان

الزواج ينبغي أن يقوم على الحب المتبادل، فاذا لم يكن

هناك، فلا زواج. الى اللقاء يا فلاديمير افاناسيفتش!

وغادرا - توش الفتاة الصغيرة الهيفاء ذات الشعر

الاسود وصوفيا ايفانوفنا، المرأة الضخمة - وركبا على

رأس صف من الخيول المحملة بالخيام والمرشات

والمجارف وصناديق الأدوية، والمؤونة في العلب المحكمة

السد.

وعند الوداع قالت صوفيا ايفانوفنا لفولوديا:

- ارجوك يا فلاديمير افاناسيفتش ان تعتنى
بما تسمى عمل الاوراق، فانا رتبت هذا الأمر بعض
الشيء والآن حيث أغادر لأمر ملح...
واختفت القافلة الصغيرة من مرأى العين.
وقال فولوديا لفاسيا:
- كيف؟
فقال فاسيا:
- لم أتوقع منها هذا قط!

للمضيفة التي تخدمها

وفي ساعة متأخرة من بعد الظهر رأى سكان كخارا
أول طائرة، وهى طائرة تشبه كثيراً الطائرة التى جاء بها
والد فولوديا الى البيت ذات مرة. ولم يكن فى كخارا
مطار، وقد حام الطيار مدة طويلة ليرى اين يهبط. وقد
بدا لفولوديا أن هناك نغمة فزع واستفهام فى هدير
المحرك ومست الطائرة الارض عدة مرات لتحلق
ثانية.

وهبطت الطائرة آخر الأمر.

ونزل منها ثلاثة رجال - طيار شاب جداً له انف
افطس وناصية شعر بيضاء، وتود - جين، وسكرتير
اللجنة المركزية لحزب العمال، وهو رجل كبير فى نحو
الخمسين من العمر له شعر كثيف وقصير. ولم يصافح
الحاكم، وبدلاً من ذلك تنحى به جانباً وقال له شيئاً،
وفى صوته المكتوم رنة غيظ. وتراجع الحاكم بوداعة،
وانحنى.

قال تود - جين لفولوديا بلهجة حازمة:
- سيتولى سكرتير اللجنة المركزية الأمر بنفسه
شخصياً، وهو رفيق ممتاز. وقد حبسه اعداؤنا في قفص
خشبي وسلاسل عدة سنوات. نعم ان الشعب يعرفه
جيداً، والشفيلة يؤمنون به، والآخرون اولئك
يخافونه...

وامتطى السكرتير صهوة حصان، وذهب مع أمر
الحامية ليتفقد الحصار. وطوال ذلك النهار والليل عمل
سكان كخاراً بعناء، يسوون سطح الهبوط ويمهدونه
ليكون صالحاً لهبوط طائرات النقل الثقيلة القادمة من
ساراتوف لتحارب الموت الاسود.

وتناول الطيار ذو الناصية البيضاء طعام فطوره
المتكون من دجاج مقل، وحليب بارد في مطلع اليوم
التالي، وطلب الى فولوديا ان يقول له المزيد عن الموت
الاسود:

- أهذا الطاعون سار على هذا النحو؟ إذا سألتني
رأى انه ليس أسود على النحو الذي صبغ فيه. إنه مفزع
لا غير على ما أظن.

ثم اضاف وهو يمسك بساق الدجاجة.
- أنا احب قضم العظام، لا اعرف لماذا. أهو من
مخلفات الماضي، أو شيء من هذا القبيل أيها الرفيق
الدكتور، وهل للعلم شيء يقوله عنه؟

وسأله فولوديا عن انباء الحرب. اجاب:
- إنهم يضغطون مندفعين الى الأمام، يضغطون
بشدة! وقد فقدنا بعض المناطق بصورة مؤقتة بالطبع.

ولكن أتعرف اننى اعتقد إن ذلك يشبه الموت الأسود الذى تتحدث عنه، ولا عجب أن يسمى بالموت الأسمر. وحتى تتم تعبئتنا بصورة لا ثقة سينال منا ماينال، ولكن ما إن نخرج اليه بكامل قوتنا حتى نلقى به حيث نريد. والشئ الرئيسى ان لا نرتبك وان نحتفظ برباطة جأشنا. قبل كل شئ لا يمكن للطاعون ان يقضى على البشرية. ولا يمكن للفاشية ان تقضى على السلطة السوفييتية. وبعد فترة من الزمن جاء اليهما تود-جين، وسأل فولوديا أمن الممكن أن يستقبل حرس شرف الاطباء القادمين من موسكو، وبماذا توصى الكتب الدبلوماسية فى هذا الصدد. ولم يكن فولوديا يعرف. كما ان الطيار لم يكن يعرف ايضاً، ولكن فى رأيه ان ذلك «لا ضرر فيه». وفكر سكرتير اللجنة المركزية فى الأمر وقرر أن يستقبلهم حرس شرف وجوق موسيقى يعزف «النشيد الأممى».

وفى الساعة السادسة صباحاً ذهب فولوديا راكباً إلى الصخرة البيضاء الكبيرة عند مفرق الطرق حيث تعسكر نقطة الحجر الصحى. وكان جنود الجيش الجمهورى لا يسمح لأحد بالخروج من منطقة جافان-ايلير أو الدخول اليها.

وكانت توش فى الجانب الآخر من الحاجز تنتظر. وكان حصانها الصغير يهز عرقه الطويل ليطرد ذباب الدواب عنه. وكانت الريح تهب من خلف فولوديا، فلم يكن مضطراً الى رفع صوته، ولكن توش المسكينة كانت

مضطرة الى ان تصيح باعل صوتها حتى احمر وجهها من
الجهد الذى تبذله. صاحت:

- نحن بحاجة الى ليسول، كثير من اليسول،
الوباء من النوع الرئوى. وكثير من الناس قد ماتوا،
وكثير منهم مرضى. ونحن بحاجة الى طعام، وطبيب او
طبيبان لا يكفيان، إنه وباء هائل. ونحن بحاجة إلى
امصال تطعيم، الى كثير منها.

وحركت الريح شعر توش الاسود، وهدق الجنود
بالشابة الشجاعة معجبين وخائفين.

نادى فولوديا:

- ليكن الحظ معكما ياتوش! وعن قريب سنأتى
اليكما جميعاً لمساعدتكما. فالاطباء فى طريقهم من
روسيا، كثير من الاطباء! إنهم يطيطون، يأتون
بالطائرات، فاصبراً قليلاً يا توش، ساعات قليلة أخرى!
- سنفعل، - صاحت توش.

وبهزة من سوطها دارت بالحصان وعدت نحو
الخيام التى تتدلى فوقها الاعلام السود المشؤومة.
وخلال ذلك الوقت هبطت أول طائرة نقل فى كخارا.
وكانت على جسم الطائرة وجناحيها علامة الصليب
الأحمر، وإشارة التبعية السوفيتية. وكان بانتظارها
اربعة وعشرون جندياً مسلحاً يرتدون القمصات
العسكرية البيضاء، عليها شرائط الكتف والشعارات
الفضية. ولوح قائد الجوق بعصاه، وعرف الجوق
«النشيد الأمى». وشعر فولوديا بغصة فى حلقه - لا بد
من أن الليالى الساهرة قد أثرت فيه.

وعلى انغام «النشيد الأمي» فتح باب الطائرة
وتدلى منها سلم معدني. ووقف تود-جين وسكرتير
اللجنة المركزية بهيئة استعداد محيين.
وأصطف الاطباء الروس-رجالاً ونساء بسطاء في
معاطف المطر وثياب جعدها السفر-الى جانب الطائرة
ومعهم حقائبهم من مختلف الاحجام، وأنشدوا. ولم
يدركوا ان حرس الشرف جاء لاستقبالهم. وقد اعترتهم
دهشة حقيقية حين تقدم نحوهم آمر الحامية الاشيب
الشعر بخطى الاوزة، وقاد جنوده ماراً بهم. وتلقى
البروفيسور بارينوف تقرير آمر الحامية العسكري وقال
بلطف:

- اشكرك، انا مسرور جداً.
وسار الجنود مبتعدين. وألتفت طبيب عجوز له
كرش تحت صدريته المحيكة وسأل فولوديا:
- قل لي، أهذه بؤرة الوباء؟
وقال طبيب آخر شاب:
- أعتقد ان بي دواراً من اثر الطيران...
وقالت احدى النساء وهي شابة جداً لفاسيا
باشتياق:

- أنا مشوقة جداً الى حساء حار. ففي الايام القليلة
الاخيرة في موسكو لم يكن عندي وقت لتناول وجبة كاملة،
وفي الطائرة اكلنا الساندويتشات في الغالب. هل
سيقدمون لنا الطعام قريباً؟ أتعرف؟
واعد الطعام لهم. وقد بذلت «المدام الطباخة»
قصارى جهدها مشتغلة الليل كله واباتاي العجوز

والشامان اوغو يساعدها، ومدت المائدة في الهواء
الطلق بالقرب من المطار، واستمتع البروفيسور بحساء
«البورش» الحار- بينما كان فولوديا يتكلم، ونظر
فولوديا الى وجهه التعب، والى عثونه القديم الطراز،
والكسر في ذراع النظارة عند الأذن، والغضون حول عينيه
وفكر في أن ليس في القرن العشرين أى وباء طاعون
لم يحارب ضده هذا الرجل العجوز القصير النحيف،
إن يده النحيلة قد صافحها غاماليا في اوديسا، وزابولوتنى
في الهند، وفي منغوليا؛ إن هذا العجوز عرف ديمنسكى
وعالج ضحايا الطاعون في منشوريا، وكاد يقع في غائلة
الموت خلال وباء استراخان. وقد عمل في مختبر
القلعة بالقرب من كرونشتاد التى اندلع فيها وباء
الطاعون، وعرف الدكتور فيجنيكيفتش ورآه وشهد
جنازته كما شهد جنازة الدكتور شرايبر. ومع ذلك فلم
يترك الكفاح. وفي السبعين من العمر يقود المعركة مرة
اخرى.

- نعم، - قال بارينوف هازأ رأسه مصغياً الى
فولوديا، - نعم، هكذا، افهم، هكذا...

وبينما كان الاطباء والمرضات والملازمون الطبيون
يتناولون طعامهم هبطت طائرتان أخريان جالبتين معهما
الأدوية والمعدات. وخرج سكان كخارا بالألوف ووقفوا
في حلقة متراصة حول مهبط الطائرات متحدثين في همس
وبالغ الاحترام اللائق بضيوفهم المدهشين، ولكن، لما
كانوا يهمسون جميعاً في وقت واحد كان همسهم يبدو
مثل هبات ريح صافرة. وكانوا في الغالب يهمسون حول

فولوديا. فان ذلك كله من صنعه، إنه من الجبروت بحيث جاءت جميع هذه الآلات الجبارة طائفة الى كخارا بمحض ارادته. وشق الشامان اوغو طريقه خلال الحشد، وهمس في كل اذن:

- في وسعه ان يفعل كل شيء، ذلك الطبيب السوفييتي العظيم فولوديا. وهذا هو السبب في انني وافقت على المجيء ومساعدته. وقد توصل الى زمنا طويلاً وبضراعة. فاضطرت على الموافقة. وسرعان ما سأتعلم كل الحيل منه، صدقوني!

وخرج فوج النجدة متوجهاً الى جافان - ايلير، بؤرة الوباء. وكان البروفيسور بارينوف وتود - جين وفولوديا في المقدمة يتبعهم موكب صامت من الدكاترة والممرضات والملازمين الطبيين، ورجال التعقيم بمعداتهم الكبيرة - المرشات والزجاجات والاولوان. واوحى المنظر الى فولوديا بأن يفكر بجيش غير منظور، حسن التدريب، حسن العدة يتقدم نحو العدو، وشعر بالاعتزاز بأنه هو ايضا جندي في ذلك الجيش.

وحين رأوا، على بعد ثلاثمائة متر تقريباً، أول خيمة ترفرف فوقها الخرق السوداء المشؤومة، أصدر بارينوف أمره:

- إلبسوا! وذلك ايضاً اوحى لفولوديا بانهم جيش، وأنهم أمروا « بالهجوم ».

ونزلوا عن خيولهم، وطفقوا يلبسون احذيتهم المطاطية وملابس العمل، يساعد أحدهم الآخر في شد الأسلاك في الخلف بصمت دون أى مزاح. ومرة أخرى،

كما حدث ذلك عدة مرات في ذلك اليوم، أوحى هذا الضبط والهدوء الى فولوديا فتصور جيشاً.
وضحك بارينوف ضحكة اعتزاز خافتة:
- اتعرف؟ لم اظن قط أنني ما زال قادراً على ركوب حصان. وأن عصصى لم يؤلمنى بالطريقة التى كان يؤلمنى فيها وأنا شاب.

وتمتم وهو يقود حصانه من لجامه:
- ولكننى احتسيت كثيراً من حساء البورش. وقد قلت لنفسى مرات بان لا امتنع عن أكل الطعام السمين! واخذت الخيام التى ترفرف عليها الخرق السوداء تقترب رويداً رويداً: ركضت الى جانب فولوديا بقرة لم تحلب منذ زمن، تخور بصوت مبحوح شجى.
- اذهبى، اذهبى، نحن لا نعرف كيف نحلبك،-قال بارينوف ذلك وصوته الصادر من خلف الكمامة يبدو اجوف.

وكانت صوفيا ايفانوفنا وتوش بانتظارهم قرب اول خيمة كبيرة. وكانتا تعبتيين جداً حتى لا تكادا تقفان على قدميهما. وسمع بارينوف ما ابلغته صوفيا ايفانوفنا، فأمرها وتوش بأن تذهبا لتنالا قسطاً من النوم، ومرة أخرى ادهشته مقدرة هذا البروفيسور المدنى على اصدار الأوامر مثل جنرال فى جيش نظامى. واقام «لواء الميرة» وهو الدكتور لوبودا معسكراً لنزول الاطباء مؤلفاً من الخيام للمبيت فيها، والمختبرات والمخازن. وكان موقعا جميلاً قريباً من بحيرة وتل الكيك -جوب الجميلة. ورغم ان المعسكر كان معداً للسكنى، وقد نصبت فيه

حتى الاسرة، الا ان ما من طبيب او ممرضة او ملازم
طبي ذاق النوم في تلك الليلة. كانوا يفحصون اجواف
الخيام المظلمة الميته مستعملين مصابيحهم اليدوية
حاملين الموتى، معقمين ومطهرين الخيام، مقدمين الطعام
والماء للمرضى، فاحصين بالسماعات رئاتهم وقلوبهم،
جاسين نبضهم، واقفين على استعداد لتنفيذ تعليمات
جديدة من بارينوف ونائبه الاول شوميلوف. وكانت
تلك الشخوص المسرولة بالبياض، بكماماتها وعويناتها
الواقية واحذيتها المطاطية تتحرك بتخبط، ولكن
دون جلبة. وكان انين المرضى وتمتماتهم تختلط باصوات
الاطباء الخافتة المكتومة، وبهسيس المرشحات، وصوت
المطر المكرب الذي كان يتساقط منذ منتصف الليل.

وكانت الملابس الواقية حارة، وكان العرق اللزق
يتصبب على وجوههم وظهورهم واذرعهم، وكانت أيديهم
في قفافيزها لا تكاد تمسك بالحقن، وحتى السماعة كان
استعمالها عسيراً. وخفق الدم في اذني فولوديا، وعند
الصباح كان رأسه يدور. ولكن بارينوف ما يزال يعمل
فكيف يستطيع فولوديا ان ينهار؟

وكانوا في تلك الليلة بطولها يتنقلون من مضرب
للخيام الى آخر عازلين المرضى عن الاصحاء، فاحصين
درجة الحرارة، ملقحين بالمصل، محولين بعض الخيام
الى ردهات عزل والبعض الآخر الى مطابخ، والثالث الى
مساكن للاصحاء. واخبر تود - جين اولئك الناس
المتخوفين المنهوكين بصوته الجهم المعبر عن سلطة لا
نزاع فيها، بماذا يجب ان يفعلوا ولم يحاول احد مخالفته.

وفي مضرب الخيام الرابع الذى «فتشوه» فى تلك الليلة الساهرة كان فولوديا أول من دخل خيمة اخترم الموت سكانها جميعا. وانحنى، واشعل مصباحه اليدوى فرأى الأذرع ملوية من اثر عذاب الطاعون، وبياض العيون الميتة، والاسنان البيضاء الفتية مكشوفة فى تكشيرة الموت. وفجأة، فى الصمت الميت ذاك، خيل اليه أنه سمع صراخ طفل ضعيفا جدا.

— كفوا، — همس للملازمين الذين كانوا يرشون الارض بالمعقم.

واتجه نحو مصدر الصوت وتوقف: كانت هناك أم ميتة تشد على صدرها طفلا ما زال حيا. وكان يكافح ويبكى بوهن وهو فى قبضة الذراعين الميتين الباردتين غير المريحة.

وخلص فولوديا الطفل بمساعدة تود — جين واعطاه الى الملازم الطبى، واخبره بان يذهب به الى الخيمة التى اعدت كردهة عزل.

وانفلق الفجر عن نهار رطب ثقيل على نحو لا يطاق. وفوق السهب كان ستار من المطر معلقا. وكان بارينوف جالسا تحت ظليلة من المشمع ينظر فى خارطة للمنطقة المصابة. وكان عامل الراديو يحاول ان يتصل له بالدكتور لوبودا فى كيك — جوب. وكانت كمامة بارينوف تتدلى من رقبته، وقد خلع عويناته الواقية ووضعها فى جيبه والقى خلفه قلنسوة بدلتها الواقية.

واستفسر من فولوديا:

— هل انت متعب؟

فاجاب فولوديا في اختيال:
- لا، ابدأ!

وانضم تود - جين اليهما.
قال:

- نكبات كثيرة، كثيرة جدا. كيف نضع حدا لها
ايها الرفيق البروفيسور جملة واحدة والى الابد؟
وتنفس بارينوف نفسا عميقا، مطفئا عقب سيكارتته
واجاب بتأمل:

- بوصفى طبيباً ينبغي ان اقول لك يا رفيقى
العزيز أن هذه النكبات الفظيعة لن تزول الا باعادة تنظيم
جهاز الدولة. في الاتحاد السوفييتى صفى الطاعون والجدرى
وكثير من الامراض الوبائية. ومع ذلك فمنذ عهد غير
بعيد جداً في ايامى كانت اوبئة الجدرى تفتك بحياة
اربعين الف شخص في روسيا سنوياً، وتبقى بعدها مائتى
الف شخص مشوهين: الصم، والعمى، والعاجزين عن
العمل.

وصاح عامل الراديو:

- أنا سترتسيوك، أنا سترتسيوك، يا رفيق
لوبودا، أعطنا عشرين ترمومتراً، وبعض الجرادل المطلية
بالميناء، وخطافاً، وارسل لنا ذلك، ماذا تسميه...
وحملق في الورقة أمامه محركاً شفطيه، ثم تحول
الى فولوديا:

- لا يمكن تلفظها ايها الرفيق الدكتور.

- فونندسكوب، - قال له فولوديا، واعاد القول

في السماعه: - فونندسكوب!

وتناول بعض الكاكو من زمزية الترمس، وركبوا
الخيول.

- قميص طفل واحد، - مضي عامل الراديو في
صياحه، - أوه، لا، واحد، يا للسماء! قلت طفل، نعم،
طفل، لقد عثرنا على طفل! والأم ماتت، ولكن عثرنا
على طفل!

- تكلم بالجد يا سترتسوك! - قال بارينوف ذلك
وجمع العنان في يديه.

وفجأة سمعوا انطلاق رشاشة من بعيد.

سأل فولوديا:

- ما هذا؟

ووقف تود - جين على ركابه، وارهف سمعه.
وأنطلقت رصاصات أخرى.

قال تود - جين:

- حدود الدولة قريبة جدا من مكاننا هذا. انه
محور برلين - روما - طوكيو. انها الفاشية. نعم، هيا
نذهب!

وساط حصانه، وانحنى على حنو السرج. وفجأة
صفرت الريح وهي تمر باذن فولوديا خطفا، وكانت
الخيول تعدو عدوها الشديد، وكأنما هم ينحدرون صببا
على منحدر مائل. وارقلوا على هذا المنوال زهاء خمس
عشرة دقيقة، وكان فولوديا لا ينفك يلتفت الى
البروفيسور العجوز خلفه. ووقفوا على رابية، وراوا
تحتهم حرس الحدود الجمهوري بمشمعاتهم القصيرة، كما
راوا جدارا من اللهب الاصفر، وهدير الطائرات قريبة

فوق رؤوسهم. وكانت الطائرات تحمل شعارا على
الجناحين وجسم الطائرة متألفا من حلقتين ذات لونين
مختلفين. وكانت هذه طائرات مهاجمة.

قال بارينوف وهو أرتبك مما رأى:

— لا أفهم ذلك. أهذا حريق ام ماذا؟

وحدد فولوديا الى تحت، شاداً قبضتيه، ماسكا
انفاسه: هناك في الجانب الآخر من حدود الدولة، خلف
منطقة حدود الجمهورية، كانت القوات الامبراطورية
تحارب وباء الطاعون. والظاهر أنهم احرقوا النار في
القرية بقاذفات اللهب، والآن يقتلون من الرشاشات
جميع من يحاولون ان ينقذوا انفسهم من اللهب. وكان
في وسع فولوديا ان يرى كثيرا من الرشاشات والجنود،
وكذلك قاذفات اللهب مشدودة الى عربات كثير من
الدراجات البخارية. وهناك فوق التل بعض مدافع الميدان
بمواسيرها الموجهة الى القرية المحروقة.

— مستحيل، والا...— ولم ينه بارينوف كلامه.
وخرج من اللهب بعض الاشباح الادمية واندفعوا
الى الامام رافعين اذرعهم: لقد فروا، لقد نجوا...

وفجأة، صدرت دفقات قصيرة من عدة رشاشات
في آن واحد. وكان الجنود الصغار كالدمى بملابسهم
الخاكية، وطاقيتهم الواطئة يطلقون النار في دفقات قصيرة.
ومن السهل جدا ان يقتل رجل ذهب الرعب بصوابه.
وهرول رجل آخر مع ذلك. وانعطف الى اليسار
ثم ركض في خط مستقيم، وانحرف نحو اليسار ايضا.
وركض نحو خط الحدود. وقد عرف انهم سيقبضون

عليه، وسيلقى بالحجز، ولكن لا يقتل. فهناك لا يمكن
ان يقتلوه!

ولكنهم قتلوه هناك.

فقد انطلق المدفع الرشاش بدفقة طويلة، واندفع
الرجل مرة اخرى، ثم سقط.

وتقدمت الدراجة البخارية هادرة حاملة باصقة
اللهب، ممزقة الصمت المميت الذى ران لحظة. وانصب
لسان نار صفراء حادة على تلك الشخوص الصغيرة
المنطرحه الفاقدة الحركة التى قتلت من قبل. ودار
فولوديا. وكانت اسنانه تصطك وعيناه مبللتين بالدموع،
وظلت القرية تحترق تحت رذاذ المطر، وهدرت السنة
النيران، وتدلت اعمدة الدخان الأسود متراخية فوق
الارض، وكأنها خجلت من ان ترتفع.

وقال بارينوف وقد تحول فجأة الى تود - جين:

- انظر، دعهم يخبرون آمر خدمتهم الصحية باننى
ارغب فى التحدث اليه. انا البروفيسور بارينوف عضو
شرف فى اكاديمية العلوم فى بلادهم، وحضرت نفس
المؤتمرات الدولية التى حضرها علماءهم.

ودعا تود - جين ضابطا من حرس الحدود الذى
اقترب بعد ذلك من الحاجز المغلق، وتكلم الى ضابط
فى الجيش الامبراطورى فى الجانب الآخر. وادى الضابط
التحية، وفعل الضابط الجمهورى مثله، وكان جنود
الجيش الامبراطورى يكافحون، مازحين - خلف المدافع
الرشاشة، وينظرون بين حين وآخر الى القرية المحترقة.
وطارت الطائرات.

واقتربت من الحاجز دراجة بخارية ذات مقعدين
طلبت بلون الصفدع وصرت عجالاتها حين وقفت. ونزل
من المقعد الجانبى ضابط طبى صغير أنيق يلبس الكاكى
وصماقاً لامعاً. وكز بارينوف على أسنانه، وهمز حصانه
بكعبيه. وركب تود-جين وفولوديا حصانيهما خلفه.
وحين وصلوا الى طبيب الجيش الامبراطورى كان
هذا قد فرغ من سيكارتته. وحين سمع اسم بارينوف
والقابه ودرجات الشرف التى حازها ادى التحية، مقعراً
كفه الى الخارج. وقال بلهجة احترام شديدة انه قد
حظى بشرف دراسة أعمال البروفيسور بارينوف فى برلين
وفى بلاده فى معهد علم الاوبئة التجريبى. اما أعمال
الفصيلة الخاصة بمكافحة الطاعون التى شهدتها البروفيسور
منذ لحظة فانها فى الواقع تترك أثراً محزناً، ولكن ما
العمل اذا كانت نسبة الوفيات فى الطاعون الرئوى مئة
بالمائة؟ وان أكثر الطرق انسانية ومعقولة، بالطبع،
هو حرق المناطق المصابة لا سيما وأن المرض لم ينتشر
الا بين اقلية قومية منحطة مهانة لا نفع فيها. وعلى أية
حال فان هذه القضية كسائر الاوامر التى اصدرته القيادة
العليا للمركز الامبراطورى لمكافحة الطاعون غير
موضوعة للمناقشة. وصفق الدكتور الأنيق ذو الشارب
الخفيف فوق شفته العليا الرقيقة بكعبي حذائه مؤدياً
التحية.

فقال بارينوف بالانكليزية بصوت عال:
— قل لاكاديميتك: انا لا ارغب بعد الآن فى ان
اكون عضو شرف فيها، وتذكر انت عن نفسك انى اذا

بقيت حياً وشهدت اليوم الذى يحاكمونك فيه على هذا،
ساصر على ان اكون مدعياً عاماً، وسأتكلم باسم جميع
الاطباء الذين ماتوا فى الكفاح ضد الطاعون، ولى هذا
الحق، أتفهم؟

- افهم، - رد الرجل وقد شحب لونه ولكنه ما يزال
يؤدى التحية، - ولكننى أشك فى ان يعيش البروفيسور
ليشهد تلك المحاكمة المزعومة مع هذه الهزائم الكبيرة فى
الغرب، وجيوش الفوهرر تتقدم الى الامام مظفرة.
ومرة اخرى صفق بنعليه، وركب المقعد الملحق
بالدراجة.

وحين عادوا الى الطريق مسح بارينوف وجهه المبلل
بالمطر، وزفر، وقال فى ندم:
- لقد اردت ان اضرب بسوطى وجهه. لا بأس
سأعيش حتى تلك المحاكمة.
قال فولوديا فى عبوس:
- ستعيش.

وفحصوا ستة مضارب اخرى للخيام فى ذلك اليوم.
وفى المساء دعا بارينوف الى اجتماع، ودق الجرس
يعلم الجميع. وتلك الاجتماعات التى تدوم خمس دقائق
والتي يعقدونها الآن كل يوم لاحت لفولوديا مثل مجلس
حرب أو مؤتمر فى مقر القيادة قبل المعركة الحاسمة.
ووضعت المعلومات الاستطلاعية عن قوة العدو،
كما عرضت خسائرنا، وحسبت الذخيرة والاسلحة
الموجودة - اللقاحات والامصال والمؤن والمعدات الطبية
ووسائل النقل. ونشرت خارطة على طاولة. وقائد

الجيش (وكان الاطباء ينقبون بارينوف فيما بينهم؛ «جنرالنا») منكب عليها؛ ودوائر الطاعون السوداء على الخارطة تظهر مواقع العدو. وكان جهاز التلفون العسكرى موجوداً في خيمة «الجنرال»، وعامل الراديو الذى يعمل في الخيمة المجاورة يحمل اوراق البرقيات ويضعها على الطاولة امام بارينوف. وفي كل يوم كان تود - جين يتصل بكخارا بخط مباشر، ويبلغ عن الحالة. وحتى الآن كان دائماً هكذا:

- كل شىء حسن، ولا اصابات خارج المنطقة المصابة.

وكافح الاطباء الروس والممرضات ليل نهار ضد انتشار العدوى، ضد هذا الموت الاسود الكريه، او «مرض الفأر الجبلى»، ذلك المرض الذى يهدد بالتهام جميع المملكة الصغيرة، كل رعيان الاغنام فيها والمزارعين والصيادين والعمال، عجائزها وشبانها، واطفالها ومستقبلها. وكان الاطباء لا يرى احدهم الآخر الا في اجتماعاتهم اليومية التى تدوم خمس دقائق. وفرض عليهم بارينوف قاعدة صارمة هى ان يناموا ساعات معينة في اليوم، وكان يتحقق شخصياً من ان جدولهم للعمل يراعى مراعاة تامة. وكان نوم هذه الساعات الموصوفة، والأكل بصورة جيدة قانوناً: فان الطبيب المنهوك عرضة لأن يقع في خطأ مميت، والتقاط المرض لمجرد «سرحان الفكر» كما قال بارينوف.

وقد وافق باشا الطيار ذو الناصية البيضاء مع بارينوف تماماً. قال:

- هو على حق تماماً! ومثل هذه الدقة موجودة
عندنا في القوة الجوية. فإذا خسرت ساعتين أو ثلاثة من
النوم فانك تبحث عن المتاعب، فاما أن تسقط غافياً في
الطائرة، أو توهن حواسك حتى تكف عن الاهتمام.

وكان باشا يقوم في طائرته بجولات تفتيشية فوق
المنطقة المصابة ليرى أ هناك خرق سوداء جديدة ترفرف
على الصواري فوق اليورتات، ويرى فيما اذا كانت
المواقد يتصاعد منها الدخان، ويرقب أى صاروخ قد
يرسل الاطباء الى فوق، طالبين العون، وليتأكد من ان
كل شئ على ما يرام. وعندما كان ينخفض بطائرته كان
يلوح محيياً الذين يكافحون مرض الفأر الجبلى. ويعود الى
المعسكر، ويتزود بالوقود ثانية، ويأخذ دوشاً ويأكل،
ويطير ثانية. وكان الاطباء والممرضات يعملون في نوبات
طوال الاربعة والعشرين ساعة فاحصين السكان بأسرهم،
آخذين درجة الحرارة، حاقنين الضحايا بالامصال،
وملقحين الذين هم في حال جيدة. وكان الملازمون الطبيون
يدفنون الموتى، ومطبخ المعسكر يوصل الطعام الساخن
الى أقصى المناطق، فيستمتع به الناقهون، ورجال الطب
والمحجوزين في الحجز الصحى.

وكان بارينوف غالباً ما يطير مع باشا حين يستدعى
عن طريق الراديو ليقدم المساعدة في بعض الحالات ذات
الصعوبة الخاصة.

وفي احد اجتماعات الخمس دقائق هذه القى
بارينوف خطبة قصيرة. قال:

- اريد ان اهنئكم ايها الرفاق. ان من الواضح الآن

أن الوباء قد حصر، وهو في هبوط، وسننتهى من كل شيء هنا بعد أيام قليلة.

واستمع جميع الأطباء الذى كانوا فى المعسكر أول نوم عميق لهم فى تلك الليلة، لا لأنهم كانوا يطيعون الأوامر فقط. وفى اليوم التالى تسلم فولوديا برقية بالراديو من كخارا. وكانت برقية هيستيرية من فاسيا يصر فيها على أن يأتى فى الحال لينضم معهم فى «العمل الحقيقى».

قالت صوفيا ايفانوفنا:

— كل انسان يجب أن يتم عمله وهذا واجبه. أما الذى لا يفعله، فيفعله الآخرون...

وضحك فولوديا بخفوت. أن صوفيا ايفانوفنا لم تعد تغيظه. فالآن يعرف قيمتها، قيمتها الانسانية الحقيقية.

وفى يوم الجمعة بدأوا يفكون الخيام. وكان فولوديا عائداً فى تلك الساعة من جولته التفتيشية، واذ ترجل من فرسه شعر فجأة بالغثيان. وكان غير ثابت الوقوف على قدميه. وجاء اليه الدكتور لوبودا وسأل فى قلق:

— هل اخذت برداً؟

اجاب فولوديا بجفاف:

— ربما.

ولابتسم بخفوت، ومضى الى ردهة العزل. لقد أصابه الطاعون، وهو متأكد من ذلك. وكان فى جنبه ألم حاد، وحين مشى ترنح كالسكران، وكان لسانه مغطى بالمخاط.

وما ان استقر في الفراش حتى جاء بارينوف يلبس بدلة واقية ولكن بلا كمامة.

قال فولوديا:

— غط نفسك جيدا، والا فسارميك بهذا المقعد.

قال بارينوف في غضب:

— لا تعلمنى شغلى.

— اتسمعنى، سارميك بهذا المقعد، انا مصاب

بالطاعون.

وخرج بارينوف، وفحص فولوديا حرارته. وكانت ٣٨,٦ سنتغراد. وظهر بارينوف مرة اخرى مع الدكتور لوبودا، وكان كلاهما يرتدى كمامة، وكانت توش تحوم خلفهما. وكان يبدو غريبا لفولوديا ان يسمع اصواتهما المكتومة، بينما جلس بلا عوينات واقية، ودون بدلة واقية ولا كمامة.

وكتب فولوديا رسالة بينما كان المختبر يفحص بلغمه. وكان يحس بالدوار. وكان فمه جافا جدا حتى شرب القدح بعد القدح من الماء.

كتب: «فاريا، هذه الرسالة معقمة، فلا يداخلك الخوف. لقد حصل شيء أحقق. وحين تتسلمين هذه الرسالة اكون انا ميتا، ومدفونا. والآن احس بشيء من الضعف وانا لا اريد ان أموت، فان ذلك بلاهة تامة، انا احبك يا فاريا، احبك، ولم أكف لحظة عن حبك...»

وجاء بارينوف ثانية. وقال في صوت عال متهلل:

— من رأى ايها الزميل انك مصاب بالتهاب الغشاء

الرئوى.

ونظر فولوديا بنفاد في عيني بارينوف خلف
الموينات الواقية وقال:

— قلت لي بنفسك: ان هناك قاعدة معتادة هي
تهدئة الطبيب الذى يصاب بمرض.
قال له بارينوف:
— هيا، استلق.

وكانت توش واقفة في المدخل. وقد جاءت
برسالتين لفولوديا واحدة من فاريا والاخرى من اغلايا.
وقد كتبت فاريا تقول انها الآن في البحرية وتكلمت مرة
اخرى عن دخولها المسرح. كما قالت كلمات قليلة عن
الحرب، وكيف أن فولوديا بروحه الكفاحية لا بد من أنه
ملاق صعوبات جسيمة وهو يصارع « كل انواع النزلات
الصدرية، والزوائد الدودية ». كما كتبت العمدة اغلايا عن
الحرب ايضا.

وسعل فولوديا. ولم يكن في البلغم دما. وبعد الظهر
ظهر باشا خارج النافذة المغلقة، ووضع ورقة صغيرة على
زجاجها كتب فيها « عندي بعض البراندى، اتريد شيئا
يادكتور؟ » فأوما فولوديا رافضا، واستلقى على ظهره.
ولم يظهر الفحص بحسب أسلوب جرام اى شىء.
وكان يجب أن يمهل المرض ليظهر.

وظلت توش حارسة خارج بابه طوال اليوم. وكان
فولوديا يسمع خطواتها الخفيفة، وهمساتها. ونظرت
صوفيا ايفانوفنا الى الداخل وتحدثت اليه وكأنه طفل.
— وكيف نشعر الآن؟ ناكل؟

فاجاب فولوديا بوحشية:

- نريد ان يذهب كلهم الى الجحيم مع رهافة

حسبهم.

وكان في يده محرار. وكانت درجة حرارته ٣٩ر٦
سنتغراد. وكان يشعر بالغثيان على نحو فظيع.
وبقى الدكتور لوبادا معه حتى منتصف الليل. وكان
فولوديا يهذى. ثم تسلم الدكتور شوميلوف السمين
نوبة الحراسة، والتقط بتراح رسالة فولوديا غير الكاملة
الى عمته وقراء: «من المؤسف جدا اننى لم اقم بشيء حتى
الآن. وددت لو انك رأيت هذا الجيش المجيد من
المكافحين ضد الاوبئة، اذن، لأدركت أى أناس رائعين
هم! خذى الدكتور شوميلوف مثلاً. اذا نظرت اليه لا
يبدو لك غير كتلة ممثلة. وهو يقص النكات البائخة،
واول من يضحك منها...»

وجفل شوميلوف وجرح. وفكر: «بالتأكيد اننى لم
اضحك اولا».

واعاد رسالة فولوديا الى الطاولة، وجس نبض
فولوديا وفجأة لاحظ مثلثا ابيض واضحا في حنكه،
وتحت انفه. صاح:

- توش، اسرعى، تعالى وساعدينى.

وقلب كلاهما فولوديا الهاذى على ظهره، وفحص
شوميلوف ظهره وصدره.

صاح بفرح:

- طفح، الا ترين الطفح؟ انا كتلة ممثلة، هذا
صحيح تماما، واكثر من ذلك، انا احمق! اسرعى واوقظى
بارينوف فى الحال!

وفك كمامته باصابعه السميكة القصيرة، وخلع
عويناته الواقية، ودفع الى الخلف قلنسوة بدلته الواقية.
وكان وجهه الممتلئ العرق يلمع.

قال لبارينوف:

- انها الحمى القرمزية، الحمى القرمزية اياها!
حالة نموذجية مدرسية للطلاب! ولكن ماذا عنا؟ هل
نسينا كل شيء عرفناه؟ ان اوستيمنكو هو الذى اخرج
الطفلة من بين ذراعى امها. وكانت الطفلة مصابة بالحمى
القرمزية. اوه يا لها من فضيحة! انظر الى الطفح انه
حقل كامل من الهيرميا. والوجه - نموذج للحمى
القرمزية. هذا لا مفر منه. حسنا هذا هو الامر اياها
الرفيق البروفيسور.

قال بارينوف:

- ان الجواد قد يعثر. ينبغى ان نوقظ باشا على
ما اظن، ونرسله فى طلب المصل. فقد استنفدنا كل ما
عندنا على الطفلة.

واوقف باشا.

وسالت توش بكثير من الرقة:

- ليس طاعونا اذن، اياها الرفيق البروفيسور، لا؟

اجاب شوميلوف وقد شع السرور فى كل وجهه:

- لا، ايتها الفتاة العزيزة، انها حمى قرمزية، الحمى

القرمزية اياها!

وكان بارينوف ما يزال ينظر الى فولوديا.

وقال فجأة وتحول الى شوميلوف:

- عندى فكرة. هناك بعض الشمبانيا فى غرفة

الطعام. فلنذهب ونشرب زجاجة، نشربها نخب الجيل
الفتى من الاطباء، نخب الشبان من امثال اوستيمنكو!
وبقيت توش مع فولوديا. واصغت الى هديانه، ثم
رفعت يده الحارة العريضة وقبلتها.

وفي الصباح غادر فوج بارينوف للاسعاف بكامله الى
كخارا. واقلعت ثلاث طائرات ثقيلة في نفس اليوم، وبعد
ان دارت حول المدينة مودعة اتجهت نحو موسكو. لقد
غادرت البعثة بصورة غير متوقعة والسما تمطر، وقد
ودعها تود - جين وحده.

كان فولوديا يقول هاذيا:
- ضعمهم في آخر الخيمة. في النهاية القصوى. ولا
تدع احداً يدخل اليها او يخرج منها، امنعه!
وغادر فولوديا كخارا في الثانى من اكتوبر. وفي
صباح ذلك اليوم قام بجولته الطبية في المستشفى، وودع
المرضى واباتاي، وبحث عن توش، ولكنه لم يجدها.
والتقى بلاغيا ماركيلوفا وهى تنظف غرفة العمليات.
قال وهو يمد اليها يده:

- كيف تجدين العمل؟ لا بأس؟
قالت بلاغيا وهى تخفض عينيها:
- لا بأس، وانا احبه. ولكن هناك صوفيا
ايفانوفنا...

فقاطعها فولوديا وقال بصرامة:
- صوفيا ايفانوفنا امرأة ممتازة، وطبيبة ممتازة،
وليس من شأنك ولا من شأنى ان ننتقدها. هكذا. وداعاً،
يا بلاغيا!

وكان وداعه مع فاسيا الطبيب الرئيسى المعين حديثاً
وداعاً حاراً.

قال فاسيا:

- سنسحق النازيين قبل ان يحل العام الجديد. وهم
يعانون نقصاً هائلاً فى النفط، وبالإضافة الى ذلك نحن
نتوقع انفجاراً داخل بلادهم. لقد فكرت بذلك، فهل
فكرت انت؟

اجاب فولوديا مبتسماً:

- نعم، فكرت ايضاً.

وكان يحس دائماً بميل الى الابتسام حين يتحدث
مع فاسيا.

وخرج الى الفناء فى نحو التاسعة، وكانت القافلة
تضم سبعة فرسان، وعدداً من خيول الممتعة. وقد هبت
موجة القيظ الخريفية غير المتوقعة فجعلت الجو حاراً
بشكل فظيع. وكان دانزى يحمل مظلة مفتوحة فوق
الدكتور فاسيا، الطبيب الرئيسى الجديد. وقد قل
اهتمامه الآن بفولوديا. واصدرت صوفيا ايفانوفنا
لفولوديا اوامر دقيقة بان يرسل لها بعض القسائم
والكتب من موسكو. واراد ان يقبلها مودعاً اياها، ولكنها
كانت جد غاضبة بسبب الفوضى الذى رأتها فى التقرير
المعد لربع السنة، وآخر شىء سمعه منها فى الوداع هو
ان شيئاً ما كان «غريباً جداً حقاً». اما ما هو ذلك الشىء
بالضبط فلم يهتم به.

وتطلع المرضى من النوافذ، وكان اباتاي العجوز
يشد احزمة السروج والحقائب والامتعة على الخيول،

موجهها العرض بصورة عامة، ودافعا الناس الى الخلف،
وكان الشامان المخلوع يقف مقطب الوجه على مسافة،
وقد طلب فولوديا اليه ان يقترب.

سأل اوغو في غضب:

- لماذا جعلتني ارمى طربوشى وعصاي والدف
في الماء في التآ - خاوا؟ والآن لا استطيع ان اقوم
بالشيء اللائق لاجعل رحلتك ميمونة. ماذا افعل الآن،
ماذا؟

قال فولوديا مبتسما:

- سادبر امرى بغير ذلك. فلا تجرؤ على ان تعود
الى تلك السخافة. سأخبر تود - جين حين اراه بان اوغو
رجل صالح الآن. فسيقبلك كملازم، ولكن الدكتور فاسيا
سيطردك في الحال اذا عدت الى شرب الفودكا. وداعا!
واستقر على السرج، واذ ذاك فقط رأى توش.
وكانت تستند على بوابة المستشفى مبتسمة لفولوديا
بشفتين مرتجفتين.

قال وقد جاء اليها راكبا فرسه:

- سأكتب لك. سأكتب لك رسالة طويلة،
وسيقراها الدكتور فاسيا لك. حسنا؟
قالت توش وهى تدفع شعرها الاسود الى الوراء
بعدم اكتراث:

- ليس حسنا! حين تأتى رسالتك سأكون قادرة
على قراءتها بنفسى. انها لا تأتى قريبا، نعم، لا؟
وامسكت ركاب سرجه بيدها النحيلة ولكنها تركتها
في الحال، لأن المرأة اذا امسكت ركاب سرج فذلك يعنى

أن الرجل الراكب على السرج حبيبها. ولكن فولوديا لم يكن حبيبها.

قال فولوديا للجميع:

— الى اللقاء!

وتحركت القافلة، وهروا اباتى العجوز الى جانب فرس فولوديا. وحين كانت القافلة تسير في طريقها المترب عبر شوارع كخارا كان الناس يخرجون اكثر فاكثر لوداع فولوديا. وقدمت لفولوديا هدايا من الجبنة الحامضة التي يعرف عنه انه يحبها، قدمها له الاصدقاء وكذلك الناس الذين لا يعرفهم الا بالنظر.

— خذ هذه الجبنة! خذها ارجوك. تأكل جبتنا في

الحرب.

— خذ هذا الكيس من الجبنة الرائبة. انها لا تفسد.

بل ستبقى حتى نهاية الحرب وستأكلها بعد الحرب وتذكرنا.

— خذ جبنة الغزال هذه، خذها يا دكتور فولوديا،

الا تذكرني؟ لقد عالجتني منذ زمن طويل حين كنا نخاف من مستشفاك.

وكان يعرف بعضهم، ولا يتذكر البعض الآخر. وابتسم ابتسامة حازمة ثابتة، وانهمرت دموعه بسرعة. وكان الغبار قد تكاثف اكثر فاكثر فلم يكن في ميسور احد ان يرى الدكتور فولوديا يبكي. بل لعل العرق يتصبب منه لا غير: كان الجو حاراً جداً في الواقع، وكان يرتدى سترة مبطنه.

وصاح الناس:

— لقد انقذت كخارا من الموت الاسود! ولن
نسناك قط!

لا، لم يكن هو الذى انقذ كخارا. فان الطاعون لا
يمكن ان يغلبه رجل واحد. ولم تكن تلك الدموع
المنهمرة من عيني فولوديا دموعاً عاطفية، بل كانت
دموعاً غريبة، دموع الكبرياء والسعادة بانه مواطن من
بلاد عظيمة قادرة على ان تقهر الموت الاسود الذى لا
يقهر، مرض الفئران الجبلية الشنيع، الطاعون! وكان
سكان كخارا لا يودعون الدكتور اوستيمنكو لا غير، بل
كانوا يودعون صديقاً وأخاً، ومواطناً فى دولة للعمال
والفلاحين، فى بلاد تحكم فيها الشغيلة، وتسود النية
الطيبة والعقل السليم.

وصاح الحشد المحيط بالقافلة:

- نرجو لكم ان تدحروا كل اعدائكم!
- سندحر اعداءنا، — همس فولوديا وكأنه يقسم
يميناً. وفى عين فكرة رأى بارينوف ولوبودا وشوميلوف.
- ليسعد شعبكم، لانه يستحق السعادة!
- نعم، انه يستحق السعادة، — ردد فولوديا، وفكر
فى باشا وبوغوسلوفسكى والعمة اغلايا.
- داوجرحاكم كما داويت جرحانا!
- سأداوى، — قال فولوديا معاهداً نفسه.
- عد الينا يا دكتور فولوديا!

وحمحت الخيول وجفلت، والحشد يكبر وتزداد
جلبته. وحين تركوا كخارا رأى فولوديا ابا لامزى ومعه
زهاء خمسين راكباً. وكانوا جميعاً يضعون البنادق على

ركابهم. واطلقوا اطلاقتين توديعاً لفولوديا، ثم خبّت
خيولهم الصغيرة الرائعة الطويلة الاعراف امام القافلة
لتنبه المضارب البدوية البعيدة ان الدكتور فولوديا قادم
في طريقه الى وطنه وان تستعد لوداعه.

وخرج اهل المضارب البدوية لوداعه. وحدث
فولوديا بالوجوه حوله في محاولة لأن يتذكر ايهم جاء
الى العيادة للعلاج، وايهم فحصه في خيمته، وايهم دخل
المستشفى، وايهم اجرى له عملية.

ولكنه لم يتعرف على واحد منهم. فهم الآن يبتسمون
جميعاً. وحين كان يعرفهم كانوا في حالة ألم. الآن يبدو
جميعاً ملوحي البشرة اصحاء، وحينذاك كانوا يبدو
شاحبي الوجوه ومرضى. والآن يمسكون اعنة خيولهم
بأيدي واثقة، واذ ذاك كانوا ما مستلقين في الفراش، او على
نقالة، او مستندين الى اصدقائهم. فمن يدري اى من
هؤلاء الفرسان قد «احتفظ بعمره» بسببه؟

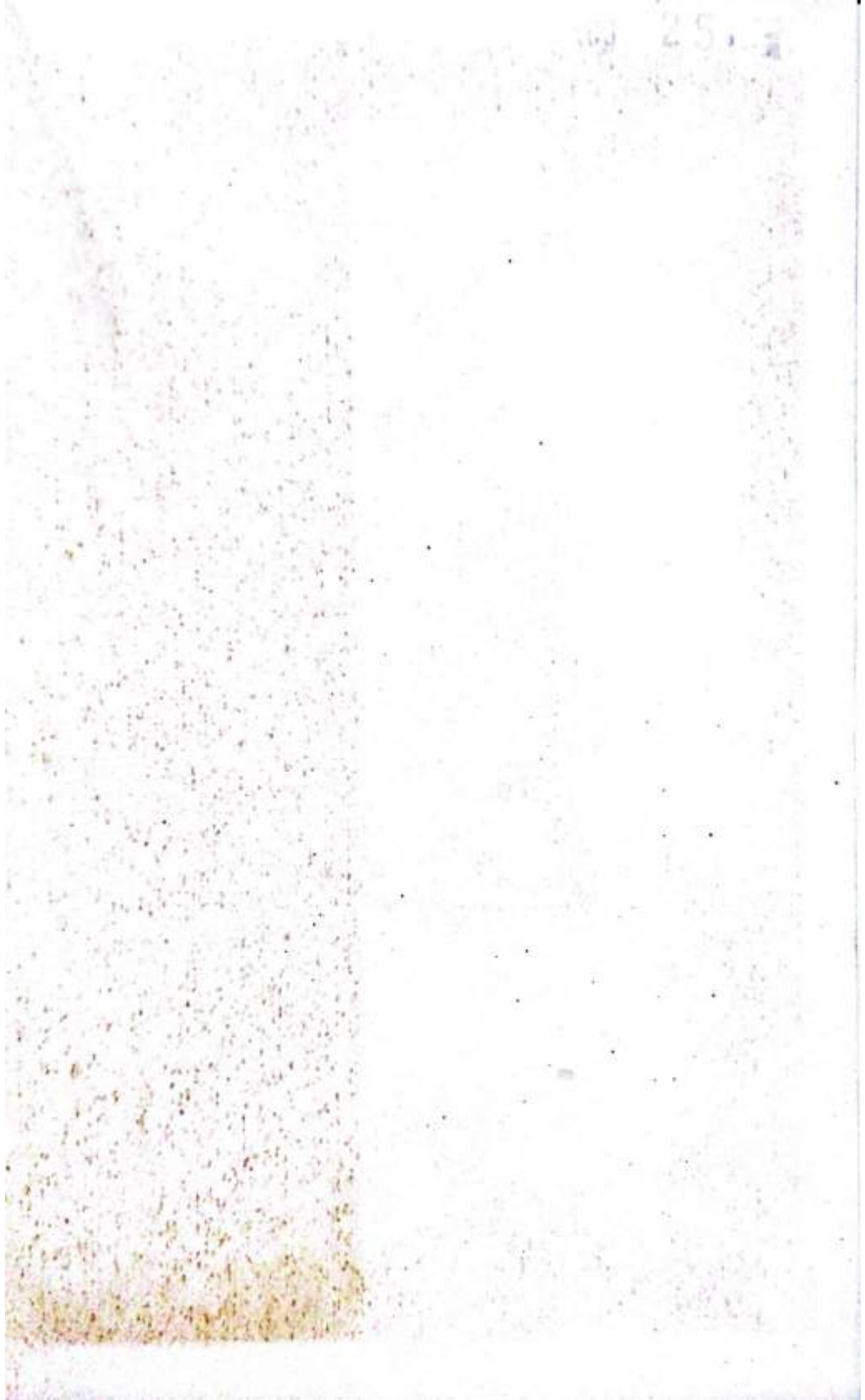
ولكن هذا لا يهم. والشئ المهم هو انه ادى واجبه،
وقد اداه دائماً بما تسعفه به قابليته. والناس قدروا
ذلك له. ولربما كان من الممكن ان يجرى العمليات احسن
مما فعل. ولكنه قام «ببعض» النفع هنا. وقال في سره:
«بعض النفع، ليس كثيراً جداً في الواقع. ولكن أقامت
بعثة البروفسور بارينوف بشئ قليل؟ وانا جزء منها،
جزء صغير من الكل، جزء من وطني».

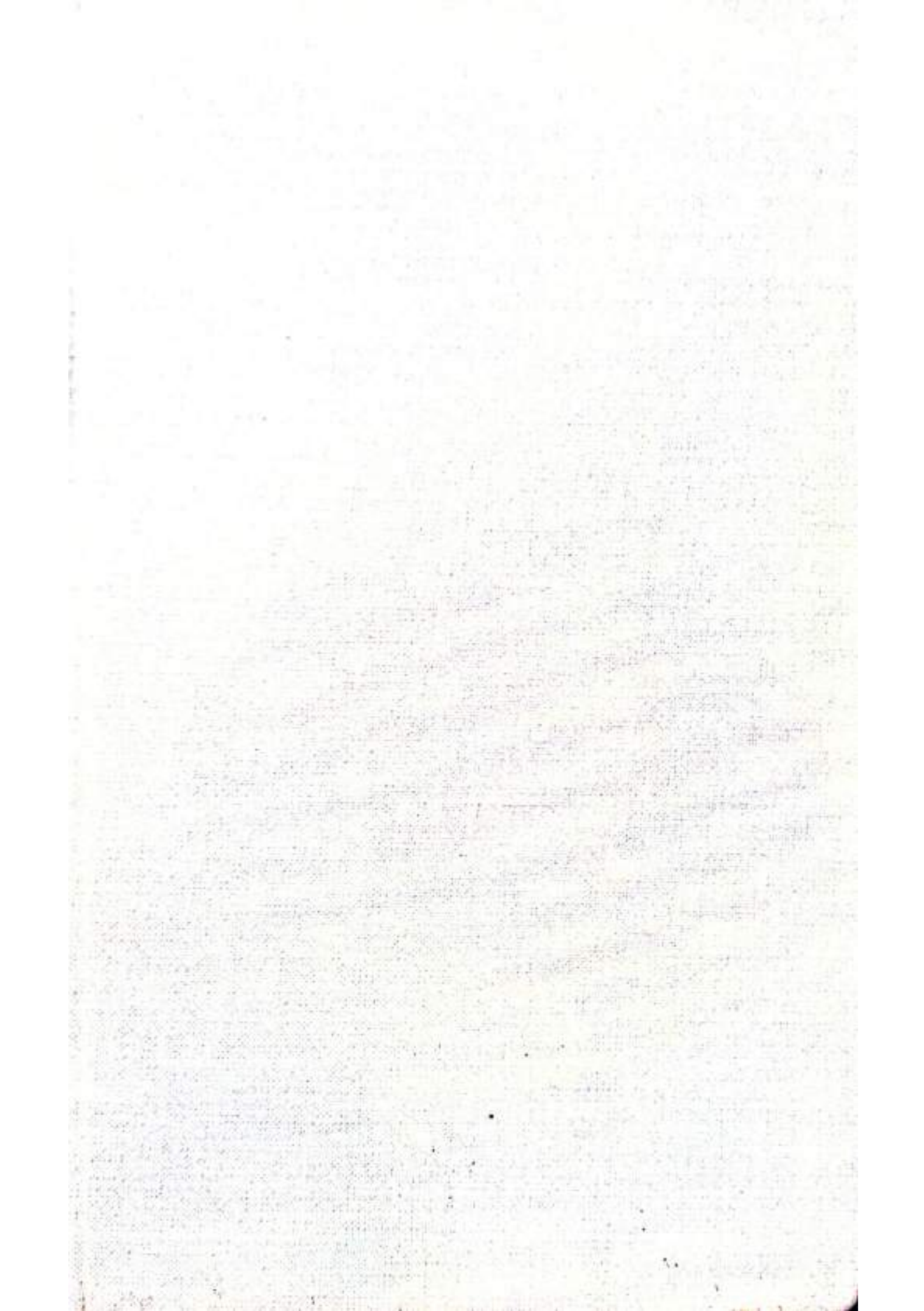
وحدث الى الامام، الى طرف الجبال البعيدة، حيث
تندلع نيران الحرب وراءها وحيث تنتظره تلك القضية
التي يخدمها.

الى القراء

ان دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية
تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابدتكم لها
ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته،
وشكل عرضه، وطباعته، واعربتكم لها عن
رغباتكم.

العنوان: زوبوفسكى بولفار، ٢١،
موسكو - الاتحاد السوفييتى.





كذلك خصص نمر من الأطباء قصته
وعقيد الخدمة الطبية وروايته
الرائعة الجديدة والقضية التي
تخدمها (١٩٥٨).

بطل هذه الرواية هو
الطبيب الجراح الشاب فلاديمير
اوستيمنكو. في البدء صبي يافع،
ثم طالب في معهد الطب وأخيرا
طبيب يعتمد في نار مكافحة وباء
رهيّب.

وقد حوّرت رواية والقضية
التي تخدمها لانتاج فلم منها.

